وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل

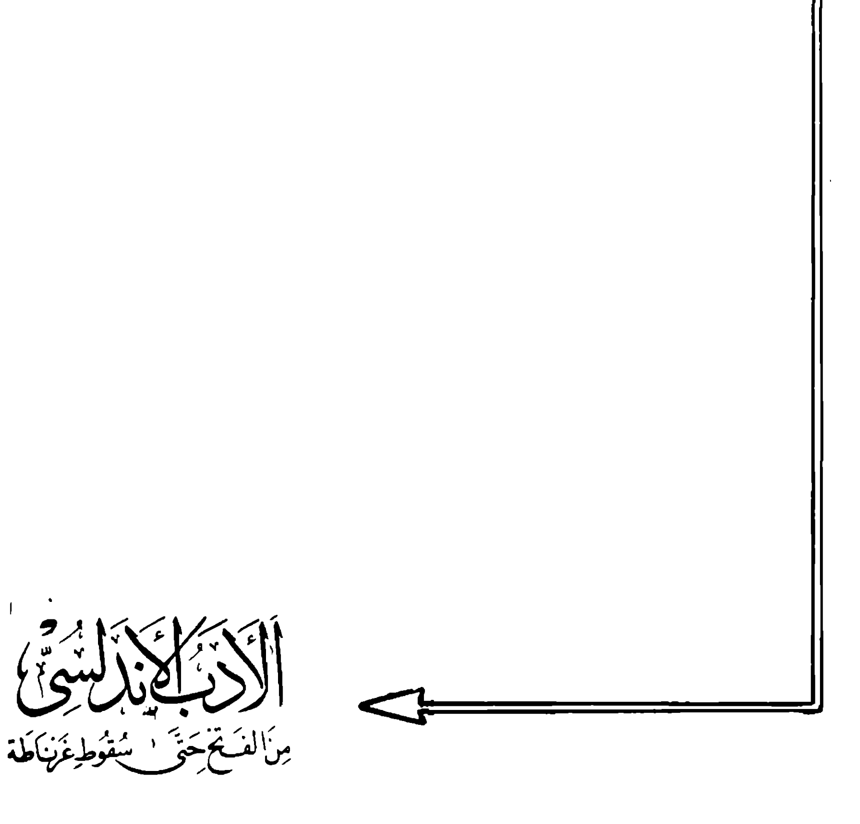


مِنَ الفتح حتى سقوط غرناطة

٩٢-٨٩٧ هـ

تأليف
الدكتور منجد مصطفى بهجت

١٩٨٨


الأدب الأندلسي
من الفتح حتى سقوط غرناطة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل



من الفتح حتى سقوط غرناطة

٩٢-٨٩٧ هـ

تأليف

الدكتور منجد مصطفى بهجت

أستاذ مساعد في كلية الآداب - جامعة الموصل

نشر وطبع وتوزيع :
مديرية دار الكتب للطباعة والنشر
شارع ابن الاثير ـ الموصل
الجمهورية العراقية
هاتف ٧٦٣٢٣١
٧٦٣٢٣٥
تلكس ٨٠٩٢

الإهداء

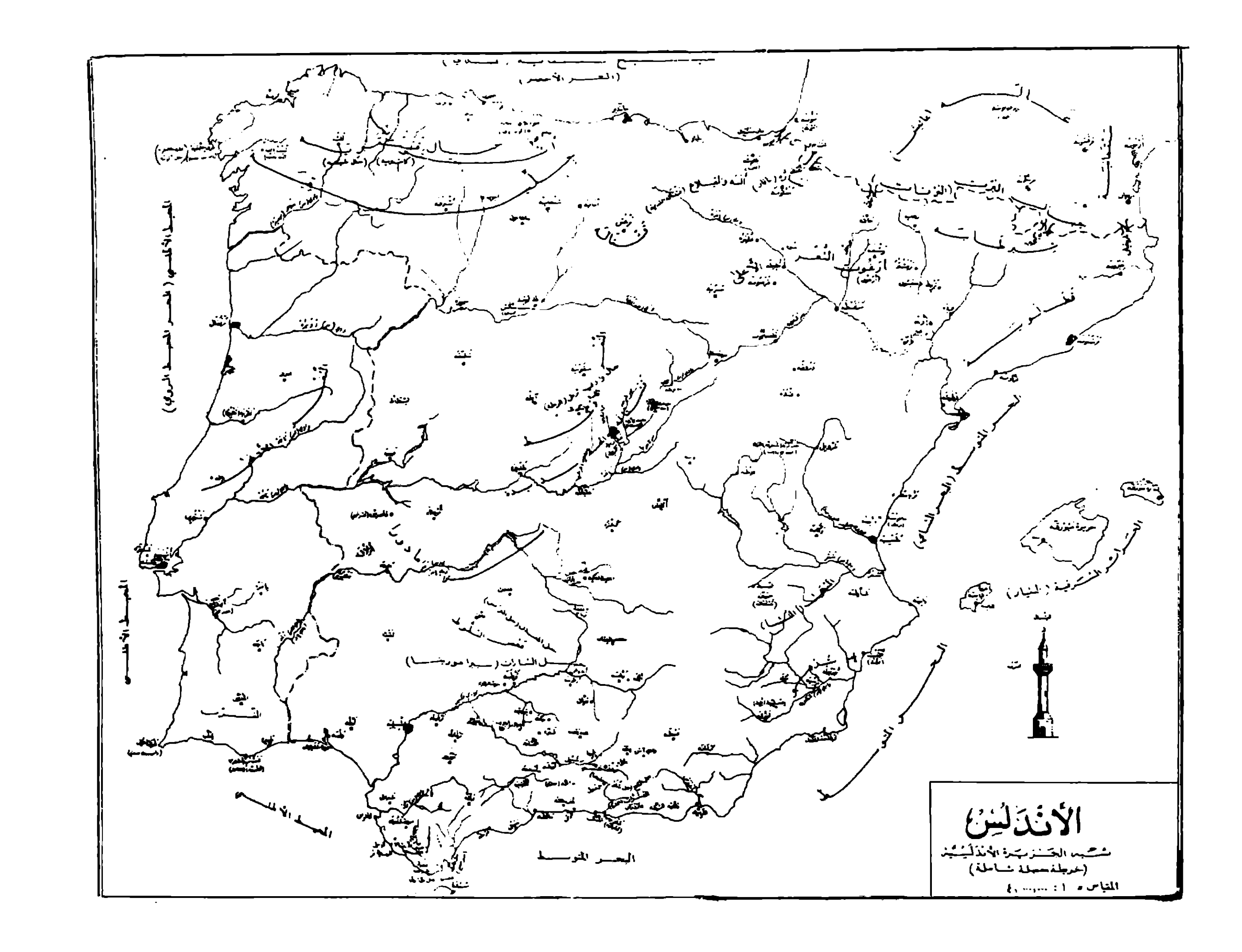
الى طلبتي الاعزاء في قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الموصل . دورة عام ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨

الذين تدارست معهم أدباً ماجداً . يحكي تاريخاً متألقاً وعزاً تليداً . أدب الفردوس المفقود ..

الادب الذي يذكر بأبائنا العظام الذين افتدوا الاندلس بدمائهم وارواحهم .. ففتحت على أيديهم بالجهاد .. وتفيأت ظلال السيوف .. فصانوها بالمقراعة والجلاد ..

والى طلبتي في الدورات السابقة ٧٦ ـ ١٩٨٦
اليهم جميعاً أهدي هذه الأسطر
التي هي حصيلة ساعات المحاضرة ومناقشاتها ..

الموصل : ٢٨ جمادي الآخر ١٤٠٨
٢٠ شباط ١٩٨٨


الأندلس
شبه الجزيرة الأندلسية
(خريطة عامة شاملة)
البحر المتوسط

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بين يدي الكتاب :

الحمد لله الذي علّم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم .. والصلاة والسلام على النبي الأكرم وآله وصحبه وسلم . وبعد .

فقد كانت فكرة تأليف كتاب منهجي ـ في الادب الاندلسي ـ لطلبة السنة الرابعة . بكلية الآداب . تراودني منذ سنوات وكنت اردد النظر فيها واعيده ثم أصرفها عني لما يصحب هذا الاتجاه ـ في مجالات الدراسة العلمية ـ عن غير عمد من تشبث الطالب بالكتاب وانكبابه عليه . مما يصرفه عن المصادر الحقة والكتاب المنهجي في عرف الجامعة هو الحد الادنى للمعرفة المترامية الاطراف الواسعة الآفاق. هذا الكتاب يصبح خطأ الحد الأبعد والأقصى فيتكل عليه الطالب. ويصبح عالة عليه . ولذلك كنت أغلق الباب على نفسي وأصرف وجهتي في التأليف نحو عالم آخر للصورة الفضلى التي اتطلع الى تحقيقها في الطالب ولكي لا أهدر فيه ما أؤمل من مواكبة المصادر والبحوث . والتعرف على طريفها والتليد .

ولكن الفوائد التي يمثلها الكتاب في الطرف الثاني . جعلتني أصحح عزمي واغذ سيري في التأليف . وكانت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ـ مشكورة ـ تقف عن كثب تشجع أمثال هذه المشروعات العلمية فتدعم الكتاب وصاحبه وتحفزهما على المضي في سبيلهما .

ان وضع كتاب بين يدي الطالب أمر لامناص منه . للصعوبات التي يواجهها الاستاذ والطالب كلاهما في تهيئة المادة الاولية للدراسة ..

اذ ان الاعداد الضخمة التي تحتضنها الجامعات العراقية .. أصبحت تحتاج الى اعداد متزايدة من المصادر . وهي بحمد الله كثيرة . وبذلك يمثل الكتاب الذي بين أيدينا مادة أولية . تضاف اليها الآراء ووجهات النظر المتعددة في ذلك الموضوع .

لقد أفادت دراستي هذه من مصادر حديثة كثيرة . كان في مقدمتها ثلاثة كتب اكاديمية رائدة هي كتاب الدكتور احمد هيكل ـ الادب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة[1] . وكتاب الدكتور احسان عباس تاريخ الادب الأندلسي بجزئيه عصر سيادة قرطبة ، وعصر الطوائف والمرابطين[2] . وكتاب الدكتور حكمة الأوسي ، فصول في الأدب الاندلس في القرنين الثاني والثالث للهجرة . الى جانب البحوث والدراسات الاخرى .

وكان في حسباني ومنظوري ، وانا أؤلف كتاباً للطالب ان أجعله بمستوى يفيد منه طلبة الدراسات العليا ، فضلاً عن الأولية وقصدت في هذا السبيل الرجوع الى اكبر عدد ممكن من الدراسات الحديثة والقديمة المتخصصة والعامة لكي يكونوا على المحجة البيضاء التي لا تنقطع بها السبل ، ولا تضطرب لديها النتائج ، تتيح للطالب اطلاعاً أوسع ، وخياراً اكبر ويحقق ذلك للباحث معرضاً أرحب في الاراء يوسع عليه الآفاق ، لينتقي ما يشاء ، ويتتبع ويتقرى المسائل مما تتعدد فيها وجهات النظر وتختلف .. وقد وثّقت المعلومات بالرجوع الى الاصول والمصادر الاولية ، . فتنوعت لدي هذه المصادر تنوعاً واضحاً يراه في آخر الكتاب .

ان الناظر في الكتاب سينكر على أن أوردت بعض ما يتصل بالمغرب ، ولا جرم من ذلك اذا علمنا ان تاريخ الأندلس وأدبها وتاريخ المغرب وأدبها سارا سوية متجاورين ، وامتدت بينهما الصلات والعلاقات ، وكانت رخاء في الغالب واعتراها الضعف احياناً والخصومة احياناً اخرى .. بل ان تاريخهما يتوحد في عهدي المرابطين والموحدين ، حيث تصبح الأندلس ولاية تابعة لامير المسلمين المرابطي او أمير المؤمنين الموحدى .

وكان المنهج الذي سلكته ، هو المنهج التاريخي ، في تصنيف العصور الادبية والتدرج في استعراض نتاجها الأدبي لكني اكتفيت بالتعريف العام الموجز بالعصور ، وجعلت المباحث في محاور أدبية محضة .. مستهدياً بالاحداث السياسية والوقائع التي كانت قد طبعت الأدب بميسمها .

---

(١) دفعاً للبس والخلط بين الكتاب وكتاب الدكتور الشكعة الذي يحمل العنوان ذاته ، شفعت اسم الكتاب الثاني بالشكعة

(٢) احلت الى القسم الاول برقم (١) والثاني برقم (٢) توخياً للاختصار ، وأشرت الى رقم القصيدة ورقم البيت في الهامش بعد أن افصل بينهما بخط مائل (/)

واذا كانت الدراسة الأدبية قائمة على اساس الوحدات الفنية او المدارس الأدبية في الادب العربي . فان الظاهرة الأدبية او دراسة الشاعر او الكاتب او الأثر الفني كلها لا بد أن تستعين وتستأنس بالدراسة الجانبية او المساعدة . كالعصور التاريخية او الاقاليم او الثقافات او الانواع الأدبية على نحو ما[١] .

وقد جاء الكتاب في تمهيد تناول القضايا الأساسية في دراسة الأدب الأندلسي في اربع فقرات تتصل بتعريف موجز بالاندلس وعصوره ، فحديث عن المجتمع الاندلسي ، ثم فقرة تناولت فيها انتشار اللغة العربية في الأندلس وخصائصها ، وانهيت التمهيد بالحديث عن جهود الباحثين في القرنين الاخيرين في مجال خدمة التراث الاندلس وادبه . وتحدثت بعدها عن مصدرين مهمين من مصادر الأدب الأندلسي .

وجاءت فصول الكتاب اربعة اولها في الادب في العصر الاموي ، وقفت فيه عند ابرز الفنون الشعرية والنثرية ودرست فيه عبد الرحمن الداخل الأديب ويحي الغزال ثم خطبة طارق بن زياد والبلوطي وكتاب العقد الفريد .

اما الفصل الثاني فقد وقفت فيه عند العصر الذهبي للأدب الأندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين . متحدثاً عن ابرز موضوعاته الشعرية وانتقيت شاعرين جديرين بالدراسة هما ابن دراج وابن حزم . ودلفت الى النثر لأدرس ابرز نصوصه ممثلة في الرسالتين الجدية والهزلية لابن زيدون ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد ، ولثراء هذا العصر كان الفصل اوسع فصول الكتاب وجاء الفصل الثالث ليتناول الأدب في عهد الموحدين وبني الأحمر ، معرفاً بموضوعات الشعر وخصائصه العامة ثم موضوعات النثر وخصائصه . ووقفت عند شاعرين هما ابن سهل وابن الجنان الأنصاري وعند اديب عصره ابن الخطيب بدراسة نثره على وجه الخصوص .

وانتهت مباحث الكتاب في الفصل الرابع بالوقوف عند ابرز موضوعات التجديد في الشعر الأندلسي وكانت خمسة على التوالي الموشحات الاندلسية والمعارضات ، وشعر الطبيعة . ورثاء المدن والممالك . والغربة والحنين ، ثم ختمت مباحث الكتاب بالحديث عن أثر الادب الاندلسي في الأداب الاوربية،اسأل الله تعالى ان يتقبل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم .. وأرجو ان اكون موفقاً فيما بسطت من

---

(١) مناهج الدراسة الادبية ص ٢٢٨ .

مباحث الكتاب . مكرساً خبرتي في تدرسي المادة عشر سنوات في كلية الآداب بجامعة الموصل .

ولقد تغنى ابن حزم بالاندلس . وبذل عصارة فكره في تمجيدها والتنويه ببنيها وذويها ولست أعد جهودنا في خدمة تراث الاندلس ذات قيمة إزاء مقولته التي صرح بها :

ويا جوهر الصين سحقاً فقد غـنـيـت بـياقوتةِ الأندلـسِ

لا يفوتني ان اتقدم بالشكر الجزيل للأخ الدكتور محمد قاسم مصطفى الاستاذ المساعد في كلية التربية بجامعة الموصل على ملاحظاته القيمة في الكتاب . كما لا انسى ان انوه بجهود الأخوة العاملين كافة . في مطبعة جامعة الموصل . ومن الله التوفيق وهو يهدي الى سواء السبيل .

الدكتور منجد مصطفى بهجت
غرة ربيع الاول ١٤٠٧
٢٥ / ١٠ / ١٩٨٧

التمهيد

تعريف موجز بالأندلس :

اهتم المؤرخون القدماء والمحدثون بالحديث عن السنوات الأولى لفتح الأندلس وطبيعة الظروف التي صاحبتها . ويبدو ان هذا الاهتمام ناجم عن عظم وجسامة الحدث التاريخي الذي اقترن بعملية الفتح .

ولنا أن نلقي نظرة سريعة على هذه البلاد التي عرفت بأسماء كثيرة . فقد اطلق عليها اسم إيبريا . او ايبارية . أو هباريا[١] . نسبة الى الايبيرين الذين كانوا من أقدم سكان هذه البلاد ويلاحظ أن ثمة صلة تربط بين ايبارية و (اشبانية او اصبانية) حيث تحول المصطلح الأخير في لغة القرون الوسطى الرومانسية الى اسبانية Espana[٢] وقد اطلقه الفينيقيون على الشاطيء الذي نزلوا به من تلك البلاد ويعني (شاطيء الارانب) لكثرة ما وافقهم منها[٣] .

اما تسمية الاندلس فتقترن بدخول قبائل الوندال الى اسبانية بعد الرومان (٤٠٨ ـ ٤٢٩ م) وهذه التسمية ترد بصيغ أخرى هي : الاندلش . والاندليش . وفندلسيا . وفندلس . كما تدل صورة الكلمة في حروفها اللاتينية . وكما يدل النطق الاسباني Vandalos[٤]

ويبحث الدكتور الطاهر مكي في أصل التسمية ويعود بها الى جذورها إذ يرى لها صورتين واحدة جرمانية . والاخرى لاتينية . وينكر ان يكون العرب قد أخذوا هذه الكلمة في صورتها اللاتينية بل اخذها الفاتحون من أفواه البربر وبالتالي يمكن

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢ / ٢٦٧ . مصطفى صادق الرافعي . ط ٤ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧٤

(٢) تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ص ٧ د. خليل السامرائي وآخرون . جامعة الموصل ١٩٨٦

(٣) الأدب الأندلسي ص ١٧ د . احمد هيكل ط ٦ دار المعارف بمصر ١٩٧١

تفسير تحول حرف الـ V الى حرف W . والظاهر أنَ الكلمة انقلبت الى الأندلس فيما بعد لأن ابدال الواو همزة مطّرد (١).

ويلاحظ التنوع في جغرافية الأندلس التي تقع في الجنوب الغربي من اوربة وتحيطها المياه من اكثر جوانبها باستثناء سلسلة جبال البرت او البرتات التي تفصلها عن جنوب فرنسة فمن الشمال الغربي والغرب . المحيط الاطلسي الذي يعرف بـ البحر الأخضر او البحر المحيط او بحر الظلمات ومن الشرق والجنوب البحر الابيض المتوسط الذي يعرف بالبحر الرومي . او البحر الشمالي . او بحر تيران (٢) .

وتنتظم الأندلس سلاسل جبلية تضم وديانا وانهارا كثيرة وتحتل مساحة كبيرة منها (المزيتا) التي تعني بالاسبانية النجد او السهل المرتفع . ولذلك تركز سكان هذه البلاد في السهول الشرقية والغربية والجنوبية عند الأنهار الكبيرة .

واشهر هذه الأنهار ثمانية . أربعة تجري غربا . تصب في المحيط الاطلسي . هي ، (الوادي الكبير . وادي يانا . التاجو . دويرة) واربعة تجري شرقا تصب في البحر المتوسط هي : (شقورة . شقر . الوادي الابيض . أبرة) ويروي المقري عن بعض المؤرخين انه كان يشق الاندلس أربعون نهرا كبارا وبها من العيون والحمامات والمعادن ما لا يحصى وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار . وأزيد من ثلاثمائة من المتوسطة حتى قيل : ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنا عشر الف قرية . وليس في معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه الا بالاندلس (٣).

ومن الأمثال السائرة في أوربة :

« اذ تجاوزت معابر البيرانة . فاعلم انك قد دخلت في أفريقية وربما يستغرب القاريء هذا القول . بعد علمه أن في جنوب البرانس . بلادا طويلة عريضة هي اكبر اقسام اوربة . تتألف منها مملكتان اوربيتان هما اسبانية والبرتغال .. » (٤)

يرى الدكتور علي حمودة . ان الجزيرة الايبيرية ـ في شجرها وحجرها وترابها ومائها أشبه بشمالي افريقية . وبغربي أسية ـ الشام (٥) .

---

(١) دراسات اندلسية ص ٢٢ ، ٢٠ . د . عبد الواحد ذنون طه ، مكتبة بسام ـ الموصل ١٩٨٦

(٢) التاريخ الاندلسي ص ٣٦ د . عبد الرحمن العجي ط ١ دار القلم بيروت ١٩٧٦

(٣) نفخ الطيب ١ / ٢٢٦

(٤) (٥) تاريخ الاندلس : ٢١ ، د . علي محمد حمودة ط دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٧

ان تنوع جغرافية الأندلس ، جعلها فيما هي عليه من جمال .. حيث اعتذر ابو عمران موسى بن سعيد عن فراقها ، وكتب في جواب ابي يحيى صاحب سبتة ، الذي رغبه في تركها الى مراكش يقول :

كيف أفارق الاندلس ، وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا بما حباها الله به من اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثافة الأفياء ، طرف الأنسان لا يبرح فيها بين قرّة عين وقرار نفس :

هي الأرض لاورد لديها مكدَّر ولا ظلَّ مقصورٌ ولا روضَ مجدِبُ

أفق صقيل ، وبساط مدبّج ، وماء سائح ، وطائر مترنم بليل ، وكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة .. ؟[١]

إن فكرة فتح الأندلس كانت قديمة ، وهي تعود الى عهد عثمان بن عفان (رض)[٢]، وكان فاتحوها ثاني الجماعتين اللتين اشاد بهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ـ وهو من معجزاته ـ في حديث شريف عن فضل الجهاد في البحر[٣] ، وبعد أن فتح المسلمون شمال أفريقية واستقروا بها سنة ٦٣ هـ توجهت الأنظار الى فتح الاندلس ، وكانت اول محاولة استكشافية سنة ٩١ هـ حين أرسل موسى بن نصير سرّية مؤلفة من خمسمائة مقاتل منهم مئة فارس في اربعة مراكب بقيادة ابو زرعة طريف بن مالك المعافري وقد تكللت تلك الحملة بالنجاح فأعقبتها فكرة الفتح حيث تولى قيادة الحيش طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ وكان يتألف من سبعة الاف رجل ثم لحقهم خمسة الاف آخرون بقيادة طريف بن مالك ، ويرى بعض الدارسين أن الاثني عشر ألف جندي دخلوا جميعاً بإمرة طارق ، وكان العبور من سبتة بمراكب تجارية ، قدمها (جوليان) حاكم سبتة ، وقد نُفذت هذه العملية في الليل ، واستغرقت أكثر من ليلة واحدة ، وليست لدينا معلومات موثوقة عن احراق السفن بعد العبور الى الشاطيء لأنها لم ترد في معظم المصادر العربية القديمة ، بعد أن أمضى نحو شهرين ونصف في التقدم نحو كورة شذونة ، وقعت فيها المعركة الفاصلة مع لذريق في (٢٨ رمضان ٩٢ هـ) واستمرت ثمانية ايام ، وتذكر الروايات العربية أن جيوش الأعداء بلغت أربعين الف مقاتل في اقل تقدير ، وفي بعض

---

(١) نفح الطيب ١ / ١٨٢ ـ ١٨٣

(٢) البيان المغرب ٢ / ٤ ، النفح ١ / ٢٠٤ وينظر التاريخ الاندلسي ٤٤ هامش ٢

(٣) صحيح مسلم ٢ / ٤٥ ، نفح الطيب ١ / ١٦١ ، التاريخ الأندلسي ٥٠

الروايات انها بلغت مئة الف وقد عرفت تلك الواقعة بأسماء كثيرة منها معركة البحيرة ، وادي لكة ، وداي بكة ، وادي البرباط .... وتشير الأخبار الى أن القوط استهانوا بجيش المسلمين حتى أنهم أعدوا ما يحملون عليه اسراهم ولكن النصر كان مؤزراً واستمرت عملية الفتح عدة سنوات حيث توغل جيش طارق في اعماق شبه الجزيرة الايبرية وكانت انباء الانتصارات تصل الى اسماع موسى بن نصير بالقيروان واستجاب لطارق بامدادات جديدة وسلك طريقاً آخر غير الذي سلكه طارق ليكمل عملية الفتح .

عصور الأندلس (*)

لا بد لدارس تاريخ الأدب الأندلسي أن يتعرف على المراحل التاريخية التي تعاقبت على الأندلس ممثلة في الأنظمة السياسية التي حكمت شبه الجزيرة الايبرية ، لأن الأدب ـ في مجمله ـ جارى تلك الاحداث السياسية وتفاعل معها ، وانظوى تحت ظل العهود التاريخية التي سادت .

وقد اختلف الباحثون في تحديد هذه المراحل وفي اسمائها . وسنختار الرأي الراجح ، والأكثر شيوعاً في المصادر الحديثة ، ونستطيع أن نجملها في خمسة عهودٍ .

١ ـ عهد الفتح والولاية (٩٢ ـ ٩٥) (٩٥ ـ ١٣٨)

ويشمل هذا العهد فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد استغرقت عمليات الفتح أربع سنوات ، ثم أعقبه عهد الولاة التابعين لملوك بني أمية في دمشق ، وقد كان أول والٍ ، عبد العزيز بن موسى بن نصير وآخر الولاة يوسف الفهري وتولى خلال هذا العهد حوالي عشرين والياً[1] .

٢ ـ العهد الاموي (الامارة ، والخلافة ، والحجابة ، والفتنة) (١٣٨ ، ٣١٦ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩)

ويستهل هذا العهد بدخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وقضائه على آخر والٍ كان يحكمها ، حيث تنقطع الأندلس عن الخلافة ببغداد ويتولى حكم الأندلس سبعة امراء آخرهم عبد الرحمن الثالث الذي يعلن الخلافة لأول مرة سنة ٣١٦ هـ .

(*) ينظر في عصور الأندلس ، التاريخ الاندلسي ص ٢٩ ـ ٤٠ ، الادب الاندلسي ص ٢٢ ـ ٢٣ تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ـ السامرائي وزملاؤه وفي تحديد العصور الأندلسية الصفحات (٢٧ ، ٩٦ ، ١٤٨ ، ٢١٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٦) .

وقد قسم الدكتور هيكل [1] عصر الامارة من وجهة نظر الدراسة الأدبية وبما يناسبها . الى عهدين ، تأسيس الإمارة (١٣٨ ـ ٢٠٦) وصراع الامارة (٢٠٦ ـ ٣٠٠) .

وبعد وفاة الحكم المستنصر بالله سنة ٣٦٦ هـ يتولى هشام الثاني الملقب بالمؤيد وكان حدثاً صغيراً ، مما جعل الحاجب المنصور الحاكم الحقيقي لبلاد الأندلس ، ولذلك عرف العهد بالحجابة ، وقد تولى بعده ولداه عبد الملك وعبد الرحمن ، وفي عهد الأخير تضعف سيادته وتضطرب الأمور حيث تنتقل الأندلس الى عهد جديد أطلق عليه الدارسون عهد الفتنة واستغرق حوالي عشرين عاماً ، حكم خلاله ثلاثة عشر حاكماً ، ثم ينفرط عقد الأندلس ، وتتحول الى دويلات صغيرة تحكمها أسر مشهورةويسمىالعهد عهد ملوك الطوائف .

٣ ـ عهدا ملوك الطوائف والمرابطين (٤٠٠ ـ ٤٨٤) (٤٨٤ ـ ٥٤٠)

ويبدأ الاول بسقوط الدولة الأموية ، وقيام ممالك مستقلة بشكل دويلات تماثل عهد الدويلات في المشرق في القرن الرابع الهجري ، وقد حكمت الأندلس أسر كثيرة وكيانات متنوعة أشهرها سبع اسرَ تركزت في أبرز الحواضر الاندلسية ، ولم تستمر الحال بملوك الطوائف ، حيث عادت الأندلس الى وحدتها السياسية ، بدخول المرابطين وقضائهم على ملوكها سنة ٤٨٤ هـ ، وكان مقيم تلك الدولة يوسف بن تاشفين ، واستمر حكم المرابطين حوالي نصف قرن ، حيث اصبحت الأندلس ولاية مرابطية ، وتؤذن الاندلس بمغيب شمسهم بعد استقواء الموحدين بقيام الدعوة الموحدية على يد مؤسسها محمد بن تومرت .

٤ ـ عهد الموحدين (٥٤٠ ـ ٦٢٠ هـ)

ويبدأ هذا العهد بمجيء عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ ـ ٥٤٣) ، خلفاً لابن تومرت فمنذ عام ٥٤١ هـ تخضع الاندلس لحكم الموحدين في المغرب وتصبح ولاية تابعة لها ، واستمر عهدهم حوالي قرن من الزمان حتى عهد بني الأحمر .

٥ ـ عهد دولة بني الأحمر في مملكة غرناطة (٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ)

وتقوم هذه الدولة في رقعة صغيرة من بلاد الأندلس التي سقطت بأيدي الاسبان ويبقى المسلمون تحت سيادة بني الاحمر في غرناطة ويستمر حكمهم حوالي قرنين

---

(١) الادب الاندلسي ٧٨ ، ١٢٠ .

ونصف ، ويمثل عهدهم نهاية الحكم الاسلامي في الاندلس ، حتى تسقط دولتهم ، هي الأخرى لتؤذن بمغيب شمس الأندلس الساطعة بعد حضارة اسلامية زاخرة استمرت حوالي ثمانية قرون ..

المجتمع الأندلسي :[١]

كان المجتمع الاندلسي بعد الفتح مؤلفاً من عناصر شتى تضم سكان البلاد الاصليين كما تضم الفاتحين المسلمين ، وقد تعددت أصول سكان الأندلس وأجناسهم منذ أقدم العصور تبعاً لموجات الغزو والحروب التي تعرضت لها الاندلس فقد نزلها ، السلتيون ، والجلالقة ، والبرابرة ، والقرطاجنيون ، ثم استولى عليها الرّومان والوندال والقوط .

وقد أطلق المؤرخون على الذين دخلوا الإسلام من أهل البلاد الأصليين (الاسالمة) أو (المسالمة) وأبناؤهم هم (المولدون) وأما (الصقالبة) فهم الذين كان يؤتى بهم من مختلف البلاد الافرنجية اطفالاً ذكوراً واناثاً فترعاهم الدولة ويُنشّؤون نشأة اسلامية ، وقد اكثر منهم الحكم الربضي (٢٠٦ هـ) . كما اطلق على اليهود والنصارى منهم (المعاهدون) أو (المعاهدة) أو أهل الذمة واختلطوا بالمجتمع الأندلسي ، وبعضهم الذين قبلوا اللغة العربية وتبنوا بعض العادات الاسلامية سُمَوا بـ (المستعربين)[٢] ، واحتفظ عدد كبير من المولدين بأسماء اسرهم القديمة فأبن بشكوال ، وبنو قومس ، وبنو مرتين ، وبنو غرسية[٣] . ولدينا أعلام كثيرة ، وأسر شهيرة ذات أصول اسبانية ..[٤]

وقد اطلقت أسامئ جديدة ، على فئات من المجتمع الأندلسي عرفت في العصور الأخيرة منها : « المدجنون » وهم الاندلسيون الذين لم يهاجروا من مناطق الأندلس التي سقطت بأيدي الاسبان كما فعل غيرهم ممن هاجر الى غرناطة وشمال افريقية فراراً بدينهم وبأنفسهم ، فأطلقت عليهم هذه التسمية التي تصور حالتهم في ظل السلطة الاسبانية .

---

(١) ينظر الأدب الأندلسي ص ٣٤ ، فصول في الأدب الاندلسي ص ٢٥ ، اشبيلية في القرن الخامس الهجري ٢٩ .

(٢) التأريخ الأندلسي ٢٨٤ ، وينظر مقال لويس فلسطين ، ثمالة المستعربين في اسبانيا ، مجلة المورد . بغداد ٢ / ٤ / ١٩ .

(٣) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ص ١٥ .

(٤) التأريخ الاندلسي ١٦٤ ـ ١٦٦ .

وأما مصطلح (المورسيكيين) فقد اطلق على مسلمي غرناطة بعد سقوطها بأيدي الاسبان سنة ٨٩٧ هـ . والمقصود به . المسلمون الصغار ، الذين اضطروا الى اظهار المسيحية وابطان الاسلام لما كانوا يواجهونه من اضطهاد شديد ما يزيد على قرن من الزمان .(١)

وكانت أصول الوافدين الى الاندلس في العهود الأولى متعددة ، فمنهم البربر الذين كانوا يؤلفون نسبة كبيرة من جيش طارق بن زياد . وكانوا زناتيين وصنهاجيين ، اتصلت هجراتهم الى الأندلس ، والعرب يمينية وقيسية ، دخلوا مع موسى بن نصير وسموا بـ « البلديين » ثم دخل بلج بن بشر القشيري(٢) وفي صحبته عشرة الاف ، الفان من الموالي ، والباقي من بيوت العرب ، وسموا بالطالعة الاولى ، واما الطالعة الثانية فهي قليلة العدد . دخلت مع ابي الخطار حسام الكلبي ، فأنزل أهل دمشق بألبيرة ، وأهل الأردن بريّة ، وأهل فلسطين بشذونة ، وأهل حمص بأشبيلية ، وأهل قنسرين بجيان ، واهل مصر بباجة ، وقسماً منهم بتدمير وهؤلاء هم الذين أسماهم ابن حزم الاندلسي (الاجناد الستة) .(٣)

وقد يخيل لمن يطلع على هذه الاجناس التي كونت المجتمع الأندلسي ، وهي تنطوي على أصول مختلفة ولغات متباينة . أن هذا المجتمع لم يعرف الوحدة والانسجام . في تأريخه الطويل . لكن واقع هذا المجتمع والآثار التي وصلت الينا ، من مظاهر حضارته وثقافته كل ذلك يدفع الباحث الى تغيير وجهة نظره . حين يرى مجتمعاً موحداً متعاوناً . في غالب العصور يقيم تلك الحضارة التي أشاعت النور فيما حولها ، وبددت الظلمات بما كانت تحمله العقيدة الاسلامية القائمة على الفطرة السليمة ولأتسامها بالواقعية والاستجابة لمطالب الانسان واحترام الأديان الأخرى ، اذ لم يكن من النادر أن تجد بين رجال الدين المسيحيين من الأسبان من أجاد اللغة العربية وتضلع فيها . وحذق آدابها مما يتيح للمستشرق الفرنسي ليفي

---

(١) التأريخ الاندلسي ٥٢١ ، تأريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ٣٠١ ، اندلسيات ٢ / ١٦٨ ، دراسات اندلسية ـ ذنون ١ / ٢٥١ .

(٢) تأريخ افتتاح الاندلس (ابن القوطية) ٢٤٢ . تحقيق عبدالله انيس الطباع ، دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٨ .

(٣) الاحاطة ١ / ١٠٣ ورسالة ابن حزم الاندلسي في فضائل الاندلس . النفح ٣ / ١٧٤ ، تأريخ الأدب الاندلسي ١ / ١٢ الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس ص ٢٤٠ د . عبد الواحد ذنون ، ط الاعلام بغداد ١٩٨٢ ، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ٧١ ـ ٧٢ .

بروفنسال أن يفترض وجود صلات وثيقة . ووشائج متينة ، بين مختلف عناصر السكان .[1]

ان تنوع العناصر الاجتماعية في الاندلس انتهى ـ وفق قوانين الوراثة ـ بمجتمع جديد يمكن ان ينهض بحركات التجديد فيه[2] وفي كتاب نفح الطيب معلومات قيمة عن طبيعة المجتمع الأندلسي ، وبعضها يرد في رسائل فضائل الأندلس ، التي ضمن المقرى كتابه النفح ثلاثاً منها لأبن حزم وابن سعيد والشقندي ،[3] فهم أشدّ خلقَ الله اعتناءاً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه فيطويه صائماً ، ويبتاع صابوناً ، يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنْبو العين منها .. وهذا الأمر غير مقتصر على أهل المدن ، اذ يروى ابن سعيد الاندلسي عن قراها أنها نهاية في الجمال ، لتصنّع أهلها في تزيينها ، وتبييضها لئلا تنبو العين عنها ، كما قال الوزير ابو عامر بن الحمارة :[4]

لاحتْ قراها بين خضرة أيكها كالدُّرّ يبينُ بين زبرجدٍ مكنونِ

وهم أهل احتياط وتدبير وحفظ لما في أيديهم ، خوف ذل السّؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل ، ولهم مروءات على عادة بلادهم ، لو فَطِن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه ، ويسوق لنا في ذلك قصصاً طريفة ، فقد روي ابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) : أنه اجتاز مع أبيه ، على قرية من قرى الأندلس ، وقد نال منهما البرد والمطر ، أشد النيل فأويا اليها ، ونزلا في بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة ، فسألهما مالاً يشتري لهما به فحماً فأعطياه ، ولما أُضرِمت النّار ، جاء ابن له صغير ليصطلي فضربه ، فقال له . والد ابن سعيد : لم ضربته ؟ فقال : يتعلم استغنام مال الناس والضجر للبرد من الصغر ، ثم لما جاء النوم قال لأبنه : أعطِ هذا الشاب كساءَك الغَليظة ، يزيدها على ثيابه فدفع كساءه اليه .

ولما قاما عند الصباح وجدا الصبي منتبهاً ويده في الكساء . فسأل ابن سعيد أباه عن ذلك ، فقال : هذه مروءات أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم ، اعطاك الكساء وفضلك على نفسه ، ثم فكر في أنك غريب ، لا يعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم

---

(١) **الحضارة العربية في اسبانيا ١٠٢ .**

(٢) **اثر العرب والاسلام ٣٤.**

(٣) **النفح ٣ / ١٥٦ ـ ٢٢٢ .**

(٤) **نفسه ١ / ٢٠٥ ، ويقارن ابن سعيد قرى الاندلس بقرى بعض البلاد ـ من غير الأندلس ـ اجتاز بها ، فوجدها تكدر العين ، ويضيق بها الصدر .**

يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها . وهو نائم . وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل[1] .

وفي موضع آخر يشير الى أن من بركة بلاد الأندلس ، أن المسافر حيثما سار يجد الحوانيت في الفلوات والأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه ، والجبن ، واللحم ، والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة[2] .

وينكر الاندلسيون طريقة الفقراء ، على مذهب أهل الشرق في الكدية ، فإنها مستقبحة عندهم ، واذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب ، سَبوه وأهانوه فضلاً عن أن يتصدقوا عليه فلا تجد في الأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر[3] .

واذ يحدثنا الدكتور الطاهر مكي عن العمارة في قرطبة وخطة المدينة يذكر أنه : (يتوسط الشارع مجرى مركزي محدد ومغطى احياناً ، تصب فيه المياه القذرة ، ومياه المطر ، يقوم على تنظيفه عمال من قبل الدولة ، يدقون الأجراس قبل عملهم تنبيهاً للمارة كي يبتعدوا أما الزبالة فكانوا .. يستأجرون من يحملها خارج المدينة ، وكان فيها اميال من الطرق المرصوفة التي تضاء على جانبي الشارع ، وذلك (على حين لم تكن تتمتع بمثل هذا لندن أو باريس حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ[4] » .

وأما مقام العلم عندهم فمقدم، فالعالم عندهم معظم ، من الخاصة والعامة ، والجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغاً عالة على الناس[5]. قال المقري « وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى أن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه ... ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السَمات[6] » ، قال شكيب ارسلان : « ولا يزال هذا الاصطلاح في المغرب الى اليوم[7] » .

---

(١) نفسه ١ / ٢٢٤

(٢) نفسه ١ / ٢٢٦

(٣) نفسه ١ / ٢٢٠ (٤) دراسات : ٣٢

(٥) النفح ١ / ٢٢٠

(٦) نفسه ١ / ٢٢١

(٧) الحلل السندسية ١ / ٢٥٥ ، وارسلان اديب لبناني مشهور توفي ـ ١٩٤٦ (ط دار مكتبة بيروت د . ت) .

وقد اشار المستشرق الهولندي دوزي في هذا المجال الى أن كل فرد في الأندلس كان يعرف القراءة والكتابة ، على حين كانت أوربة تتخبط في دياجير الجهالة ، اذا استثنينا منها رجال الدين[١] .

ومما يدلنا على هذا التقدم العلمي ، حرصهم على اقتناء الكتب والحيازة عليها حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة ، يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب لكي يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله ، وظفر به ، فمن ذلك ما رواه الحضرمي (كان حياً سنة ٧٧١ هـ) أنه أقام بقرطبة مدة ، يترقب فيها وقوع كتاب ، كان حريصاً عليه ، ففرح به أشد الفرح ، وجعل يزيد في ثمنه ، ويرجع المنادي عليه بالزيادة ، الى أن بلغ فوق حده ، فقال للمنادي : يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى مالا يساوي ؟ فأراه شخصاً عليه لباس الرئاسة ، وظنه فقيهاً ، فسأله عن سبب زيادته في سعر الكتاب ، فقال : « لست بفقيه ، ولا أدري ما فيه ، ولكنني أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها ، لا تجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب .»[٢] !

وليس غريباً مثل هذه الأمثلة في الحرص على الكتب فقد انتشر التعليم[٣] في الأندلس انتشاراً عظيماً فظهر العلماء في كل ميدان حتى ليروى أنه كان في الأندلس أيام الحكم المستنصر (ت ٣٦٦ هـ) سبعون مكتبة عامة ، عدا المكتبات الخاصة للمشاهير من الرجال ، والنساء ، فضلاً عن مكتبة قرطبة الرئيسة ، التي أسسها الأمير محمد بن عبد الرحمن ، واهتم بها الحكم ، وقد ذكرها ابن حزم في كتابه قائلاً[٤] « إن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين فقط » ، وقدرت محتويات المكتبة بزهاء نصف مليون كتاب .

Histoire des Musalmans & Espagne, Doz Y 11, 184 (Leiden, 1932).

---

(١) الحضارة الاسلامية في الأندلس ٢٨ والنص في أصله في .

(٢) النفح ١ / ٤٦٣ .

(٣) التعليم في الأندلس / مجلة آداب الرافدين ، العدد العاشر ـ ١٩٧٩ .

(٤) الجمهرة ص ١٠٠ ، الحلة السيراء ١ / ٢٠٣ وينظر الحضارة الاسلامية في الأندلس ص ٢٨ ، وبعد هذا التاريخ بحوالي أربعة قرون كانت مكتبة كانتربري في اغنى مكتبة في أوربا ـ تضم ١٨٠٠ مجلة فقط . ينظر حول التراث والحضارة د . عبد الرحمن علي الحجي مستل من مجلة كلية الدراسات الاسلامية العدد (٥) بغداد ١٩٧٢ .

ولم يكن دور المرأة أقل من أخيها الرَجل فقد شاركت في ميادين كثيرة . واشتغلت بأكثر العلوم . وعرف عدد منهن بحسن الخط . فقد روى ابن ابي الفياض (ت ٤٥٩ هـ) في تاريخه كما نقله المراكشي أنه كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي . هذا في ناحية من نواحيها . فكيف بجميع جهاتها[١] ؟ وكان في قرطبة واحدٌ وعشرون حياً .

وتتضح مكانة المرأة الأندلسية من كثرة أعلام النساء اللائي يترجم لهن مصنفو كتب التراجم[٢] . حيث تذكر فيهن الشاعرة والكاتبة والعاملة الفقيهة والمحدّثة والواعظة .. والنحوية اللغوية . ويشير ابن حزم الأندلسي[٣] الى ضروب المهن التي مارستها المرأة الأندلسية حيث نجد الطبيبة والحجّامة والدلالة والكاهنة . والمعلمة والصناع في المغزل والنسيج . من النساء اللائي يعملن سفيرات بين الأحبه .

ويعرب ابن سعيد عن انتظام حياتهم فيما يحدثنا عن الخطط الأندلسية . فخطة القضاء ـ مثلاً ـ أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين . حتى السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي . وخطة الشرطة ذات شأن وصاحبها يعرف بـ (صاحب المدينة وصاحب الليل . وهو الذي ينفذ الأحكام . ويطبق الحدود . على المخالفين . وخطة الاحتساب صاحبها قاضٍ يمشي بنفسه على الأسواق يتابع البيع والشراء . ويختبر التزام الباعة بالأسعار بطرق ذكية . فأذا وجد غشاً أو نقصاً « فلا تسأل عما يلقى وإن كثر ذلك منه . ولم يتب بعد الضرب والتجريس في الأسواق نفي من البلد »[٤] . وقد جعلوا للاحتساب أحكاماً وقوانين يتدارسونها . كما تتدارس أحكام الفقه . لأنها تدخل في جميع المبتاعات . وتتفرع الى ما يطول ذكره كذلك يشير الى طبيعة أهل الأندلس في التزامهم بأحكام الشريعة الاسلامية وانكار التهاون بتعطيلها . يقول المقري : « وأمّا الرَجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا . فكل يوم[٥] » .

---

(١) المعجب ٤٥٦ .

(٢) التكملة مخطوط ٢ / ورقة ١٥٥ يترجم لحوالي خمسين امرأة . كذلك ينظر الذيل والتكملة القسم الثامن ٤٧٧ ـ ٤٩٩

(٣) طوق الحمامة ٥٨ .

(٤) النفح ١ / ٢١٩ .

(٥) نفسه ١ / ٢٢٠ .

وفي الأمثال الأندلسية ما يعرب عن خصائص المجتمع الأندلسي وحين يتحدث الدكتور الأهواني عن أحد هذه الكتب (حدائق الأزاهر) لابن عاصم الغرناطي (ت ٨٢٩ هـ) يرى أن فيه نافذة على نفسية أهل غرناطة وحياتهم الاجتماعية[١] ، فمن ذلك أن هذه الأمثال تنسب الى الأندلسيين الفضيلة الكبرى وهي حب العمل ، وتصور كراهيتهم للبطالة في صور مختلفة متعددة ، كما تعكس هذه الأمثال شغف القوم بالزراعة وما يتصل بها ، فلا عجب أن يكون ازدهار الزراعة واستبحار العمران اللذان تحدث عنهما ابن الخطيب ما دام حب العمل قد بلغ من نفوسهم هذا الحد[٢] .

إن معلوماتنا عن الحياة الاجتماعية والثقافية في الأندلس ، غزيرة ضافية .. خاصة لكثرة النتاج الذي خلفه الأندلسيون في المجالات الثقافية .. وقد صور الشعر الحياة الاجتماعية في الأندلس ، وتناول دراسة هذا اللون من الشعر أحد الباحثين[٣] .

كذلك تتضمن كتب الرحلات والمصنفات التي ألفها علماء مشارقة زاروا بلاد الأندلس ، على معلومات قيمة بهذا الخصوص ، وذلك لأن عدداً منهم كان دقيق الملاحظة في كل ما تقع عليه عينه ، ويكون تحت مشاهدته ، فقد سجل ابن حوقل (توفي بعد ٣٦٠ هـ) عجبه من اختلاف الحياة في الأندلس والمغرب وذلك في كتابه « صورة الأرض » الذي ضمنه وصفاً تفصيلياً لجوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصر الخلافة الأموية بالأندلس[٤] .

كذلك حصل هذا الأمر عند الرحالة الأندلسيين كابن جبير ، وابن سعيد اللذين أمضيا أعواماً في بلاد المشرق .

وقد تقدمت الأشارة الى دور المحتسب في تنظيم الحياة الاجتماعية والأقتصادية وفي هذا المجال نجد أنَ رسالة ابن عبدون في الحسبة تصور لنا المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري وفيها ملاحظة قيمة تتصل بشيوع بعض المنكرات من ناحية

---

(١) أمثال العامة في الأندلس ، نشر في كتاب الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين ص ٢٤٩ .

(٢) نفسه ص ٢٧٠ .

(٣) التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الأندلس ، د . حسن النوش ، رسالة دكتوراه دار العلوم القاهرة ١٩٧٧ .

(٤) ينظر بحث الدكتور عبد الواحد ذنون طه ـ الاندلس من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل . دراسات اندلسية ١١٤ (مكتبة بسام ـ الموصل ـ العراق ١٩٨٦) .

ودور الدولة في مكافحتها .. لاسيما عند مرتكبيها من الشبان وعدم تهاونها في ذلك [١] .

ويصور ابن الخطيب المجتمع الغرناطي في القرن الثامن الهجري ، حيث تحلل شيئاً ما ، وخرج من ربقة الضوابط الاجتماعية ، يتحدث عن نسائهم وزينتهن « وقد بلغن من التفنن في الزينة والتماجن في أشكال الحلي الى غاية نسأل الله أن يغضي عنهن فيها ، عين الدهر .. وأن يعامل جميع من بها بستره ولا يسلبهم خفي لطفه ، بعزته وقدرته [٢] » .

ويشير الاستاذ محمد كرد علي الى ابعاد تأثير المجتمع الاسلامي على المجتمعات الاخرى المجاورة كالجلالقة ، والقشتاليين والليونيين ، والنافاريين .. يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الأندلسي ويختلطون بأشراف العرب ، ومن ظل محتفظاً بدينه ، نسي مبادئه ، فصار يحجب نساءه كالمسلمين ، ويقتدى بازيائهم ، والبستهم ، وعاداتهم ، في مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم .. [٣] » .

ويؤكد الدكتور يوسف شكري فرحات على أن المجتمع العربي بقي على اسلاميته والتزامه بها ولم يضعفا فيه فيقول : « والواقع أن ذلك المجتمع لم تفتر في صدور ابنائه حرارة الايمان ولا ضعفت عندهم روح التقوى ، ولم يتخلوا عن الله لحظة ، وخاصة في أوقات الشدة ، وعند مداهمة الخطر من الدول المجاورة [٤] .

انتشار اللغة العربية وخصائصها *

انتشرت اللغة العربية في بلاد الاندلس انتشاراً سريعاً في بيئة لم يكن لها عهد سابق بهذه اللغة وذلك ما لفت أنظار الباحثين والدارسين وجعلهم يتتبعون هذه الظاهرة ويفردون فيها بحوثاً ودراسات للتعرف على أساليب انتشارها ، وموقف السّكان الأصليين منها ، ومدى استجابتهم لها .

---

(١) ثلاث رسائل في الحسبة ـ ٥٤ ـ ٥٠ (د . بروفنشال) .

(٢) الاحاطة ١ / ١٣٩ ، الا أنه قال في اللمحة البدرية ٣٨ : « احوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد احوال سنية ، والاهواء والنحل معدومة » .

(٣) بحث محمد كرد علي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٢ / ١٦٨ سنة ١٩٢٢ .

(٤) غرناطة في ظل بني الأحمر ١٥٥ (بيروت ١٩٨٢) .

(*) ينظر بحث زميلي الدكتور حازم عبد الله خضر ، « انتشار اللغة العربية في الاندلس ، اسبابه ونتائجه » مجلة الجامعة العدد (٥) شباط سنة ١٩٧٩ .

ولا شك أن طبيعة اللغة العربية . والخصائص التي تميزت بها ، كانت أحدى العوامل التي أعانت على إقبال الأعاجم عليها في أكثر البلدان التي انتشر فيها الاسلام . فضلًا عن عوامل أخرى ومنها روح التسامح التي كان يتعامل بها الفاتحون مما حبب لغتهم لأهل البلاد المفتوحة . كذلك عناية الأمراء والملوك بأمر اللغة ، وبذلهم الجهود والطاقات في سبيل الحفاظ عليها . لأنهم كانوا على جانب واضح من الفصاحة . والالمام باللغة وآدابها . وعلى ادراك بين بأهميتها في بناء المجتمع .

ينوه الدكتور جودة هلال والاستاذ محمد صبح . بدور هشام الاول (١٧٢ ـ ١٨٠هـ) الذي خطا خطوة إيجابية في سبيل توحيد اللغة . فينسبان اليه اصدار منشور رسمي ، يحتم فيه ضرورة تعميم اللغة العربية على المستعربين الذين يشاركون المسلمين في مدارسهم . « وبعد ذلك بأمد قليل أصدر منشوراً عاماً الى جميع السكان .. بضرورة تعلم اللغة العربية لتكون اللّغة الرسمية »[١]. ولا شك أن هذا المنشور هو من المحاولات المبكرة التي أعانت على انتشار اللغة العربية . ونتوقع أنَ مسألة انتشارها استغرقت وقتاً غير قصير وأن نسبة المقبلين عليها كانت في ازدياد يوماً بعد آخر .

وبعد حوالي ربع قرن من قرار الأمير هشام نقف على وثيقة تاريخية مهمة : تأتي بصيغة شكوى أطلقها أحد رجال الدين الاسبان هو القس آلبرو او الفارو القرطبي[٢] ، ولا نجد بين أيدينا اشارة الى المصدر الذي أخذت منه هذه الشكوى . ولكن مما يوثقها ايثارهم استعمال لغة العرب وأسمائهم . وأزيائهم ، حقيقة يعرفها كل الناس . بل إن المستعربين اجتهدوا في أن يأخذوا الطّابع الاسلامي ، في كل مناحي حياتهم . وهي مكتوبة بخط القس نفسه[٣]:

« ان إخواني في الدَين يجدون لذة كبرى . في قراءة شعر العرب وحكاياتهم . ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين . لا ليردوا عليها وينقضوها . وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلًا صحيحاً . وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين ـ يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل

---

(١) قرطبة في التاريخ الاسلامي ص ٨٩ ـ ٩٠ (المكتبة الثقافية ٧٢ ، القاهرة سنة ١٩٦٢) ولم يذكرا المصدر الذي استمدا منه هذه الحقيقة . وينظر دولة الاسلام في الاندلس ٢٢٩ .

(٢) عاش في زمن عبد الرحمن الاوسط ٢٠٦ ـ ٢٣٨ .

(٣) تاريخ الفكر الأندلسي ٤٨٥ ـ ٤٨٦ . وينظر الأدب الأندلس ص ٤٤

المقدسة ؟ من ـ سوى رجال الدين ـ يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرّسل ؟ ياللحسرة ! !

إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها . ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم . وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها . ويفخرون في كل مكان . بأن هذه الآداب حقيقة بالاعجاب .

لقد أنسي النصارى حتى لغتهم . فلا تكاد تجد في الألف منهم واحداً . يستطيع أن يكتب الى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ . فأما عن الكتابة في لغة العرب . فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها ، في أسلوب منمق . بل هم ينظمون من الشعر العربي ، ما يفوق شعر العرب انفسهم فناً وجمالاً » .

والرسالة فيها ما فيها من الدلالة على شدّة إقبال الاسبان على تعلم اللغة العربية ، وتذوقهم لآدابها . ويأسف المستشرق الأسباني بالنثيا . لأنه لا يقف على أمثلة للنتاج الادبي الذي يشير اليه الفرو . إلا إنه مما يؤكد هذه الحقيقة وقوفه في ختام مخطوط محفوظ في المكتبة الأهلية ، في مدريد ، يضم مجموعة من قوانين الكنيسة ، وقراراتها ، بقلم قس يسمى « بنچنسيس » ويهدي الكتاب الى أسقف اسمه عبد المالك اذ تأتي عبارة الاهداء بصيغة أربعة أبيات عربية بلغة بليغة[١] ، وأمّا الهوامش والتعليقات التي كتبت باللّغة العربية في كتبهم اللاتينية فهي كثيرة[٢] .

ويبدو أن تصور مثل هذه الحالة لم يكن ممكناً ، لدى بعض مستشرقي الاسبان ولذلك رأى أن التعريب الحيوي لاسبان الاندلس ، ربما لم يتحقق ابداً ![٣]

ولكن الحقيقة أن العربية ظلّت على مكانتها السّاطعة . تخلب الألباب ، وتستميل مجامع القلوب ، بالنسبة لغير المسلمين ، حتى عهود متقدمة ، ففي القرن السادس الهجري ، نلاحظ أن يهودا الحريزي يسخط وينكر على أهل ملته اليهود ، حين رآهم يقبلون على قراءة اللغة العربية ، ويفضلونها على اللغة العبرية ، ولذلك يقبل على ترجمة مقامات الحريري الى العبرية ، ليثبت أن لغتهم لا تقل عن العربية ثروة وجمالاً[٤] !

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٨٦

(٢) نفسه ٤٨٧

(٣) دراسات عن ابن حزم : ١٤٣

(٤) الاسبان والحضارة الاسلامية ص ٣٠٦ ، د . هاشم ابو رميلة مجلة اداب المستنصرية العدد ١١ ١٩٨٥ .

وازاء هذا التداخل بين اللغة المحلية واللغة العربية حاول عدد من الباحثين أن يخلص الى اللغات المتداولة في الأندلس وخصائصها ، فأشار الدكتور هيكل الى أنها ثلاث لغات :

العربية الفصحى وهي اللغة الرسمية ، ولغة الدواوين ، واللاتينية وهي لغة السكان الاصليين ، واللغة العامية التي كانت تستخدم في الحياة اليومية .

اما الدكتور حكمة الاوسي فيرى أنها أربع ، عربية فصحى واخرى عربية عامية ولاتينية قديمة ، واخرى رومانثية[١] وهي لهجة متفرعة من اللاتينية وقد عرفها عرب الاندلس عن طريق الامتزاج بالاسبان بالزواج من نسائهم وقد أشار المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا الى هذه الحقيقة حيث تكونت أجيال جديدة يتكلم آباؤها العربية وأمهاتها الرومانثي ـ ومن الطبعي أن يعرف الأبناء لغة الآباء والأمهات[٢] .

ويشير البير مطلق الى أن عرب الأندلس لم يكونوا جميعاً يحسنون التكلم بعامية أهل الأندلس اعتماداً على ما أورده الخشني[٣] .

لقد بحث الدكتور هيكل خصائص هذه اللغات بحثاً تفصيلياً وساق الأدلة التاريخية على شيوعها فيما ورد في المصادر العربية القديمة ثم أورد الأدلة التطبيقية مما احتفظت به كتب الامثال التي وصلت الينا ؛ وهي تمثل عصور الأندلس على امتدادها ومن ذلك ما ذكره المقدسي (ت ٣٧٥ هـ) في كتابة أحسن التقاسيم[٤] . خلال حديثه عن الصقالبة في الاندلس « لغتهم عربية ، غير انها منغلقة مخالفة لما ذكرنا في الاقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومي »

ويعزز الخشني (ت ٣٦١ هـ) ما قاله المقدسي ، فيما يرويه عن القاضي « يخامر » ممَّن شكته العامة الى الأمير عبد الرحمن الأوسط فاستمع الأمير الى شهادة شيخ أعجمي يدعى « ينير » كان مقدماً عند القضاة مشهوراً بالخير فقال بالعجمية .. « ما أعرفه الا أني سمعت الناس يقولون انه انسان سوء ، وصغَّر باللفظ الاعجمي » ، فعجب الأمير من لفظه وقال « ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا

---

(١) فصول في الادب الاندلس ٣٠
(٢) الادب الاندلس ص ٥٠
(٣) قضاة قرطبة ٩٦ ، الحركة اللغوية في الاندلس ٣٤
(٤) احسن التقاسيم ٢٤٢ (ط ٢ بريل ١٩٠٩) وينظر الادب الاندلس ص ٥١

الرجل الصالح الا الصدق[١] » وواضح من تعقيب الأمير ان العربية كانت لغة ثانية بالنسبة للاعاجم . وان التقاط الشيخ الأعجمي لبعض الفاظها لم يكن سهلاً .

ومن رجال القرن الخامس ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) حدثنا عن قوم يسمون « بني بلي » وميزهم عن سائر عرب الأندلس فقال : « لا يحسنون الكلام باللاطينية لكن بالعربية فقط نسائهم ورجالهم[٢] » .

ومن علماء القرن السادس الهجري ابن هشام اللخمي (ت ٥٧٧ هـ) الذي تضمن كتابة (في لحن العامة) أمثلة كثيرة لما يستعمله عامة أهل الأندلس من ألفاظ كان يردها الى أصولها الفصيحة فأن كانت اعجمية ذكر معناها بالعربية[٣] .

وفي القرن السابع الهجري يحدثنا ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥ هـ) عن صورة من صور ضعف اللغة العربية ممثلةً بلغة ابي علي عمر بن محمد الشَلُوبيني (بلغة الاندلس : الابيض الاشقر) (المتوفي ٦٤٥ هـ) وهو أحد علماء النحو . واليه انتهت إمامة العربية بالمشرق والمغرب أقرأ نحو ستين سنة[٤] . ومع ذلك فإن كلامه كان مثار الضَحك لشدَة التحريف في لسانه[٥] .

ومن دلائل تداخل العربية الفصحى بالعجمية . وعامية الاندلس . الفن الذي ابتكره الاندلسيون . فن التوشيح . الذي أسلم الى فن الزجل، وهو يمثل عامية الأندلس . وسنتوقف عندهما في موضع لاحق .

وتتجلى خصائص فصحى الأندلس وعاميتها . في الأمثلة التي احتفظت بها كتب لحن العامة. وفي مقدمتها كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة. اذا إنه أثبت في كتابه عدداً من الالفاظ الاعجمية التي دخلت الى لغة العامة في الاندلس من جيرانهم أصحاب اللغتين الاعجميتين الاسبانية والبربرية . وهو يورد منها ما عرف مقابلة في اللغة العربية . واختار لنا الدكتور الاهواني نوعين من الفاظه هما : الفاظ اعجمية دخلت اللغات المحلية والفاظ عربية اكتسبت معنى جديداً في

---

(١) قضاة قرطبة ص ٥٥ ، الادب الاندلس ٥٢
(٢) جمهرة انساب العرب (تحقيق بروفنسال ١٤٥)
(٣) مجلة معهد الدراسات العربية المجلد الثالث ١٩٥٧ بحث الدكتور عبد العزيز الاهواني
(٤) تاريخ آداب العرب ٢ / ٢٢٢
(٥) النفخ ١ / ٢٢٢

الأندلس[١] . وقد بسط القول الدكتور رمضان عبد التواب في خصائص لغة الاندلس واشار الى ابرز سماتها[٢] ، فمن خصائص فصحى الأندلس ، ما يتصل بالناحية الصوتية .. ، حيث نطق الأندلسيون حرف القاف قريباً من الكاف فيلفظون « حق » و « ترقوه » و « استقتل » : « دوحكة » و « تركُوهَ » و « استكتل » ، وقد غلبت عليهم الامالة . وكانوا لا يهمزون في كلامهم شأنهم في ذلك شأن لهجة قريش . واستغنوا عن علامات التأنيث ، واقتصروا على التاء ، فقالوا : مقلاة وحلوة ودفلة بدلاً عن مقلى وحلوى ودفلى[٣] .

ومما يتصل باستعمال الالفاظ : اشتقاقهم لكثير من الكلمات .. ثم تخصيصهم لاسماء هي في الاصل لمسميات عامة وتعميمهم في اخرى هي في الاصل لمدلولات خاصة وانتقال الدلالة الى شيء مخالف مرة أخرى وقد ساق المقري[٤] امثلة كثيرة في هذا الباب ، فكلمة (وزير) اطلقت على كل من يجالس الخليفة او الملك ، وان لم يشغل المنصب الرسمي ، واستخدموا (خطة) وارادوا بها الادارة كما في قولهم خطة القضاء وخطة السوق ..

ومن هذه الكلمات ذات المدلول الخاص بالاندلس :
(المسدد ، الدرّاب ، المجشر ، الوادي ، باكور ، الريحان ، الاسطوان ، الاسلمي ، ثريا ، الجفافة ، البيطير ..)[٥] ومن تعميم الدلالة ، في لفظتي البلاط ، والاستحمام[٦] . ومن الالفاظ ذات الدلالة المنتقلة الوشاح والقلادة[٧] .

---

(١) الفاظ مغربية : ١٣٨

(٢) لحن العامة والتطور اللغوي ١٩٢ (ط دار المعارف بمصر ١٩٦٧)

(٣) نفسه ١٩٢ ـ ١٩٥

(٤) النفح ١ / ٢١٦

(٥) والمراد بها : (حاكم البلدة ، حارس الدرب ، الضيعة ، النهر ، ثمار التين الجديدة ، الاس ، الدهليز ، الاسلامي ، مجموعة المصابيح ، خرقة ينشف فيها الماء او صوفة جفافة ، وهي مما يوضع على عنق الصبي من قماش)

(٦) إطلقت على البيت الحسن والاصل للحجارة المفروشة وللغسل بالماء البارد والحار ، والاصل للغسل بالماء الحار .

(٧) أرادوا بها الثوب والحزام ، والاصل فيهما ما تتوشح به المرأة على كشحها والعقد الذي موضعه العنق لحن العامة ١٩٥

واما عامية اهل الاندلس فقد أشار ابن حزم الأندلسي الى اختلافها عَما وضعت له حيث بدّلت العوام دلالات الالفاظ تبديلاً هو في البعد عن اصل الكلمة ، كلغة أخرى [١] .

وفي كتب الامثال ما يشير الى فروق في لهجات مدن الأندلس ، فقد تميزت غرناطة بروح عربية اسلامية لا نجدها في مدن الاندلس على امتداد عصورها ، فلغة هذه الامثال لغة عربية لا تتخللها من الكلمات الاعجمية الا القليل ، ذلك واضح في كتاب « حدائق الازاهر » لابن عاصم (ت ٨٢٩ هـ) ، الذي تضمن ثمانمائة وواحداً وخمسين مثلاً [٢]

وقد التفت ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) الى لغة أهل الأندلس ، في اكثر من موضع ، فاشار الى لغة أهل غرناطة بقول « إن السنتهم فصيحة ، عربية ، يتخللها غَربٌ كثير ، وتغلب عليهم الامالة [٣] » وفي موضع آخر أشار في ترجمة مسعود بن اسماعيل الهاشمي الى انه من أهل غرناطة وان أصله من الثغر .. وكان لسانه ثغرياً » وفي قوله إلماحة سريعة الى لهجة متأثرة بالعجمية [٤] .

وكانت عامية شرق الأندلس ـ في القرن السادس الهجري ـ تختلف عن عامية سائر المدن فقد لقب الحافظ ابو محمد عبد الله بن سليمان بابن حوط الله (ت ٦١٢ هـ) وفي علة هذا اللقب ذكر ابو الحكم لعله ابن سيد أن أصله « حَوطَلَة » مصغر مؤنث على لغة شرق الأندلس ، فانهم يفتحون أول الكلمة من نحو الحَوت والعَود وينطقون بالتاء طاءً ، ويلحقون آخر المصغر لاما مشدّدة مفتوحة في المؤنث مضمومة في المذكر وهاءً ساكنة ، فيقولون في تصغير حوت : « حَوْطَلّة » و « حَوطِلّة [٥] » .

---

(١) الاحكام في إصول الأحكام ١ / ٣٢ ، وينظر الحركة اللغوية في الاندلس ص ٤٠ وقد أورد امثلة على اختلاف العامية

(٢) أمثال العامة في الاندلس : ٣٦٤

(٣) الاحاطة ١ / ١٣٤ ، وينظر امثال العامة ص ٢٦٩

(٤) مالم ينشر من احاطة ابن الخطيب ص ٨٥ والهامش ٨ بحث عبد السلام شقور ، مجلة دعوة الحق العدد ٢٥٩ سنة ١٩٨٦

(٥) بغية الوعاة ٢ / ٤٤ (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط اعيس البابي الحلبي سنة ١٩٦٥) وينظر تاريخ آداب العرب ١ / ٢٦٠

واستخلص الدكتور عبد العزيز الاهواني[1] من دراسته لعامية أهل الأندلس عدداً من السمات التي اختصت بها ، ومنها :

١ ـ إدماج الفعل (كان) في الفعل المضارع الذي يليه فنقول في (كان يقول) : (كيقول) .

٢ ـ ادماج (في) حرف الجر ، في الاسم الذي يليه والاكتفاء بحرف الفاء منها ، ونطقها بين الكسر والفتح ، فمن ذلك قولهم : (الكيَس فالسوم وغير ذي سرق)[2]

٣ ـ استعمال بعض الالفاظ ، بمعنى الظرف فيقولون (لم افعل هذا عاد) اي بعد ، وهو أسلوب له نظيره في عاميتنا العراقية . ويقولون (ياكلت) اي قد اكلت الان .

٤ ـ استعمال المثنى بالياء والنون دائماً . وابقاء الفتحة قبل الياء . وله نظيره في عاميتنا العراقية .

٥ ـ دخول كثير من الالفاظ اللاتينية ، في عاميتهم[3] فمن ذلك (الما ، ألبا ، أشت ، مطر) بمعنى (نفس ، وفجر ، وهذا ، وأم) ، وقد رأى الدارسون أن أبرز اللغات الاعجمية في الاندلس تمثلت في ثلاث لهجات كبرى هي ، الارغونية والبلنسية والقشتالية ، والظاهر أنها كانت متقاربة في خصائصها بحيث كان المترجمون انفسهم يترجمون عن وفود قشتالة وبرشلونة وجليقية[4] . وقد درس الدكتور الاهواني في بحث متميز عن امثال العامة في الأندلس وساق لنا أكثر من عشرين مثلاً ، يبدو وجه الشبه فيها واضحاً من ناحيتي المعنى والصياغة ، في العربية والاسبانية[5] فمن ذلك قولهم (اخدم باطل ولا تجلس عاطل ، ولفظ باطل في لهجة الاندلسيين يعني بالمجان وانتقل الى اللغة الاسبانية بهذا المعنى(Debalde). وقد تسربت امثالهم العامية الى اشعارهم على نحو ما نجد في ابيات ابن حصن الاشبيلي[6] .

---

(١) ينظر الزجل في الاندلس ، المقدمة : ز

(٢) أمثال العامة في الأندلس ص ٣٠٩ ، اي الكياسة والاجتهاد في المساومة في التجارة .

(٣) يقابل هذا دخول نسبة كبيرة من الفاظ اللغة العربية وخصائصها في الاسبانية ، وهو ماسنوضحه في مجال تأثير اللغة العربية وآدابها في اللغة الاسبانية فيما بعد .

(٤) الحركة اللغوية في الاندلس ص ٣٨ (٥) امثال العامة في الاندلس ص ٢٦٠ وينظر امثال العوام في الاندلس . لأبي يحي الزجالي (ت ٦٩٤ هـ) تحقيق د . محمد بن شريفة .

(٦) الذخيرة ٢ / ١ / ١٦٢ هـ ٤

وفي معجم المستشرق الهولندي دوزي امثلة كثيرة على الدلالات التي تميزت بها الألفاظ في الأندلس ، فمثلاً كلمة (الاحيار) جمع (حير) التي تطلق على الحظيرة او الحمى أطلق في الاندلس بمعنى الحديقة الكبيرة[1].

ويرى بروفنسال في موضوع اثر الرومانثية في عامية أهل الاندلس شواهد كثيرة تعزز هذه الفكرة « يكفي ان نلقي نظرة خاطفة على اعمدة المعاجم التي الفت في اسبانيا تسهيلاً لمهمة المبشرين ... لكي نقدر مدى التأثير الذي مارسته اللهجة الرومانثية في تكوين اللهجة العامية التي كان يتحدث بها مسلمو شبه الجزيرة .. وهذه اللغة فرضت عليهم عديداً من المفردات حلت مكان كلماتهم الكلاسيكية .. وفرضت ايضاً من خواصها الصرفية والنحوية ما يتصف بالاشتقاق وتركيب الجملة وشاع استعمالها مثلها في ذلك مثل التعابير العربية الصرفة أو التي تعربت منذ زمن طويل ومن بين هذه التأثيرات ما يتصل بأواخر أسماء الفاعلين ، والنسبة واسماء التصغير ، فكانت العامية الأندلسية تستخدم مثلاً العلامات الرومانثية (ellar و ero) فتطلق على من يتولى ادارة الفندق .. (فندقير) Fundal air بدل ان تقول فندقي وتقول في تصغير حارة Hara حارية Harella بدل حويرة .[2].

ومن تحريفات العوام في الفاظ الاعلام بابدال بعض الحروف أو حذفها أو تغيير حركاتها ما ذكره ابن هشام اللخمي في كتابه عن لحن العوام حيث قالوا على سبيل المثال « الفِنش ، وبِربِري ، وسرقستة ، وأريولة ، ومَرتُله »[3] وصوابها : « اذفونش ، وبَربَرى بفتح الباء » ، وسرقسطة ، وأوريوله ، ومارتله ..

وفي ازجال الاندلسيين جانب تطبيقي توثيقي لما تقدم من خصائص عامية أهل الأندلس وفي ديوان ابن قزمان ، نموذج شاف كاف يغنينا عن زجالي الأندلس .[4]

---

(١) ملحق المعاجم العربية ١ / ٢٤٤ ، وينظر مادة رقل ٥ / ١٩٤ .

(٢) بروفنسال الحضارة العربية في اسبانيا ص ١١٤ .

(٣) الفاظ مغربية ص ١٤٠ وما بعدها .

(٤) ديوان ابن قزمان ـ كورنطي تنظر الصفحات : ٨٤ ، ١٨٦ ، ٤٦٠ ، ٥١٨ .

مصادر دراسة الأدب الأندلسي :

جهود الباحثين في القرنين التاسع عشر والعشرين :

سَنُلم المامة سريعة بأبرز الجهود وأميزها في مجال الأدب الأندلسي في عهد متأخر نسبياً عن جهود الباحثين في ميدان الأدب العربي في عصوره الأخرى .. وقد نهضت طائفة من المتخصصين الغير على التراث . فخفوا لنشر نصوصه المخطوطة وتحقيقها ، ودراستها .. وقد كانت بوادر هذه الدراسات في مشرق العالم الأسلامي ، اذ أن دراسات المغرب العربي بشكل عام كانت قليلة . أو لعلنا ما نزال منقطعين عنها على الرغم من قربهم من هذا الأدب نفسياً وتأريخياً وجغرافياً .

وقد جاءت جهود العرب متأخرة نسبياً قياساً الى جهود المستشرقين الذين سبقوا في هذا الميدان للأمكانيات التي تمتعوا بها آنذاك . وللصلة التي تربطهم بالأندلس تأريخياً .. وجغرافياً .. فضلاً عن الأهداف الاستشراقية بشكل عام .

أشهر هذه المدارس الاستشراقية ، المدرسة الهولندية والاسبانية . والفرنسية والالمانية . والايطالية والروسية ... وقد تمثلت المدرسة الهولندية في ابرز علمائها (دوزي المتوفي سنة ١٨٨٣ م) كتب عن تأريخ اسبانيا وأدبها مصنفه : « تاريخ مسلمي اسبانيا » وصفه المستشرق كراتشكوفسكي بأنه يشبه رواية تأريخية ! كثيراً ما تطغى فيها سمة الروماتيكية على الحقيقة الواقعية . والمستشرقون يعرض بعضهم بعضاً في لحن القول ! لكنه عاد فأثنى على المصنف كثيراً . كتب دوزي بحوثه بين سنتي (١٨٤٦ ـ ١٨٦١) ، وتوَّج اعماله بترجمة كتاب « نفح الطيب » (١٨٥٥ ـ ١٨٦١) فضلاً عن ترجمة كتاب « المعجب » للمراكشي ، ونشر الجزئين الأولين من البيان المغرب لأبن عذاري . والبسَامة لأبن عبدون .

ومن مزايا دوزي ، التي تحسب له ، في خدمة تراث الأندلس ،[1] تصحيحه لكثير من الأخطاء التي تورط بها المؤرخ الاسباني « كونده » المتوفى سنة ١٨٢٠ .

---

(١) نوه الدكتور محمد سليم النعيمي بجهوده في تكملة المعاجم العربية ، مقدمة المترجم ١ / ٥ ـ ٨ (ط وزارة الاعلام بغداد سنة ١٩٧٦).

وكانت ملاحظاته حول كتابه « تاريخ السيطرة العربية » مهمةً . لأن الكتاب حَرَّف كثيراً من الحقائق وزيفها .[١]

كذلك تولى دوزي نقد الترجمة التي قام بها صديقه جيانجوس باسكوال لكتاب المقري . عن تاريخ الاسر الاسلامية في اسبانيا .[٢] ولم يكن دوزي نفسه بمنأى عن الوقوع تحت طائلة الانحياز والتحامل على شخصية عظيمة . مثل « يوسف بن تاشفين » أول ملوك المرابطين وأشهرهم . حين نعت دولته بالتخلف الفكري . والتأخر الأدبي . وقد ردّ عليه المستشرق الاسباني ريبيرا . حين اماط اللثام عن المرابطين وبين مناط الابداع في حضارتهم . وقد ساق هذه المعلومات تلميذه بالنثيا[٣] .. وعزز آراء ريبيرا في الرد على دوزي . الدكتور مصطفى الشكعة[٤] . واعرب عن خطلها وأبره مجانبتها للصواب .

ويعد من ابرز مؤسسي المدرسة الاسبانية[٥] . كوديرا (ت ١٩١٧ م) . وهو اكبر منصف للحضارة الاسلامية في الاندلس . وهو صاحب المقولة المأثورة : « أن من الخطأ العمل على أوربة اسبانية . بل الواجب هو تعريب أوربة . وعلى اسبانية أن تسترد دورها القديم في هذا التعريب »[٦] . لقد اختار لأسمه صيغة عربية هي الشيخ فرنسيشكوقُدارة زيدين . وقيل : إنه ينحدر من أسرة عربية الأصول . وتتجلى خدماته للتراث في وجهين :

الأول : في جهوده القيمة للأدب الأندلسي . فيما اصدره من المكتبة الأندلسية (١٨٨٣ ـ ١٨٩٢) وقد صدرت في عشرة مجلدات . وهي : الصلة لأبن بشكوال . والتكملة لأبن الابار . والمعجم في اصحاب أبي علي الصدفي . وبغية الملتمس للضبي . وتاريخ علماء الأندلس لأبن الفرضي . وفهرسة ماروواه ابن خير عن شيوخه[٧] .

---

(١) و (٢) مجلة الهلال . عدد خاص عن الاستشراق (١) يناير ١٩٧٦ . مقال على ادهم عن المستشرق رينهارت دوزي ص ٢١ ـ ٢٢ . ولعل المقصود بالكتاب ـ كتاب نفح الطيب . اذ لا يعرف في مؤلفات المقري الكتاب المذكور .

(٣) تأريخ الفكر الاندلسي ٢١ وينظر مقال مجلة دعوة الحق ٢٢٣ دجنبر ١٩٨٢ . مصدران كان لهما أثر بعيد في تشويه التأريخ المغربي لمحمد غريمان ١٠٦ ـ ١١١ .

(٤) مناهج المستشرقين ٢ / ٢٩١ ـ دوزي يشوه تأريخ المرابطين .

(٥) ينظر في المدرسة الاسبانية . بحث الدكتور محسن جمال الدين ـ المستشرقون الاسبان في الدراسات الاسلامية مجلة المورد ٩ / ٤ / ٩٨١ ص ٤٣٢ ـ ٤٤٧ .

(٦) و (٧) مناهج المستشرقين ٢ / ٢٨٢ .

الثاني : يتمثل في تخريجه لعدد من المستشرقين على منهجه . وهم أربعة . اطلقوا على أنفسهم اسم الأخوة و « بني كوديرا » . واول هؤلاء هو خوليان ريبيرا (ت ١٩٣٥ م) البلنسي المولد . استاذ اللغة العربية في جامعة سرقسطة . حقق كتاب قضاة قرطبة للخشني . وديوان ابن قزمان . وتاريخ افتتاح الأندلس لأبن القوطية . ومن ابحاثه القيمة التي ترجمها الدكتور الطاهر مكي . كتاب التربية الاسلامية في الاندلس .[١] وقد ترجم دراستين اخريين له . الاولى : دراسة موازنة بين كتابي تاريخ افتتاح الاندلس لأبن القوطية . واخبار مجموعة لمجهول . والثانية : الاصول العربية لفلسفة ريموندو لوليو [٢]

وثاني تلامذته ، هو : اسين بلاثيوس (ت ١٩٤٤ م) الذي كرس اكثر بحوثه لدراسة الفلسفة الاسلامية ، والتصوف ، فكتب عن ابن باجة السرقسطي ، وابن مسرة ، ومحي الدين بن عربي ، وابن حزم الاندلسي .

ومن جهوده نشره لكتاب الحدائق لأبن السيد البطليوسي سنة ١٩٤٠ ، وأهم بحوثه التي تتصل بالأدب الاندلسي كتابه : « الاصول الاسلامية للكوميديا الالهية »[٣] ، وفيه أثبت تأثر دانتي في ملحمته « الكوميديا الالهية » بقصة الأسراء والمعراج . وله دراسة عن كتاب محاسن المجالس لأبن العريف[٤] .

وثالث الأخوة ، التلامذة ، هو انخل جونثالث بالنثيا (ت ١٩٤٩) الوريث الشرعي لزميله ريبيرا ، وقد تصدر كتاباه : تاريخ الأندلس[٥] ، وتأريخ اسبانيا الاسلامية[٦] ، مؤلفاته الاندلسية واولهما تقدم به لنيل درجة استاذية كرسي اللغة العربية بجامعة مدريد ، وهو بما اجتمع فيه من ميزات الايجاز والشمول على نحو قلما يجد الأنسان له مثيلاً .. »[٧] . وكانت ترجمة الكتاب قيمة ولبنة في بناء الدراسات الاندلسية ، الا انها جاءت ناقصة من الاحالات الى المصادر والتعليقات

---

(١) طبع بدار المعارف بمصر ١٩٨١ .

(٢) نشرت ترجمة الدراستين في كتاب دراسات اندلسية ص ٢٥ ـ ٥٧ و ص ١٦٦ ـ ١٩٢ .

(٣) طبع في مدريد ١٩١٩ و ١٩٤٣ ، وينظر مناهج المستشرقين ٢ / ٢٨٥ ، ومقال د. الطاهر مكي في مجلة الهلال العدد (١) يناير ١٩٧٦ .

(٤) ترجمها الدكتور الطاهر مكي ، دراسات اندلسية ص ٢٤٣ ـ ٤٠١

(٥) ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ط ١ النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٥ .

(٦) طبع في برشلونة ١٩٤٥ .

(٧) من مقدمة المترجم .

حيث وجد المترجم ان يفردها في صلة للكتاب ، لم يقدر لها ان تخرج الى يومنا هذا .

ومن بحوثه المترجمة الى العربية ، الشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الاوربي[1] . ويعد غرسيه غومس ، رابع الأخوة ، وهو لم يتتلمذ على كوديرا مباشرة ، بل أُخذ علومه على يد تلميذه ريبيرا .. كتب بحوثاً كثيرة ، ونشر مجموعة من الدواوين الأندلسية ، منها ديوان أبي اسحاق الألبيري ـ مدريد ١٩٤٤ ، وشعر ابن الزقاق البلنسي ، والشريف الطليق[2] .

وجاءت اراؤه في الآدب الأندلسي مجملة في كتابه الشعر الأندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه ترجمة الدكتور حسين مؤنس وقد ترجم مجموعة من بحوثه التي نشرها في مجلة الاندلس الدكتور الطاهر مكي في كتاب « مع شعراء الأندلس والمتنبي » الذي تضمن بحوثاً عن الشعراء الثلاثة السابقين وبحثين عن الشاعرين ابن قزمان صوت في الشارع ، وابن زمرك شاعر الحمراء .[3]

ويمكننا ان نضيف الى هؤلاء المنصفين في المدرسة الاسبانية ، كلًا من باسكال دى جايانجوس واميركو كاسترو[4] .

وأبرز شخصية خدمت تراث الاندلس في المدرسة الفرنسية ، تتجلى في جهود ليفي بروفنسال (ت ١٩٥٦ م) فقد نشر نصوصاً تأريخية قديمة ، منها مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ، وكتاب « المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا لأبي الحسن النباهي القاضي (كان حياً سنة ٧٩٣ هـ) سنة ١٩٤٨ م ، وقام بنشر الأجزاء الثلاثة الأول من كتاب « البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب » لأبن عذاري المراكشي (ت ٧١٢ هـ) بالاشتراك مع كولان في ليدن ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ ، وقد حقق الجزء الخاص بالأندلس من « الروض المعطار في خبر الأقطار » لأبن عبد المنعم الحميري القاهرة ١٩٣٧ ، وكتاب « صلة الصلة » لأبن الزبير ، الرباط ١٩٣٧ ، كذلك كان له فضل في نشر مجموعة من الرسائل الموحدية ـ لأول مرة ـ رباط الفتح سنة ١٩٤١ ، وله محاضرات عامة في أدب الأندلس وتأريخها القاها ، سنة ١٩٤٧ على طلبة

---

(١) ترجمة الدكتور الطاهر مكي ، دراسات اندلسية ١٩٣ ـ ٢٢٤ .

(٢) ديوان ابن الزقاق اعلن غومس عن نشره سنة ١٩٣٤ ، ثم توقف فحققته عفيفة ديراني سنة ١٩٦٤ ، واما ديوان الطليق فلم نقف عليه .

(٣) ط مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٩٧٤ .

(٤) مناهج المستشرقين ٢ / ٢٨٦ .

الجامعة المصرية ، وترجمها محمد عبد الهادي شعيرة سنة ١٩٥١ ، كذلك له كتاب حضارة العرب في الأندلس ، وهي محاضرات القاها في الجامعة المصرية سنة ١٩٣٨ ثم اعاد نشرها في باريس ١٩٤٨ ترجم مرتين[١] .

ان بروفنسال كان امتداداً لدوزي ، وتلميذاً له ، واستمراراً لنمط تفكيره ، وكان يستعين بتلاميذه العرب في تحقيق المخطوطات التي كان يحصل عليها بوسائل بعيدة عن نزاهة العلماء[٢] ويتميز جهد المستشرق الالماني ـ فون شاك ـ في كتابه « شعر العرب وفنهم في اسبانيا ، وصقلية » ترجم الدكتور الطاهر احمد مكي الجزء الثالث منه طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٧ بعنوان « الفن العربي في اسبانيا وصقلية » والجزءان الآخران قيد الطبع .

وجهود المستشرقين الايطاليين تجلت في باحث جلد قدير هو ميشيل أماري نهض بجمع كل ما جاء عن المكتبة الصقلية في كتاب سماه « المكتبة الصقلية » خلال اكثر من ربع قرن (١٨٥٧ ـ ١٨٨٧) وكتب بعدها الكتاب الموسوم « تاريخ مسلمي صقلية » في ثلاثة أجزاء ، مارتينو ماريو ، بيروت ١٩٥٧ ويمثل كراتشكوفسكي مدرسة الاستشراق السوفيتية في آرائه التي ضمنها دراسته القيمة عن الشعر العربي في الأندلس ١٩٤٠ في كتاب دراسات في تاريخ الأدب العربي ، ترجمة الدكتور محمد منير مرسي القاهرة ١٩٧١[٣] للمستشرق الروسي جهد قيم في دراسة الأدب الجغرافي في الأندلس ضمن كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) ترجمة صلاح الدين عثمان ـ القاهرة ١٩٥٧ .

وفي عهد مبكر قام المستشرق التشيكي « نيكل » باختيار نصوص من الشعر الاندلسي وقدمها بعنوان مختارات من الشعر الاندلسي ، تقديم عمر فروخ بيروت سنة ١٩٤٩ .

لقد تمثلت جهود المستشرقين في اتجاهين :

---

(١) ترجمة ذوقان قرقوط دار مكتبة الحياة ـ بيروت د . ت .
وترجمة د . الطاهر احمد مكي بعنوان « الحضارة العربية في اسبانيا ، دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٩ تنظر المقدمة ص ٣ وللمزيد من المعلومات حول جهود بروفنسال تنظر ص٦ ـ ٨ .

(٢) مناهج المستشرقين ٢ / ٢٨٧ ـ ٢٨٨ وينظر كذلك حول أخطائه ص ٢٨٩ .

(٣) كذلك ترجمة محمد المعصراني ، اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي موسكو سنة ١٩٦٥ . دار نشر علم ، وافرد مرسي مبحثاً منه بعنوان ، الشعر العربي في الأندلس فنشره في القاهرة سنة ١٩٧١ .

الأول : نشر النصوص القديمة . وكانوا في ذلك روادأ سابقين . الا أن نشرهم النصوص القديمة حقق فائدة جليلة في وقته . وهي اليوم بحاجة الى ابناء اللغة العربية انفسهم ليعيدوا نشرها . فيعيدوا الوجه الناصع لتلك النصوص وينزهوها من الاخطاء التي ما كان للمستشرقين أن يتجنبوها بحدود امكانياتهم .

الثاني : كتابة وتحرير دراساتهم التأريخية الحضارية . عن تأريخ الأندلس وحضارتها . ومن أوجه تلك الحضارة اللغة العربية وآدابها .. وينبغي ان يكون الباحث العربي على مزيد من الحذر من آرائهم التي ضمنوها تلك الدراسات . فأنهم كما يقول الدكتور الطاهر مكي : « يكتبون في ضوء فهمهم وذوقهم . وتكوينهم المزاجي . ولصالح بلادهم وثقافتهم أولاً وأخيراً »(١) .

والباحث العربي لا يستطيع ان يستغني عن تلك الدراسات لأنها وضعت ايدينا على النصوص الأولية . التي لا يمكن للدراسة أن تكون بمعزل عنها . ولكننا نوظف تلك النصوص بما ينسجم مع نظرتنا الخاصة وفهمنا للتأريخ والحضارة .. فنأخذ من آرائهم ما ينسجم مع هذه النظرة وندع ما لا ينسجم .

اذا ما انتقلنا من جهود المستشرقين ازاء الأدب الأندلسي الى جهود العرب في المشرق العربي . لاحظنا نشاطها في النصف الثاني من القرن العشرين .... وبامكاننا تصنيفها الى أقسام ثلاثة : دراسات عامة في مجمل الأدب الأندلسي وتاريخه ودراسات التزمت بالمنهج التاريخي في دراسة الأدب الأندلسي ودراسات وقفت عند اتجاهات واضحة في الأدب الأندلسي . او عند بيئة ادبية خصبة . او لفنون اندلسية خاصة .

أ ـ الدراسات العامة في مجمل الأدب الاندلسي :

هذه الدراسات لم يتكامل في أحدها مقومات البحث المتكامل . بحيث تعكس صورة تامة للأدب الأندلسي منذ نشأته حتى انتهائه بسقوط الاندلس او اتجهت الى التعميم في الاحكام التي أصدرتها . ومن بواكير هذه الدراسات المتقدمة . كتاب أحمد ضيف . بلاغة العرب في الاندلس (ط ١ سنة ١٩٣٤ . ط ٢ سنة ١٩٣٨) . وهو كتاب في حوالي ثلثمائة صفحة . يعرض لدراسة فتح الاندلس . والفنون في الاندلس . والغناء ومجالس الأدب . ودراسة الشعر والنثر . وأشهر اعلامهما . كابن

---

(١) الحضارة العربية في اسبانيا ص ٥ .

شهيد ، وابن زيدون ، وابن عبد ربه ، والمعتمد بن عباد ، وابن وهبون ، وابن دراج ، وابن عمار ، وابن حمديس ، دراسة عامة مع دراسة الموشحات الاندلسية .

وعلى هذا النمط جاء كتاب كامل الكيلاني ـ نظرات في تاريخ الادب الأندلسي سنة ١٩٢٤ م[١] . ويتصدر كتاب الأمير شكيب أرسلان المكتبة الأندلسية ، مدة من الزمن ، وهو بعنوان « الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية » في ثلاثة مجلدات (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ م) ، ذكر الدكتور حمودة انه عزم ان يخرجه في عشرة اجزاء ، ثم حالت الوفاة دون اتمام بقية الاجزاء الثلاثة[٢] ، وقد أعيد طبعه مرات ، وهو كتاب موسوعي شامل للثقافة والأدب وفي سنة مقاربة صدر كتاب بطرس البستاني « ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث » بيروت سنة ١٩٣٧ .

وهناك كتب أخرى اقل شهرة من الكتب المذكورة مثل « الادب العربي في الاندلس » عبدالعزيز محمد عيسى ، القاهرة سنة ١٩٣٦ والادب الأندلسي لاحمد بلا فرج وآخرين سنة ١٩٤١ . ولاريب أن لهذه البواكير فضلاً في تعريف جهود المتأدبين بالأدب الأندلسي ، واما الآراء التي جاءت فيها فقد اعتمدت على النصوص المتوفرة آنذاك ، ولذلك جاءت الاحكام فيها عامة ، غير دقيقة .

وقد خطت الدراسات خطوة أوسع مع مضي الزمن ، فجادت على المكتبة الأندلسية ، في هذا الاتجاه ، اذ عرضت لقضايا الادب الأندلسي بشكل عام ، دون استقراء للنصوص ، وتحرٍ للشواهد عن كل ظاهرة واتجاه ، بشكل دقيق ، ومن هذه المؤلفات :

في الأدب الأندلسي ، د . جودة الركابي ، القاهرة سنة ١٩٥٧[٣] ، وأدب المغاربة والأندلسيين ، محمد رضا الشبيبي ، وهو مجموعة من المحاضرات ، ألقاها على طلبة الدراسات العليا بمعهد البحوث والدراسات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة سنة ١٩٦١[٤] ، وقصة الأدب الأندلسي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في جزئين بيروت سنة ١٩٦٢ . وتاريخ الأدب العربي في الأندلس للدكتور ابراهيم ابو الخشب

---

(١) الكتابان السابقان جهدان جامعيان على نطاق جامعة القاهرة انظر نقدهما في الادب العربي في آثار الدارسين ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

(٢) تاريخ الاندلس ـ السياسي والعمراني والاجتماعي ص ٦ .

(٣) ينظر نقد الكتاب في الادب العربي في آثار الدارسين ص ٢٦٥

(٤) ينظر نقد الكتاب في مجلة الكتاب ، العدد ١٠ ـ بغداد ١٩٧٤

القاهرة سنة ١٩٦٦ ، وللدكتور مصطفى الشكعة ، الادب الأندلسي ، موضوعاته وفنونه سنة ١٩٧٤ ، وهو طبعة ثانية موسعة لكتابه صور من الأدب الأندلسي ـ بيروت سنة ١٩٧١ ، وللدكتور عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس سنة ١٩٧٥ وللدكتور عمر الدُقاق ، ملامح الشعر الأندلسي بيروت ١٩٧٥ .

ب ـ دراسة الادب الاندلسي وفق المنهج التاريخي :

تتميز هذه الدراسات بالدّقة والمنهجية الى حد ما ، في تناولها دراسة الأدب والرجوع الى المصادر الأندلسية الاولية ، والإفادة من النصوص التاريخية ، والأدبية في تفسير الظواهر الأدبية والاتجاهات . ويتصدر هذه الكتب كتاب الدكتور احمد هيكل ، الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، القاهرة سنة ١٩٥٨ الذي طبع طبعات كثيرة ، وقد أفاد من دراسته الجامعية بمدريد ، واطلاعه على المصادر المخطوطة والمطبوعة في مكتباتها ، وآراء المستشرقين الاسبان في الادب الأندلسي[٣] .. ووعد بإكمال حلقة دراسات الأدب الأندلسي في عصوره التالية .. ويأتي كتاب الدكتور احسان عباس تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة ـ بيروت ١٩٥٩ ، موازياً لجهد الدكتور هيكل مختلفاً عنه في المنهج ، ويردفه بجزء ثانٍ عن عصر الطوائف والمرابطين ١٩٦٢ ، ويبقى كتابه متصدراً مدة طويلة ، ويطبع بطبعات كثيرة ، حتى جاء باحثون آخرون فخاضوا غمار هذه الدراسات .

فألف الدكتور حكمة الأوسي كتابه : فصول في الأدب الاندلسي في القرنين الثاني والثالث بغداد ١٩٧١ ، عرض فيه المؤلف لدراسة الشعر والنثر في هذين القرنين ، وتحدث عن أبرز شعرائهما . كما تحدث في فصلين عن الموشح ونشأته ، وآراء الدارسين فيه ، وخص الفصل الأخير بدراسة مظاهر التأثير العربي في الثقافة الأسبانية .

وفي عهد مبكر درس الدكتور حامد عبدالمجيد ، الشعر العربي في عهد الطوائف بالاندلس ، القاهرة ١٩٥٤ ، وكذلك أحرز فضل التقدم الدكتور بدير متولي حميد ، فدرس الشعر الاندلسي في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، القاهرة ١٩٥٥ ، والرسالتان لم تنشرا بعد .

---

(٣) ينظر نقد الكتاب في الادب العربي في آثار الدارسين ، ٢٦٥ والرد على هذا النقد في مقدمة د . احمد هيكل للطبعة الثانية في كتابه ص ٧ .

كذلك درس أدب عصر المرابطين الدكتور مصطفى عوض الكريم في كتابه ، « الادب الأندلسي في عهد المرابطين » وقد نشر بعد وفاته في السودان ١٩٦٨ . وتناول أدب عصر الموحدين الدكتور حكمة الأوسي في كتابه « الأدب الأندلسي في عصر الموحدين » القاهرة سنة ١٩٧٦ . واستثنى الشعر في هذا العصر الدكتور فوزي سعد عيسى وجعله موضوع رسالته للدكتوراه « الشعر الاندلسي في عصر الموحدين » الاسكندرية ١٩٧٩ .

اما الدكتور محمد مجيد السعيد ، فقد درس شعر العصرين المرابطي والموحدي في رسالته للدكتوراه الموسومة « الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس » بغداد ١٩٧٦ ، واما دراسة الشعر في ظل دولة بني الأحمر بالاندلس (٦٣٢ ـ ٨٩٧) ، فقد وقفت عندها رسالة ماجستير بجامعة بغداد سنة ١٩٨٣ للطالب حسين نصر ، وتعرضت له دراسات أخرى . عند دراستها شعراء هذا العصر امثال علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) ، وابن جابر الهواري (ت ٧٤٩ هـ) وابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) وابن زمرك (٧٩٥ هـ) وابي الوليد بن الأحمر (ت ٨٠٧ هـ) .

جـ ـ دراسات لاتجاهات متميزة وفنون خاصة بالاندلس :

وهذه الدراسات في مجملها أكاديمية تأتي في نطاق الجامعات العربية ، فقد وقف عدد من الدارسين عند الحواضر الاندلسية التي ازدهرت بالاندلس ، فأفردت فيها دراسات ، عن القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وهما عهدا تألق أدبي بالأندلس ، وتناولت بعض هذه الدراسات أبرز مدن الاندلس ، فدرس الدكتور صلاح خالص « اشبيلية في القرن الخامس الهجري » بيروت سنة ١٩٦٥ وتناول الدكتور محمد مجيد السعيد « الشعر في ظل بني عباد » بغداد ١٩٧٢ ، واستأثرت البيئة وآثارها باهتمام الدكتور سعد اسماعيل شلبي في رسالته للدكتوراه « البيئة الاندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف القاهرة ١٩٧٠ » وقد تناول البيئة الاندلسية باحثون آخرون ، منهم الدكتور جودة الركابي بعنوان : « الطبيعة في الشعر الأندلسي » القاهرة ١٩٥٩[1] ، والدكتور ميشال عاصي في « الشعر والبيئة في الاندلس » بيروت ١٩٧٠ .

---

(١) وللدكتور سليمان العطار « شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي » وهي رسالة للماجستير بالقاهرة ١٩٧٣ (غير منشورة)

وفي الاتجاهات التجديدية في الاندلس كتبت مؤلفات كثيرة منها كتاب : التجديد في الاندلس للدكتور باقر سماكة . بغداد ١٩٧١ . وكتبت بحوث عن الموشح والزجل منها رسالتا الدكتور عبدالعزيز الاهواني للماجستير والدكتوراه : الموشحات الاندلسية ١٩٤٦ . والزجل في الاندلس ١٩٥١ . وكتب الدكتور مصطفى عوض الكريم كتابه : فن التوشيح ١٩٥٩ .

وفيما يتصل بشخصية الأدب الاندلسي وتيارات التجديد فيها جاءت رسالة الدكتور سليمان حسن بعنوان « الشعر الاندلسي بين مظاهر التقليد والتجديد » جامعة الأزهر ١٩٧٨ . وكتب الدكتور جلال حجازي رسالة عن « ملامح الاصالة في الشعر الاندلسي » القاهرة ١٩٧٤[١] وكتب الدكتور علي الزبيدي بحثاً بعنوان « شخصية الادب الأندلسي »[٢] وكتب الدكتور حسن جاد بحثه الموسوم « الشعر الأندلسي بين التجديد والتقليد »[٣].

والتفتت الى النزعة الاسلامية في الشعر الاندلسي دراسة الدكتور منجد مصطفى بهجت « الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين » بيروت ١٩٨٦ . والى روح التصوف في الشعر دراسة الدكتور سليمان العطار « الخيال والشعر في تصوف الاندلس » القاهرة ١٩٨١ .

وتناولت شعر الجهاد الاسلامي رسالتان جامعيتان في الجامعة الاردنية . شعر الجهاد في عصر الموحدين . شفيق محمد عبدالرحمن ١٩٨١ . وشعر الجهاد في الاندلس في ظل بني الأحمر جمال عبدالجابر عبدالمعطي . ١٩٨٤[٤]. اما الباحث علي لغزيوي فيتناول أدب السياسة والحرب في الاندلس منذ الفتح حتى نهاية القرن الرابع الهجري موضوعاً للدبلوم ـ فاس ١٩٨٣ .

ومما يتصل بهذا اللون من الأدب . أدب الاستنجاد في الأندلس . حيث كان موضوع الماجستير لمصطفى بن يوسف الجامعة المستنصرية بغداد ١٩٨٥ .

اما النثر الاندلسي . فقد وقفت عنده دراسات كثيرة منها : رسالة دكتوراه « النثر الأندلسي منذ الفتح الى سقوط الأندلس » جـ ١ ـ ٢ . مصطفى محمود سليمان

---

(١) الرسالتان غير منشورتين

(٢) مجلة الجامعة المستنصرية بغداد العدد (٢) ١٩٧١

(٣) مجلة كلية اللغة العربية والدراسات الاسلامية ـ جامعة بنغازي ٩٧٣ / ١٩٧٤

(٤) الرسالتان غير منشورتين .

حسن ، جامعة الازهر ١٩٧٨ « والنثر الأندلسي في عصر الخلافة الاموية » فادي رشيد نحال وهي رسالته للماجستير بغداد ١٩٨٤ . ودراسة الدكتور حازم عبدالله خضر « النثر الاندلسي ، في عصر الطوائف والمرابطين بغداد ١٩٨٠ ، ودراسة الدكتور مصطفى السيوفي « ملامح التجديد في النثر الاندلسي ، خلال القرن الخامس الهجري » بيروت ١٩٨٥ وهما رسالتان لدرجة الدكتوراه ، وتأتي في هذا الاتجاه رسالة الماجستير لفايز عبدالنبي القبيسي بعنوان ـ أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري ـ الجامعة الاردنية ١٩٨٧ ، وجاءت رسالة الدكتوراه لحسين نصر لتدرس النثر الاندلسي في عهدي الموحدين وبني الأحمر بغداد ١٩٨٧ .

ولا بد لبيئة مثل الأندلس أنجبت أدباء كثيرين لهم نتاج أدبي ضخم ، أن يكون نقد متميز وشخصية نقدية خاصة ، وفي هذا الميدان جاء مؤلفان للدكتور محمد رضوان الداية ، تاريخ النقد الادبي في الاندلس بيروت ١٩٦٨ ، وللدكتور مصطفى عليان عبدالرحيم « تيارات النقد الادبي في الاندلس في القرن الخامس الهجري ١٩٧٨ ، ودراسة يعدها مقدار رحيم خضر بجامعة بغداد .

ولقد حظي ادب الزهد في الاندلس في عهد الطوائف والمرابطين وأدب القضاة بالأندلس برسالتي ماجستير لباحثين هما حميدة صالح البلداوي ، وبشرى البشير ـ جامعة بغداد ١٩٨٥ كما حظيت المرأة الأندلسية بعناية الدارسين ، فكتب الدكتور محمد حسن عمري رسالته في المرأة في الشعر الاندلسي ـ جامعة الازهر ١٩٧٨ ، وكتبت الباحثة منى سلمان علي ، رسالتها للماجستير عنها في عهد الطوائف ـ الجامعة المستنصرية بغداد ١٩٨٦ .

وقد تميزت الاندلس بأدب جغرافي ، أشرنا الى جهد كراتشكوفسكي فيه ، حين حديثنا عن جهود المستشرقين .

ويأتي في هذا الاتجاه ما كتبه الدكتور ـ حسين مؤنس « تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس » مدريد ١٩٦٧ .

اما الدراسات التي تتصل بالادباء والشعراء بالاندلس فهي كثيرة ولا تكاد تقع تحت حصر ، لاسيما بعد أن كثرت الدراسات الجامعية فيه ، ولكننا سنستعرض أشهر دواوين الشعر الأندلسي منذ الفتح حتى سقوط غرناطة ، وسنقرن هؤلاء الشعراء بوفياتهم ليعرف ادباء كل عصر من عصور الأندلس ، وفي الكتاب ملحق بدواوين الشعر الاندلسي ومجاميعه المطبوعة .

من المصادر الاولية

المغرب في حلى المغرب

تحقيق الدكتور شوقي ضيف دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦

أقسامه ومؤلفوه :

هذا الكتاب هو القسم الثالث الخاص بالاندلس من كتاب « المغرب في حلى المغرب » . واما القسمان الآخران فاحدهما خاص بمصر . والآخر ببلاد المغرب . وهو في خمسة عشر سفراً . ستة منها لمصر . وثلاثة لبلاد المغرب . وستة للاندلس . وقد اطلق على هذا القسم من الاصل « كتاب وشي الطِّرس في حلى جزيرة الاندلس » .

الف هذا المصنف بالموارثة . في مئة وخمسة عشر عاماً . ستة من أدباء الاندلس . تداولوه بالتنقيح والتكميل . واحداً بعد واحد . وقد باهى ابن سعيد بذلك في رسالته في فضائل اهل الاندلس[١] .

وفد ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الحجاري . على (عبد الملك بن سعيد)[٢] صاحب قلعة بني سعيد . بالقرب من غرناطة سنة ٥٣٠ هـ . وكانت في ظل سيادة المرابطين . فمدحه بقصيدة مطلعها :

عليكَ أحالني الذكر الجميل فجئتُ ومن ثنائك لي دَليلُ

ثم اتفق أن حدّثه عن شعراء الأندلس . وأدبائها . فأُعجب به وأكرمه . وسأله أن يصنف كتاباً فيهم . فصنف (المسهب في غرائب المغرب) . ولم يلبث أن أقبل عبد الملك على الكتاب بالقراءة والتنقيح . والتهذيب . والاضافة . وورثه منه أبناه احمد[٣] ومحمد[٤] . واولهما شاعر . وثانيهما والٍ . واضافا اليه كذلك . واعتنيا به . ثم ال الى ابن ثانيهما موسى بن محمد[٥] (ت ٦٤٠ هـ) فاعتنى به عناية كبيرة واسلم موسى ما بين يديه الى ولده (علي) ليخرجه بصورته النهائية . ثم أصبح الكتاب ينسب اليه .

---

(١) النفح ٢ / ١٨٢

(٢) ترجمتهما في المغرب ٢ / ١٦١

(٣) المغرب ٢ / ١٦٤ . النفح ٢ / ١٨٢

(٤) المغرب ٢ / ١٦٢ . النفح ٢ / ٣٢٥

(٥) المغرب ٢ / ١٧٠

ولكل من المؤلفين الستة ترجمة في المغرب[١]، وهم بين أديب وشاعر، وخمسة منهم من أسرة واحدة كما رأينا. وآخرهم أشهرهم وأذيعهم منزلة، في التأليف والتصنيف وقد بذل هو وابوه جهداً كبيراً في تصنيف الكتاب، حتى انهما رحلا الى بعض النبهاء، لما علما أن له كراريس في شعر شعراء الموحدين وسُرّ الأب بها اكثر من سروره بالولاية.

ولعلي بن موسى كتاب آخر على غرار المغرب في الاسم والمضمون سماه (المشرق في حلى المشرق) وهو معارضة لكتاب المغرب وقد بذل في الكتابين الكثير كي تقر عين ابيه بهما، وتم له ذلك ولكن بعد موت ابيه، ولعلي حول وطول وقوة عارضة في ميدان التأليف، فقد أنتقى من كتاب المغرب فألف: «رايات المبرزين وغايات المميزين» وله كتاب «الغصون اليانعة في أخبار المائة السابعة» وكتاب «المرقصات والمطربات» و «الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد» و «المقتطف من أزهار الطرف» و «القدح المعلى في التاريخ المحلى» نشر مختصره باسم «اختصار القدح المعلى»[٢] ويروي المقرى انه ترك كتابا يسمى «المرزمة» يشتمل على وقر بعير رزم الكراريس.. كان له ديوان متعدد الاسفار، رآه المقري، وما وصل من شعره ينم عن شاعر متوسط في الجودة الفنية كما يرى شوقي ضيف[٣]. وقد كتبت دراسات موسعة عن ابن سعيد[٤]. وقامت محاولات على جمع شعره[٥].

منهج تأليفه

جعل ابن سعيد كتابيه في منهج واحد، المغرب والمشرق، ورتب الكتابين على البلاد يبتدي بكرسي المملكة ومكانتها في الاقاليم، ومن بناها، وما يحيط بها من نهر او خاصة معدنية او نباتية ومن تولاها من الملوك. ثم يتناول الطبقات وهي

---

(١) المغرب ٢ / ١٧٢

(٢) حققه الاستاذ ابراهيم الابياري ط٢ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٨٠

(٣) مقدمة المغرب ١ / ٩

(٤) ينظر ما كتبه د. محسن حامد العبادي، ابن سعيد الاندلسي حياته وتراثه الفكري والأدبي (ط النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٢) وللاستاذ محمد عبد الغني حسن دراسة عنه بعنوان ابن سعيد المغربي، المؤرخ الرحالة، الأديب ط الانجلو المصرية ١٩٦٩

(٥) جمعها وحققها ودرسها وترجمها الى الاسبانية د. عدنان صالح مصطفى، ينظر: كتابه في الشعر الاندلسي ص ٦٤.

خمس ، الأمراء ، الرؤساء والعلماء والشعراء ، واللفيف . ودار قاعدة المملكة عنده عروس ، وللعروس ، منصة ، وتاج ، وسلك وحلة ، واهداب ، والمنصة ، خاصة بالمعلومات الجغرافية عن القاعدة وما يتصل بذلك . وأما التاج ، فخاص بالامراء ، واما السلك فبالاشراف والرؤوساء من الوزراء والكتاب والفقهاء والنحاة والمحدثين ، ولكل مجموعة كتابٌ خاص بها داخل السلك .

اما الحلة ، فللفيف ممن ليس له نظم ولا شعر . والأهداب خاصة بالوشاحين والزجالين . فاذا كانت المدينة كبيرة وضع لها البساط مقابل المنصة وهذه التقسيمات تشبه الشجرة في كثرة فروعها وهي غير مطردة في جميع الكتاب .

وقد جعل الكتاب في ثلاثة اقسام غرب وموسطة وشرق . ثم أفرد لكل قسم كتابا على النحو الذي ذكرنا فالكتاب الاول سماه : « العرس في حلى غرب الاندلس » وأقسامه سبعة :

١ ـ كتاب الحلة المذهبَة في حُلى مملكة قرطبة .
٢ ـ كتاب الذهبية الاصيلية في حُلى المملكة الاشبيلية .
٣ ـ الفردوس في حلى مملكة بطليوس .
٤ ـ كتاب الخلب في حُلى مملكة شِلب .
٥ ـ كتاب الديباجة في حُلي مملكة باجة .
٦ ـ الرياض المصونة في حلي مملكة أشبونة .
٧ ـ خدع الممالقة في حلي مملكة مالقة .

والكتاب الاول ينقسم الى أحد عشر كتاباً وكل كتاب ينقسم الى أقسام أخرى . واهم مصادر الكتاب : المشاهدة والرواية الشفهية ثم المصنفات التي رجع اليها المؤلفان وقد وضعت في اصل الكتاب لا في الهوامش كما نفعل اليوم وهي كتب جمة كثيرة منها مفقود[1] . وللكتاب قيمة فذة تأتي من هذا الحشد وهو يقوم لنا الشعراء وبيئاتهم وما جرى من أحداث في بلدانهم ثم للكتاب قيمة تكمن فيما اورد من أخبار الوشاحين والزجالين وقد نقل عنه ابن خلدون كثيراً وكذلك المقري باشارة وبدون اشارة .

وقد وقف دارسون كثيرون عند كتاب « المغرب » ضمن ما وقفوا من مؤلفات ابن سعيد . منذ عرفت شخصية علي بن موسى . بضربها في فنون العربية بسهم

(١) المغرب ١ / ٣٤

وافر . الا أن الدكتور عبد العزيز الاهواني[١] . وجد في اصدار المؤلف على ان مؤلفي الكتاب كانوا ستة وانهم استغرقوا هذه المدة الطويلة نوعاً من المبالغة . اذ ان ضآلة مادة الكتاب لا تتناسب مع قرن وبعض قرن من جهاد علمي .. وان الكتاب ليس فيه الاستيعاب والاحصاء الذي يجدر بكتاب ينعت بهذه النعوت ..

نفح الطيب

هذا الكتاب جليل من مصادر المكتبة الاندلسية . قام على طبع القسم الاول منه مبكراً عدد من المستشرقين هم دوزي وكريل ودوجاورايت في ليدن (١٨٥٥ ـ ١٨٦١) وترجم القسم الاول منه جايانجوس باسكوال الى الانكليزية ونشره بعنوان آخر في لندن (١٨٤٠ ـ ١٨٤٣) . وترجمه الى الفرنسية دوزي وديجا بعنوان آخر كذلك[٢] .

وقد طبع اكثر من مرة . طبع في بولاق (١٢٧٩ ـ ١٨٦٢) في اربعة اجزاء وفي الازهرية (١٣٠٢ ـ ١٨٨٤) . في اربعة اجزاء كذلك . ونشره محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٤٩ في عشرة اجزاء وطبعات أخريات[٣] . ومن هنا نعلم أهمية هذا الكتاب . واهتمام الباحثين به منذ عهد مبكر .

مؤلفه :

ولد ابو العباس أحمد بن محمد المقري الملقب بشهاب الدين عام ٩٨٦ هـ بمدينة تلمسان بالجزائر . وأصل اسرته من قرية (مَقَّرة) بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة وكان آباؤه قد نشأوا فيها وقرأ بهذه المدينة حتى ارتحل في زمن الشبيبة الى فاس . ثم عاد اليها ليهاجر ثانية ويترك مسقط رأسه نهائياً عام ١٠١٣ هـ وأقام مدة طويلة ليغادرها عام ١٠٢٧ هـ الى الشرق حيث أدى الحج وزار المدينة وظل يتردد عليها حتى كان في عام ١٠٣٧ هـ قد زار مكة خمس مرات والمدينة سبع مرات .

---

(١) نقد الدكتور عبد العزيز الاهواني للكتاب في مجلة معهد المخطوطات ١٩٥٥ ، ١ / ٢ / ٣١٢ ، ٣١٤

(٢) النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب ١١٥

(٣) مقدمة النفح للدكتور احسان ع. ص ١ / ١٩

وكان له نشاط علمي مشهود خلال زياراته تلك . واستقر فيما بعد في مصر ونشط في التدريس هناك وسافر الى دمشق ليلتقي بعلمائها واعيانها . ولم يتفق لغيره ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس ، وقد عاد الى مصر رغم اعجابه بدمشق ، وفيها تزوج ورزق ابنة ، توفي عام ١٠٤١ هـ وللمقري مؤلفات كثيرة أشهرها هذا الكتاب وكتاب أزهار الرياض [١].

اسباب تأليفه ومنهجه

حدث المقري تلامذته عن لسان الدين بن الخطيب ومكانته السياسية والأدبية فأثار ذلك في نفوسهم العجب والحّوا عليه إلحاحاً كثيراً فوعد بكتابة كتاب عنه في القاهرة . وكان يزمع أن يسميه « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب » فلما رأى ان المادة التي اجتمعت لديه استفاضت وشملت الأندلس غير اسمه الى « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » والحق انّ دوافع التأليف تعدو ما تقدم من قصة لقائه بتلامذته في دمشق وإعجابهم بابن الخطيب ، وإنما كان ذلك امرأ ساعد على إنجاز فكرة سابقة تجول في فكره ، واذا كان إعجاب المقري بابن الخطيب حافزاً قوياً في كتابة مؤلف عنه فإن شعوره بالغربة والحنين الى الماضي لاستعادة ذكرياته عزز فكرة تأليف كتاب شامل عن الاندلس .خاصة بعد ان فارق وطنه وكانت مأساة الاندلس ما تزال ماثلة بين عينيه ، ثم إنه كان يشعر بأهمال المشارقة للتراث الأندلسي والمغربي بسبب ضعف الثقافة . ولذلك انصرف لتأليف هذا الكتاب .

كل هذه الدوافع تفهم من مقدمته الطويلة لكتابه التي جاءت في مئة واحدى وعشرين صفحة ، وقد جعله قسمين في كل قسم ثمانية أبواب :

القسم الاول : فيما يتعلق بالاندلس من الأخبار .

الباب الأول :في وصف جزيرة الاندلس وخيراتها .

الباب الثاني : في فتح الاندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد .

---

(١) في مؤلفاته تنظر مقدمة المحقق الدكتور احسان عباس ١ / ١١ ـ ١٤ ، النقد الادبي في كتاب نفح الطيب ٤١ ـ ٥٠ .

الباب الثالث : في سرد أعمال الفتح والجهاد بالاندلس .

الباب الرابع : ذكر قرطبة مركز العاصمة ووصفها .

الباب الخامس : في الراحلين من الاندلسيين الى المشرق .

الباب السادس : في الوافدين من المشارقة الى الاندلس .

الباب السابع : في توقد الاذهان وحب الاندلسيين للمعرفة وبراعتهم في الاجوبة .

الباب الثامن : تغلب ملوك الافرنج على الأندلس .

اما القسم الثاني :

ففي التعريف بابن الخطيب . وجعله في ثمانية ابواب تناول فيها ذكر أبنائه . وأسلافه ونشأته . وترقيه . ومنافسيه . ومشايخه . ومخاطبات الملوك له . وثناء علماء عصره عليه . وجعل من نثره ونظمه وأزجاله وموشحاته ومصنفاته في الفنون ومؤلفاته ما بقي منها وما كمل وذكر تلامذته الآخذين عنه واولاده المقتفين له .

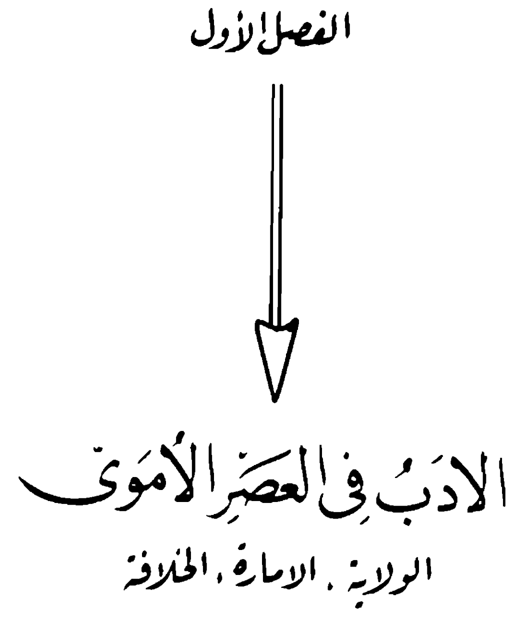
قيمته الأدبية

ينحو نفح الطيب منحى الكتب الموسوعية التي يغلب عليها الجمع للمادة . وسرد الأخبار التاريخية والمناظرات الأدبية ويتبع في ذلك اسلوب الاستطراد وهو يكثر من النقل من الكتب . وقيمته تكمن في انه ينقل من كتب مفقودة الى يومنا هذا . وبعضها الآخر الذي نشر لا يقلل من شأن رواية المقري لها فأسلوبه الموسوعي يجعله مغنياً للباحثين عن الرجوع الى تلك المصادر . ويعجب د . إحسان عباس[1] بفضل المقري وقابليته على تسخير مادته لتصوير الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية بالأندلس . وفضلا عن ذلك فهو أديب ذواقة . يعاني الشعر ويميز جيده من رديئه . له صولات وجولات نقدية . مما يعرف به ذوقه وحسن اختياره الشعر . وقد درست هذا الجانب فيه هدى شوكة بهنام[2] .

---

(١) مقدمة النفح ١ / ١٨

(٢) النقد الادبي في كتاب نفح الطيب ، ط ١ الغري النجف سنة ١٩٧٧ .


الفصل الأول
الأدبُ في العصرِ الأُموي
الولاية . الإمارة . الخلافة

المبحث الأول
الشعر والشعراء

أولاً : الشعر في العصر الأموي :

لابد لدارس الشعر الأندلسي في عصوره الأولى أن يقف باديء ذي بدء على الموثرات التي خضع لها الأدب بشكل عام . حيث يرى الدكتور حكمة الأوسي أن أبرز ظرفين خضع لهما الأدب في القرن الثاني الهجري يتمثلان في[1]:

١ ـ الظروف التي كانت سائدة في الأندلس تلك التي اتسمت بالاضطراب والتنافس بين القبائل العربية المختلفة وقبائل البربر فضلاً عن الاستمرار في عمليات الفتح ومحاربة الاسبان .

٢ ـ التأثير المشرقي وذلك لأن أكثر سكان الأندلس كانوا من النازحين عن بلاد المشرق . وكانت مخيلتهم تحفظ ذكريات عميقة الأغوار عن بلادهم التي غادروها . حيث تذكروا الأهل والخلان . واشتاقوا الى الصحب والأوطان . ولذلك عَبِقت أشعارهم بمشاعر فياضة . ودموع سخينة . ذرفوها كلما تاقت أنفسهم الى تلك الرّبوع . ولقد بقيت المؤثرات المشرقية . موصولة ببلاد الأندلس . الى مطلع القرن الرابع الهجري . حيث نلمح سمات نضج واكتمال في الشخصية الأندلسية وأما في القرنين الثاني والثالث الهجريين . فإن الرحلة من المشرق الى الأندلس . وبالعكس كانت الوّرد الذي يروّى الحضارة الأندلسية الناشئة .

ومن السمات الواضحة في الشخصية الأندلسية . مما انعكس على الشعر الأندلسي عدم انصهارها وتوحدها مع البيئة الجديدة . والمجتمع الجديد . كذلك يلاحظ انصراف الأندلسيين عن الثقافة وتفرغهم للحروب والجهاد في سبيل الله حيث اشار بالنثيا الى أن الداخلين الى الأندلس من العرب كانوا جميعاً من المحاربين[2].

---

(١) فصول في الأدب الاندلسي ٣٨

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ص ١ .

إن قلة ما وصل بين أيدينا من نصوص شعرية كان بسبب الضياع والفقدان إذ ليس من المعقول أن ينحسر الشعر هذا الانحسار في التعبير عن حياة الجهاد والحروب في الأندلس . ومن النّصوص القليلة التي عبّرت عن هذه الحقيقة أبيات أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي . الذي كان يلقّب بعنترة الأندلس . وكان قد شهد فتوح المسلمين بأفريقية قوله في الثأر الذي أخذه لعزيز من قومه[1] :

فليتَ ابن جُّواس يخبّر أنني	سَعيتُ به سعيَ امرئٍ غيرَ غافلِ
قتلتُ به تِسعين نحسبُ أنهم	جذوع نخيل صُرِّعت بالمسايلِ
ولو كانت الموتى تباعُ اشتريتَه	بكفّي وما استثنيت منها أناملي

ومن ذلك أبيات لأبن قُلزم يخاطب ابن ابي عبيد (ت ٢٨٧ هـ) وذلك في حربه لأبن حفصون الذي تآزر مع الاسبان :[2]

ففي كل صيف وفي كل مشتى	غزاتان منك على كل حالِ
فتلك تبيدُ العدو وهذي	تفيدُ الإمام بها بيت مالِ

ومن الموضوعات التي نظم فيها الشعراء في هذا العصر . الشوق والحنين الى بلاد المشرق وبين أيدينا أبيات تنسب لعبد الرحمن الداخل سنقف عندها في موضع آخر من هذه الدراسة .

ويشير الدكتور حكمة الأوسي الى ضرب ثالث من الشعر ذلك الذي صور لنا بعض الكوارث الطبيعية . منها القحط الشديد الذي نزل بالأندلس سنة ٢٧٥ هـ حيث استسقى الناس مراراً حتى ارتفع البأس فقال الشاعر العكي أبياته مصوراً تلك الحالة . يخاطب بها المنذر بن محمد :[3]

نزل الحيا المحيي وطابت أنفس	اذ كانَ سوء الظن فيها يهجسُ
أحيا الإله عباده من بعد ما	كادت من القنط النفوس توسوس
متلافيا فيه بعائد رحمةٍ	لولا عوائدها طوتنا الا بؤس
ملك الملوك تقدست اسماؤه الـ	حسنى . وعزّ جلاله المتقدس

---

(١) جذوة المقتبس ص ٢٠٠ ، الأدب الأندلسي ٦٦ .

(٢) البيان المغرب ٢ / ١٣٩ وينظر فصول في الأدب الأندلسي ٤٠ .

(٣) البيان المغرب ٢ / ١١٩ وينظر فصول في الأدب الأندلسي ٤١ .

وأمثال هذه النوازل الطبيعية كثير . فمن ذلك المجاعة التي حصلت بعد القحط المتقدم ذكره بعشر سنوات سنة ٢٨٥ هـ وكان شديداً جداً بحيث جعل الناس يسمون السّنة بها سنة « لم أظن »[١] وليس من المعقول الا يقال فيها شيىء ويتساءل الدكتور الأوسي فيقول ، « فالذي يقول شعراً في مطر يهطل بعد انقطاع وقحط . الا يقوله في مجاعة تعم فتضطرب لها النفوس ويخامر الناس القنوط ؟ » .[٢]

أما الاستاذ عبدالله كنون فيرى أن أكبر ميزات الشعر الأندلسي التي تطالعنا انه شعر حضري لا جاهلية له وليس يُشبهه في ذلك شعر قطر من الاقطار العربية . ولعل مرجع ذلك في البلاد العربية الى جساوة في الطباع . وقساوة في البقاع . فأن الاقليم في الشرق . غيره في الغرب ولا سيما الأندلس والمزاج يتكيف بتكيف الاقليم رقة وغلظة . وليناً وشدة . ويخلص الى القول بأن الشعر الأندلسي بقي مصوناً من عنجهية البدو . لا جاهلية له مطلقاً .[٣]

أما الرافعي فيرى أن شعراء العصر الأول بالأندلس أمثال ابي الخطار . والصميل ، وأبي الأجرب جعونة ، قالوا شعراً على مذهب الأوائل من جاهلية العرب[٤] . لكنّ كنون ينكر أن يكون هؤلاء .. من شعراء الأندلس ! لأنهم كانوا من الطائفة الأولى التي نزحت الى الأندلس ، ولأنهم لم ينشأوا فيها ولم يؤثروا فيمن اتى بعدهم[٥] .

ومن المحدثين يجعل الدكتور احمد هيكل أبرز سمات الشعر في عهد الخلافة مركزة في خمس[٦] :

ا ـ ظهور الاتجاه المحافظ الجديد ويريد به الاتجاه المضاد للاتجاه الحديث الذي تزعمه ابو نواس ..

ب ـ تطور الاتجاهات السابقة . المحافظ المحدث والشعبي .

حـ ـ تسرب بعض الأفكار العلمية . على نحو ما نجده في أبيات ابن عبد ربه التي

---

(١) البيان المغرب ٢ / ١٣٩ .

(٢) فصول في الأدب الاندلسي ص ٤١ .

(٣) الشعر الأندلسي ، مجلة المجمع العلمي العربي ٣١ / ٣ / ٣٧١ .

(٤) تاريخ آداب العرب ٣ / ٢٥٩ .

(٥) الشعر الأندلسي مجلة المجمع العربي ٣١ / ٣ / ٣٧١ .

(٦) الأدب الأندلسي ـ ١٩٨ ـ ٢٢٦ .

يناقض فيها فكرة مسلم بن أحمد ابن ابي عبيدة الفلكي المعروف بصاحب القبلة (ت ٢٩٥ هـ) وذلك في قصيدة ينكر فيها كروية الأرض ، وهي من الأبيات الطريفة التي تنبىء عن التقدم العلمي الذي احرزه علماء الأندلس[١] :

أبا عبيدة ما السوآل عن خبرٍ	تــحــكـيــه الاسواءَ والذي سألا
أبيتَ الأشذوذأ عن جماعتنا	ولم تُصب رأى من أرجى ولا اعتزلا
وقلت أن جميع الخلق في فلك	بهم يحيط وفيهم يقسم الاجلا
والأرض كُروية حفَّ السماء بها	فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلا
صيفُ الجنوب شِتا للشَمال بها	قد صارَ بينهما هذا وذا دولا

د ـ الازدواج اللغوي ، وذلك بانتقال بعض الالفاظ من عامية الأندلس الرومانثية الى الشعر الفصيح ، وهي ظاهرة لا تقتصر على هذا العصر بل تتصل بالعمر المديد الذي عاشته الأندلس ، وقد اشرنا الى هذه الظاهرة حين درسنا خصائص العربية الأندلسية .

هـ ـ تصوير العهد الذهبي في جانبيه الرسمي وغير الرسمي فيما صوره الشعراء في أشعارهم خلال عهد الخلافة حيث بلغت عهدها الذهبي على نحو ما جاء في أبيات المنذر بن سعيد البلوطي ، في تصوير سفارة الروم .. او المناسبات المماثلة أما الجانب غير الرسمي ، فيتمثل في موضوعات الشعر التقليدية التي تعرب عن التقدم في هذا العصر .

أما الدكتور سعد اسماعيل شلبي فيصنف الأدباء الذين وصلت آثارهم الشعرية الى ثلاث طبقات منطلقاً من الطبقات التي اشتغلت به وهي :

١ ـ الامراء ، والمراد بهم أمراء الأندلس وحكامها .
٢ ـ الفرسان ومنهم سعيد بن جودي والصميل .
٣ ـ الشعراء والمراد بهم الشعراء الذين تفرغوا لقول الشعر وانصرفوا اليه[٢] .

واذ يقرر الدكتور بدير متولى حميد قلة مصادر الشعر الأندلسي في عصوره الاولى ، وقلة الدراسات فيه ، وغلبة السمة المشرقية عليه ، يؤكد لنا أن ظروف

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ١٢٦ رقم ١٤٢٠ .
(٢) ابن حمديس الصقلي حياته من شعره ، د . سعد اسماعيل شلبي ص ٢٤ (مكتبة غريب ١٩٧٧) .

الأندلس الاولى كانت صارفاً للعرب عن الاتجاه نحو البيئة الجديدة . فلم يحسوا جمالها ولم يتأثروا بها[1].

ومن هنا يخلص الباحث الى صورة مصغرة للأدب الأندلسي بشكل عام ـ في عصوره المتقدمة وهذه الصورة ستتضح ابعادها كلما وقفنا على مزيد من النصوص . والوثائق التي لم يصل منها الا النزر اليسير .

وفيما يلي سنتوقف عند أبرز شاعرين في هذا العصر هما :

١ ـ عبد الرحمن الداخل .
٢ ـ يحيى الغزال .

عبد الرحمن الداخل (١١٢ ـ ١٧٢ هـ)[*] :

اذا كان الشعراء يحتاجون الى تعريف ، فمن من أبناء العربية لا يعرف الأمير الشاعر ، وقد ذاع من أخباره وأنبائه . ما سار مسار الأمثال . في مضمار الشجاعة والبأس ؟

نشأ في كنف جده هشام بعد موت أبيه معاوية ، وهو صغير السن . وما كاد يشب عن الطوق ، وقبيل بلوغه سن العشرين حتى سقطت دولة الأمويين ، وأخذ العباسيون يتعقبون من بقي من بيت الحكم الأموي . وفر عبد الرحمن بسبب ذلك الى المغرب ، ثم أخذ يوطِّد لنفسه الامور . ويستعيد مجد آبائه حتى تكللت محاولته بالنجاح بعد حوالي خمس سنوات من فراره وذلك سنة ١٣٨ هـ .

لقد روى عبد الرحمن قصة فراره من الموت الزؤام . حين قدم بنو العباس يبحثون عنه ، ولندع الشاب الأديب يحدثنا باسلوبه الشائق . عن تلك الأيام العصيبة . بلغة أدبية رائعة . تمثل صورة من صور النثر الفني حرصنا على ايرادها لأنها نص نثري متميز . يقول :

« وإني لجالس يوماً في قرية على شط الفرات . في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي . وابنى سليمان يلعب أمامي . اذ دخل الصبي فزعاً باكياً . فأهوى الى

---

(١) قضايا اندلسية ٧.

(*) ينظر في ترجمته ، أخبار مجموعة ٤٩ وما بعدها ، الحلة السيراء ١ / ٣٥ ـ ٤٢ ، البيان المغرب ٢ / ٤٧ ـ ٦١ تاريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ ٤ / ٨١ ـ ٨٣ .

حجري ، فجعلت أدفعه لما كان بي ، ويأبى الا التعلق بي ، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ! فخرجت لأنظر فاذا بالرّوع قد نزل بالقرية ، فنظرت ، فاذا بالرّايات السود عليها منحطة . واخ لي حدث السن ، كان معي يشتد هارباً . ويقول لي ، النجاة يا أخي ! فضربت بيدي الى دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسي ، والصّبي أخي معي ، واعلمت أخواتي متجهي .. وخرجت ، فكمنت في موضع ناء عن القرية ، فما كان الا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار ، فلم تجد أثراً ، ومضيت ولحقني بدر فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لي دواب ، وما يصلح لسفري ، فدَلَّ علي عبد سوء له . فما راعنا إلا جلبة الخيل ، تحفزنا فسبحت حالماً لنفسي ، وسبح الغلام أخي .. »[1] .

ويُغرر بأخيه وينجو عبد الرحمن محتملاً في أخيه ثكلاً . ملأه مخافة . ثم يستقر به الأمر ليرحل الى المغرب . ويبدأ مرحلة جديدة من حياته . حيث يجمع أنصاراً وأصدقاء . وينازل آخر ولاة الأندلس يوسف الفهري . ويدخل قرطبة سنة ١٣٨ هـ .

لقد أفاضت المصادر التاريخية في الحديث عن منجزات الأمير على المستويين الداخلي والخارجي وقد تناولت منجزاته تلك دراستان موسعتان[2]. وقد تلقب بألقاب كثيرة منها ؛
« الداخل » ومنها « صقر قريش » واللقب الأول يرد في قصيدة له مطلعها[3]:

لا يلف ممتن علينا قائل   لولاي ما ملك الأنام « الداخل »

وأما اللقب الثاني فقد اطلقه عليه « المنصور العباسي » الذي كان مأخوذاً به الى حد جدُّ بعيد[4] .

لقد كان عبد الرحمن فرعاً من شجرة البيت الأموي الفينانة . التي تحدث المؤرخون عن ملكهم لأعنة البيان . واستحواذهم على ناصيته . « فلو زعم أحد أنّه لم

---

(١) أخبار مجموعة ٦٢ ، النفح ٣ / ٢٧ .

(٢) الاولى ؛ دراسة السيدة فريدة رؤوف الانصاري بعنوان : « الامارة الأموية بالأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل رسالة ماجستير بغداد ١٩٧٦ والثانية ؛ دراسة ابراهيم ياس خضير الدوري بعنوان « عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية » وزارة الاعلام بغداد سنة ١٩٨٢ ، وهي رسالته للماجستير في جامعة الأزهر ١٩٧٩ .

(٣) النفح ٣ / ٤٢ .

(٤) البيان المغرب ٢ / ٥٩ ـ ٦٠ .

يقم احد من أمراء الأندلس وخلفائها الى آخر القرن الخامس الا وهو جامعٌ أسباب الأدب لكان حقيقاً في زعمه بالتصديق .. »[١] .

وما يهمنا ـ في مقامنا هذا ـ الوقوف على الجانب الأدبي . فهو وأن كان مقلاً في الشعر . فأن ما وصل منه على جانب من البراعة . بحيث نجد اشعار كثير من الأمراء . تتضاءل في صدق العاطفة . ازاء ما نظمه عبد الرحمن الداخل . في التشوق والحنين الى أوطانه[٢] .

وقد أبدى النقاد القدماء إعجابهم بشاعريته . فأشار الحجاري (توفي بعد ٥٣٠ هـ) فيما نقله المقري وقال : « كان من البلاغة بالمكان العالي الذي يرتد عنه اكثر بني مروان حسيراً)[٣]

وأعجب ابن الخطيب به فقال « كان عبد الرحمن بن معاوية فصيحاً بليغاً . حسن التوقيع . مليح الفصول . مطبوع الشعر . معدوداً من أهل العلم » . وكانت فصاحته وبلاغته وحسن بداهته مدعاة لاعجاب معاصريه به[٤] .

ومن هنا فقد اجتمع للرجل من المكانة والسلطان . ومن البراعة الفنية وجودة الشاعرية ما أذاع أشعاره وأشهر أدبه ولعل المكانة والسلطان هما السبب المباشر في ذلك على نحو ما يشير ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) الى أن من الشعر ما يروى ويستجاد لنبل قائله[٥] .

شعره

يأتي شعر عبد الرحمن قسيماً لشعر الأمراء والملوك . وقد عنى بدراسة أشعارهم عدد من القدماء والمحدثين[٦] .

ان السمة الاولى التي تميز شعر الامراء والملوك تتمثل في الجانب الانساني الذي تصوره الاشعار . من حياتهم لاسيما إذا غلب الجانب الشعري على الجانب السياسي

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢ / ٢٦٩ .
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ـ ١ / ٩١ .
(٣) النفح ٣ / ٣٩ .
(٤) البيان المغرب ٢ / ٥٨ .
(٥) الشعر والشعراء ١ / ٣١ (ط دار الثقافة) .
(٦) في الحلة السيراء نصوص كثيرة للملوك الشعراء وينظر كتاب الملوك الشعراء للدكتور جبراليل جبور(ط ١ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨١) شعر الخلفاء في العصر العباسي الأول ، مؤيد فاضل رسالة ماجستير الازهر ـ ١٩٧٨ .

والاداري لتلك الشخصيات . وكان هذا الجانب مستبعداً أن يكون فيهم ، وهم من هم عزاً وجاهاً ، وسطوة وبأساً . وليس الأمر كذلك فان الملوك والصعاليك متساوون ، فيما يعرض لهم من عواطف انسانية .

ويدور شعر الداخل في مجمله في محورين اثنين هما :
شعر حماسة وفخر ، وشعر شوق وحنين .

ومما جاء في المحور الأول فيما رواه ابن فرج الجياني ان آت ممن كان يعرف كلفه بالصيد ، أتاه فأخبره عن غرانق وقعت الى جانب معسكره في احدى حملاته ، وحركه الى اصطيادها[١] :

دَعــنى وصــيد وقــع الــغرانــقْ
فأنَّ همّى في آصطياد المارقِ
في نفق إن كان أو في حالق
اذا الــتـظـت هواجر الـطرائـق
كان لَفاعي ظلّ بندٍ خافق
غَنِيت عن روض وقصرٍ شاهق
بالــقَــفر والايــطان بالــسُّرادق
فقلْ لمن نام على النمارق
إن العُلا شُدَت بهم طارق
فاركـب الـيـها ثـبـج الـمـضائـق
أولا ، فأنــت أرذل الــخلائــق

والقصيدة على بحر الرجز مشطورة وهو وزن ينسجم مع مثل هذا الموضوع . وأكثر طرديات ابي نواس جاءت في الأراجيز . أما القافية فمؤسسة دخيلة تنتهي بروي قلّما يجيد فيه الشعراء وهو القاف[٢] وتسقيم القافية مطلقة ومقيدة اذ تكون مخبونة صحيحة أو مقطوعة في الحالة الثانية ولكل منهما جرس موسيقي خاص والاطلاق آصل لاتفاق الكسر مع لفظ القافية . والرّاجح في الأبيات انها مما قاله ارتجالاً لا سيما أن القدماء يشيرون الى ارتجاله عدداً من القصائد[٣] .

---

(١) أخبار مجموعة ١٠٧ ، الحلة السيراء ١ / ٤١ .
(٢) عبد الرحمن الأديب ، ص ١٨٢ ، مقال الدكتور عبد السلام الهراس في مجلة المناهل العدد ٢٢ سنة ١٩٨٢ .
(٣) النفح ٣ / ٤٢ .

ويتمثل في شعره عزة نفسه . وآبائه . فقد بلغه أن بعض أعوانه يمنّ عليه . ويزعم أنه لولاه لما صار اليه من ملك ومجد . ولعل المقصود به هو مولاه بدر . وفي ذلك يقول(١) :

لا يُلفَ ممتنٌ علينا قائلُ   لولايَ ما ملكَ الأنامَ الداخلُ
سَعدي وحَزمي والمهنّد والقَنا   ومقادرٌ بلغتْ وحال حائلُ
إن الملوك مع الزمان كواكب   نـجـم يـطالـعـنا ونـجـم آفـل
والحزم كل الحزم الا يغفلوا   أيروم تدبـــير الـــبرية غافــــل

وأما اشعاره في المحور الثاني ـ الشوق والحنين ـ فقد وصلت منها ثلاث مقطعات منها ما أنشده الحميدي في تاريخه . متشوقاً الى معاهده بالشام(٢) :

ايـها الراكـب الـمـيَـمـم أرضـي   أقْرِ منى بعضَ السلام لبعض
إن جسمي كما علمت بأرضٍ   وفؤادي ومالـــكـــيـــه بأرضِ
قدر الـبـيـن بـيـنـنا فافـترقـنا   وطوى البين عن جفوني غمض
قد قضى الله بالفراقِ علينا   فعَسَى باجتماعنا سوف يقضِ

ونظر الى نخلة مفردة فهاجت شجنه وتذكر بلد المشرق فقال(٣) :

يا نخلُ أنت غريبةٌ مثلي   في الغَرب نائية عن الأصل
فابكي وهل تبكي مكبَّسة   عجماء لم تطبع على خَبْلِ
لو أنها تبكي . اذاً لبكتْ   ماءَ الـفرات ومـنـبـتَ الـنَـخـلِ
لـكـنـهـا ذَهَـلَـتْ وأذهـلـنـي   بغضي بني العباس عن أهلي

ومما قال منها على البديهه . وكان ذلك أول نزوله منية الرصافة . بقرطبة واتخاذه لها(٤) :

---

(١) نفح الطيب ٣ / ٤٢ . وتنظر ابياته التي تجري في هذا الاتجاه ومطلعها :
شتّان من قام ذا امتعاض منتضي الشفرتين نصلا (نفح الطيب) ٣ / ٤٣ .
(٢) تنظر في الأبيات : جذوة المقتبس ١٠ . الحلة السيراء ١ / ٣٦ ـ ٣٧ . البيان المغرب ٢ / ٨٩ . نفح الطيب ٣ / ٥٤ .
(٣) الحلة السيراء ١ / ٣٧ .
(٤) النفح ٣ / ٥٤ .

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل

ويناقش ابن الآبار نسبة هذه المقطعات اليه ويدفع ان تكون لغيره بل يثبت نسبتها اليه[1].

ويرى الدكتور عبد السلام الهراس « أن الحاح الشاعر على الفاظ الفراق : (المنتأى . البين . الاقصاء . التغرب . النوى . الافتراق) وانشطار الذات بين المشرق والمغرب . والذهول خلال مقطوعات ثلاث . ليكشف عن مدى تعلقه بالمشرق . وعن عمق المرارة التي يعانيها من التشرد الذي قدر عليه . وظل هذا الشعور قوياً . في اعماقه . رغم ما ادركه من مجد وشاده من ملك »[2].

ويرى كذلك أن أبياته ذات نغمة حزينة أسية لارتباطها بذكريات مؤلمة وبآمال شاحبة . وبأمان تكاد تكون مستحيلة[3].

أما الدكتور احمد هيكل فتستوقفه هذه الأشعار ويجد أن أبرز ما فيها هو عنصر العاطفة حيث استطاع الداخل ان يشخص من النخلة انساناً حياً ويجد بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها في حنو ويناجيها في عطف . كل ذلك يجعل العنصر العاطفي . أبرز عناصر المضمون الشعري ولذلك يطلق عليها تسمية « التركيز العاطفي » ويجعلها من السمات المميزة لشعر عصر الامارة[4].
ويستحوذ النص الاخير (تبدت لنا ..) على اعجاب عبد الله كنون فيري في ابياته نفثة سحرية[5].

وأما المستشرق الروسي كراتشكو فسكي فيرى في أبياته « يا نخل ... » أنها تناظر ـ في عاطفتها ـ ابياتاً لمطيع بن اياس (ت ١٦٦ هـ) يخاطب فيها نخلتين في حلوان (في العراق)[6].

---

(١) الحلة السيراء ١ / ٣٧ ـ ٣٨ ، وينظر دراسات في تاريخ الأدب العربي ٩٩ .
(٢) عبد الرحمن الأديب ١٧٨ .
(٣) نفسه ١٨٢ .
(٤) الأدب الأندلسي ٩٣ ـ ٩٥ .
(٥) الشعر الأندلسي ، بحث في مجلة المجمع العربي السوري ٣ / ٣ / ٣٧٤ سنة ١٩٥٦ .
(٦) دراسات في تاريخ الأدب العربي ، ٩٩ .

ولقد تقدمت بنا آنفاً . التفاتة الدكتور احسان عباس الى هذه الناحية . ونلاحظ أن جلّ اشعار الشاعر . تأتي في الأوزان الخفيفة . التي تحاكى اضطراب مشاعره وانفعالاته . بأستثناء النص الأخير . وقطعة اخرى[١] .

نثره

وأما الجانب الثاني . من شخصية عبد الرحمن الادبية . فهو يتمثل في نثره . فقد كان من ذوي المواهب المزدوجة . ومجموع ما وصل الينا منه . لا يتجاوز خمسة عشر نصاً . بضمنها النص الذي تحدث فيه عن قصة هربه من العباسيين . وقد أشاد الباحثون به ناثراً كما أشادوا به شاعراً . وصفه ابن حيان بأنه كان « بليغاً مفوها طلق اللسان . ويخطب على المنبر »[٢] ويتناول نثره من حيث المضمون ثلاثة اتجاهات رئيسة :

اولها : يتمثل في ثلاثة نصوص جرت في معرض الحوار والمناظرة بينه وبين مولاه بدر . ومنها ما قاله بدر يمن على مولاه : « بعنا أنفسنا وخاطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله » .

وقال كذلك وقد أمره بالخروج الى غزاة : « انما تعبنا أولاً لنستريح اخراً . وما أرانا الا في اشد مما كنا » .

ثم كتب له رقعة يذكره بفضله ويُدِل عليه ويلومه فيها . على اعراضه عنه . فلما وقف عبد الرحمن على رقعته . اشتد غيضه عليه فوقَع عليها[٣] « وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أدبك . ولئيم معتقدك . والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا مُتاتاً[٤] . أتيت بما يهدم كل متات مشيد . مما تمن به . مما قد أضجر الأسماع تكراره . وقدحت في النفوس إعادته . مما استخرنا الله تعالى من أجله . على أمرنا بأستئصال مالك . وزدنا في هجرك وإبعادك . وهضنا جناح إدلالك . فلعل ذلك يقمع منك . ويروعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى . فنحن أولى بتأديبك . من كل أحد . اذ شرّك مكتوب في مثالبنا . وخيرك معدودٌ في مناقبنا » .

---

(١) قطعته التي مطلعها :

لا يلف ممتن علينا قائل   لولاي ما ملك الانام الداخل

(٢) النفح ٣ / ٣٧

(٣) النفح ٣ / ٤٠

(٤) المتات . ما يمت به كالماته . الحرمة والوسيلة

ويبدو ان العلاقة ازدادت سوءاً بينهما حتى افضت بالامير الى أن يأمر بنفيه عن قرطبة الى أقصى الثغر ويخاطبه بقوله[١]: « لتعلم انك لم تزل بَمقْتِك حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت الى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى ان ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلا ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك معي الدنيا، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان، وما تقولوه عليك، وما لك عدو أكبر من لسانك، فما أطاح بك غيره، فأقطعه قبل أن يقطعك ».

وثانيها: يتمثل في خطبه القصيرة الموجزة، وقد جاء منها نصان في وقعة المصارة، التي كان انتصاره فيها فاتحة حكمه في الأندلس، فقد نقل المقري انه لما أنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال[٢]: « لا تستأصلوا شأفة اعداء ترجون صداقتهم واستبقوهم لأشد عداوة منهم » يشير الى استبقائهم ليستعان بهم على اعداء الدين.

ولما اشتد الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهري ورأى شدة مقاساة أصحابه قال[٣]: « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه، إما ذلّ الدّهر وإما عزّ الدهر فأصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بها بقية اعماركم فيما تشتهون ».

وثالثها: يتمثل في توقيعاته الادبية وأجوبته السريعة في حالات تعرض له كما حصل في جوابه على رجل من جند قنسرين يستجديه[٤]. او كما حصل في توقيع له على كتاب جاءه من سليمان الاعرابي كان قد سلك فيه سبيل الخداع فقال[٥]: « اما بعد فدعني من معاريض المعاذير، والتعسف عن جادة الصواب، لتَمدنَّ يداً الى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة أو لأزوين بنانها على رضف المعصية، نكالاً بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد ».

واما ما يتبقى من نثره، فهو يتناول شؤونه الشخصية، ممثلةً في قصة هروبه من العباسيين كما رواها بنفسه، وفي مقالته بعد أن قتل ابن اخيه المغيرة، الذي سعى

---

(١) النفح ٢ / ٤١
(٢) النفح ٢ / ٤٢
(٣) نفسه ٢ / ٤٢
(٤) النفح ٢ / ٣٩
(٥) البيان المغرب ٢ / ٨٦، النفح ٢ / ٣٩

في طلب الامر لنفسه فقتله سنة ١٦٧ هـ[١]، ومحاورته لنكفات زوجة أبي قرّة وانسوس التي أخفته حين هروبه[٢] وهي تجري مجرى الحوار .

والسمة الواضحة في نثر الداخل انه كان جارياً فيه على طريقة المشارقة ، ناسجاً على منوالهم ، وهو ـ ضمن هذا الاتجاه ـ يميل الى الايجاز[٣] في الكلام وتخير فصيح الالفاظ مع سهولتها ، وعدم التعقيد في أساليبها .

يحيى الغزال (ت ٢٥٠ هـ)

اولاً : حياته :

يحيى بن حكم الغزال . ينتسب الى جيان المدينة الاندلسية المشهورة . وأسرته في أصلها تنتمي الى (بكر بن وائل) . القبيلة العربية المعروفة . وقد لقبه الأمير عبد الرحمن الاوسط بلقب الغزال . حيث دخل يحيى عليه ذات يوم فحياه بقوله :

« جاء الغزال بحسنه وجماله »

وطلب اليه أن يجيزه فقال[٤]

قال الأمير مداعبا بمقاله : « جاء الغزال بحسنه وجماله »
أين الجمال من امرى أربى على متعدد السُبعين من أحواله ؟

أورد منها ابن عذارى اربعة ابيات . وذكر ان القصيدة طويلة[٥] وقد اضطربت الآراء حول سنة وفاته . إلا أنها تجمع على أنه ناهز المائة ولعل الراجح في وفاته أنها سنة ٢٥٠ هـ . واذا صحت نسبة البيت الذي يقول فيه . اليه[٦] :

ومالي لا أبلى لتسعين حجةً وسبع أتتْ من بعدها سنتانِ

فإن ولادته تكون في حدود سنة ١٥٠ هـ[٧] .

---

(١) النفح ٢ / ٤٧

(٢) النفح ١ / ٣٣٢

(٣) ينظر موقفه من كاتبه امية بن يزيد حين اطال كتابة رسالة الى احد عماله فأمر بتمزيق الكتاب وكتب رسالة موجزة بنفسه ، البيان المغرب ٢ / ٨٦ ـ ٨٧ .

(٤) مجموع شعره ق ٤٠ في فصول الادب الاندلسي ص ١٩٢

(٥) البيان المغرب ٢ / ٩٢

(٦) نفسه ق ٤٤

(٧) ينظر في وفاته : جذوة المقتبس ٣٧٥ ، بغية الملتمس ص ٥٠٠ ، المطرب ١٣٧ ،

وتستفيض المصادر الأولية في الحديث عن الشاعر . وأبرز الأحداث التي مرت عليه ويعزز تلك الروايات ما جاء مقترناً بأشعاره . فقد كان متفاعلاً مع أحداث عصره . السياسية . والإجتماعية . وجاءت أشعاره لتصوّر لنا حياته . بكل أبعادها . وشخصيته المتعددة الجوانب .

وفي مقدمة الأحداث التي مرت على الشَّاعر . قَبضُه أعشار الغلال في زمن عبد الرحمن الأوسط . وتصرفه بها . فأدّى به ذلك الى السجن . وفيه نظم قصيدته البائية . التي يستعطف فيها الامير . ويطلب العفو منه ومطلعها[١] :

بعض تصابيك على زينب لا خَيرَ في الصَّبوة للأشيب

وفيها يتحدث عن استعداده لدفع الأموال التي تصرف بها :

إن تُرِدِ المالَ فإني أمرؤ لم أجمع المالَ ولم أكسبِ
اذا أخذتَ الحقَ مني فلا تلتمسِ الرِّبحَ ولا تَرغبِ
قد أحسنَ اللهُ الينا معا إن كانَ رأسُ المالِ لم يَذهبِ

ومن الأحداث الأخرى البارزة في حياته . سفارته الى بلاد النورمان عن الامير الأندلسي . ورأى آخرون أنها كانت الى بلاد الروم (القسطنطينية) . ورأى غيرهم انهما كانتا سفارتين اثنتين[٢] . واينما صحّت الرواية . فأن الشاعر وصف لنا رحلته في ابياتٍ بارعةٍ . يقول فيها[٣]

---

(١) مجموع شعره ق ٤ / ١ ، ١٥ ـ ١٧

(٢) تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) ١ / ١٦١، دولة الاسلام في الاندلس ٢٧٨، الاسلام في المغرب والاندلس ١١٣ ، غارات النورمانيين على الاندلس ص ٢٨ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٢ / ١ / ١٩٤٩ ،

وقد اختلفت المصادر الأولية في وجهة هذه السفارة ففي الجذوة ٣٧٤ والبغية ٥٠٠ ، والمغرب ٢ / ٥٧ ، انها الى صاحب القسطنطينية في بلاد الروم ، ويؤيد ذلك المقري في موضعين من نفح الطيب ١ / ٣٤٦ نقلاً عن مقدمة ابن خلدون ، والموضع الثاني ٢ / ٢٥٨ نقلاً عن المقتبس لابن حيان ، وقد حدد تاريخ سفارته الدكتور الحجي بسنة ٢٢٥ ، وتذكر المصادر أن عودته من بلاد النورمان كانت سنة ٢٢٢ هـ « الاتجاه الاسلامي ٥٨ هامش ١) ، ويبدو أن المطرب لابن دحية (ت ٦٣٣ هـ) ص ١٣٨ هو أقدم من ذكر انها كانت الى بلاد المجوس (الدنمارك) ، وقد نقل المقري في موضع ثالث ٢ / ٢٥٧ عن المطرب خبر هذه السفارة ، وفي قصيدته البائية ، ما يشير الى انها لبلاد المجوس ، ولكن بروفنسال اشار الى ان « تود » هو اختصار لاسم « تيدورا » ملكه الروم ينظر / المجموع ، رقم ٥ وينظر هامش ٢)

(٣) مجموع شعره ق ٢٤

قال لـــي يـــحـــيى ، وصرنا   بـــيـــن موج كالـــجـــبال
شَقّتْ الـقَـلـعـيـن وانبـت   ت عُرى تـلـك الـحـبالِ
وتـمـطّى مـلـكُ الـموتِ   إلـــيـــنا عـــن خَـيالِ
فرأيـــنا الـــموتَ رأى الـــ   عـــيـــن حالاً بـــعد حالِ
لـم يـكـن لـلـقوم فـيـنا   يارفـــيـــقـــي رأسُ مالِ

وتطنب المصادر في الحديث عن سفارته ، وما صادفه فيها من احداث ، بحيث نجد شيئاً من اضطراب في شخصيته من خلال تلك الروايات .

فهو يرفض ـ واعضاء سفارته ـ الركوع للملك ولا تأخذه في التزامه بآداب الشريعة الاسلامية في الله لومة لائم ـ ويخاطب الملك بشجاعة بالغة ، ويحدثه ، كما يحدث زوجته ، بأحاديث عن سير المسلمين ، وأخبارهم ، وبلادهم ، ومن تلك الأشعار قوله[١] :

بَكَرَتْ تُحسّنُ لي سواد خضابي   فكأن ذاك أعادني لشبابي
ما الشيبُ عندي والخِضاب لواصفٍ   الا كشمسٍ جُلّلت بضَبابِ
تَخفَى قليلاً . ثم يقشعها الصَبا   فيصير ما سترت به . لذهابِ
لا تُنكري وَضحَ المشيبِ فإنّما   هو زهرةُ الأفـــهامِ والألـــبابِ

ونلاحظه يرفض شرب الخمرة حين تدعوه الملكة الى ذلك ويشير الى موقفه هذا في ابيات شعرية ولكننا نجد في موقف آخر . شخصيةً تنحرف الى طمع مادي وعدم تقدير للمسؤلية على نحو ما يشخصه الدكتور الاوسي من مظاهر سلوكه[٢] .

واما الحدث الثالث فيقع للشاعر بعد عودته من سفارته حيث يرى ان زرياب يتمتع بنفوذ كبيرة عند الامير . فيدخل في خصومة معه . تؤدي بالغزال الى الرحيل عن الاندلس الى الشرق . هناك يلتقي بتلاميذ ابي نواس . ويرى ما هم عليه من تهوين للشعر الاندلس . وشعرائه . حتى اذا دار الحديث عن أبي نواس الشاعر المبجل لديهم . قال لهم من منكم يحفظ قصيدته[٣] :

ولما رأيتَ الشَّرب أكدَت سماؤهم   تأبطت زقي واحتسبت عنائي

---

(٢) نفسه ق ٦
(١) فصول في الأدب الاندلسي ١٠٣ ـ ١٠٤
(٢) مجموع شعره ق ١

فلما أتيت الحان ناديت ربه — فهب خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع الليل الا تعلةً — على وجل مني ومن نظرائي
فقلت : اذقنيها ، فلما أذاقني — طرحت اليه ريطتي وردائي

فأعجبوا بها كثيراً ، وذهبوا في مدحها كل مذهب ، فلما أفرطوا قال لهم خفضوا عليكم ، فأنه لي فأنكروا ذلك . فأنشدهم قصيدته التي مطلعها[١] :

تداركت في شرب النبيذ خطائي — وفارقت فيه شيمتي وحيائي

ومن الدارسين المحدثين الدكتور احمد هيكل الذي صنف لنا حياة الشاعروجعلها في ثلاث مراحل[٢] :

مرحلة الشباب والنزق وفيها غلب على شعره طابع الخمر والمجون والميل الى الدعابة ، ومرحلة الكبر والتعقل وفيها غلب على شعره طابع النقد الاجتماعي والاخلاقي وتعمق روح السخرية والاحساس بالمرارة الى حد التشاؤم ، واما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الضعف والزهد وتغلب فيها على شعره موضوعات الشكوى من تقدم السن والزهد في الدينا ومتاعها .

والذي نراه ان هذه المراحل مراحل نظرية ليس لدينا من حياة الشاعر ما يؤيدها واما المؤشرات التي نفيدها في أشعار الشاعر ـ من حيث المضمون ـ فهي ليست دليلًا على هذه المراحل ، اذ أن اكثر ما يرد من أشعاره يقترن به بعد تجاوز سن الخمسين وأول الأحداث التي مرت بالشاعر ، ما نقلته المصادر عن قبضه الاعشار وتصرفه فيها وسجنه فيما بعد وقصيدته البائية التي صدرت من السجن تشير في مطلعها الى بلوغه الخمسين .. واما احداث سفارته ورحلته الى المشرق اذا صحت .. فكلها حدثت ايضاً بعد السبعين كما تشير الى ذلك اشعاره .

فليست هناك اذن ـ بالمفهوم الدقيق ـ مرحلة شباب ونزق ولا مرحلة كبر وتعقل اما المرحلة الثالثة فلدينا كثير من الشعر في تأييدها

ثانياً : ديوانه وأبرز موضوعاته :

اشتهر يحيى الغزال بالشعر ، وذاع صيته بين أدباء عصره فأصبح أحد كبار الشعراء لا في الاندلس فحسب ، بل في الشعر العربي بشكل عام ، ومنذ عهد مبكر ،

(١) نفسه ق ٢
(٢) الادب الاندلسي ١٦٤ ـ ١٦٦

التفتوا الى جمع أشعاره . وقد وصفت بالكثرة . جمعها حبيب بن احمد الشطجيري[١] . وقد نهد الدكتور حكمة الأوسي الى جمع أشعاره بعد أن فقد المجموع القديم . فاجتمع في مجموعه ما يناهز ثلاثمائة[٢] بيت . واستدرك عليه هلال ناجي عدداً آخر من الأبيات[٣] . بلغت حوالي خمسين بيتاً .

واذا اردنا أن نقف على موضوعاته الشعرية فيما وصل الينا من اشعاره . استوقفتنا ظاهرة غريبة . تتمثل في فقدان اشعار الغزال . لا سيما تلك التي نظمها في مدح ملوك الامويين . بعد أن زامن خمسة منهم . وهو القائل[٤] :

ادركت بالمصر ملوكاً أربعة وخامسا هذا الذي نحن معه

فمن غير المعقول الا ينظم في مدح ملوك عصره . وهو موضع ثقتهم .. بعد أن تولى مهامَ صيرته في ظلهم .. ومنها سفارتاه الى بلاد النورمان . وبلاد الروم ... وما بين ايدينا من اشعاره في هذا الباب لا يعدو قصيدته التي يستعطف بها عبد الرحمن بن الحكم الاوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨) . ولم نجد من أخباره ما يشير الى صلاته بملوك الأندلس الذين أدركهم ومن أبياته في بائيته يقول[٥] :

مَن مبلغٌ عني إمامَ الهُدى الوارثَ المجدِ أباً عن أبِ
وأصبح المشرقُ من شوقه إليك قد حنَّ الى المغرب
مِنْبره يهتف من وجده اليك بالسهل وبالمرحب
خفا به الوجد فلو منبر طار لوافى خطفة الكوكب
الى جميل الوجه ذي هيبة ليست لحامي الغابة المغضب
لا يمكن الناظر من رؤيته الا التماح الخائف المذنب

وقد أعجب القدماء بأبياته المتقدمة آنفاً في معنى الهيبة . ورأى الدكتور بدير متولي حميد أنه كان مجدداً فيها سابقاً البحتري[٦] (ت ٢٨٤ هـ) . وربما كان الأخير متأثراً به .

---

(١) جذوة المقتبس ٣٧٥ . البغية ٥٠١ . كشف الظنون ٨٠٤
(٢) فصول ١٧٢ ـ ١٩٥
(٣) هوامش تراثية ص ١٠١ ـ ١٠٥
(٤) مجموع شعره ق ٣١
(٥) مجموع شعره ق ٤
(٦) قضايا اندلسية ص ٦٤

وفي المقتبس اورد بيتين في بيعة الامير محمد[1] ، وهناك نتفتان ، كل واحدة في بيتين في المديح ، غير معروف لمن وجههما .

ويتصدر موضوع الحكمة والزهد موضوعاته الشعرية ، اذ بين ايدينا سبع عشرة قطعة في هذا الموضوع ، وتصوره أشعاره في سني حياته الأخيرة ، يصدر عن حكمة بالغة ، وتجربة محنكة ، وتتقدم قصائده في هذا الباب ، قصيدة طويلة في عشرين بيتاً ، يظهر فيها عزوفه عن اللذات والمتع المحرمة فيقول[2] :

لعَمري ما ملكْتُ مِقْودِي الصِّبا — فأمطو لِلذاتِ من السّهل والوعرِ
ولا أنا ممن يؤثر اللهوَ قلبَه — فأمُسيَ في سكرٍ وأصبحَ في سُكرِ
وباللهِ لو عمِّرتُ تسعينَ حِجَّةً — الى مِثلها ما اشتقت فيها الى خمرِ
ولا طرِبتْ نفسي الى مزهرٍ ولا — تَحنّنِ قَلبِي نحو عودٍ ولا زَمرِ

ثم ينتهي الى ضرورة استثمار هذه الدنيا بصالح الأعمال فيقول :

فهل لك في الدنيا سوى السّاعة التي — تكونُ بها السَّراء أو حاضر الضَّر
فما ساقَ منها لا يمسّ ولا يرى — وما لم يكنْ منها ، عميٌ عن الفكرِ
فطوبى لعبد أخرج الله روحه — اليه ، من الدنيا ، على عمل البرِ

ويبدو أن الشاعر بقي يضرب اكبادَ الأرض ، فصوّر لنا غربته التي فرقته عن الأحباب والخلان في أسلوب حوار مع انسانة قريبة منه ، ربما كانت زوجة او ابنة تخشى عليه العطب في رحلته يقول[3] :

وكم ظاعنٍ قد ظن أن ليس آيبا — فآبَ وأودَى حاضرون كثيرُ
رأيتُ المنايا يدركُ العُصَم عدوُها — فينزِلها والطير منه تطيرُ
وعلى أمضي ثم أرجع سالما — ويهلك بعدي آمنونَ حضورُ
وكيف أبالي والزمان قد انقضى — وعظمي مَهيضٌ والمكانُ شطيرُ
وقد يهرُب الانسان من خيفه الردى — فيدركه ما خاف حيث يسير

---

(١) المقتبس ١٣٤

(٢) مجموع شعره ق ١٥ و ٢١

(٣) المجموع ق ٢٩ ، ق ٣٠ والراجح ان القطعتين في أصلهما قصيدة واحدة .

ومن أبياته الحكمية قوله(١):

من ظنّ أن الدهرَ ليس يُصيبه ... بالحادثات . فإنه مغرورُ
فالقَ الزمانَ . مهوناً لخطوبه ... وانجرّ حيثُ يجركَ المقدورُ
واذا تقلبت الأمورُ ولم تَدمْ ... فسواءٌ المحزونُ والمسرورُ

وفي اخريات حياته وبلوغه أرذل العمر . يدعو الناس الى أخذ الموعظة مما ادركه . والحال الذي بلغه(٢):

تسألني عن حالتي أم عَمرْ
وهي تَرى ما حلّ بي من العبرْ
اربَدّ منّي الوجهُ وابيض الشعْر
وصارَ رأسي شهرةً من الشَهرْ
فانظرْ الي واعتبرْ ثم آعتبرْ
فانّ للحليم في معتبرْ

ويحذر الغزال من صولة الزمن لان السلطان لا يدوم وبشاشته سرعان ما تنصرم(٣):

. وإن أعطيت سلطاناً ... فحاذرْ صولةَ الزمنِ
أخو السلطان موصوفٌ ... بحسنِ الرّأي والفطنِ
كأنّ بشاشة السلطا ... ن حين تزول لم تكن

وثاني موضوعاته الشعرية الذي انتظم ما وصل الينا من شعره . هو نقد المجتمع من نواحٍ متعددة . وصور مختلفة . يكشف عن عيوبه المستشرية . ويوجه سهامه . لهؤلاء الذين انحرفوا عن جادة الصواب . بأسلوب المبالغة . ويتوقف عند بعض تلك الآفات . ليعالج الرياء . عند من يُظهرُ صلاحاً ونقاءاً . وتأتي معالجته سافرة متهكمة . في قوله :

اذا أخبرتَ عن رجلٍ بَريء ... من الآفاتِ ظاهره صَحيحُ
فسلْهم عنه هل هو آدمي ... فإنْ قالوا نعم . فالقول ريحُ
ولكن بعضنا أهل أستتار ... وعند الله أجمعنا جريحُ
ومن إنعام خالقنا علينا ... بأن ذنوبنا ليستْ تفوح

(١) ق ١٧ (٢) ق ٢٠ (٣) ق ٥٠

فلو فاحت لاصبحنا هروباً فرادى بالفلا ما نستريح

وقد لمح الدكتور بدير متولي حميد . تأثر هذه الأبيات بأبيات لأبي العتاهية (ت ٢١١) التي يقول فيها :[١]

أخانك الطرف الطموح ايها القلب الجموح
أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح

وله أبيات بائية يختصها بمراء يظهر للناس بصمت . وقطوب . وخشوع . يحاوره فيقول :[٢]

قلت : هل تألمُ شيئاً ؟ قال : أثقالُ الذنوبِ
قلت : لا تُعنَ بشيءٍ أنتَ في قالبِ ذيبِ

وفي أبيات بائية أخرى يغلي مِرجله . ويسوء ظنه . في الناس فيتهمهم بالحيلة . والغدر . والانتقام . حين يحدثنا فيقول :[٣]

لا . ومن أعملَ المطايا اليه كلُّ من يرتَجى اليهِ نَصيبا
ما أرى هَهنا من النَّاسِ الا ثَعلباً يطلبُ الدّجاج وذَيبا
أو شبيهاً بالقِط ألقى بعينيهِ إلى فارةٍ يريدُ الوُثوبا

وفي قصيدة أخرى يرى أن الأعمال هي مقياس الرجولة . ويؤكد ضرورة انشغال كل بعيبه عن الآخرين . ويهَول من آفة اللسان[٤].

الناس خلقٌ واحد متشابه لكنما تتخالف الأعمالُ
ولكلِّ انسانٍ بما في نفسه من عيبه من غيره إشغالُ
ورأيتُ ألسنةَ الرِّجال أفاعيا طوراً تثور وتارة تغتالُ

ولا يغادر شاعرنا بؤر الفساد . حتى يلمز أساليب الكسب . غير المشروعة . فيقول في سخرية شديدة :[٥]

إن الحلال وحده لا يختمرْ اين ترى مالاً حلالاً قد ثمر ؟
ما إن رأينا صافياً منه كثر

---

(١) قضايا اندلسية ٥١ وينظر : ابو العتاهية أشعاره وأخباره تحقيق د . شكري فيصل ٩٧ .
(٢) ق ٩ (٣) ق ٨ (٤) ق ٣٦ (٥) ق ٢٧

ولذلك يدعو الى الزهد والقناعة في الحياة ، ويسخر من قيم الناس ، حين يفرقون بين بني الانسان ، حياً وميتاً ، فأن محاولتهم آيلة الى الفشل والبوار ، لأن العبرة بما في قعر القبر لا بمظهره :(١)

أرى أهلَ اليسار اذا توفوا	بنوا تلك المقابرَ بالصخور
أبوا الا مـــباهاةً وفـــخراً	على الفقراء حتى في القبوَرِ
ألماً يبصروا ما خرّبته الد	هورُ من المدائن والقصورِ ؟
لعمرُ أبيهم لو أبصروهم	لما عُرِفَ الغنيَّ من الفقيرِ
ولا عرفوا العبيد من الموالي	ولا عرفوا الاناثَ من الذكورِ
اذا أكل الثرى هذا وهذا	فما فضل الكبير على الحقير ؟

وتواجهنا قصائد كثيرة في هذا الاتجاه ، تصور لنا تجربته مع المرأة ، وتتلخص هذه التجربة في مشكلة قديمة جديدة ، تتمثل في التفاوت بين عمر الرجل والمرأة ، يسوقها مرة في صيغة حوار بين أب وابنته ، يخيرها في الزواج بأحد رجلين ، شيخ غني ، وفتى فقير ، فتختار ثانيهما :(٢)

وخَيرَها أبوها بين شيخ	كثيرِ المالِ أو حدثٍ فَقيرِ
فقالت : خطتا خسف ، وما ان	أرى من حظـوة للمستخيرِ
ولكن إن عزمتَ فكل شيء	أحبَ اليَ من وجه الكبيرِ
لأن المرءَ بعدَ الفقر يثري	وهذا لا يعود الى صغير

وترد ثانية في صورة أمرأة تبادله الحب فيسيء الظن بها :(٣)

قالتْ : أحبك قلت : كاذبة	غري بذا من ليس ينتقد
هذا كلامٌ لـسـتُ أقـبـلـه	الـشـيـخ لـيـس يـحـبـه أحد

ويتكرر الموضوع ثالثة في أبيات نونية :(٤)

إن الفتاة وإن بدا لكَ حبها	فبقلبها داءٌ عليك دفين
واذا ادعين هوى الكبير فإنما	هو للكبير خديعةٌ وقرون

وفي الغالب ان الشاعر عاش أبعاد هذه التجربة . وأن أبياته مما نظم في شيخوخته التي ثقلت عليه . فكان يعاني من متاعب كثيرة . فهو لذلك لا يثق بودّ المرأة ، ويتهمها بالتضليل والخداع :(٥)

---

(١) ق ١٦ (٢) ٢٤ (٣) ق ١٤ (٤) ق ٤٥ (٥) ق ٢٥

يا راجياً ودَ الغواني ضلةً ففؤادُه ـ كلفاً بهنَ موكَلُ
لا تكلفنَ بوصلهنّ فإنما الـ كلِفُ المحبَ لهنّ من لا يعقلُ

وأما الموضوع الثالث الذي اسلس الشاعر له قياده فهو الغزل والمجون . وما بين أيدينا من شعره . لا يعدو عشر قصائد . وأشهرها همزيته . التي تقترن برواية رحلته الى المشرق . ونشك في تلك الرحلة . ونُرجح أن القصيدة نظمت بقصد اظهار الباع . وابداء البراعة . في النظم . وجاء الرواة . فأوحت مخيلتهم الخصبة قصة رحيله الى المشرق . والقصة مما ينسجم مع الاتجاه العام للأندلسيين والروح المسيطرة عليهم في معارضة المشارقة واظهار التفوق عليهم :

وفي الغزل الماجن له قصيدتان متقاربتان في الطول مطلع الاولى :(١)

لم أنس اذ برزت الى لعوب طرباً وحيث قميصها مقلوب

ومطلع الثانية :(٢)

كتبت وشوق لا يفارق مهجتي ووجدي بكم مستحكم وتذكري

وهي أكثر وقاراً من الأولى وأعف في معانيها . يبدؤها بالشوق الى قرطبة لأنه اودع فيها أهل وده . وذكرياته العبقة . وهي مشوبة بالأسى والأسف . على ما تصرم من تلك الأيام ثم يختمها بالبكاء . والسلام الكثير . فيقول :

الا يا نسيم الريح بلِّغ سلامنا وصف كلَما يلقى الغَريبُ وخَبرَ
وقل لشعاع الشمس بلغ تحيتي سميك وأقرأها على آل جعفرِ

وفي قصيدة ثالثة . يحدثنا عن شوقه . ويبث لواعج حبه . في نقاء وعفاف ويضمنها اشواقه . ووجده بعد أن شتت الدهر شمله . وخَاس الزّمان به . حتى انتهت تلك الوشائج الروحية الى صورة من الغدر والجفاء :(٣)

أقرَ السَلام على إلف كَلِفتُ به قد رُمت صبراً وطولُ الشوق لم يَرِمِ
كنا كروحين في جسم غِذاؤهما ماءُ المحبةِ من هامٍ ومنسجمِ
ففرّق الدّهر شملاً كان ملتئما منا وجمع شملاً غير ملتئمِ
اشكو الى الله ما القي بفرقته شكوى محب سقيم حافظ الذممِ
لو كنت أشكو الى صم الهضاب إذن تفطرت للذي أبديه من ألمِ

(١) ق ٧ (٢) ق ٢٦ (٣) ق ٤١

ومن قصائده ما جاء مخالفاً للبناء المألوف للقصيدة العربية . اذ يستهل قصيدته بوصف رحلة البحر ثم ينتقل الى الغزل بسليم[١]

ومن قصائده المتميزة في هذا الباب ما جاء مقترناً بذكر الملكة تيودورا في قصيدتين بائيتين ومطلع الاولى[٢]

كلفت يا قلبي هوى متعبا غالبت منه الضيغم الأغلبا

ومطلع الثانية :[٣]

بكرت تحسن لي سواد خضابي فكأن ذاك اعادني لشبابي

والقصيدتان تدوران في اتجاه واحد . تمثلان شخصية الغزال الظريفة . وحسن تعليله . وواقعية نظرته الى الشيب . الذي حاول أن يخفيه بالخضاب :[٤]

تلك ابرز الموضوعات التي دارت عليها اشعاره . وفي مجموعه الشعري مقطعات آخريات . تندرج في هجاء بعض الشخصيات التي عاصرته . منها ما جاء في هجاء زرياب المغنى . ونصر . والقاضي يخامر . واخوه معاذ .

ثالثاً : سماته الفنية :

وقفنا عند حياة الشاعر . وابرز الاحداث التي انعكست على شعره . وتأملنا في موضوعاته الشعرية التي كانت مرآة صادقة لنفسه الطروب . كما يرى عبد الله كنون[٥] وقد أثنى على شاعريته أكثر الباحثين فرأى الرافعي أنه من شعراء الأندلس كأمرىء القيس من شعراء الجاهلية . وبشار من شعراء المحدثين[٦] . ووجد احسان عباس أنه شاعر الأندلس المقدم على جميع شعراء عصره[٧] .

وسنتوقف عند أبرز السمات الفنية التي امتازت بها شاعريته . أما غرسيه غومس فيرى أن السّر في امتياز الغزال لا يعود الى براعته في الشعر بقدر ما هو بسبب حياته الخاصة الطريفة التي كان يحياها .[٨]

---

(١) ق ٣٤ (٢) ق ٥ (٣) ق ٦ (٤) وتنظر قصيدته رقم ٣٧ (٥) الشعر الأندلسي بحثه في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ص ٢٣٢ ـ ٢١ / ٣ / ١٩٥٦ . (٦) تأريخ اداب العرب ٣ / ٢٦٣ (٧) تأريخ الأدب الأندلسي ١ / ١٦٥ (٨) الشعر الاندلسى ص ٢١

ويتفق الباحثون على أن من ابرز خصائصه الفنية ميله الى القصص الشعري ، من أبرز الظواهر الأدبية في الشعر العربي ،[١] وفي ديوانه أمثلة كثيرة لهذا الاتجاه ويضيف الدكتور هيكل الى هذه الخصيصة ، سمة التحليل والتعليل .

ويرون أن من خصائصه الفنية ، نزوعه الى روح السخرية والنقد ، في اشعاره ونظراته متهكمه فيها ، وتتمثل هذه السمة في قصائده التي نقد فيها المجتمع في مظاهره السلبية الكثيرة ، وفي موقفه من المرأة ، وكنا عرضنا لنماذج من اشعاره فيها ،[٢] وهو موقف كان يؤرق الشاعر ويصوره بالوان مختلفة كما يبدو في ابياته الرائية .[٣]

ومن الخصائص التي التفت اليها الدكتور احسان عباس ، وضوح نظراته الفلسفية القائمة على تجربته ، وهذه السمة الى جانب السمة التي تقدمت آنفاً ، خاصيتان عزيزتان في الشعر الاندلسي ،[٤] ونظرته الفلسفية كانت على صورة التشاؤم والشك فيمن حوله من ابناء المجتمع ، على نحو ما رأينا في ابياته البائية التي تقدمت ،[٥] ونلاحظ ـ في عدد من قصائده ـ ان نظرته الى المرأة كانت سلبية كذلك .[٦]

وتأخذ اشعاره الفلسفية بعداً عميقاً ، حين يحدثنا عن تجربة حياته الطويلة ، ويصور لنا نظرته الى الانسان بين الحياة والموت ، ويسخر من تقديس الناس للمفاهيم المادية ، على نحو ما رأينا في أبياته الرائية التي مطلعها :[٧]

أرى أهل اليسار اذا توفوا   بنوا تلك المقابر بالصخور

ومن الخصائص الفنية التي استوقفت الدكتور احمد هيكل ، الصور الفنية المبتكرة التي تضمنتها أشعاره من مثل قوله في قصيدته التي يسوق فيها حواراً بين المرأة والشيخ[٨] .

سيان قولك ذا وقولك أن   الريـح نـعـقدها فـتـنـعـقد
او ان تقولي النار باردة   أو أن تقولي الماء يتقد

والصور المبتكرة واضحة في البيتين ولعله سابق فيها .

وفي دراسة متأنية للدكتور حكمة الاوسي تحدث فيها عن الشاعر وخصائصه الفنية ، وخلص الى القول الى أن ابرز ما يتصف به شعر الغزال ، هو واقعيته

---

(١) الادب الاندلسي ١٦٧ ، تأريخ الادب الاندلسي ١ / ١٦٥
(٢) (٣) ق ١٤ ، ٢٤ (٤) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١٦٦ (٥) ق ٨ (٦) ق ٢٥ (٧) ق ١٦ وينظر المقتبس ط القاهرة (٨) ق ١٤

التعبيرية . أي انه لا يلجأ الى الاتجاه السائد لدى الشعراء باستخدام حسن التعليل في ابياته . وقد رأينا الشاعر يستخدم هذا الأسلوب في بعض قصائده . ومنها جوابه على الملكة (تيودورا) في قصيدته البائية[1] التي منها :[2]

قالت . ارى فوديه قد نورا   دعابة توجـــب أن أدعـــبا
قـــلـــت يا بأبـــي انـــه   قد ينتج المهر كذا اشهبا

ابن عبد ربه
(٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ)

اولاً : حياته ومكانته :

هو احمد بن محمد ابن عبد ربه[3]. يكنى أبا عمر . كان أبرز أدباء عصره ، ولد سنة ٢٤٦ هـ ونشأ في قرطبة نشأة علمية . متصلاً بعلماء عصره . وكان ابرز الذين تلمذ عليهم ابن وضاح ، وبقي بن مخلد ، والخُشني[4] . اتصل بأمراء عصره .الامير محمد بن عبدالله الاوسط وابنيه المنذر وعبدالله وله فيهم مدائح شعرية كثيرة . كذلك وصلت الينا مدائحه في بعض قواد عصره ، أمثال عبدالله بن محمد ابن ابي عبدة ، وابراهيم بن حجاج . كذلك مدح الكاتب عبدالله بن محمد الزجالي . وتوفي بعد أن أصيب بمرض الفالج سنة ٣٢٨ هـ وتلوح لنا ثقافة الشاعر بشكل واضح في كتابه العقد الفريد الذي جاء على نحو موسوعي ، ملماً بثقافة عصره الماماً واسعاً . كذلك تتجلى هذه الثقافة للدارس في ما وصل الينا من أشعاره . لا سيما في الباب الذي عقده للأمثال[5].

---

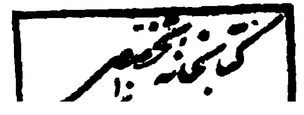
(١) فصول الادب الاندلسي ٩٩

(٢) ق ٥ .

(٣) ينظر في ترجمته ، تاريخ علماء الاندلس رقم ١١٨ ، جذوة المقتبس رقم ١٧٢ ، المطمح ٢٧٠ بغية الملتمس رقم ٣٢٧ ، وفيات الاعيان رقم ٤٥ رأيات المبرزين رقم ٦٤ .

(٤) يراجع فصول في الادب الاندلسي ٤٦ (وقد وردت اشارة في العقد الفريد الى رحلة قام بها الى بلاد المشرق . العقد ٣ / ٢٨٠ . ظهر الاسلام ٣ / ٨٥

(٥) العقد الفريد ٣ / ١٣٧



لقب بألقاب منها : شاعر الاندلس[١] . ومليح الأندلس[٢] ويقال أن المتنبي وصفه بأنه أشعر القوم[٣]. اما ابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠ هـ) فقد أثنى على أشعاره في مرحلتي الشباب والشيخوخة وقال « وهو في كل ذلك فارس ممارس ، وطاعن مداعس[٤]. ووصفه ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ) : (زعيمهم وسابق حليتهم ، الفحل الخنذيذ ، والصانع المجيد »[٥] وباهى به مواطنه الشقندي (ت ٦٢٩ هـ) في رسالته التي نوّه فيها بفضائل الأندلس .[٦]

ثانياً : ديوانه وموضوعاته الشعرية

اعتُنى بديوان ابن عبد ربه في عهد مبكر . حيث رأى نسخة منه ابو عبدالله الحميدي صاحب جذوة المقتبس في نيف وعشرين جزءاً . من جملة ما جمع للحكم المستنصر . وبعضها بخط الحكم نفسه[٧]. الذي عرف عنه هواه بجمع الكتب . وهو حجة عند أهل العلم . وقد فقد ديوانه مع ما فقد من مصادر الأندلس الشعرية . وتجددت الحاجة الى جمع ديوانه . فنهض لها ثلاثة باحثين في سنوات متفاوتة . وكانت أول المحاولات للدكتور موسى رزق ريحان بعنوان « شعر ابن عبد ربه جمعاً وتحقيقاً ودراسة »[٨].

واما المحاولة الثانية فقد قام بها الاستاذ محمد بن تاويت بعنوان « شعر ابن عبد ربه »[٩] وجاءت المحاولة الثالثة على يد الدكتور محمد رضوان الداية بعنوان « ديوان ابن عبد ربه[١٠]» .

---

(١) الجذوة ١٠٣

(٢) معجم الادباء ٤ / ٢٢٢

(٣) قضايا اندلسية ص ٦٥

(٤) الذخيرة ٤ / ١ / ٢١٠

(٥) المقتبس ٤١ (ط باريس)

(٦) النفح ٣ / ١٩٣

(٧) جذوة المقتبس ص ١٠١

(٨) وهي رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة ، جامعة القاهرة ١٩٧١

(٩) صدر ضمن مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ـ الدار البيضاء ١٩٧٨ ، في مائة وصفحتين اورد فيه ٢٥٧ مقطوعة وقصيدة في ١٢٥٣ .

(١٠) سلسلة دراسات اندلسية (١٠) مؤسسة الرسالة) ١٩٧٩ في ٢٤٧ صفحة ، الحق به فهارس للقوافي والاعلام والمصادر وقد اجتمع فيه ٢٩٢ قطعة في (١٢٩٣) بيتاً بضمنها الارجوزتان في تاريخ الناصر وفي العروض .

ولعل أنضج هذه المحاولات هي المحاولة الأولى وإن كانت غير متيسرة بين أيدي الباحثين اذ لما يزل في حكم المخطوطات ... وأما المحاولتان الأخريان فقد أتسمتا بالسرعة وعدم الأناة لافتقاد الجمعين الى شروط التحقيق العلمي في هذا المجال . وجهد الدكتور الداية في جمع أشعار الشاعر واتباعه المنهج العلمي كان أفضل من زميله محمد بن تاويت وعلى الرغم من أناقة الطبعة فأن القصائد جاءت غير مرقمة وكذلك الأبيات . كما أنه لم يطرد ذكر مناسبة الأبيات . ومجموع ما ورد من تلك الأشعار جاء في حوالي ثلاثمائة قطعة وقصيدة شعرية تضمنت ما يقارب الفاً وثلاثمائة بيت تضاف الى ذلك أرجوزته في مغازي عبد الرحمن الناصر وهي في (٤٤١) بيتاً وأرجوزته الأخرى في العروض في ١٩٢ بيتاً[١].

لم تختلف موضوعات الشاعر عن موضوعات الشعر الأندلسي التي نظم فيها شعراء عصره فقد تصدر المديح تلك الموضوعات . وهو موضوع تشابكت فيه موضوعات أخرى . منها وصف المعارك والغزوات الاسلامية . التي اشترك فيها امراء الأندلس أنفسهم . وفيها صور المقارعة والجلاد . والحرب والجهاد . وفيها حلاوة النَّصْر . وبشاشة القيم الايمانية التي علت راياتها وسمقت . بالهمم القعساء ..

وأولى مدائحه تقترن بالأمير محمد (٢٣٨ ـ ٢٧٣) . وما وصل منه نزر يسير . اذ كان الشاعر في عقده الثالث ومن هذا النزر . ما جاء في الديوان نقلاً عن ابن حيان في مقتبسه . قصيدة في وصف منية كنتش وهي في ثمانية عشر بيتاً أولها[٢] :

ألمّا على قصر الخليفة فانظرا	الى مُنية زهراء شيدت لأزهرا
مزوقة تستودعُ النجم سِرَّها	فَتحسبه يصغي اليها لتُخبرا

ويسترسل في وصف المنية حتى يأتي على آخرها ليقول :

تفكَّهْ أمينَ الله وابنَ أمينه	بجنةِ دُنيا رائحاً ومبكراً
إمامَ الهدى لازلت في ظل حَبْرَةٍ	ولازلتُ أكسوك الثَّناء المحبَّرا

وله في ولده المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥) من قصيدة طويلة قوله[٢] :

بالمنذر بن محمد	شَرفتْ بلادُ الأندلسْ
فالطَّير فيها ساكنٌ	والوحشُ فيها قد أنسْ

---

(١) تضمن مجموع الاستاذ محمد بن تاويت : (١٢٥٢) بيتاً :
(٢) ديوانه ص ٦٨ (٢) الديوان ص ٩٤

وقوله في مدح خلفه عبدالله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠)[١] :

خلافة عبدالله حجّ عن الورى فلا رَفَثٌ في عصره وفسوقُ
تجلت دياجي الحيف عن نور عدله كما ذَرَ في جُنح الظلام شروقُ
وثقّفَ سهمَ الدين بالعَدل والتقى فهذا له نصل وذلك فوْقُ

والأبيات من قصيدة طويلة جاءت في الديوان في حوالي ثلاثين بيتاً يستهلها بالغزل فيقول :

أرقت وقلبي عنك ليس يَفيق وأسعدت أعْدائي وأنت صديق

وله فيه قصائد أخرى[٢] ..

وقد أمضى حوالي ربع قرن من سني حياته الاخيرة في خلافة الناصر . وله فيه مدائح كثيرة منها ما قاله في بيعته[٣] :

يامن عليه رداءُ البأسِ والجودِ من جودِ كفّك يَجرى الماءُ في العودِ
وبادَرَتْ نحوَك الابصارُ واكتحلتْ بحسن يوسفَ في محرابِ داودِ

وله فيه قصائد اخرى كثيرة يؤرخ فيها لغزواته في الأندلس[٤]. ومنها ما ساقه في أول غزوة غزاها وهي المعروفة بغزاة المنتلون سنة ٣٠٠ هـ افتتح بها سبعين حصناً ومطلعها[٥] :

قد أوضح الله للاسلام منهاجا والناس قد دخلوا في الدين افواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها كأنما ألبست وشياً وديباجا
ماتَ النفاقُ وأعطى الكفرُ ذمّتَه وذلتْ الخيلُ إلجاماً وإسراجا
وأصبحَ النصرُ معقوداً بألوية تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا
ادخلتَ في قبة الإسلام مارقةً أخرجتَها من ديار الشرك إخراجا
في نصف شهرٍ تركت الارض ساكنة من بعد ما كان منها الظهر قد ماجا
تملأ بك الأرض عدلاً مثلما امُلِئت جوراً وتُوضحُ للمعروف مِنهاجا

(١) الديوان ص ١١٤
(٢) الديوان ص ٤٣
(٣) الديوان ص ٥٤
(٤) الديوان ٣٨ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ١٢٧
(٥) الديوان ص ٢٥

وواضح في مدائحه لأمراء الأندلس مزجه بين المديح ووصف معارك الجهاد التي كانت قائمة على قدم وساق . وكانت أبرز سمة مقرونة بالأمراء . وقد أرخ لنا غزوات ممدوحه الأثير . في أرجوزة أشرنا اليها آنفاً . منذ توليه الحكم سنة ٣٠٠ حتى سنة ٣٢٢ هـ . وللشاعر مدائح في اشهر قواد عصره . ممن أشرنا اليهم آنفاً[١] .

والموضوع الثاني الذي يلي المديح هو الغزل . اذ يتضمن الديوان قصائد عديدة في هذا الباب . ويبدو انها كانت على درجة عالية في البلاغة والبراعة . على نحو ما يروي ياقوت الحموي من أن ابا الطيب المتنبي لقي أبا الوليد بن عسال الأندلسي في مسجد عمرو بن العاص فأستنشده لمليح الاندلس (ابن عبد ربه) فانشد يقول :

يالؤلؤاً يسبي العقول انيقاً	ورشا بتقطيع القلوب رفيقاً
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله	درأ يعود من الحياء عقيقا !
واذا نظرت الى محاسن وجههه	أبصرتَ وجهك في سناه غريقاً
يامن تقَطع خصره من رقَةٍ	ما بال قلبك لا يكون رقيقاً ؟ !

فلما أكمل ابن عسال انشاده . استعاده المتنبي ثم صفق بيديه وقال :

(ياابن عبد ربه . لقد يأتيك العراق حبواً)[٢] . وهي شهادة يعتز بها الاندلسيون لشاعرهم. وقد يختلف النقد الحديث في أعجاب المتنبي بالأبيات . لكن حكمه النقدي يمثل ذوق العصر آنذاك . والبراعة الفنية تكمن في لغة الشاعر وأسلوبه . على نحو ما عبّر عنها الدكتور بدير حميد بقوله : « ولا نرى في هذا الشعر جديداً في الموضوع ولا في المعاني الجزئية . لانها كلها مما طرق المشارقة . ولكننا نجد حلاوة في اللفظ وسهولة . كما نجد افتناناً وبراعة في الصياغة »[٣]

وهي قصائد لم تصدر عن تجربة فعلية على نحو ما تشير الى ذلك حياته التي نشأ عليها . بل انطوت على نزعة تقليدية لشعراء الغزل . وليس معنى ذلك أنها أفتقدت عنصر صدق التجربة الشعورية . فقد ضمها الدكتور بدير متولي حميد في باب الغزل الذي بعثت عليه القوة الفنية . في الشعر[٤] . واكثر تلك القصائد ترِدُ في العقد الفريد . في باب شواهده على الأوزان الشعرية يذيل كل قطعة ببيت شعري لشاعر

---

(١) ينظر ديوانه ٩٢ ، ١٥٤ كذلك ٥٥ كذلك ٨٩

(٢) مطمح الانفس معجم الادباء ٤ / ٢٢٢ ، ديوانه ١٢٠

(٣) قضايا اندلسية ٦٥

(٤) نفسه ٢٣١

مشهور وقد انتظم منها ثلاث وستون قطعة كل واحدة تتراوح بين أربعة وستة أبيات واليك هذه القطعة[١]:

زادني لومك اصرارا	إنَ لي في الحب انصارا
طار قلبي من هوى رشأ	لو دنا للقلب ما طارا
انضجت نار الهوى كبدي	ودموعي تُطفىء النار
« ربَ نارِ بتَ أرمقها	تقضم الهندى والغارا »

ومن أبياته المشهورة في هذا الباب قوله يصف ساعة الفراق[٢]:

ودَعتني بزفرة واعتناق	ثم نادت متى يكون التلاقي
وتصدت فأشرق الصبح منها	بين تلك الجيوب والأطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم	بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق افظع يومٍ	ليتني مت قبل يوم الفراق !

ومما يلاحظ في قصائده الغزلية انها في غالبها تأتي على صورة مقطعات شعرية وانه يختمها في العادة ببيت شعري من قصيدة مشهورة[٣]. فهل كان الشاعر يحتذى قصائد عربية ذائعة . ام كان معارضاً ؟ ام انه ذهب مذهب من يضَمن في ابياته ابياتاً من الشعر العربي ؟ اما الاحتمال الاول فلا .واما ان يكون معارضاً . فتلك نزعة شهدنا ابعادها في مواطن كثيرة من شعره . وقد لا تخلو المعارضة من فن التضمين .

ويؤلف شعر الآداب والأخلاق الاسلامية موضوعاً ثالثاً في أشعار الشاعر وتأتي هذه القصائد في سياق باب الامثال في عقده[٤]:

والحر لا يكتفي من نيل مكرمة	حتى يروم التي من دونها العطبُ
يسعى به أمل من دونه أجل	إن كفّه رهبٌ يستَدعِه رغب
لذاك ما سأل موسى ربّه « أرني	انظر اليك »[٥] وفي تسآله عجب
يبغي التزيد فيما نال من كرمٍ	وهو النجي لديه الوحي والكتب

(١) العقد الفريد ٥ / ٤٤٧ والبيت الاخير لعدي بن زيد العبادي (العقد ٥ / ٤٤٧ هـ ٢) والاصل في عروض البيت الاول « أضراراً » والصواب ما أثبتناه

(٢) الديوان ١٢٢

(٣) العقد الفريد ٥ / ٤٤٣ ـ ٤٧٧

(٤) ديوانه ٢٣

(٥) اقتباس من قوله تعالى الاعراف ١٤٢

وقوله في معنى فساد الاخوان[1]:

أبا صالح اين الكرام بأسرهم	أفدني كريماً فالكريم رضاءُ
عذيريَ من خلق تخلق منهم	غـــباء ولؤم فاضـــح وجـــفاءُ
حجارة بخلٍ ما تجودُ وربّما	تفجّر من صُمّ الحجارة ماءُ
ولو ان موسى جاء يضرب بالعصا	لما انبجست من ضربه البخلاء

وله أبيات ينكر فيها التسويف وخلف الوعد ويجنح فيها الى نقد المجتمع لاستشراء الخصال السيئة فيه[2]

وقوله في مكارم الاخلاق وقد ذكر قبل أبياته قولاً منسوباً للحكماء: « الايام مزارع فما زرعت فيه حصدته »[3]:

يامـــن تَـــجـــلّدْ لـــلزمان	أمّا زمانَـــك مـــنـــك أجـــلد
ســـلّـــط نـــهاك على هوا	كَ وعد يومك ليسَ من غدِ
ان الـــــحـــــياة مزارع	فازرع بها ما شئت تحصد
والـــناس لا يـــبـــقى سوى	آثارهـــم والـــعـــيـــن تـــفـــقد

وله أبيات في هذا المجال في ادب عيادة المريض[4]

والموضوع الذي يتصل بشعر الآداب الأسلامية. ويأخذ حجماً واسعاً من الديوان. هو شعر الزهد الذي وصلت الينا منه قصائد كثيرة ذهب في بعضها شاعرنا مذهباً جديداً اطلق عليه تسمية (الممحصات) وهي قصائد يعارض فيها قصائد تقدمت في حياته الاولى يلتزم الوزن والقافية وحركة الروي ولكنه ينقض نزعته المتساهلة في باب الغزل ويشير اشارة صريحة الى تلك القصائدوالصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي واضحة. يقال محص الذهب بالنار. اذا أخلصه مما يشوبه حيث يضمن قصيدته الثانية شطر بيت من قصيدته الاولى وجل ما وصل الينا من هذه القصائد لا تتجاوز ابياتها خمسين بيتاً. ومن ممحصاته قوله[5]:

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدر	ولا يقضّى له من عيشه وطر

---

(١) ديوانه ١٥

(٢) ديوانه ٢٥

(٣) ديوانه ٥٩

(٤) ديوانه ٧١

(٥) الديوان ص ٧١

عاين بقلبك ان العين غافلة عن الحقيقة واعلم انها سَقَرُ
سوداء تزفر من غيظ اذا سَعرت للظالمين . فلا تبقى ولا تذر
ان الذين اشتروا دنيا بأخرةٍ وشقوة بنعيم ساء ما تجروا
انت المقول له . ما قلت مبتدئاً « هلا ابتكرت لبين انت مبتكر » ؟

وهو يعارض فيها ابياتاً قالها في خطاب فتى كان يألفه أزمع على السفر فحال المطر الغزير دون ذلك فكتب له[١] :

هلا ابتكرت لبين انت مبتكر هيهات يأبى عليك الله والقَدَرُ
ما زلت ابكي حذار البين ملتهفاً حتى رثى لي فيك الريح والمطرُ
آليت الا ارى شمساً ولا قمراً حتى اراك فانت الشمس والقمرُ

وقد أشار الحميدي الى غزارة اشعاره في هذا الباب وحدد مفهوم الممحصات بقوله (وذلك انه نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ والزهد . محصها بها كالتوبة منها والندم عليها . كما انه وصف هذه الاشعار بأنها كثيرة جداً[٢]. وقد أفرد الباحث على ابراهيم ابو زيد كتاباً فيه[٣].

ثالثاً : شاعريته وسماته الفنية :

فيما تقدم وقفنا عند موضوعات شعر ابن عبد ربه واشرنا الى اعجاب نقاد عصره بشاعريته . التي اتسمت بالغزارة في النتاج . والتنوع في الموضوعات حتى رأى الباحثين انه كان نقطة تحول في الشعر العربي بالاندلس وقد تأثر به شعراء اندلسيون كثيرون[٤].

وقد تناول شاعريته . وأبرز سماتها . عدد من الباحثين منهم :

الدكتور احسان عباس الذي يرى أن شعره يقع بين قطبين ويشغل مرحلتين[٥]. أمّا القطبان فهما البديهة والكد الذهني والمقصود بالبديهة السهولة . وطابع الخفة الارتجالية . وربما كان من أثر ارتجال اشعاره في رأي الدكتور احسان

---

(١) الديوان ص ٧٠

(٢) جذوة المقتبس ص ١٠٢

(٣) الممحصات في شعر ابن عبد ربه الاندلسي ، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٨٦ /

(٤) قضايا اندلسية ٦٨

(٥) تاريخ الادب الاندلس ١ / ١٩٤

عباس ـ أن التيار العاطفي في شعره مفقود ومختنق . حتى في أشد الحالات التي يمكن أن تثور فيها عاطفة . كموت ابنائه[١] .

لقد كانت الاخبار المتصلة باشعاره تنبئنا عن بدهيته في النظم وعدم تكلفه ومكابدته فيه بما يشير الى أن الشاعر غير متكلف . وانه صاحب شاعرية قوية . وملكة مطبوعة . ولا نرى في هذه البداهة والطبع . ما يتناقض مع جودة الشاعرية . وصدق العاطفة . كما اننا نجد الشاعر يميل الى العناية بصياغة أبياته . لتتحقق له فيها صنعة فنية . ألمح اليها الدكتور بدير متولي حميد في قوله « فأن سمة الأختراع وجدّة التفكير وبراعة التصوير طغت على أشعاره »[٢] وتمثلها الدكتور احسان عباس في ممحصاته التي نظمها معارضاً قصائده الشعرية المبكرة ناقضاً اياها[٣] .

واما المرحلتان اللتان شغلتهما اشعاره فتقترنان بقطبي شعره . اقترن شبابه بالبديهة وشيخوخته بالكد والصنعة وتتجلى المرحلتان بوضوح في مذهبه الفني . الذي ابتدعه حين عارض أشعار المرحلة الأولى في مرحلته الثانية . واختص الأدب الأندلسي بفن طريف سماه الممحصات وهي أبيات نظمها في الزهد والتوبة . عما تقدم من اشعاره . في مرحلة الشباب . التي كان يجنح فيها الى شيىء من التساهل بالمتع المباحة حين أقبل على الحياة في جوانبها التي تحقق تلك المتع على نحو ما يعبر عن ذلك بقوله عن الغناء والشراب[٤] :

دينـنـا في السّماع دَيـنٌ مدينيـ ي وفي شربنـا الشراب عـراقـي

وله من ابيات أخرى يشير صراحه الى الشّراب فيقول[٥] :

اما الشراب فاني لست أقربهُ ولست آتيك الا كسرتي بيدي

« فتوبته توبة فقيه متحرج لا توبة عابث لاه[٦] » لأنّ نشأته الأولى وسيرته المبكرة تؤكد لنا انه في قصائده الغزلية . لم يكن ذا أربة .. كما تقدم القول آنفاً خلال الحديث عن غزله . ومن أبياته المشهورة في هذا الاتجاه قوله اذ اتفق أن

---

(١) نفسه ١٩٥

(٢) قضايا اندلسية ٦٧

(٣) تاريخ الادب الاندلس ١ / ١٩٥

(٤) ديوانه ، ١٢٥ يشير بذلك الى مذهب مالك امام دار الهجرة في اباحة السماع ، ومذهب ابي حنيفة في اباحة شرب النبيذ .

(٥) ديوانه ٥١

(٦) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١٨٤

اجتاز بدار الكاتب ابن قلهيل وكانت له جارية تدعى « مصابيح » تغني . فاستوقفه صوتها فكتب له يقول[1] :

يامن يضنّ بصوت الطائر الغرد	ما كنت أحسب هذا الضنّ من أحد
لو أن اسماع اهل الأرض قاطبةً	أصغت الى الصوت . لم ينقص ولم يزد
لو لا أتقائي شهاباً منك يحرقني	بناره لا سترقت السمع من بُعدِ
لو كان زريابُ حياً ثم أسمعه	لماتَ من حسرة . أو ذاب من كمدِ
فلا تضنّ على أذني تقرطها	صوتاً يجول مجال الروح في الجسد

ومن الباحثين المحدثين الدكتور احمد هيكل . حيث وقف عند اشعاره بالدراسة والبحث . ورأى في شعره انه لا يلتزم اتجاهاً واحداً . من اتجاهات عصره . فهو محافظ حيناً . ومجدث أحياناً . ثم هو يشارك في الأخذ بالاتجاه الشعبي[2] . ويخلص الى تحديد أبرز سمتين في شعره وهما : البساطة . والغنائية .

والسمة الاولى . تتعلق باسلوب الشاعر والأمثلة عليها من شعره كثيرة . واما السمة الثانية . فتتمثل في غلبة الجانب الموسيقي واتضاح العنصر العاطفي . وشيوع الرقة والسلاسة . ويسوق الدكتور هيكل امثلة على تينك السمتين[3] :

اما الدكتور موسى رزق ريحان[4] . فقد أشار الى أبرز الخصائص في شاعريته حيث تقلصت عنده بعض الموضوعات . ومنها شعر الفخر . وذلك معزو الى اصله المتواضع والواقعية التي امتاز بها . والى روحه الاسلامي الذي تغلغل في اعماقه .

وفيما يتصل بلغة الشاعر واسلوبه لاحظ الدكتور ريحان شيوع الالفاظ ذات الدلالات الموحية بالجمال . وشيوع اللون متنوعاً بين مرحلتين من مراحل حياته الى جانب شيوع كثير من الاسماء الفلكية . وينتهي الى أن اكثر السّمات وضوحاً في شعره . يتمثل في الالفاظ القرآنية والمصطلحات الفقهية والشرعية . وهذه الثقافة الدينية تبدو حتى في شعره الغزلي خيوطاً من حرير لا تجرح نفساً . ولا تدمي جسداً . وهي في شعر الزهد زفرات حزينة . ودموع سخينة واما في شعر الجهاد فهي تهليل وتكبير ..

---

(١) ديوانه ٥١

(٢) الادب الاندلسي ٢٢٩ ـ ٢٣٠

(٣) نفسه ٢٣١

(٤) شعر ابن عبد ربه ٢٣١

ومن شأن الثقافة الدينية أن يعتمد صاحبها ـ على كثرة الاقتباس من القرآن الكريم اقتباساً مباشراً . وآخر غير مباشر . ومن أمثلة ذلك ما جاء في أبياته القافية في مدح الأمير عبدالله بن محمد حيث يقتبس اشارياً في قوله تعالى (البقرة ١٩٧) « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »

وقوله في ابياته الجيمية التي يمدح بها الناصر . وهو مما تقدم بنا حيث يقتبس من قوله تعالى (النصر ٢) « ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا » .

وفي قصيدته الممحصة . اقتباس من قوله تعالى (المدثر ، ٢٨) . « لا تبقى ولا تذر » ومن قوله تعالى (البقرة ١٦) . « اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » كما رأيناها جلية في ابياته الدالية في الجارية مصابيح اذ يقتبس اقتباساً غير مباشر من قوله تعالى (الجن ٨ ـ ٩) « فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع . فمن يستمع الآن يجدله شهاباً رصداً » . ومن امثلة هذا الاقتباس ما جاء في قوله[١] :

ما انـتـم شـيء ولا عـلـمـكـم وقد ضـعـف الـمـطـلوب والـطـالـب
تـغـالـبون الله في حـكـمـه والله لا يـغـلـبـه غالـب

فيه اقتباس من قوله تعالى (الحج ٧٣) « ضعف الطالب والمطلوب » ومن قوله تعالى (يوسف ٢١) . « والله غالب على امره .. »

او قوله[٢] :

ولو أنّ موسى جاء يضرب بالعصا لما انبجست من ضربه البخـلاء

وقوله[٣] :

فصادفت حجراً لو كنت تضربه من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا

وفيه اقتباس من قوله تعالى (الاعراف : ١٦٠) : « فقلنا اضرب بعصاك الحجر . فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً » .

ويتجلى الاقتباس أوضح ما يتجلى في ارجوزته التاريخية التي يقول فيها[٤] :

سـبـحان مـن لـم تـحوه اقـطار ولـم تـكـن تدركـه الابـصار
ومـن عـنـت لوجـهـه الوجوه فـمـا لـه ندّ ولا شـبـيـه

---

(١) ديوانه ٣١ (٢) ديوانه ١٥ (٣) ديوانه ٢ (٤) ديوانه ١٨١

سـبـحـانـه مـن خالـق قدير وعالـم بـخـلـقـه بـصـير
وأول لـيـس لـه ابـتداء وآخر لـيـس لـه انـتـهاء
وسـعـنا إحـسانـه وفـضـلـه وعزَ أن يـكون شـيء مـثـلـه

حيث يقتبس من التنزيل في قوله (الانعام ١٠٣) : « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير »[١] وقوله (طه ١١١) و « عنت الوجوه للحي القيوم »[٢] وقوله (الحديد ٣) « هو الاول والآخر والظاهر والباطن »[٣] وقوله (الشورى ١١) « ليس كمثله شيء »[٤].

والملاحظ أن ابن عبد ربه يجرى في الاتجاه العام الذي جرى عليه الشعر الأندلسي في مجال الاقتباس اذ تأتي اقتباساتهم غير مباشرة . وهي نزعة ناجمة عن رأى المالكية في كراهة الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر[٥].

ولا يتوقف الامر على الاقتباس من القرآن الكريم بل يتجاوزه الى الحديث النبوي الشريف والامثال[٦]. وقد لمح ابن شرف القيرواني (٤٦٠ هـ) هذه النزعة فوصفه بقوله « واطلعنا في شعره على علم واسع . ومادة فهم مضيىء ناصع[٧] »

ولا بد من التنويه بسمة تتجلى في شعر ابن عبد ربه . وهي مما يتصل بثقافته . تبدو في تعلقه الشديد بالثقافة المشرقية وموروثها الشعري الضخم . وقد تجلى لنا في صور متعددة فهو يحتذي الشعر القديم في كتاب العقد الفريد ـ الجوهرة الثانية في اعاريض الشعر . وذلك حين يسوق أمثلة من شعره على الاعاريض والاضرب لكل بحر . ويختم كل قطعة شعرية ببيت من الشعر القديم بشكل يكاد يكون مطرداً[٨].

ومن صوره الأخرى معارضته لشعراء المشرق . وهي تأتي على طريقتين . الاولى : تتمثل في أنه يستعرض في كتابه أمثلة شعرية في موضوع معين . ثم يشفعها بأبيات من شعره . دون أن يلتزم الوزن او القافية . كما فعل ذلك حين تحدث في كتاب التوقيعات والفصول والصدور من كتاب المجنبة في الأجوبة[٩]. حيث يتناول الكلام على الاقلام وساق قطعاً شعرية لشعراء منهم : ابو الحسن محمد بن عبد

---

(١) ديوانه : ٣١ (٢) ديوانه ١٥ (٣) ديوانه : ٢ (٤) ديوانه ١٨١ (٥) الاتجاه الاسلامي ٤٨٢
(٦) ديوانه ص ٨٣ (٧) الذخيرة ٤ / ١ / ٢١٠ (٨) العقد الفريد ٥ / ٤٤٣ ـ ٤٧٤ (٩) العقد الفريد ٤ / ١٩١ ـ ١٩٤

الملك الهاشمي . والعلوي . وابو تمام . والبحتري . وابن ابي طاهر . ثم انتهى بقوله (ومن قولنا في القلم)

بــكــفــه ساحر الــبــيان اذا   أداره في صـــحـــيـــفة ســـحرا

والقصيدة في اربعة عشر بيتاً . وقد خالف فيها نظراءه ممن أورد اشعارهم فيه ووافقهم في المعنى العام . وهي معارضة جزئية .

والثانية تتجلى في معارضاته التي تمثل مرحلة متقدمة من شعور الاندلسيين بالثقة بالنفس محاولةً لبلوغ شأو المشارقة وذلك حين يلتزم الشاعر الوزن والقافية وحركة الروى والمضمون . ويعارض صريع الغواني مسلم بن الوليد في لاميته التي مطلعها .

أديرا عليّ الرّاح لا تشربا قَبلي   ولا تّطلبا من عندِ قاتلتي ذَحلي

حيث يسوق لنا ثلاثة ابيات من قصيدة مسلم ثم يشفعها بقصيدته في اثني عشر بيتاً . مصرحاً بأنه يعارضه فيها يقول :

أتقتلنــي ظـلـماً وتـجـحدني قـتـلـي   وقد قام من عينيك لي شاهدا عدلِ

وهي قصيدة رقيقة تفيض بالعواطف والصور الطريفة ولم يكتف شاعرنا بايراد أبياته فقط . لكي يصور القارىء حكمه عليها بل انتقل الى نقدها فعقب عليها بقوله : « فمن نظر الى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضله شعر صريع الغواني عنده الا بفضل التقدم . ولا سيما اذا قرن قوله من هذا الشعر .

كتمت الذي القى من الحب عاذلي   فلم يدري ما بي فاسترحت من العذل

بقولي في هذا الشعر :

واحببت فيها العذل حباً لذكرها   فلا شيىء اشهى في فؤادي من العذل
كتمت الهوى جهدي فجرده الأسى   بماء البكا هذا يخط وذا يملي
أقول لقلبي كلما ضامه الأسى   اذا ما ابيت العز فاصبر على الذلِ[1]

فهو في معارضته لابي تمام يلتزم المعاني العامة ثم يعتمد على « التقليب والتغيير والعكس والاسهاب »[2] . وهو لا يختلف في معارضته لصريع الغواني الا بالتزام الوزن والقافية . وليست ممحصاته الا استمراراً لروح المعارضة التي سيطرت عليه فهو « حين شبع من معارضة الآخرين اخذ يعارض نفسه[3] »

---

(١) العقد الفريد ٥ / ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، ديوانه ١٣٢ (٢) تاريخ الأدب الاندلسي ١ / ٢٠٢ (٣) نفسه ٢٠١

ومن الدارسين المحدثين الاستاذ عبد القادر زمامة وصف اسلوب الشاعر بقوله : « واسلوبه الشعري بصفة عامة أصيل سهل التناول ... مع نفحة موسيقية وحاسة فنية تعطي الدارس دليلاً على وفرة التجربة وأصالة الشاعرية وطول النفس الشعري وتنوع اتجاهاته »[1] الا ان الباحث نفى ان يكون عند الشاعر عمق الفكرة ودقة الصورة . وخصب المعاني[2] .

---

(١) الشاعر الاندلسي ابن عبد ربه القرطبي مجلة المورد ٦ / ٢ / ١٩٧٧ ص ٤٢

(٢) نفسه ٤٢

المبحث الثاني

النثر

النثر في العهد الاموي :

أ ـ في عهد الولاية والامارة (٩٢ ـ ٣١٦) :

جرى الباحثون في دراسة النثر على تقسيم النثر الى قسمين . نثر فني خالص . ونثر تأليفي .[١] ولا شك أن الخطابة تعد من أبرز موضوعات النثر الفني في عصوره الأولى وقسيم الخطابة الرسائل . وهي صنفان . رسائل ديوانية . وأخرى أخوية . وواضح أن الرسائل الديوانية هي تلك المراسلات الرسمية التي جرت بين الولاة وقادتهم . وهي تشتمل على توجيهات إدارية وأوامر سياسية أو عسكرية . ويندرج ضمن هذا الصنف من الرسائل . كتب المبايعة وكتب التولية . وعقود الأمان . وكتب الصلح . والتوقيعات الادبية . التي استخدمت في الجواب على طلبات ذوي الحاجة . وما كان يرفع للأمراء . والوصايا والمحاورات .

تواجه الباحث مشكلة رئيسة حين يبحث هذا الموضوع . وتتمثل في قلة المصادر التي احتفظت بالنصوص النثرية . في عصور الأندلس المبكرة . ولكننا نشعر بأن مسوغات توفر النثر الفني كانت أكثر من مسوغات الشعر . وذلك يتصل بطبيعة كل منهما ودوره . ومدى الحاجة اليه في مثل ظروف الأندلس .

كانت الحاجة الى النثر شديدة . اقتضاها اتصال حياة الفاتحين بالحروب . واقترانها بالجهاد الاسلامي زيادة على النزاعات والثورات الداخلية التي كانت تحصل . كل تلك الظروف أقتضت توفر النثر بأنماطه المختلفة . وفي مقدمتها الخطب والدعوات الحماسية . لأستنفار المقاتلين فضلاً عن الخطب الدينية التي كانت جزءاً طبيعياً من حياة المجتمع العربي الاسلامي في الأندلس .

ولكن الباحث لا تصل بين يديه الا نصوص يسيرة . تقترن ببعض الأحداث . ولعل السبب في ذلك هو نفسه الذي جعل الشعر العربي منذ عصوره القديمة ينتشر ويذيع اكثر من صنوه النثر العربي فإن رواية الشعر أيسر . وأسير من النثر . وذلك أدى الى شيوعه وكثرة نصوصه بينما انتهى بالنثر الى الشحة وقلة ما وصل الينا منه .

---

(١) ينظر الادب الأندلسي ـ هيكل ص ١١ ، فصول في الأدب الأندلسي ص ٥٩ .

لقد تناول الدكتور حكمة الأوسي[1] في دراسة متأنية . أنماط النثر التي أشرنا اليها آنفاً . ورأى أن النصوص التي دارت في مجال المراسلات السياسية . في عهد الولاة . لا تعد نثراً اندلسياً . لأنها كانت شديدة الصلة بالبيئة المشرقية أما المراسلات في عهد الأمارة فهي تلك التي تبادلها أمراء الدولة الأموية . مع قادتهم وعمالهم وولاة المدن التي كانوا يولونهم عليها . وهي تتناول أجوبة هؤلاء القادة والولاة . وقد أورد ابن عذارى[2] صوراً من تلك المراسلات . ويبدو انها كانت بشكل عام تتجه الى الايجاز وهي سمة من سمات البلاغة في التعبير . وهي كذلك سمة كانت تنسجم مع الذوق العام للكتابة . غير بعيدة عن جذورها المشرقية .

ومما يشير الى شيوع هذه الصفة أن عبد الرحمن الداخل . طلب من كاتبه أمية بن يزيد أن يكتب الى بعض عماله كتاباً يلومه على ما بدر منه . من تقصير في عمله . فلما أطال أمية في الكتابة أمر بتمزيق الكتاب . وكتب بخط يده[3] « أما بعد . فأن يكن التقصير منك مقدماً فعند الاكتفاء يكون لك مؤخراً . وقد علمت بما قدمت فاعتمد على أيهما أحببت » ومالنا نطلب الأدلة التأريخية وما بين أيدينا من نصوص نثرية . تتصل بعصر الولاية والامارة بل حتى عصر الخلافة كلها تتسم بالايجاز .. وقد مضت معنا أمثلة كثيرة لأنماط متنوعة . من نثر عبد الرحمن الداخل لهذه السمة فيها نصيب .

ويبدو أن كتب الصلح كانت تخرج على قاعدة الايجاز للضرورات التي تتصل بها والتفصيلات التي يُنص عليها في تلك الكتب . ومن النصوص التي حفظت . كتاب كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتُدمير بن غندرس . وقد سميت بأسمه مدينة من مدن الأندلس . أورده الضبي في البغية ونسخته[4]:

« بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غندرس . انه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيّه (صلى الله عليه وسلم) . الا يقدم له ولا لأحد من أصحابه . ولا يؤخر . ولا ينزع عن ملكه . وأنهم لا يقتلون . ولا يسبون . ولا يفرق بينهم . وبين أولادهم ولا نسائهم . ولا يكره

---

(١) فصول ٥٦ ـ ٥٩ .

(٢) ينظر البيان المغرب ٢ / ٦٦ ، ٨٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٣) نفسه ٢ / ٥٨ .

(٤) نصوص عن الاندلس ، العذرى ص ٤ ـ ٥ ، بغية الملتمس ٢٧٤ ، الروض المعطار ١٣١ وينظر . دولة الاسلام في الاندلس ، محمد عبد الله عنان ص ٥٥ (ط ٤ مؤسسة الخانجي القاهرة ١٩٦٩) .

على دينهم . ولا تحرق كنائسهم . ولا ينزع عن ملكه . ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه ... » وفي تتمة الكتاب شروط الصلح في رجب سنة ٩٤ من الهجرة .

وواضح أن الكتاب يحذو حذو كتب المسلمين الأوائل بالاستهلال بالبسملة وتقديم اسم المرسل على المرسل اليه . وتذييل الكتاب بتأريخ تحريره . وهو من أقدم النصوص الموثوقة في الاندلس باستثناء الخطبة المنسوبة الى طارق بن زياد التي سنتوقف عندها عما قريب .

ومن الرسائل الديوانية في آخر عهد الولاة . الرسالة التي حررها خالد بن يزيد كاتب يوسف الفهري ورسوله الى عبد الرحمن الداخل . بعد أن علم بنزوله في الأندلس وقد حفظ لنا ابن عذاري جزءاً من هذه الرسالة .[١]

كذلك وصلت الينا صور متنوعة من النثر الفني . منها ما يطلق عليه : (أدب الوصايا) فقد وجه الحكم الربضي (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) الى ابنه عبد الرحمن حين شعر بدنو أجله وصية فقال : « اني قد وطدت لك الدنيا . وذللت لك الأعداء . وأقمت أودَ الخِلافة . وأمَّنت عليك الخلافَ والمنازعة . فأجر على ما نهجت لك من الطريقة . واعلم أن أولى الأمور بك وأوجبها عليك . حفظ أهلك . ثم عشيرتك . ثم الذين يلونهم من مواليك . وشيعتك . فبهم أنزل ثقتك . وإياهم واسي من نقمتك . وعصابتهم استشعر دون المتوثبين الى مراتبهم . من عوام رعيتك ... ولا تَدَعنَّ مجازاة المحسن بأحسانه . ومعاقبة المسيء بإساءته فإن التزامك لهذين . ووضعك لهما موضعهما . يرغب فيك ويرهب منك[٢] » .

ويحفظ لنا ابن عذارى نصوصاً كثيرة للرسائل والخطب المنسوبة أو التي كتبها ملوك بني أمية في الأندلس ومن ذلك خطبة لعبد الحمن بن الحكم (الاوسط) (٢٠٦ ـ ٢٣٨) ورسالة[٣] لأبنه محمد عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣) خاطب بها كاتبه عبد الملك بن عبد الله . ومحاورة جرت بين الامير عبد الله ومولى من مواليه[٤] . ومن نثر غير الامراء . الرسالة التي كتبها وليد بن عبد الرحمن بن

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٤٥ .

(٢) المقتبس (الجزء الخاص بأمارة عبد الرحمن الاوسط) نسخة المستشرق بروفنسال المفقودة . نقلا عن الادب الاندلس ١١٧ .

(٣) البيان المغرب ٢ / ١٠٧ ـ ١٠٨ . وهناك رسالة أخرى تماثلها اوردها صاحب أخبار مجموعة ١٢٩ .

(٤) البيان المغرب ٢ / ١٥٤ .

غانم . الى الأمير محمد بن عبد الرحمن يسأله أن ينيط به بعض المناصب فوقع على رسالته[١] :

« إن الله شاكر يحب الشاكرين . وقد ناديت فأسمعت . ولكل أجل كتاب »

ويرى الدكتور حازم عبد الله أن الرسالة والرد عليها يمثلان النثر والرسائل ـ بصورة خاصة ـ في القرن الثالث الهجري .[٢] ويحفل كتاب اخبار مجموعة بأمثلة نثرية كثيرة للأمير محمد . بين محاورات بينه وبين كتابه ووزراءه . ومكاتبات في شؤون الدولة .[٣]

ومن الدراسات الحديثة التي حفلت بهذه النصوص النثرية . كتاب الدكتور احمد هيكل .[٤]

واليك نص خطبة عبد الرحمن الاوسط . وهي أول ما خطب به بعد وفاة أبيه الحكم : « الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه . وعزماً من أمره . وأجرى الأمور على مشيئته . فاستأثر بالملكوت والبقاء . وأذل خلقه فما (لهم نجاة من) الفناء . تبارك اسمه . وتعالى جده . وصلى الله على نبيه ورسوله وسلم تسليماً . وكان مصابنا بالأمام مما جلت به المصيبة . وعظمت به الرزية . فعند الله نحتسبه . واياه نسأل الهام الصبر واليه نرغب في كمال الأجر والذخر . و (قد) عهد الينا فيكم بما فيه صلاح احوالكم ولسنا ممن يخالف عهده . بل الحكم لدينا المزيد إن شاء الله »[٥]

ومن الملاحظات الحرية بالتسجيل . كثرة الكتاب الذين استخدموا في دواوين الامراء . وقد كان يتفق استخدام الامير اكثر من كاتب في الكتابة . على الرغم من ان الامراء انفسهم كانوا على جانب من البلاغة . بحيث احتفظت المصادر بنصوص متنوعة لهم . ومن أمثلة هؤلاء الكتاب : خالد بن يزيد . الذي استخدمه يوسف الفهري (٧٢ ـ ١٤٢ هـ) . ثم أتصل به أمية بن يزيد . واشتغل كلاهما بالكتابة لعبد الرحمن الداخل .

---

(١) اخبار مجموعة ١٣١ (ط دار الكتب الاسلامية ١٩٨١) ومن توقيعاته كذلك حين أسر قائده هاشم بتهور منه : « هذا أمر جناه على نفسه بطيشه وعجلته ! » البيان المغرب ١٠٣ .

(٢) النثر الاندلسي ٧٣ .

(٣) ينظر اخبار مجموعة ١٢٧ ـ ١٣٠ .

(٤) الادب الاندلسي ١٧٥ ـ ١٧٧ .

(٥) البيان المغرب ٢ / ٩٠ ـ ٩١ وينظر الادب الاندلسي ١٧٥ ـ ١٧٦ .

ومن الكتاب الذين استخدمهم هشام بن عبد الرحمن : فطيس بن عيسى . وخطاب بن يزيد .
ومن كتاب الحكم بن هشام : فطيس بن سليمان . وحجاج المغيلي .
ومن كتاب عبد الحمن بن الحكم : عبد الكريم بن عبد الواحد . وعبد الله بن محمد . ومحمد بن سعيد الزجالي وسفيان بن عبد ربه وعيسى بن شهيد .(٢)

واستخدم الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ _ ٢٧٣) ثلاثة كتاب هم : عبد الملك بن أمية . وحامد بن محمد الزجالي وموسى بن ابان(٣) . ويلاحظ ان عدداً من الحكام استخدم كتاباً من غير المسلمين كما حصل للأمير محمد بن عبد الرحمن الذي استخدم غومز بن انطونيان .

واستخدم المنذر بن محمد (٢٧٣ _ ٢٧٥) اثنين : سعيد بن مبشر . وعبد الملك بن عبد الله بن شهيد .

وأما كتاب الامير عبد الله بن محمد (٢٧٥ _ ٣٠٠) فثلاثة : عبد الله بن محمد الزجالي . وعبد الله بن محمد ابن ابي عبدة . وموسى بن زياد .(٤)

وتبدو ظاهرة الأسر الأدبية . على نحو ما نجد في عبد الله بن محمد بن أمية بن يزيد . توفي الابن سنة ٢٤٠ هـ وتوفي الاب سنة ٢٢٦ هـ وتوفي الجد سنة ١٥٤ هـ . وكانو من بيت نجابة .

وفضلاً عن اسماء هؤلاء الكتاب الذين عملوا لأمراء الأندلس فأن كتب التراجم تحفل بأسماء عددٍ آخر منهم لم تصل الينا كتاباتهم . ولم يتصل ذكرهم بالامراء .(١)

وتبدو أهمية الكتابة ومكانة صاحبها . في المجتمع الاندلسي . من وصف ابن سعيد للخطط الأندلسية حيث يقول عن كاتب الرسائل « وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الاندلس وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السمة يخصه من يعظمه . واهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته

---

(٢) **المقتبس مكي ١٦٥ _ ١٦٦ ، ١٧٠ .**
(٣) **اخبار مجموعة ٩٤ .**
(٤) **ينظر في هؤلاء الكتاب : الادب الاندلسي ، هيكل ٧٠ ، ١١٥ ، ١٧٤ وفصول في الأدب الاندلسي ص ٥٤ _ ٥٥ .**
(١) **ينظر تاريخ الادب الأندلسي _ ١ / ٢٢٦ ، فصول في الأدب الاندلسي ٥٥ .**

لحظة »[١]. ويصف ابن سعيد كيف تتسلط الالسنة على الكاتب الذي يلحن أو يخطيء في الكتابة وكيف يطعنون فيه. وهذا ما حصل فعلاً بالنسبة لكاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن (عبد الملك بن عبد الله). حيث كان هاشم بن عبد العزيز كثير التتبع لهفواته وسقطاته والتشنيع عليه.[٢]. والنص المتقدم يوضح لنا مدى اهتمام الاندلسيين بالكتابة وعنايتهم بها.

١ / خطبة طارق بن زياد

تتداول المصادر التاريخية والأدبية ذكر هذه الخطبة وذلك لاقترانها بحدث مهم في تاريخ الاندلس ولاتصالها بشخصية من الشخصيات البارزة في التاريخ الاسلامي فاذا صحت نسبتها الى طارق فستكون أقدم نص نثري. أدبي ولا نعرف لطارق غير هذه الخطبة وأبيات ثلاثة يحدثنا فيها عن عبوره الى الأندلس. رواها الحجاري في المسهب[٣].

ومن الغريب ان لا ترد الخطبة في مصادر التاريخ الأندلسي المبكرة التي تناولت تفصيلات دقيقة عن فتح الأندلس. باستثناء النص الذي اورده عبد الملك بن حبيب (٢٣٨ هـ) في كتابه (استفتاح الاندلس)[٤] والنص الذي اورده ابن قتيبة[٥] (٢٧٦ هـ) في كتابه (الامامة والسياسة) وروايتهما للخطبة تختلف اختلافاً كبيراً عن النص المتداول وأقدم رواية للخطبة جاءت عند مؤرخ مشرقي هو ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ويبدو أن صاحب النفح نقل عنه واستهل الخطبة بقوله: « قال بعض المؤرخين ».

وقد وقف عدد من الباحثين بالدراسة المتأنية لنص الخطبة التي يتسرب الشك في صحة نسبتها الى القائد طارق بن زياد ومنهم الدكتور احمد هيكل في كتابه الادب الاندلسي سنة ١٩٥٨. والدكتور عبد الرحمن علي الحجي في التاريخ الاندلسي

---

(١) نفح الطيب ١ / ٢١٧.

(٢) ينظر الحوار الذي جرى بين الأمير محمد وهاشم في هذا الخصوص، البيان المغرب ٢ / ١٠٨.

(٣) النفح ١ / ٢٦٥

(٤) حققه د. محمود علي مكي مجلة معهد الدراسات الاسلامية مدريد العدد ٥ / ١٩٥٧.

(٥) الامامة والسياسة نشر النص الخاص بالاندلس مع كتاب تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية ١٣٨ ـ ١٣٩ كذلك أورد ابن هذيل الأندلسي (القرن الثامن الهجري) برواية مختلفة في كتابه تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس ص ٧٠ ـ ٧١.

سنة ١٩٧٦ [١] . من أهم عوامل الشك في الخطبة ما ذكرناه آنفاً من عدم ذكر المصادر الاندلسية المتقدمة لها .

وفضلًا عن عوامل الرواية فأن هناك عوامل تاريخية فكرية . وأخرى فنية تتصل باسلوب الخطبة . وهذه العوامل مجتمعة تجعلنا نشك في « رواية ابن خلكان للخطبة . واليك الأدلة التاريخية والفكرية :

١ ـ عدم تلاؤم المعاني التي جاءت في الخطبة . مع الروح الاسلامية العالية التي تحلى بها القائد وجنده . فليس في الخطبة إشادة بدوافع الفتح . والحث على طلب الشهادة . كما هو معهود في خطب الجهاد . إذ من غير المعقول ان يغري جنوده بالمغريات المادية . في مقام يستدعي بذل الأرواح في سبيل الله .

٢ ـ حداثة عهد طارق بالاسلام . لا تتيح له هذه البلاغة والبراعة في خطبته . لاسيما ان اللغة العربية كانت جديدة عليه [٢] . فالغالب أنه بربري من نفزة . ويبدو أن أباه زياداً قد اسلم في ايام عقبة . وحسن اسلامه . وخلفه ابنه هذا فدخل في خدمة ولاة المسلمين وكان صغير السن حينما عهد اليه موسى بهذه المهمة الكبرى . لاننا لم نسمع به قبل ذلك في اي فتح [٣] ..

٣ ـ ترد في الخطبة معلومات تاريخية مغلوطة فقد جاءت كلمة « اليونان » وربما جاءت الكلمة خطأ لتحقيق السجع . والمعتاد أن يُذكرَ « الرومان » او « القوط » او « العلوج » و « العجم » او المشركون والكفار [٤] . في مثل هذا المقام . ولو ذكر « الرومان » لجاز لانهم يمثلون عنصراً من عناصر المجتمع الاسباني .

٤ ـ كذلك من الاخطاء التاريخية ما جاء من ان الوليد بن عبد الملك قد اختارهم عرباناً والصواب تاريخياً ان الذي انتخبهم هو موسى بن نصير [٥] ـ اللهم ان كان ذلك مقصوداً على سبيل المجاز ـ وأن نسبة البربر المشاركين في الفتح

---

(١) كذلك شك الدكتور حكمة الاوسي في الخطبة في كتابه فصول في الادب الاندلسي ص ٦١ ، وينظر مقال الدكتور احمد بسام ابو ساعي « خطبة طارق بن زياد وهل قالها حقاً ، مجلة العربي ٢٩٢ / ٩٦ ـ ٩٨ (الكويت ١٩٨٣) .

(٢) الادب الاندلسي / د . هيكل ٧٣

(٣) فجر الاندلس ٦٨

(٤) التاريخ الاندلسي ٦٠

(٥) نفسه ٦٠

كانت عالية . وعدد الذين صبحوا جيش طارق بن زياد من العرب كان قليلاً وقد صحبوهم من أجل تعليمهم مباديء الاسلام .

وفي النص التالي من الخطبة ما يشير الى الأخطاء التي ذكرناها « وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان . الرافلات في الدر والمرجان . والحلل المنسوجة بالعقيان والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عرباناً . ورضيكم لملوك الجزيرة أصهاراً واختاناً .. »

واما العوامل الفنية التي تنفي نسبة الخطبة الى طارق فهي :

١ ـ ان الخطبة لا تنسجم في سلوبها وخصائصها الفنية ان يكون طارق صاحبها لطولها من ناحية . ولاعتمادها على السجع المتكلف من ناحية أخرى . فالصفة التي تتصف بها خطب القرن الأول الهجري هي الايجاز . والتركيز . واما السجع المتكلف فهو من خصائص . القرون المتأخرة . اتفق على ذلك الدارسون . وما يأتي من السجع في العصور الاولى يأتي عفو الخاطر ولا يكون متكلفاً على نحو ما نجد في الخطبة .

٢ ـ وأن الخطبة يفترض أن تتضمن اقتباسات قرآنية على نحو ما هو معروف في خصائص النثر في القرن الاول الهجري . لكنها خلت من ذلك خلواً تاماً .

وخلاصة القول . إننا لا ننكر انكاراً قاطعاً . أن يكون طارق قد القى خطبة في جيشه قبيل المعركة . بل نجد مثل ذلك طبعياً . ومنسجماً مع تقاليد الجهاد في الجيوش العربية الاسلامية ولكننا نرجح ان تكون خطبته التي القاها غير الخطبة التي وردت في كتب المتأخرين . ولعل النص الذي أورده عبد الملك بن حبيب وهو من مؤرخي الأندلس الموثوق بهم هو الخطبة التي يمكن نسبتها الى طارق واليك نصها[١] :

« فلما بلغ طارقاً دنوه منه قام في أصحابه . فحمد الله واثنى عليه . ثم حض الناس على الجهاد . ورغبهم في الشهادة . ثم قال : ايها الناس اين المفر . والبحر من ورائكم . والعدو امامكم ؟ فليس لكم والله الا الصدق والصبر الاواني صادم الى طاغيتهم بنفسي . لاأقصر حتى أخالطه اوأقتل دونه ! »

---

(١) مجلة معهد الدراسات الاسلامية ٥ / ٢٢٢

واما النص الذي اورده ابن قتيبة فيبدأ البداية نفسها لكنه يختلف بعدها . على نحو ما نرى في النموذج :

« ايها الناس الى اين المفر . البحر وراءكم . والعدو امامكم . فليس لكم والله الا الصدق والصبر . فانهما لا يغلبان . وهما خيران منصوران . لاتضر معهما قلة . ولا ينفع معهما الحذر والكسل والاختلاف والفشل والعجب كثرة .

ايها الناس : ما فعلت من شيء فافعلوا مثله . إن حملت فاحملوا . وإن وقفت فقفوا . وكونوا كهيئة رجل واحد في القتال . وإني صامد الى طاغيتهم لأتهيبه حتى أخالطه او اقتل دونه فلا تهنوا ولا تنازعوا إن قتلت . فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الأدبار لعدوكم فتبيدوا بين قتيل ومأسور ... الخ[1] .

والخطبة جاءت في حوالي عشرة أسطر . وهي الى خصائص نثر القرن الاول الهجري أقرب من رواية ابن خلكان والله أعلم .

ب ـ النثر في عهد الخلافة (٣١٦ ـ ٤٠٠)

سنحاول في هذه الصفحات . أن نلم المامة سريعة . بحالة النثر في عصر الخلافة بعد أن وقفنا فيما تقدم عند النثر الأندلسي قبل هذا العصر . وحيث ان النثر الفني قطع رحلة طويلة من عمره . فلا بد له أن يختلف عما كان عليه في العصور السابقة فقد كثر الكتاب في هذا الميدان . فيما سجله لنا ابن عذاري . خلال حديثه عن الخليفتين الناصر والمستنصر . ومن هؤلاء ابن المنذر . وابن جهور . وابن بسيل[2] . وابن فطيس[3] . وأبن بدر[4] والزجالي[5] . والمصحفي . وفضلاً عن الكتاب مارست المرأة الاندلسية الكتابة الرسمية ومنهن : مزنة كاتبة الخليفة الناصر . ولبنى كاتبة المستنصر .

وليس غريباً ان يختلف النثر الفني في خصائصه العامة . فقد بدأ متأثراً من حيث الاستطراد بالمذهب الجاحظي واعتمد على المحسنات البديعية اكثر مما كان

---

(١) تاريخ انتاج الاندلس لابن القوطية . نص ابن قتيبة في الامامة والسياسة ملحق به ص ١٣٨ ـ ١٣٩ (ط عبد الله انيس الطباع ـ دار النشر للجامعيين ـ بيروت سنة ١٩٥٧ .

(٢) البيان المغرب ٢ / ١٦٩

(٣) نفسه ٢ / ٢٣٤

(٤) نفسه ٢ / ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٧

(٥) نفسه ٢ / ١٥٨

عليه وكثرت فيه الالقاب والجمل الدعائية والاعتراضية واكثروا من الاقتباس من القرآن الكريم والامثال .

ومما يندرج في النثر السلطاني . منشور الخلافة الذي أصدره عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦ هـ بصيغة رسالة وجهها الى صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة له يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك . وقد وجهت كذلك الى العمال :

« بسم الله الحمن الرحيم ـ أما بعد فإنا أحق من استوفى حقه . وأجدر من أستكمل حظه . ولبس من كرامة الله ما ألبسه . للذي فضلنا الله به . وأظهر أثرتنا فيه . ورفع سلطاننا إليه ويسر على أيدينا إدراكه . وسهل بدولتنا طرقه . وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا . وعلو أمرنا . وأعلن من رجاء العالمين بنا وأعاد من انحرافهم إلينا . واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به . واهل الفضل بما تفضل علينا فيه ! وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين . وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك . إذ كل مدعوٍ بهذا الإسم غيرنا منتحل له . ودخيل فيه . ومتسم بما لا يستحقه . وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه . وإسم ثابت اسقطناه فأمرُ الخطيب بموضعك أن يقول به . وأجر مخاطباتك لنا عليه . إن شاء الله . والله المستعان وكتب (يوم الخميس) لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة ٣١٦ »(١)

ومن أمثلة النثر الفني . ما شاع من المحاورات وفيها تتجلى هذه الخصائص . فمما دار بين الفقية المشاور ابي ابراهيم اسحاق الذي كان من أكابر علماء المالكية . اذْ دعاه الخليفة الناصر لحضور احتفال بقصر الزهراء لما اعذر لأولاد ابنه ابي مروان فتخلف أبو ابراهيم وَوَجدَ الناصر بسبب ذلك عليه وأمر ولي العهد الحكم ان يكتب اليه فكتب(٢)

« بسم الله الرحمن الرحيم . حفظك الله وتولاك . وسَددك . ورعاكَ . لماامتحن امير المؤمنين مولاي وسيدي ـ أبقاه الله ـ الاولياء الذين يستعَد بهم . وجدك متقدماً في الولاية . متأخراً عن الصلة . على أنه قد أنذرك ـ أبقاه الله ـ خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده ـ لاأعدمه الله توالي المسَرة ـ ثم أنذرت من قبل ابلاغاً في التكرمة . فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه

---

(١) نفسه ٢ / ١٩٨ . الادب العربي في الاندلس . عيسى ص ٧٤ .

(٢) نفح الطيب ١ / ٣٧٦ . ازهار الرياض ٢ / ٢٨٢ ـ ٢٨٤

المعذرة ... فعرفني ـ أكرمك الله ـ ما العذر الذي أوجب توقفك عن إجابة دعوته .. لنعرفه ـ ابقاه الله ـ بذلك . فتسكن نفسه العزيزة اليه ان شاء الله تعالى ؟ »

فأجابه ابو ابراهيم :

« سلام على الامير ورحمة الله وبركاته . قرأت ـ أبقى الله الامير سيدي ـ هذا الكتاب وفهمته . ولم يكن توقفي لنفسي إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا ـ أبقى الله سلطانه ـ لعلمي بمذهبه . وسكوني الى تقواه . واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم . فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها . ولا بما يغض منها ويطرق الى تنقيصها . يستعدون بها لدينهم . ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قُصادهم . فلهذا تخلفت . ولعلمي بمذهبه توقفت . إن شاء الله تعالى » فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب ابي ابراهيم اسحاق أعجبه . واستحسن اعتذاره . وزال ما بنفسه عليه . ولا شك أن رسالة الحكم المستنصر نيابة عن أبيه الناصر ـ تمثل انموذجاً لرسائل أمراء الأندلس . الذين عرفوا بالفصاحة والبلاغة . على نحو ما تمثله رسالة ابيه الى صاحب الصلاة بقرطبة التي تقدمت آنفاً .

ومن الكتاب والخطباء المشهورين في هذا العصر قاضي القضاة منذر بن سعيد . وكانت له مكانة عند الخليفة عبد الرحمن الناصر . حتى انه انتقده[1] في اسرافه في تشييد قصر الزهراء . إذ عَرض به في أول خطبة حضرها الخليفة . بعد أن شغل عن شهود الجمعة ثلاث مرات . فاستهل خطبته بقوله : « أتبنون بكلِّ رِيع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » فغضب الناصر . وشرع لا يصلي وراءه . وحين سأله ابنه الحكم أن يعزله عن الصلاة . ويستبدله بغيره . زجره وقال :

« أمثلُ منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ـ لا أمَّ لك ـ يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد . سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون . وإني لأستحيي من الله . الا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمع شفيعاً مثل منذر . في ورعه وصدقه . ولكنه أحرجني . فأقسمت . ولوددت أن أجد سبيلاً الى كفارة يميني بملكي . بل يصلي بالناس حياته . وحياتنا . إن شاء الله تعالى ـ فما أظننا نُعاض عنه أبداً . »

---

(١) المغرب ١ / ١٨٢ المرقبة العليا ٦٩ ـ ٧٠ . وتنظر القصة في أزهار الرياض ٢ / ٢٧٧

خطبة البلوطي :

وقد اقترن اسمه بحادثة جليلة وذلك حين وفدت سفارة من القسطنطينية سنة ٣٣٦ هـ[١] فأحتفى الناصر لقدومهم في يوم مشهود . وقد افاضت المصادر في الحديث عن ذلك اليوم . واقيم احتفال بالغوافيه بأظهار معالم الجاه والسلطان . امام هذه السفارة . وتبادلوا فيها الهدايا . ثم ان الناصر جلس الى قصر قرطبة . لدخول وفود الروم عليه . وكان المجلس عامراً بالحاضرين . ثم ان الناصر أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه . لتذكر جلالة مقعده . وعظيم سلطانه . وتولى ابنه الحكم ذلك . فأوعز الى الفقيه محمد بن عبد البر القرطبي . باعداد خطبة بليغة تناسب ذلك المقام . وكان من الخطباء البلغاء . فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هول المقام . وأبهة الخلافة . فلم يهتد الى لفظة بل غشى عليه وسقط الى الارض .

فقيل لأبي علي القالي البغدادي ـ وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد من العراق . وامير الكلام وبحر اللغة : قم فارقع هذا الوهي . فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه (صلى الله عليه وسلم) ثم انقطع القول بالقالي . فوقف ساكتاً مفكراً في كلام يدخل به الى ذكر ما أريد منه .

فلما رأى منذر بن سعيد ذلك قام من ذاته . فوصل افتتاح ابي علي لأول خطبته بكلام عجيب يسُحه سَحاً كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة فقال :

« اما بعد حمد الله والثناء عليه . والتعداد لآلائه . والشكر لنعمائه . والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه . فإن لكل حادثة مقاماً ولكل مقام مقالاً . وليس بعد الحق الا الضلال . وإني قد قمت في مقام كريم . بين يدي ملك عظيم . فأصغوا إلي معشر الملإ بأسماعكم . والقفوا عني بأفئدتكم . إن من الحق أن يقال للمحق صدقت . وللمبطل كذبت . وإن الجليل تعالى في سمائه . وتقدس بصفاته وأسمائه . أمر كليمه موسى . صلى الله على نبينا وعلى جميع انبيائه . أن يذكر قومه بأيام الله ـ جل وعز ـ عندهم . وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . أسوة حسنة . وإني اذكركم بأيام الله عندكم . وتلافيه لكم بخلافة امير المؤمنين التي لمت شعثكم . وأمنت سربكم . ورفعت فرقكم . بعد ان كنتم قليلا فكثركم . ومستضعفين فقوّاكم . ومستذلين فنصركم ولاه الله رعايتكم . وأسند اليه إمامتكم .

---

(١) المرقبة العليا ٦٦ ، نفح الطيب ١ / ٣٦٨ ـ ٣٧١ ، ازهار الرياض ٢ / ٢٧٢ ـ ٢٧٦ ، وهناك خلاف في المصادر حول من كان مطلوباً منه أن يخطب اولاً ، فمنهم من يجعل ذلك هو القالي .

أيام ضَربتْ الفتنة سرادقها على الآفاق . وأحاطت بكم شُعلُ النِّفاق . حتى صِرتم في مثل حدقة البعير . من ضيق الحال . ونكد العيش والتغيير . فاستبدلتم بخلافته من الشّدة بالرخاء . وانتقلتم بيمن سياسته الى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء ... ثم عاد الى الحديث عن استتباب الامن . وتحصين البلاد . واصلاح الأمور بعد اضطرابها وكيف أن الناصر استطاع قمع الفتن . ولمَ شعث المسلمين بفضل صبره وحنكته . وبصيرته الثابتة . وسلطانه القاهر . حتى قصدته الوفود . ودانت له الملوك .. وختم بالدعوة الى وحدة الكلمة فقال :

« فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به . فإنه تبارك وتعالى يقول « أطيعوا الله
وأطيعوا الرسول . واولى الامر منكم » وقد علمتم ما احاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين . وصنوف الملحدين . الساعين في شق عصاكم . وتفريق ملاكم . الآخذين في مخاذلة دينكم . وهتك حريمكم . وتوهين دعوة نبيكم . صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين . أقول قولي هذا واختم بالحمد . مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين » .

وتروى تسعة ابيات قالها بعد هذه المناسبة[١] . يصف فيها كيف انقذ الموقف العصيب . وفيها نبرة من الفخر والعجب ببراعة خطبته . ومطلعها :

مقال كحد السيف وسط المحافل قرنت به ما بين حق وباطل

وقد قال عبد الرحمن الناصر معجباً بما رأى : « لقد أحسن ما شاء . فلئن كان حبَر خطبته هذه . واعدَها مخافة أن يدور ما دار . فيتلافى الوهي . فإنه لبديع من قُدرته واحتياطه . ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فانه لأعجب واغرب »[٢]

ومن هنا فإن وصف القدماء إياه بأنَه كان خطيباً مصقعاً[٣] . يتحقق مع ما رأينا . من بلاغة خطبته . وبراعته فيها .

---

(١) المعجب ٥٦ ـ ٥٧ . النفح ١ / ٢٧٣ . وينظر بحث الدكتور حازم عبد الله خضر . القاضي الاديب منذر بن سعيد البلوطي . مجلة آداب الرافدين ـ جامعة الموصل العدد (٤) سنة ١٩٧٢ ص ١٧٠ ـ ١٩٠

(٢) النفح ١ / ٢٧٣ ـ ٢٧٤

(٣) جذوة المقتبس ٣٤٨

واما خصائص الخطبة فهي تعرب عن نفسها بوضوح :

بدأت بتقاليد الخطب الاسلامية منذ عصر الرسالة . بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى . والصلاة والسلام على رسوله الكريم . ثم ختمت بما بدأت به . صلاة على الرسول الكريم . وحمد لله سبحانه وثناء عليه . وفيها اشادة وتمجيد بمقام خليفة المسلمين الناصر . يجليها في موازنة بين العهد السابق له وما تحقق في عصره . من استقرار وأمان .

جاءت لغتها سهلة مرسلة ميسورة . تقوم على اساس الجملة القصيرة والعبارة الموجزة . وهي لا تعتمد التزويق اللفظي المتكلف . وفيها بعض فنون البديع غير المتكلفة من جناس وطباق واقتباس من القرآن الكريم اقتباساً مباشراً تارة واشارياً (غير مباشر) تارة أخرى . فمن النوع الاول حيث اقتبس من سبع آيات . في قوله تعالى[١] :

« ليقضي الله امرأ كان مفعولاً » وقوله[٢] : « ولن يخلف الله وعده » وقوله[٣] : « وعد الله الذين آمنوا منكم » وقوله[٤] : « لكل نبأ مستقر » وقوله[٥] : « لكل اجل كتاب » وقوله[٦] : « خسر الدنيا والاخرة ذلك هو الخسران المبين » وقوله[٧] « واطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .. » .

وجاء النوع الثاني كذلك في ثمانية مواضع من خطبته حيث اقتبس اشارياً من قوله تعالى : « فماذا بعد الحق الا الضلال المبين »[٨] وقوله « أن اخرج قومك من الظلمات الى النور . وذكرهم بايام الله »[٩] وقوله : « لقد كان لكم في الرسول اسوة حسنة »[١٠] و « لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة »[١١] وقوله : « واذكروا اذ كنتم قليلاً فكثركم »[١٢] ومن قوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً .. فأصبحتم بنعمته اخوانا »[١٣] ومن قوله : « يأتين من كل فج عميق »[١٤] ومن قوله : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »[١٥] .

---

(١) الانفال ٤٢
(٢) الحج ٤٧
(٣) النور ٥٥
(٤) الانعام ٦٧
(٥) الرعد ٣٨
(٦) الحج ١١
(٧) النساء ٩٥
(٨) يونس ٣٢
(٩) ابراهيم ٥
(١٠) الاحزاب ٢١
(١١) الممتحنة ٤
(١٢) الاعراف ٨٦
(١٣) آل عمران ١٠٣
(١٤) الحج ٢٧
(١٥) المزمل ٢٠

وفضلاً عما تقدم فانه استخدم الفاظاً وعبارات قرآنية من مثل قوله : كان بأسكم بينكم . وشفى صدوركم .

كما اعتمدت الخطبة على ايراد المعنى الواحد بأساليب مختلفة بالاعتماد على الترادف . والمعاني بشكل عام كانت واضحة ليس فيها تعقيد او غموض .. وتنوعت اساليبها بين جمل خبرية وانشائية كالامر والنهي والاستفهام والنداء . واعتمادها على أساليب التوكيد ..

واذا كانت مصادر الاندلس قد حفلت بهذه الخطبة وعنيت بروايتها . فإن ما بين ايدينا من الخطب في هذا العصر قليل جداً . وهذه الظاهرة عامة في سائر عصور الأندلس .

وبعد استعراضنا لموضوعات النثر الفني في هذا العصر ووقوفنا على نماذج منه وتعرفنا على اسماء اشهر الكتاب يسلمنا الحديث الى تحديد ابرز خصائص النثر .

فمن الدارسين المحدثين . احمد امين[1] . الذي يرى أن النثر في الأندلس . تابع

---

(١) ظهر الاسلام ٣ / ٢٠٤ ـ ٢٠٥ واليك هذه المراحل التي ذكرها احمد امين ملخصة :

١ ـ الخلفاء الراشدون والامراء الامويون ،ويتسم اسلوبهم بالجمل المتقطعة القصيرة ، والايجاز التام من غير توسع في المعاني ، وتأثرهم بالقرآن الكريم .

٢ ـ عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢ هـ) وقد قيل فيه انه اول من اطنب ، واول من جعل من الترسل فناً قائماً بذاته ، واول من ولدّ المعاني واول من استعمل التحميدات ، واول من جعل الكتابة الديوانية صناعة ، ومال الى الموازنة في الجمل في صيغتها وعددها وعدم الاكتراث الى المحسنات البديعية ، وعدم التزام السجع .

٣ ـ ابن المقفع (ت ١٤٢ هـ) وقد عنى ببسط المعاني ، وتفصيلها ، وتكرير الجمل المتقاربة في معناها ، كما عني بالتحليل النفسي وتناول القيم الخلقية في موضوعاته ، ولم يلتفت كتابه الى الاهتمام بالسجع .

٤ ـ الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وتقوم طريقته على اساس استخدام الجمل القصيرة ، والفقرات المتقابلة ، وتعديد النعوت ، واستقصاء اجزاء المعنى ، بتأديته بعدة جمل ، والافادة من الترادف في اللغة ، لاستخدام اساليب الدعاء ، وعدم تكلف المحسنات البديعية ، كما تقدم من حيث المعاني ، على الاعتماد على الفكاهة والسخرية والتنقل من الجد الى الهزل ، والاطناب .

٥ ـ ابن العميد (ت ٣٦٠ هـ) وتعتمد طريقة على أساس التزام السجع وعدم الخروج عنه ، وقسر الجمل لهذا الغرض ، والمبالغة في التزويق اللفظي واستخدام المحسنات البديعية .

وقد اضاف الدكتور عبد العزيز عتيق (الادب العربي في الاندلس ٤٣٤) مرحلة سادسة وابرز اعلامها :

٦ ـ القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) طريقته على أساس طريقة ابن العميد وتوسع فيها بالتزام السجع الطويل المنمق ، مع مغالاة في فنون البديع الاخرى ، كالجناس والطباق والتورية .

صنوه النثر المشرقي الذي مرّ بخمس مراحل جعل على رأس كل مرحلة أبرز اعلامها :

وقد حامت أساليب النثر الأندلسي حول هذه المدارس وجارت اساليبها . ولكنها حافظت على شخصيتها ومنهجها لاسيما بعد القرن الرابع الهجري كما سنوضحه فيما بعد .

اتجهت الكتابة في عمومها الى الايجاز وعدم الاستطراد . كذلك يلاحظ الى انها تأثرت بالمفاهيم الاسلامية في المعاني التي جاءت فيها . غلبت سمة السهولة في الاسلوب والوضوح في الالفاظ . وكانت تتجه الى جزالة الالفاظ ومتانتها احياناً قليلة . واعتمدت على الجمل القصيرة،والتقسيم في العبارات،والتقابل بينها واستخدام المترادفات . استخدام المحسنات البديعية بشكل معتدل دون أن نلمح تكلفاً فيها .

واكثر ما وصل من نصوص نثرية في هذا العصر لأمراء الأندلس . وكتابهم .. وقد آثر احد الباحثين[١] نثر عصر الخلافة « ٣١٦ ــ ٤٢٢ هـ » ، بدراسة علمية ، حيث درس انماط النثر وجعلها في احد عشر ضرباً هي :

١ ــ الرسائل الديوانية
٢ ــ الرسائل الاخوانية
٣ ــ المراسلات
٤ ــ المحاورات
٥ ــ الخطابة
٦ ــ الوصف
٧ ــ الهجاء
٨ ــ المواعظ
٩ ــ المناظرات والمنافرات
١٠ ــ الحكايات والرسائل القصصية
١١ ــ المقامات

وهي موضوعات لاتختلف في كثير عن موضوعات النثر في عصر الطوائف كما سيأتينا . وقد درس الباحث ابرز النصوص النثرية . وتحدث عن الوجوه البارزة في النثر الا ان جل الاعلام الذين وقف عندهم هم من اعلام عصر الطوائف واعلام

---

(١) السيد فادي رشيد حلاق نحال ، كلية الآداب ــ جامعة بغداد ١٩٨٤

الذخيرة لابن بسام . كابن شهيد (ت ٤٢٦ هـ) وعمر بن الشهيد (٤٤٠ هـ) وابني برد الاصغر (توفي بعد ٤٤٠ هـ) والاكبر (٤١٨ هـ) وابني حزم الاندلسي ابو المغيرة عبد الوهاب بن احمد (ت ٤٣٨ هـ) وابو محمد علي بن احمد بن حزم (٤٥٦ هـ) . وسنقف فيما يلي على احد ابرز الكتب في هذا العصر . كتاب العقد الفريد .

العقد الفريد

من المصادر المهمة في المكتبة العربية انتهى ابن عبد ربه من تأليفه سنة ٣٢٢ هـ ويبدو ذلك في ارجوزته التي تحدث فيها عن تاريخ الأندلس ثم توقف عند عام ٣٢٢ هـ[١] . فهو يمثل الكاتب في نضجه الثقافي قبيل وفاته بستة اعوام .

وقد اختلف في تسمية الكتاب فرأى عدد من الباحثين المحدثين أن اسمه « العقد » ورأى آخرون أنه « العقد في الأخبار » . واما لفظة (الفريد) فقد أضيفت اليه فيما بعد . ودليلهم في ذلك أن المصادر القديمة التي عرّفت بالكتاب . لم تذكر لفظة الفريد . وأن أول من ذكرها الا بشيهي (ت ٨٥٠ هـ) في مقدمة كتابه المستطرف من كل فن مستظرف[٢] . ولكن المؤلف يزيل هذا الابهام . ويحقق لنا اسم الكتاب في مقدمته . حيث يقول : « وسميته كتاب ـ العقد الفريد ـ لما فيه من مختلف جواهر الكلام . مع دقة السِّلك . وحسن النظام[٣] » .

وأما ذكر القدماء لاسمه مجرداً من كلمة « الفريد » فهو في الغالب على سبيل الايجار والاختصار . كما هو مألوف لدينا في ذكر المصادر فنقول : « القلائد . والجذوة . والبغية . والنفح » ونريد بها قلائد العقيان . وجذوة المقتبس . وبغية الملتمس . ونفح الطيب .

ومن عنوان الكتاب نعلم أن المؤلف تصور كتابه في صورة عقد حباته فريدة وثمينة . ولذلك جعل أبواب كتابه خمسة وعشرين باباً . كل باب باسم جوهرة واختار اثنتى عشرة جوهرة . لأبواب الكتاب . وقابلها باثنتي عشرة أخرى . ثم جعل الواسطة الخامسة والعشرين فلكل حجارة كريمة في العقد مثيلتها . في النصف الآخر . وقد جعل كل كتاب منها جزئين . فاجتمع منها خمسون جزءاً في خمسة

---

(١) العقد ٢ / ٢٧٧

(٢) المستطرف ١ / ٢٢ ، وينظر ابن عبد ربه وعقده ٤٩

(٣) مقدمة العقد ١ / ٤

وعشرين كتاباً . وبدأها باللؤلؤة في السلطان وختمها باللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح .

ومنهجه في مادة الكتاب انه يختار . وينتقي الاخبار التي هي جديرة بالجمع. ثم ينسقها وفق الموضوعات المتشابهة في ابواب محددة . وقد نوّع وغير في اختيار الموضوعات . ولم يحصرها في صنف واحد . وحذف الاسانيد والرواة من الأخبار التي يريدها . على سبيل الايجاز ودفع السأم عن القاريء .

وأما مصادره في الكتاب . فهي مصادر الثقافة العربية التي سبقته . ومنها : عيون الاخبار لابن قتيبة . والبيان والتبيين . والبخلاء . والحيوان . للجاحظ . والكامل للمبرد . وطبقات الشعراء لابن سلام . والسيرة لابن هشام . وكليلة ودمنة لابن المقفع . ودواوين الشعراء الجاهليين والاسلاميين .[١]

ولاهمية الكتاب تناولته الاقلام بالدراسة والبحث . وفي مقدمة هذه الدراسات الرسالة الجامعية التي قدمها الدكتور جبرائيل جبور بعنوان « ابن عبد ربه وعقده » سنة ١٩٣٣ وجاء الحديث عنه في عدد من الدراسات التي تناولت .الأدب الأندلسي . ومنها : كتاب الدكتور احمد هيكل .[٢] وكتاب الدكتور الطاهر أحمد مكي .[٣] ووقف الدكتور محمد رضوان الداية بحثه على الجانب النقدي من الكتاب .[٤] اما الدكتور حازم عبد الله خضر . فقد كتب بحثه ليدرس : (العقد الفريد بين المشرق والأندلسى)[٥].

ومن القضايا المهمة . دراسة أهمية الكتاب . وآراء النقاد القدماء والمحدثين فيه . فقد اقترن ذكر الكتاب بمقولة للصاحب بن عباد انفرد ياقوت الحموي بذكرها . فقال : « وبلغني ان الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد . فحرص عليه حتى حصل عنده . فلما تأمله قال : « هذه بضاعتنا ردت الينا ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا لا حاجة لنا فيه فردّه »[٦].

---

(١) ابن عبد ربه وعقده ٥٦ ـ ٧٠ وينظر الادب الأندلسي ص ٢٦٢

(٢) الادب الأندلسي ٢٦٠ ـ ٢٦٦

(٣) دراسة في مصادر الأدب ٢٢٠ ـ ٢٢٤

(٤) تاريخ النقد الادبي في الاندلس ٢٨٠ ـ ٢٨٣

(٥) مجلة آداب الرافدين ص ٢٢٩ ـ ٢٦٤ العدد السابع الموصل ١٩٧٦

(٦) معجم الأدباء ٤ / ٢١٤ (ط المستشرق)

كما لم يسلم ابن عبد ربه من أمثال الصاحب بن عباد . فقد نقده مواطنه . وعصريّة محمد بن يحيى القلفاط (ت ٣٢٢ هـ) وسمّى كتابه باسم « حبل الثوم » تشويهاً وتحقيراً(١) . ولعل ذلك بسبب المهاجاة التي كانت بينهما . وعاب عليه ابن ربيب القيرواني في رسالته . وقد رد عليها ابن حزم الاندلسي برسالته المعروفة في فضائل الاندلس . فمما قاله ابن الربيب : « على انه يلحقه فيه بعض اللوم . لاسيما اذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده . ومناقب ملوكه يتيمة سلكه . أكثر الحز وأخطأ المفصل . وأطال الهز لسيف غير مقصل . وقعد به ماقعد بأصحابه . من ترك مايعنيهم . واغفال ما يهمهم »(٢)

وأمثال هذه الأحكام التي اصدرها القدماء في كتاب العقد الفريد . تدل دلالة واضحة على اصداء تأليف الكتاب من ناحية . والمعركة الثقافية . والصراع الأدبي . اللذين احتدما بين الأندلسيين والمشارقة وانتهيا الى صورة من صور المنافسة والمعارضة . بدوافع التفوق والتميز .

فأما حكم الصاحب بن عباد . فهو غير دقيق . لأنه تأمّل الكتاب تأملاً سريعاً فأصيب بخيبة أمل فيه . اذ لم يجد بغيته وما كان يتطلع اليه في الكتاب . فقال قولته المتقدمة آنفاً وهي كما يرى الدكتور مصطفى عليان « تمثل الموقف الأدبي للمشارقة من جهود الأندلسيين الأدبية . لأن العبارة تكشف عن عمق الرغبة في التعَرف الى أدب الأندلسيين الذي جاء العقد مبدأ لها . في عدم العناية بأدب الأندلس عناية كاملة »(٣)
والذي نراه ان الهدف الذي دعا المؤلف الى تأليف كتابه هو :

١ ـ تعريف أهل الأندلس بالمشرق . ونقل الأخبار والمعلومات من مصادرهم . لأن الاندلسيين مغرمون ومعجبون بكل ما هو مشرقي .
٢ ـ تعريف أهل المشرق بأهل الأندلس وعرض جانب لا يستهان به من اخبارهم .
٣ ـ تقوية ثقة أهل الأندلس بأنفسهم وبأنهم قادرون على ما توصل اليه أهل المشرق . وفي هذا المجال يقول ابن عبد ربه في مقدمته للكتاب « وقرنت به غرائب من شعري . ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته . وبلدنا على انقطاعه . خط من المنظوم والمنثور »(٤) .

---

(١) المقتبس ص ٤٢ (ط باريس ١٩٣٧) . النفح ٢ / ٢٩٤ وينظر : الشاعر الأندلسي ابن عبد ربه القرطبي المورد ٦ / ٢ / ٤٢
(٢) النفح ٣ / ١٥٨
(٣) تيارات النقد الأدبي ٨٢ (٤) العقد ١ / ٤ .

إن الجانب الأندلسي واضح في الكتاب . وهو يتمثل بالمرتبة الأولى في أشعار المؤلف التي انتظمت أجزاء الكتاب وصفحاته . وهي تقارب ألف بيت . فضلاً عن أرجوزتيه الأولى : في غزوات عبد الرحمن الناصر التي بلغت ٤٤١ بيتاً . والثانية : في العروض وهي تناهز مئتي بيت .

وزيادة على ما تقدم . الأشعار التي أوردها المؤلف لشعراء الأندلس من أمثال يحيي الغزال . وعباس بن فرناس . ومؤمن بن سعيد وغيرهم .

كما يتمثل الجانب الأندلسي في النصوص النثرية التي تضمنها الكتاب بأسلوب المؤلف . اذ كان يستهل صدر كل كتاب بفرش أدبي . والمتأمل في هذه المقدمات يلاحظ انها صيغت بعناية أدبية وموهبة فنية وبراعة بيانية .[١]

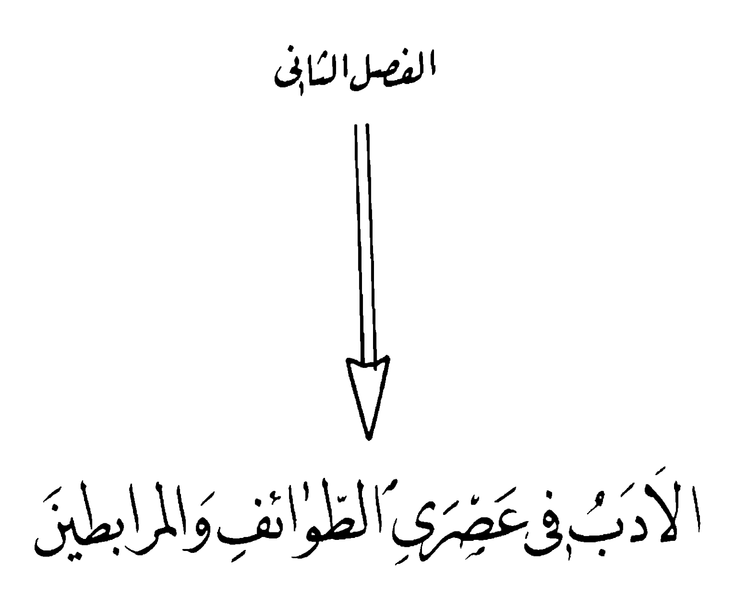
ومن هنا وصف الكتاب بأنه « عظيم القيمة من النواحي التأريخية . والادبية . والعلمية . وهو ذخيرة أدبية حافلة بالنصوص القيمة شعراً ونثراً ... وهو موسوعة ثقافية عربية عامة »[٢] وأما من رأى أن مادة هذا الكتاب ليست مشرقية فحسب ولكنها عديمة الشخصية ـ أن صح التعبير ـ مجرد أخبار ...[٣] فهو لا يعدو أن يكون صيغة مختلفة لرأي الصاحب بن عباد الذي قصد به تهوين نتاج غرب العالم الاسلامي .

---

(١) مجلة اداب الرافدين ٧ / ٣٤٩

(٢) الادب الاندلسي ٢٦٢ .

(٣) الحب في التراث العربي ٢٤٥ .


الفصل الثاني
الأدبُ في عصرَيِ الطّوائفِ والمرابطينَ

الأدب في عصري الطوائف والمرابطين :

ازدهر الأدب العربي . في هذين العصرين ازدهاراً عظيماً . لم نشهد له نظيراً في العصور التي سبقته وربما في العصور التي تلته . ذلك لأن عصر الطوائف والمرابطين . كان يمثل نضج الثقافة . وينع ثمرتها التي تعهدتها الرعاية والعِناية . مدة ثلاثة قرون . وكان حظ الأدب من هذه الثقافة وافراً . وسهمه مصيباً ..

لذلك كرست دراسات كثيرة[١] لدراسة الحياة الأدبية في هذين العصرين . والكشف عن مناط الابداع والتفوق فيهما . سواء في دراسات تناولت الأدب بشكل عام . أم دراسات اختصت أحد طرفي الأدب شعراً أم نثراً . أم دراسات كرست للأدباء انفسهم شعراء وكتّاب .. وبين أيدينا منها عدد جم . وكثرة كاثرة . تؤلف نسبة كبيرة . بين ما كرّسه الباحثون لدراسة الأدب الأندلسي في عصوره المختلفة ..

أنه عصر التألق الأدبي . عصر جهابذة الاعلام الاندلسيين وعمالقته . الذين عرفنا الادب الأندلسي من نتاجاتهم المتنوعة المتميزة . الخصبة المغدقة .حتى قرر عدد من الدارسين ان الحياة الادبية في هذا العصر . كانت أزهى وأزهر منها في كل عصر آخر من عصور العرب في الاندلس .[٢] كيف لا ؟ وقد انجب هذان العهدان عدداً كبيراً من الشعراء منهم : ابن دراج القسطلي (ت ٤٢١ هـ) متنبي الأندلس . وابن شهيد الاندلسي (ت ٤٢٦ هـ) الاديب الذي تفتق خياله عن رسالة التوابع والزوابع . وأبا جعفر بن الأبار الخولاني الاشبيلي (ت ٤٣٣ هـ) صاحب المذهب الطريف في الغزل . وابن زيدون (ت ٤٦٣ هـ) . ذو الوزارتين . الذي لا نكاد نعرف الادب الاندلسي بمعزل عن أدبه شعره ونثره . وابن عمار الاندلسي (ت ٤٧٧ هـ) الذي غالى بعض الأندلسيين فوصفه بأبي الطيب .[٣] وابن الحداد (ت ٤٨٠ هـ) صاحب نويرة . وابن وهبون المرسي (ت ٤٨٤ هـ) الشاعر الذي منحه المعتمد ابن عباد على بيتين الف مثقال من الذهب . والمعتمد بن عباد (ت ٤٨٨ هـ) شاعر

---

(١) ينظر على سبيل المثال : تأريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، للدكتور احسان عباس ، البيئة الاندلسية واثرها في الشعر للدكتور سعد اسماعيل شلبي ، والشعر في ظل بني عباد ، د . محمد مجيد السعيد ، واشبيلية في القرن الخامس الهجري ، د . صلاح خالص .

(٢) الشعر الاندلسي ـ كنون ٢٧٧

(٣) المعجب ١٦٩ .

المجد الباذخ والذل المستكين . وابن اللبانة الداني (ت ٥٠٧ هـ) شاعر الوفاء وسموءل الشّعراء وريحانة الأمراء .[١]

واتصلت الظاهرة الشعرية ونتاجها الضخم في عصر المرابطين فأستمرعطاؤهمحيث نلقى ابن عبدون التجيبي (ت ٥٢٠ هـ) صاحب المرثاة المشهورة في بني الافطس . وابن حمديس الصقلي (٥٢٧ هـ) أشهر شعراء الأندلس وصقلية . والشاعر الحكيم أبو الصلت الداني (ت ٥٢٩ هـ) وابن الزقاق البلنسي (ت ٥٣٠ هـ) ابن اخت شاعر الطبيعة ابن خفاجة الاندلسي (ت ٥٣٣ هـ) والأعمى التطيلي (ت ٥٤٢ هـ) وعملاق الزجل الأندلسي ابن قزمان (ت ٥٥٥ هـ) والشاعر العفيف الرصافي البلنسي (٥٧٢ هـ)

ولم يقتصر قول الشعر على فئة معينة من الشعراء ـ الشعراء المتفرغين . لقوله بله عمّ قرضة على طبقات المجتمع الأندلسي في هذا العصر ومنهم فلاح اشبيلية على نحو ما يشير الى ذلك ياقوت[٢]. وذوى المهن . كابن القزاز صاحب الموشحات والجزار السرقسطي الذي تقلب بين الجزارة وقول الشعر. فقد استولى على افئدتهم فكان الفقية والعالم والمثقف . كلهم يتعاطى نظم الشعر ولم يقتصر قول الشعر على الرجال بل وجدنا المرأة الاندلسية ذات تصيب وافر فيه . وقد عبر عن هذهالحقيقة استانلي بول فقال : « ويظهر ان العالم الاسلامي اتجه بروحانيته الى آلهة الفنون فمن الخليفة في عرشه الى النوتي في سفينته . كنت تسمع النظم الفائق في مشاهد الاندلس وجمال مدنها »[٣]
وقد واكب هذا التقدم في الشعر تقدم آخر في النثر على نحو ماستناوله حين حديثنا عنه . ونشهد عدداً كبيراً من شعراء الأندلس يلقب بذي الوزارتين . وقد ترجم ابن خاقان لعشرة منهم في قلائده وهم الذين جمعوا بين لوائي الشعر والنثر .

ومن الحقائق البدهية ان تنتعش في مثل هذه الظروف الفنون القولية.وفي مقدمتها الشعر ولكن البيئة الأندلسية طبعت تلك الموضوعات بطابعها حتى وجدنا فنوناً من الشعر تحظى من العناية والاهتمام دون فنون أخرى وتصدر في هذا المقام المديح فلم

---

(١) المغرب ٢ / ٤١١ .
(٢) معجم البلدان لياقوت ٣ / ٢٥٧
(٣) قصة العرب في اسبانيا ١٣٢

ينتعش في عصر اندلسي آخر انتعاشه في عهد ملوك الطوائف حيث بلغ الأمر بالشقندي، وهو في مقام المنافـرة، إن قال بعد أن عدد ملوك طوائف الاندلس: « كل منهم قد خلد فيه من الامداح. مالو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح .. »[١]

وبلغ من ثقة الشاعر ببضاعته. وعدم اكتراثه بالممدوح ـ حتى لو كان مثل المعتضد ـ ان حلف شاعر الأيمدح احداً منهم بقصيدة الا بمائة دينار فلما كلفة المعتضد ـ وهو من هو سطوة وهيبة ـ أبى حتى يعطيه ماشرطه في قسمة[٢]. ولم يكن الغزل أقل حظوة منه وكذلك الشأن في الرثاء والزهد والتصوف كما سنبسط القول فيها.

ولا يفوتنا ان نشير الى عناية الشعراء بموضوعات اخرى متصلة بالموضوعات التي تقدمت وقد وقفت الدراسات الحديثة عندها. ومنها شعر الجهاد والمعارك الاسلامية وشعر الآداب والاخلاق الاسلامية.[٣]

وأما الاتجاهات الجديدة في شعر هذا العصر فقد كُرست لثلاثة موضوعات رئيسة نقف عندها وقفة متأنية فيما بعد. وهي شعر الطبيعة وشعر رثاء المدن والممالك. وشعر الغربة والحنين. والجديد مسألة نسبية: نريد بها زيادة مقدار الموضوع وتنوعه وتفرعه مع البراعة في الصبغ والصوغ كما يتصل الجديد بمدى تفاعله العميق مع البيئة الأندلسية وهو مانجد آثاره واضحة في هذه الموضوعات الى حد بعيد.

لقد حاول الرافعي ان يوضح مناط تفوق الاندلسيين في أشعارهم على أهل الحجاز والعراق والشام وجعل ذلك سراً كامناً في خيالهم. يدركه ولا يستطيع ان يحده: « .. ولكن لايستقبلك في شعرهم مايستقبلك في شعر الأندلسيين من الشعور الروحي الذي لاسبيل الى تصويره بالالفاظ. والذي نتبين معه أن الفرق بين الخيالين كانه الفرق بين البلادين في التبعية والاستقلال »[٤] ويعود في موضع آخر ليؤكد دور الخيال في غير اشعار الاندلسيين. « ومن هذا القبيل ينماز شعر فحول الاندلس بتجسيم الخيال .. واحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحي بها الحضارة. والتصرف في أرق فنون القول واختيار الالفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة وابداعها في جمل

---

(١) النفح ٣ / ١٩٠

(٢) النفح ٣ / ١٩٠

(٣) ينظر الاتجاه الاسلامي ٢٠٩ وما بعدها، ٢٦٣ وما بعدها

(٤) تأريخ اداب العرب ٣ / ٢٩٧

وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي .. »[1] ويحدثنا عن فلسفة الجزالة حيث يقرر ان جزالة اللفظ في شعرهم انما هي روعة موقعة . وحلاوة ارتباطه بسائر أجزاء الجملة ..[2]

والحق اننا نلمح أثر الثقافة العربية عميقاً في أشعارهم وهي تبدو في نسب متفاوتة بين الشعراء . حتى نجد أشعاربعضهم معرضاً للثقافة في كل أبعادها تأريخاً وأدباً وبلاغة وفلسفة . يحشدها الشاعر حشداً ويقحمها أقحاماً ادلاءً بفضله واعراباً عن ثقافته وتعمقه في فهمها . . وهذا الاتجاه يتمثل لدى عدد من الشعراء ومنهم ابن دراج القسطلي وابن حزم الاندلسي الشاعر الفقيه وسنفرد الحديث فيهما . وابن عبدون التجيبي الذي اقترن اسمه برثاء دولة بطليوس .

ومن الموضوعات التي اختلفت فيها وجهات النظر وتباينت الاراء حولها . حالة الادب بعد مجيء المرابطين فقد رأى بعض الدارسين ان سوق الشعر كسدت وان الشراء قد دالت دولتهم وادبرت وذلك لان المرابطين لم يلتفتوا اليهم . ولم تكن لهم عناية بالشعر . وتأخذ هذه الفكرة أبعاداًومظاهر واسعة عند الدكتور مصطفى عوض الكريم يحددها بالشقاق والحرب والكساد والضَياع[3]. ثم لايلبث أن يجد حال الأدباء مأساة بسبب المرابطين ولابد للمأساة ان تترك ظلالها . وتتجلى هذه الظلال في ان الشعر غلبت عليه موضوعات جديدة اتسع فيها قول الشعراء وهي : القلق . والزهد . والهجاء والرثاء .[4] وان الموضوعات التقليدية الاخرى تأثرت في ظلال هذه الظروف فتغيرت مساراتها ووجهتها حتى رأى أنَ مدحَ المرابطين لم يأت بدوافع الاعجاب بهم وإنما كان ضربة لازب بسبب الظروف القاسية التي مرت بأهل الأدب . « كان على الشعراء ان يمدحوا ليعيشوا والا فالجوع هو النصيب المحتوم لكثيرين منهم »[5] وقد أصبح الممدوح ــ كما يرى ــ بعيداً عن قلب الشاعر بعد ان كان نديمه وجليسه فطالت القصائد بعد ان كانت مقاطيع قصاراً . تظهر عليها حرارة البديهة واخلاص العفوية واضطر الشاعر الى حشد المحسنات اللفظية والمعنوية مقدماً بذلك الدليل على فساد ذوق الممدوح وتأثير ذلك في فن الشاعر . وفي هذه الصحراء المجدبة الضنينة بالاحسان يجد واحات خضراء هنا وهناك . تتمثل في

---

(١) (٢) نفسه ٣ / ٢٩٦

(٣) الادب الاندلسي في عهد المرابطين ٤٦ ــ ٥٦

(٤) نفسه ٥٧ ــ ٧٢

(٥) نفسه ٧٣

بعض الأعيان من الفقهاء والقضاة الذين قربوا أهل الادب . واحسنوا اليهم . وكفكفوا دموع الحرمان من عيونهم [١]

وهكذا تكتمل صورة الادب ، عند الدكتور الكريم في مظاهرها الشائنة ، وأوجهها المتخلفة ، كل ذلك بسبب المرابطين ، ولا ينفرد هذا الباحث بهذه الآراء عن حالة الشعر والأدب في ظلهم الا اننا نجده أكثرهم مبالغة في مسخ الصورة وتشويهها . ولعله يتابع في آرائه عدداً من المستشرقين الذين ذرفوا دموع التماسيح ، على دولة المعتمد بن عباد بعد نفيه الى المغرب ، ومنهم المستشرق الهولندي دوزي الذي نعت دولة المرابطين بالتخلف الفكري والتأخر الأدبي . وقد رد عليه مستشرق اسباني هو خوليان ريبيرا .[٢]

أما الباحثون الآخرون الذين جاءت آراؤهم أكثر اعتدالاً في المرابطين فمنهم الدكتور أحمد أمين .[٣]

من الباحثين الذين رأوا غير هذا الرأي ولم يجدوا ـ على نحو ما تقدم ـ تخلفاً في الحياة الثقافية والفكرية في عهد المرابطين الدكتور مصطفى الشكعة حيث فصل القول في نشاطها ولم يجد في الشعر والنثر تأخراً عما كانا عليه في عهد الطوائف .[٤]

وبمثل هذا الرأي صدر الاستاذ عبدالله كنون حيث ساق لنا أمثلة على عناية الامراء المرابطين بنهضة العلم والادب حيث نبغ في الأدب والشعر أمراء نجد تراجمهم لأول مرة الى جانب تراجم نظرائهم من الاندلسيين وغيرهم في المجموعات الأدبية المعروفة كقلائد العقيان وذخيرة ابن بسام وغيرهما . ولم يقتصر هذا الولوع بالعلم والنبوغ بالأدب على الرجال منهم بل ان النساء شاركن أيضاً بنصيبهن في ذلك [٥].

---

(١) نفسه ٧٨

(٢) تأريخ الفكر الاندلسي ٢١

(٣) ظهر الاسلام ٣ / ١٨٠

(٤) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية ٢ / ٢٩٥

(٥) النبوغ المغربي ٨٠ ، ٨٢

وقد ذهب هذا المذهب الاستاذ مصطفى صادق الرافعي حيث لم يجد اختلافاً كبيراً في عهد المرابطين عن العهد السابق حيث يحدثنا عن يوسف بن تاشفين فيقول : « فانقطع اليه من أهل كل علم فحوله حتى ماجت بهم حضرته . ولم يجد بدأ من ان يتبع سنن من قبله في تجميل الملك بهم . وبذلك اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عصر من عصور الاندلس »[١] .

وفيما يلي سنتوقف عند أبرز أربعة موضوعات في الشعر في هذا العصر وهي :

١ ـ الغزل ٢ ـ المديح ٣ ـ الرثاء ٤ ـ الزهد والتصوف

---

(١) تأريخ أداب العرب ٢ / ٢٨٥

المبحث الأول

الشعر والشعراء

موضوعات الشعر

١ ـ الغزل :

تستخدم في هذا الموضوع اصطلاحات أخرى الى جانب الغزل هي : النسيب . التشبيب . ويتحدد المفهوم في المعاجم العربية على النحو التالي :

الغزل : تحديث الفتيان الجواري . ومغازلتهن محادثتهن ومراودتهن . والتغزل التكلف لذلك . اما النسيب : فالتغزل بهن في الشعر . والتشبيب مثله يقال شبب بالمرأة اي قال فيها الغزل والنسيب ويشبب فيها اي ينسب بها[١]

يتحدث قدامة بن جعفر[٢] عن الموضوع فيحد الغزل على انه المعنى الذي اعتقده الانسان في الصبوة الى النساء . ونسب بهن من أجله . فكأن النسيب ذكر الغزل . والغزل المعنى نفسه . وهو التصابي والاستهتار بمودات النساء . والنسيب الذي يتم به الغرض هو ماكثرت به الأدلة على التهالك في الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة .

والفرق بين هذه الالفاظ الثلاث ـ لغوياً ـ محدود لكن الاستخدام الادبي يوشك أن يحدد بكل لفظة دلالة خاصة[٣]فالغزل هو الاستهتار بمودات النساء وتتبعهن والحديث اليهن .. وان لم يتعلق القائل منهن بهوى او بصبابة او هو اللهو مع النساء في الشعر او رقيق الشعر في النساء[٤]

---

(١) لسان العرب مادة ، غزل ، نسب ، شبب

(٢) نقد الشعر ١٤٠

(٢) الغزل في الشعر الجاهلي ص ١٣ ، (د . احمد محمد الحوفي ـ دار القلم بيروت د . ت)

(٤) معجم المصطلحات العربية ٢٦٥ (د . مجدي وهبة ، كامل المهندس ط ٢ مكتبة لبنان ١٩٨٤)

والتشبيب ما يقصد به الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام ومايضاف الى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الاطلال توخياً لتعليق القلوب . او هو ذكر الشاعر ايام اللهو والشباب في شعره[١]

والنسيب أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى . ومايعرض له من محاسن المرأة . قبل المفاجأة بالغرض من الكلام . او هو ذكر الشاعر خَلْق النساء واخلاقهن . ورقيق الشعر في النساء[٢].

والغزل في هذا العصر من أكثر أغراض الشعر الاندلسي تداولاً بين الشعراء اذ يؤلف النصيب الأكبر من دواوينهم بل من دواوين شعراء الاندلس عامة حتى ان الدكتور بدير متولي حميد عدّه احد الالوان الثلاثة التي تفوق بها الأندلسيون الى جانب شعر الطبيعة والشعر الحزين[٣]. وقد حدد قدامة بن جعفر سمة المحسن من الشعراء بانه الذي يصف من احوال مايجده مايعلم به كل ذي وجد حاضر او داثر .. حتى يكون للشاعر فضيلة الشعر[٤]

لقد كان للبيئة الاندلسية أثرها في ازدهار هذا اللون ونموه الى جانب كونه موضوعاً يتصل بالطبيعة الانسانية منذ القدم ولذلك فلا يكاد ديوان أندلسي يخلو من هذا الموضوع .

لقد وقفت دراسات كثيرة وبحوث غزيرة لدراسة أبعاده واتجاهاته[٥]. واكثر الدراسات التي تناولت الشعر الاندلسي بشكل عام او افردت في دراسة بعض شعراء الاندلس ممن تعرض لهذا الموضوع الذي يدور في مجمله في ثلاثة اتجاهات . عذري . وحسي . وتقليدي . وهي درجات يتفاوت الشعراء في النزوع اليها وسلوك سبيلها وتكاد تجتمع في ديوان ابن زيدون الذي يمكننا ان نعده ابرز الشعراء في هذا الموضوع اذ يحتل حوالي ثلث ديوانه ومن ابياته التي تمثل النزعة الاولى قوله :

---

(١) نفسه ٩٩

(٢) نفسه ٤١٠

(٣) قضايا اندلسية ١٣١

(٤) في النقد الادبي عند العرب ، ٣٠٩ (د . محمد طاهر درويش)

(٥) كتبت رسالتان للماجستير فيه ، الاولى ، للسيد صلاح يوسف عبد القادر بعنوان الغزل الاندلسي واتجاهاته ، جامعة الازهر القاهرة ١٩٧٨ ، والثانية للسيد انقاذ عطا الله بعنوان اتجاهات الغزل في عصر الطوائف جامعة بغداد . ١٩٨٧ .

له خُلُقٌ عذب وخَلْقٌ محسن وظرف كعرف الطيب او نشوة الخمرِ
يعلل نفسي من حديث بلذة كمثل المنى والوصل في عقب الهجرِ

وقد عرض الدكتور علي عبد العظيم لدراسة الحوافز التي دعته الى النظم فيه فجعلها ثلاثة .

١ ـ التنفيس عن نفسه . فإن في كبت العاطفة مثاراً للقلق النفسي والاضطراب .
٢ ـ الظفر بثقة ولادة .. وسبيله في ذلك ارضاء غرورها أولاً وإطمئنانها له ثانياً فهو لذلك ينعتها بصفات تفردها على غيرها .
٣ ـ استدرار عطفها عليه لاسيما في حالتي العتب والجفاء كي تلين له وتستجيب الى هتافه وتبادله ماكان يحمله .

اما الدكتور شوقي ضيف فيحدثنا عن مراحل حبّ ابن زيدون لولادة فيراها ثلاثاً : نعيم . وشقاء . ويأس . وتمثل نونيته أروع قصائده في المرحلة الثانية . وهي التي باهى الشقندي (ت ٦٢٩ هـ) بها فقال : « لم يقل مع طولها في النسيب أرقّ منها »[١] وتبلغ ابياتها اثنين وخمسين بيتاً وتثور حولها الاساطير حتى قيل « ما حفظها احد الا مات غريبا »[٢] وقيل فيها ان انساناً لا يتم له الظرف ما لم يحفظها ولذلك شغف الشعراء بمعارضتها[٣] وتخميسها وتسديسها واحرزت مكانة سامقة في الادب العربي واليك هذه الابيات : [٤]

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ان الزمان الذي مازال يضحكنا أنساً بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى . فدعوا بأن نغصّ . فقال الدهر « آمينا »
وقد نكون . وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن . وما يرجى تلاقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى . لولا تأسينا

وقد أعجب المستشرق الاسباني غرسيه غومس بابن زيدون وعدّه اعظم شاعر قديم محدث أنجبه الاندلس وعلق على البيت السادس من نونيته بقوله : « وهكذا

---

(١) نفح الطيب ٣ / ١٩٤
(٢) ديوانه ١٣٩
(٣) ينظر : ابن زيدون ومعارضوه بحث الدكتور مختار الوكيل في مجلة الكتاب ، في العدد الخاص بالذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون (١١ ـ ١٢) بغداد ١٩٧٥
(٤) ديوانه ١٤١

يختلط الابيض والاسود أحدهما بالآخر .. كما اختلطا في رقعة الشطرنج التي لعب ابن زيدون عليها دور حبه الخاسر »[١]

وتمثل المرحلة الثانية كذلك . قصيدته القافية المشهورة[٢] . التي ارسلها من الزهراء بعد فراره من قرطبة .

إنـــي ذكرتـــك بالزهراء مـــشـــتاقاً والافق طلق ووجه الارض قد راقا
وللـنسـيم اعـتلال ـ في أصائلـه ـ كأنه رق لي . فأعتل اشفاقا
لا سكّن الله قلباً عن تذكركم[٣] فلم يطرْ بجناح الشوق خفّاقا
فالآن ـ أحمد ما كنا لعهدكم ـ سلوتم . وبقينا نحن عشاقاً

والغزل عند شعراء هذا العصر يختلط بأغراض أخرى . منها وصف الطبيعة كما تجد في قصائد ابن زيدون وابن حمديس . الذي جاء احياناً بالغ الرقة فاتر العاطفة[٤] حيث يستهدف اتقان الصورة وعذوبة الموسيقى .

ويمتزج في وصف الخمرة كما تجده عند المعتمد بن عباد الملك الشاعر . وبالمديح كما عند ابن اللبانة في قصيدة في مدح مبشر العامري (٤٨٦ ـ ٥٠٨ هـ) أبدع فيها فجعل شطرها غزلاً وعجزها مدحاً حتى قال المراكشي « وهذا لم أسمع به لأحد » « وأن طريقته لم يسمع بها لمتقدم ولا متأخر »[٥] واول القصيدة :

وَضَحتْ وقد فضَحَتْ ضياءَ النَيِّرِ فكأنَما التحفتْ ببشر مبشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته ما قلدته محامدي من جوهر
أذنبت فاستغفرتها . فجرت على عاداته في المذنب المستغفر

وهي في اثنين وعشرين بيتاً .

واذا كان المراكشي لم يسمع بمثل قصيدة ابن اللبانة . فقد فاتته مقطعة من خمسة ابيات نجدها عند المقرى وقد نص على ان القزاز قالها في مدح ابن صمادح (٤٣٣ ـ ٤٤٣ هـ) وخلط النسيب بالمديح ومنها قوله[٦] :

---

(١) الشعر الاندلسي ٤٩

(٢) ديوانه ١٣٩

(٣) الاصل « ذكركم » وفيه يكسر الوزن

(٤) مقدمة ديوان ابن حمديس ١٩

(٥) المعجب ٢١٢ ـ ٢١٤ وينظر شعر ابن اللبانة الداني ق ٢٩ .

(٦) النفح ٤ / ١٠٣

نفى الحب عن مقلتيَ الكرى | كما قد نفى عن يديَّ العدم
فقد قر حبك في خاطري | كما قر في راحتيك الكرمْ
وفرَ سلوّك عــن فــكرتــي | كما فر عن عرضه كل ذمْ
فابقى ليَ الحبَّ خالٌ وجَدٌ | وابقى له الفخر خال وعمْ

والقصيدة لا تختلف كثيراً عن قصيدة ابن اللبانة المتقدمة . ولكنها أسبق تأليفا كما هو واضح من مدة حكم اللذين وجهت لهما القصيدتان .. فهل تأثر ابن اللبانة بابن القزاز ؟ ليست لدينا على ذلك أدلة في اثبات القضية او نفيها .

ومن هنا نستطيع ان نلمح مكانة المرأة في المجتمع الاندلسي . اذ لم تكن هملاً بل شغل الشاعر بها على نحو كبير . ويصلح ان يعد جل شعر طوق الحمامة في هذا الغرض . بوصفه من الشعر العفيف . واليك ابن خفاجة يستهل بعض قصائده فيقول[٢] :

سجعتُ وقد غنّى الحمامُ فرجَّعا | وما كنتُ لو لا أن تغنى لأسجعا
ولم أدر ما أبكي أرسمَ شبيبةٍ | عَفا ام مصيفاً من سُليمى ومَربعا
زمانٌ تقضَى غير ذكرى معاهدٍ | تسوم حصاة القلب أن تتصدعا

ولا بد أن ننوه بتيار عربي جديد . وجدت جذوره في المشرق لكنه لم يلبث ان استقوى في بيئة الأندلس . أشار اليه ابن داود الاصبهاني في الباب الثامن من الزهرة تحت عنوان : « من كان ظريفاً فليكن عفيفاً[٢] » وقد أطلق عليه الدكتور احسان عباس تسمية « العفاف عند المقدرة[٣] » . ومن أبرز من نظموا فيه . ابو الوليد محمد بن حزم الاندلسي . وابو جعفر بن الابار . وادريس بن اليمان . وابن شهيد . وابن فرج الجياني (ت ٣٦٦ هـ) صاحب كتاب الحدائق . فمن ذلك قوله[٤] :

بأيهما انا في الحب بادي | بشكر الطيف ام شكر الرقاد
سرى وأرادني أملي ولكن | عففتُ . فلم أنل منه مرادي

---

(١) ديوان ابن خفاجة رقم ٩
(٢) الزهرة ١ / ١١٧ ـ ١٢٥
(٣) تاريخ الادب الاندلسي ـ ٢ / ١٥٧ ، وينظر الاتجاه الاسلامي ٢٨٢ وما بعدها
(٤) الجذوة ١٠٥ وينظر بحث الزميلة السيدة نزهة جعفر حسن ، ابن فرج الجياني حياته وشعره ، نشر في احد اعداد مجلة آداب المستنصرية العدد ١٦ ـ ١٩٨٨

ويعلل ذلك بقوله : « جريت من العفاف على اعتقادي » اما ابن الابار فمما قاله[١] :

واطعت سلطان العفاف تكرماً والمرء مجبول على عاداته

وقال[٢] :

وعصيت سلطان الهوى وأطعت سلطان العفاف

ومن نماذج الشعر العفيف ما وصل الينا من مقطعات شعر لابى الحسن على بن عمر بن أضحى الهمداني (ت ٥٣٩ هـ) حيث يقول[٣] :

يا ساكن القلب رفقاً كم تقطعه الله في منزل قد ظل مثواكا
يشيد الناس للتحصين منزلهم وانت تهدمه بالعنف عيناكا
والله والله ما حبي لفاحشة اعاذني الله من هذا وعافاكا

واما شعر المجون الذي كان قد استقوى لدى شعراء المشرق . فانه لم يكن له شأن يذكر في الشعر الاندلسي . وما جاء منه . « لم يكن يصور حقائق واقعة . وانما كانت الصور الغالبة عليه انه من نسج الخيال .. يراد به التندر والفكاهة »[٤] كما نجده في ابيات ابن حصن الاشبيلي التي يختمها بقوله[٥] :

لم أنل من كل ما فُهتُ به غير التمني
انما الشعر فكاها تُ وحسبي حسن ظني

وقد استطاع ابن شهيد في مقابلته لجني ابي نواس في التوابع والزوابع أن يثبت أن المجون قد يكون فناً سليماً دون أن يضطر الى التبذل في الالفاظ والصور ... » وذلك واضح من قراءة ابياته العينية التي انشدها اياه[٦] .

إن شيوع الاتجاه الماجن ـ كما يرى الدكتور احسان عباس ـ لا يجعل منه طريقة حياة ... . لأنه لم يكن ينشد التبذل من أجل التبذل نفسه . فضلاً عن أن

---

(١) الذخيرة ٢ / ١ / ١٤٣
(٢) نفسه ٢ / ١ / ١٤٤
(٣) الحلة السيراء ٢ / ٢١٦
(٤) ابن بسام وكتابه الذخيرة (دار الفكر للنشر والتوزيع ـ عمان ١٩٨٤) . ١٤٦
(٥) الذخيرة ٢ / ١٦٢
(٦) الشعر الاندلسي بين الاتجاه الاخلاقي وطلب المتعة ص ٢٢ . مجلة الثقافة العربية (٩) ايلول ١٩٧٥

احداً من الشعراء الاندلسيين لم ينفرد به على النحو الذي شُهر به شعراء اليتيمة امثال ابن الحجاج . وابن سكرة . وصريع الدلاء . وغيرهم[١] .

إن مجتمعاً مثل مجتمع الأندلس . وبيئة مثل بيئته ـ تعددت اجناسه وقومياته وأديانه ـ لا بد أن ينضح بما فيه . ويفصح عن أبعاده . حيث تترك البيئة الأندلسية بصماتها واضحة . وفي مجال الغزل تجلى هذا التأثر بيناً في قصائد ومقطعات شعرية لابي عبد الله بن الحداد . الذي اكثر من النظم في فتاة سماها « نويرة » كناية ثم أعرب عن اسمها الحقيقي « جميلة » أحبها في صباه . وقد احتفظ ابن بسام في ذخيرته بعشر قصائد ومقطعات في حوالي سبعين بيتاً . ووجه الطرافة فيها . أن ألح على ذكر شعائرها الدينية في اشعاره . وكان يتردد على الكنائس لاجلها ... استمع اليه . اماكن عبادتها . وعيدها . وكتابها ورجل الدين[٢] :

فان بــي لـــلروم رومـــية	تكنس ما بين الكنيساتِ
أهـيـم فـيـها والـهوى ضـلة	بـيـن صوامـيـع وبـيـعات
أفصح وحدي يوم فصح لهم	بـيـن الاريـطـي والدويـحات
بموقف بين يدي أسقفٍ	مـمسـك مـصـباح ومـنـساة
وقد تلوا صحف اناجيلهم	بـحـســن الــحانٍ وأصوات

ويذكر التثليث . ويقسم لها بالانجيل . ويجالس القس ليقص عليه قصته[٣] :

حديثك ما أحلى فزيدي وحدثي	عن الرشأِ الفرد الجمال المثلث
واقسم بالانجيل أني لمائن	وناهيك دمعي من محق محنّث
ولا بد من قصي على القس قصتي	عساه مغيث المدنف المتغوث

ومن خصائص الغزل الأندلس ان نجد شعراءه يتغزلون بصفرة الشعر وزرقة العيون فشبهوا الاغصان والمياه بالعيون الزرق المجاذيف بالاهداب بجامع الزرقة على نحو ما يقول ابن خفاجة[٤] :

وغدت تخف به الغصون كأنها	هدبٌ تحف بمقلة زرقاءِ

---

(١) نفسه ٢٢ ، وتنظر الامثلة على هذه النزعة في الاتجاه الاسلامي : ٢٩٥ ـ ٢٩٩

(٢) الذخيرة ١ / ٢ / ٧٠٥

(٣) الذخيرة ١ / ٢ / ٧٠٦

(٤) الذخيرة ١ / ٢ / ٧٠٧

(٥) ديوانه ٢٥٦

وكان بشّار يتطير من زرقة العيون فقال[1] :

وللبخيل على أمواله عللٌ زرق العيون عليها أوجه سود

واما جريرٌ فقد قتلته العيون السود :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا

٢ ـ المديح :

كانت العرب لا تتكسب بالشعر . وانما كان مدحهم شكراً للممدوح على يد أسداها لا يستطيع الشاعر اداء حقها الا بشعره[2]. وبين الاصل الذي نشأ عليه المديح في الشعر قبل الاسلام . وما نحن فيه ـ عصر الطوائف والمرابطين ـ حقبة زمنية طويلة . نلاحظ فيها ازدهار الموضوع ازدهاراً كبيراً . حيث كانت سوقه رائجة لوجود التنافس الشديد بين ملوك الطوائف . فكل كان يسعى في استقدام الشعراء . وانتقاء المتميزين فيهم . حتى بلغ الأمر ببعض الشعراء الا يمدح احداً منهم الا بمائة دينار .. وعلى هذا النحو تنافس الملوك في اكرام الشعراء.

يقترن الموضوع بموضوعات الشعر الأخرى . فالغزل اول مايستفتح به الشاعر قصيدته في المديح . وهو منهج تقليدي جرى عليه الشعراء قديماً . لكنه قد يمتزج به على نحو ماتقدم بنامع ابن اللبانة . وابن القزاز حين قسما البيت صدره غزلاً وعجزه مدحاً . كذلك يمتزج بوصف الطبيعة اذ كانت مجالسهم في الرياض الغن والحدائق الفيح .

ان تقاليد القصيدة المدحية بقيت على ماكانت عليه . في معانيها واسلوبها . فدارت حول الخصال الاربع الرئيسة . العقل والعفة والعدل الشجاعة ..[3] الا أن عدداً من المدائح امتزجت فيه طريقة القدماء بمذهب المحدثين . وانهما علا موصولين لا ينفصلان[4] .

ونحن ازاء كثرة المادحين والممدوحين نتساءل: أكان هذا الغرض تكسبياً محضاً . ام انه اختلط باعجاب الشاعر ذاته بشخص الممدوح ؟ الحق انه من التجني رمي المدح

---

(١) ينظر قضايا اندلسية ٨٦ ، ١٨١

(٢) العمدة ١ / ٨٠ (٣) نقد الشعر ص ٦٩

(٤) ابن بسام وكتابه الذخيرة ص ١٢٩

بجملته بهذا الوصف القاسي . فنجرد الشاعر من ذوويته . ونظرته الخاصة للناس . « فالمدح فن أصيل من فنون الشعر لايعيبه أن معظم الشعراء خرجوا به عن نهجة السوي الى التكسب والارتزاق »[١] . فاذا صدق هذا الوصف في بعضهم فهو ليس عاماً في جميعهم على نحو ماسنفصله فيما بعد .

ومن الشعراء الذين اخلصوا لممدوحيهم ابن اللبانة الداني حيث وصفه ابن بسام بقوله : « كان مائلاً لبني عباد بطبعه . فوفـد على المعتمد بعد نفيه وفادة وفاء . لا وفادة استجداء . وانقطع اليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد »[٢]

وكان ملوك الطوائف ازاء كثرة الشعراء بحاجة لتمحيصهم وابتلائهم . وانتقاء شاعرهم من متشاعرهم. فممن قصد دولة المعتمد بن عباد. في اشبيلية. ابن حمديس وابو العرب الصقليان . وكان قد ارسل لابي العرب خمسمائة دينار للتجهيز بها ليتوجه اليه . وارسل مثلها لابي الحسن الحصري القيرواني الكفيف . فاعتذر الاخير بخوفه من عبور البحر[٣] .

ولنستمع الى ابن حمديس الصقلي يقص علينا قصة قدومه الى الاندلس وامتحان المعتمد اياه : « أقمت بأشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت اليَّ ولا يعبأ بي حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي . وهممتُ بالنكوس على عقبي . فأني لكذلك ليلةً من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لي : أجب السلطان . فركبت من فوري . ودخلت عليه فأجلسني على مرتبةٍ (فنك) وقال لي : إفتح الطاق الذي يليك . ففتحتهُ فأذا بكوة زجاج على بعد . والنار تلوح من بابيه وواقده يفتحها تارةً ويسدها أخرى ثم دام سدُّ أحدها وفتح الأخرى فحين تأملتها قال أجز :

أنظرهما في الظلام قد نجما

فقلت :

كما رنا في الدُجنة الأسدُ

فقال :

يفتحُ عينيه ثم يطبقْهما

---

(١) ابن زيدون ، علي عبد العظيم ٢٧٩

(٢) الذخيرة ٢ / ١ / ٦١ ـ ٦٢

(٣) ابو الحسن الحصرى القيرواني ٢٠ (محمد المرزوقي ، والجيلاني بن يحيى ط المنار تونس)

فقلت :

فعل آمريءِ في جفونه رمد

فقال :

فابتزّه الدّهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت ،

وهل نجا من صروفه أحد ؟

فاستحسن ذلك وأمرلي بجائزة سنية . والزمني خدمته[1] »

ويبدو أن « ديوان الشعراء » لم يكون موجوداً في جميع ممالك الطوائف . بل نجده في مملكة بني عباد التي اصطنعت اجواء للشعراء تدعوهم الى مملكتها . اصطناعاً .. وهؤلاء الشعراء الذين تدخل اسماؤهم في الديوان هم « شعراء منتمون » وهو نعت الدكتور احسان عباس .[2] تجري عليهم الاعطيات السنوية أو الشهرية .. فضلاً عن الجوائز الخاصة بقصائد تلقى في المناسبات .

ويذكر الدكتور احسان عباس ضربين آخرين من الشعراء فضلاً عن الأول :

١ ـ الشعراء الذين بلغوا أعلى مناصب الدولة . ومنهم ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون . وكان يطلق على بعضهم لقب « ذو الوزارتين » .[3] اشارة الى رياستي الشعر والنثر . ترجم لعشرة منهم ابن خاقان كما أشرنا سالفاً .

٢ ـ الشعراء الجوالون . وهم الذين لا يلتزمون أميراً واحداً بل يقصدون أكثر من واحدٍ . وقد يطيب لهم التزام أمير معين . وهذه المرحلة غالباً ما تكون مرحلة سابقة أولية ثم يتحول الشاعر بعدها الى الانتماء والاستقرار في كنف أحدهم كما حصل لأبن عمار ولأبن اللبانة مثلاً .

ومن الشعراء المدّاح من غير الطبقات الثلاث التي تقدمت آنفاً : شعراء جوالون دون أن يتخذوا الشعر وسيلة للتكسب . ومنهم ابن عيطون اللخمي الطليطلي . الذي قال الشعر متحبباً لا متكسباً » ووصف بأنه « جال على ملوك الطوائف »[4]. ولا بد أن نشير الى طبقة من الشعراء ترفعت عن التجوال . وانحازت عن المدح الى فنون

---

(١) بدائع البداهة ، ١٧٩ ، نفح الطيب ٢ / ٦١٦

(٢) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ٨٢ .

(٣) ينظر معنى الوزارة في التمهيد ـ انتشار اللغة العربية وخصائصها .

(٤) المغرب ٢ / ١٦

الشعر الأخرى . خضوعاً لمذهب ذاتي أو فلسفي أو ديني أمثال أبي اسحاق الالبيري . وابن العسال . وابن خفاجة الاندلسي .

وكان موقف النقد الاندلسي يعضد هؤلاء . حيث يتجلى لدى عدد من النقاد أمثال ابن بسام وابن حزم فقال الأول « ان الشعر لم أرضه مركبا . ولا اتخذته مكسبا . ولا ألفته مثوى ولا متقلبا .. رغبة بعز نفسي عن ذله .. »[1] كما انكروا على الشعراء الغلو فيه ..

ويصور لنا ابن وهبون المرسي المذهب السائد في مديح الشعراء الاندلسيين . من أن الابداع في المديح مقرون بالعطاء . فحين أعجب المعتمد ببيت المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني :

اذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معيي المطي ورازمه

قال ابن وهبون مرتجلا :

لئن جاد شعر ابن الحسين فأنما تجيد العطايا واللُّها تفتح اللها[2]

وحين ينشد بعض الحاضرين بيتين لأبن وهبون في مجلس المعتمد بن عباد هما :[3]

قلَّ الوفاء فما تلقاه من أحد ولا يمرَ لمخلوق على بال
وصار عندهم عنقاء مغربةً أو مثل ما حدّثوا عن الف مثقال

يرسل له ألف مثقال . فيأتيه الشاعر شاكراً . ليقول له المعتمد : « الآن حدّث بها لا عنها .. » وفي رواية أخرى انه قال : « قد أمرنا لك بالف دينار . وبألف دينار أخرى تنفقها »[4]

ومن نماذج المديح قول ابن اللبانة يمدح المعتمد بن عباد وأبناءه الاربعة في قصيدة :[5]

تحللتَ حتى غابةِ الأسد الوردِ وأنزلتَ حتى ساكن الأبلقِ الفردِ
وجرَّدتَ دون الدينِ سيفك فأنثنى من النَصر في خَلي من الدَّم في غمدِ
وحسبُ اللَّيالي أنها في زمانه بِمنزلة الخيلانِ في صفحة الخدِ
توقَّدَ عن نارٍ من الحرب والقرى وقامَ على طودين للحلم والمجدِ

(١) الذخيرة ١ / ١ / ١٨ (٢) نفح الطيب (في رسالة فضائل الاندلس للشقندي) ٣ / ١٩٤ .
(٣) المعجب ١٥٩ . (٤) النفح ٢ / ٢٢٥ . (٥) ديوانه بتحقيقنا . ق ١٩ .

وجاءت به الأيامُ تاجَر سؤددٍ يبيعُ نفيساتِ المواهبِ بالحمدِ
يغيثكَ في محل يُعينك في ردى يَروعك في روع يروقك في بُرد
جمالٌ ، وإجمالٌ ، وسَبقٌ ، وصولةٌ كشمسِ الضُحى كالمزن كالبرقِ كالرعدِ

فمعاني المدح لا تخرج عن المعاني التي كان يمدح بها شعراء المشرق وهي صفات كثيراً ما تكون غير وصف الممدوح وإذا أردنا تأمل منهج الشاعر في القصيدة نجده يلجأ الى التقسيم ويبدع به . فهو يتوقد عن نارين من الحرب والقرى . ويقوم على طودين للحلم والمجد . وهو مغيث في المحلِ . معين في الردى . رائع في الروع ورائق في البردِ وهو في جماله واجماله وسبقه وصولته كالشمس والمزن والبرق والرعد .

وهو في وصفه لخلال (صفات) المعتمد برفعه الى مصاف العظماء ... الا أنه لا يسلم من نقد ابن بسام في الذخيرة بعد أن يورد أبياتاً منها .

في نصرةِ الدّين لا أعدمتَ نُصرته تأتي النَّصارى بما تأتي فتنخَدُعُ
تنيلُها نِعماً في طيِّها نِقَمٌ سيستضرُ بها من كان ينتفعُ

ويقول فيه ابن بسام : « وهذا مدح غرورٍ وشاهد زور وملق معتفٍ سائلٍ . وخديعة طالب نائلوهيهات !!بل حلت الفاقرة بعد بجماعتهم » .[1]

ومن القصائد الذائعة لابن عمار الأندلسي قوله يمدح المعتضد بن عباد الاشبيلي من قصيدة يهنئه فيها بعيد النحر . وفيها تأكيد على معنى العطاء والنوال وطلبهما منه . وهي قصيدة اثنى عليها النقاد . حتى صارت أشرد من مثل . وأجذب للأسماع من لقاء حبيب وصل .[2] وقال المراكشي في بيت من ابياتها انه لم يسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله .[3] واليك بعض ابياتها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العِنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استردَ الليل منا العنبرا
وعلمت حقاً أن روضيَ مخصبٌ لما سألت به الغمام الممطرا

---

(١) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٤٩ . الفاقرة الداهية العظيمة تقصم فقار الظهر

(٢) النفح ٣ / ١٩٤ .

(٣) المعجب ١٧٦ ، وينظر الشعر الاندلسي ص ٢٨٤ مقالة عبدالله كنون في مجلة المجمع العربي السوري ٣١ / ٣ / ١٩٥٦ وهذه الصيغة النقدية اصدرها كذلك حين أعجب برائية ابن اللبانة ..

ياسائلي ما حمصُ الا خاتمٌ	أبصرتُ اسماعيل فيه خنصرا
من لا توازنه الجبال اذا احتبى	من لا تسابقه الرياح اذا جرى
لا شيء اقرأ من شفار حُسامه	إن كنت شبهت الكتائب أسطرا
وجهلت معنى الجود حتى زرته	فـقرأتـه في راحـتـيـه مـفـسَرا

وهي طويلة في خمسة واربعين بيتاً .(١)

ولابد لنا أن نشير الى أن شعر المديح اصابه ما أصاب موضوعات الشعر الأخرى . بل كان هو في مقدمتها . من ضمور وضعف عَما كان عليه من قبل وذلك بمجيء المرابطين .. لأنهم أقاموا دولتهم على الجهاد والحرب .. ولم يجعلوا الشعر غاية في استتباب سلطانهم وملكهم .

الرثاء :

من أشهر موضوعات الشعر نظماً . وأصدق ما يكون الشاعر فيه . فقد سئل البحتري عن سبب تفوق رثائه على مديحه فقال : « من تمام الوفاء أن يعلو على المدح الرثاء »(٢)

لم يخرج شعراء الأندلس في مراثيهم عن « طريقة العرب » التي تدور في الغالب في أفلاك ثلاثة هي : التأبين . والندب . والعزاء ..

والمراد باولها .. في اصله ـ الثناء على الشخص حياً أو ميتاً . ثم اقتصر على الموتى فقط وفيه أشادة بالميت ومناقبه . لأنهم يبكون فيه النموذج في المروءة والرجولة والكرم والشجاعة والسماحة والشرف الرفيع . وكل الخلال الحسنة .

ويقصد بالثاني : النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والالفاظ المحزنة التي تصدع القلوب . وتذيب العيون الجامدة . اذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج . وسكب الدموع .

وأما الثالث فالمراد به الصبر على كارثة الموت والمواساة بفقد الميت العزيز . طالما كان الموت سنة يخضع لها الكون . ولا محيص عنه . وقد جاء الاسلام فعمق هذا المفهوم ورسخ جذوره وجاءت الاشارة اليه في الآية الكريمة : « وبشر

---

(١) محمد بن عمار الاندلسي رقم ١ ص ١٨٩ .

(٢) الاغاني ٢١ / ٤٢ (ط دار الكتب المصرية) .

الصابرين . الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة . واولئك هم المهتدون »[١]

ويرى ابن رشيق ان لا فرق بين المدح والرثاء سوى ان الاول في حي والثاني في ميت وهو تقدير عام قد يصح في مفهوم التأبين ، أما مفهوم الندب والعزاء فلا ...

ويمكننا ان نشير الى بعد رابع يضاف الى ما تقدم ... وذلك هو الحديث عن فلسفة الحياة والموت والبقاء والفناء . يعرض له الشعراء في قصائدهم . فتأخذ طابعاً متميزاً على نحو ما نجد في قصيدة المعري الدالية . الذائعة الصيت : « غير مجد ... »

وأكثر ما يكون الرثاء في الاقارب . فقد رثى ابن حمديس أباه . وزوجته وجاريته . ورثى الحصري القيرواني ابنه عبدالغني المتوفى سنة ٤٧٥ هـ في ديوان سماه (اقتراح القريح) في حوالي الفين وستمائة بيت . في حروف الهجاء . اذ كان ابن تسع سنين فإنه كان ملازماً لقراءة القرآن بالكتاب . يحسن ترتيله ويفرق بين القراءات والروايات . ومن ديوانه المذكور آنفاً قوله على روي الهمزة :[٢]

حاشاك من نار على الأحشاء	يزداد ضِعفاً حرّها بالماء
عَزّيتني فيما ترى . وعزوتني	للصابرين ولات حين عزاء
من لي بأجر الصّابرين وأعظمي	موهونة من أعظم الارزاء
أودى الذي في وجهه ويمينه	ماءان . ماء حيا . وماء حياء
لو كان كلّ ابنٍ نجيباً مثلَه	منعَ الإباءُ بكا على الأبناء
تسعى الرّجال فلا تنال بحرصها	ما نال ـ في تسع ـ من العلياء
سالتْ حشاشة نفسه من أنفه	فشهدت منه مصرع الشهداء

ومن الاتجاهات المتميزة . مانحاه ابن وهبون (ت ٤٨٤ هـ) في رثائه لاستاذه ابي الحجاج الاعلم الشنتمري في ذخيرته فقال : « هذا مذهب فلسفي قلما عرج عليه عربي . وانما خرج اليه المحدثون من الشعراء . حين ضاق عليهم منجم الصواب وعدوا رونق كلام الاعراب . فاستراحوا الى هذا الهذيان . استراحة الجبان »[٣].

---

(١) تنظر هذه المفاهيم في الرثاء ص ١٢ ، شوقي ضيف ، سلسلة فنون الأدب العربي الفن الغنائي العدد (٢) .

(٢) ابو الحسن الحصري ٢٧٣

(٣) الذخيرة ٢ / ١ / ٤٨٠

ومذهب ابن وهبون ـ كما هو واضح ـ مشابه لمذهب المتنبي والمعري . يقول ابن وهبون[1] :

سَبَقَ الفناء فما يدوم بقاء	تفنى النجوم وتسقط العلياء
نفسي وجسمي إن وضعتهما معا	آلٌ يذوبُ وصَخرةٌ خلقاءُ
إنا لنعلم ما يُراد بنا فلِمْ	تَعيا القلوب وتغلب الاهواء
لِمَ ينكر الانسان ما هو ثابت	في طبعه لو صحّت الآراء
ونظير موت المرء بعد حياته	أن تستوى من جسمه الأعضاء
طيف المنايا في أساليب المنى	وعلى طريق الصحة الادواء

فهو يرى ان الحياة والموت . او البقاء والفناء أمران من طبيعة الاشياء . ومن سنن الكون . والحياة بنت الموت . والموت ابن الحياة . ويقول من القصيدة نفسها : ـ

ما النفس الا شعلةٌ سقطت الى	حيث استقل بها الثّرى والماء
كذبتْ حياة المرء عند وجودها	وُجد الحمام وكان منه الداء

فقد جعل ابن وهبون النفس شعلة يحملها عنصران . هما الماء والتراب . ويرى أن حقيقة الموت ماثلة في الحياة . فهما متلازمان . وممن نسج على هذا المنوال . واغترف من هذا الوادي . ابو عامر الشنتريني من قصيدته التي يقول فيها :

يالقومي دفنوني ومضوا	وبنوا في الطين فوقي ما بنوا
ليت شعري اذ رأوني ميتا	وبكوني ائَ جزأي بكوا
كيف ينعون نفوساً لم تزل	قائمات بحضيض وبجو

وقد اراد الشاعر بالجزأين . الجسم والنفس . وفي هذه القصيدة يرى الدكتور احسان عباس . انها أدق أخذاً بالمشكلة الفلسفية والمصطلح الفلسفي . الا انها أدنى في المستوى الشعري من قصيدة عبدالجليل[2].

---

(١) نفسه ٢ / ١ / ٤٧٨

(٢) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٢٩ .

ويشير الدكتور احسان عباس الى لون آخر من الوان الرثاء يسميه البكاء على زوال الرقة والجمال[١] وهو يتصل غالباً ببكاء الزوجة التي فارقها الشاعر بطلاق او موت ومن النوع الاول بكاء ابن هند الداني بقصيدته الكافية التي منها قوله[٢]

أبديت سِرّى مذ كتمتُ سُرَاك وعَصيتُ صَبري مذ أطعتُ هَواك

والقصيدة تصور مشكلة اجتماعية . نجمت عن يمين أكدَها الشهود . ووافقت هوى من أهل زوجته والنظرة لمثل هذه الحادثة تدل على عدم تمكن المرأة من تحكيم رأيها .

ومن الشعراء الذين رثوا زوجاتهم . ابو اسحاق الالبيري الذي عرف بمنحاه الزهدي والاعمى التطيلي الذي رثى زوجته (آمنة) وهو متميز في رثائه اياها . ويبدو ان براعته وملكته الصناع احتفلت بهذا الباب اذ له اكثر من قصيدة في رثاء نساء المرابطين . وقد تقدمت الإشارة الى رثاء ابن حمديس (جوهرة) وتابع هؤلاء آخرون منهم ابن الزقاق (ت ٥٣٠ هـ) يرثي زوجته (درّة) . ومن شعراء الموحدين ابو عامر بن الحمارة وابن جبير الرحالة الأندلسي الذي نظم ديواناً كاملاً عن (ام المجد) سماه « نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح » .... والاتجاه يدل على مكانة المرأة الأندلسية زوجة وصلاحها وفلاحها من كونها زوجة . واليك هذه الابيات للاعمى التطيلي[٣] :

ونبئت ذاك الوجه غيره البلى على قرب عهد بالطَلاقة والبِشر
وما فعلت تلك المحاسن في الثرى فقد ساء ظني بين أدري ولا أدري
آآمنُ إن اجزعْ عليك فإنني رُزئتك أحلى من شبابي ومن وفري
أآمنُ لا والله مازلت موفياً بينك لو اني اخذت له حذري
ونبئت ذاك الجيد اصبح عاطلاً خذي أدمعي ان كنت غضبى على الدر
خذي اللؤلؤ الرطب الذي لهجوا به محارته عيني ولجته صدري

والقصيدة طويلة في الديوان تنيف على خمسين بيتاً .

---

(١) نفسه ٣١٩ وما بعدها ، ويقابله البكاء على العظمة ، الذي هو رثاء المدن والممالك الزائلة وسيأتي الحديث عنه .

(٢) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٩٧

(٣) ديوانه رقم ٢٤ .

٢ / ١٢٩

واذا كانت الاتجاهات الطريفة تستوقفنا . والتيارات الجديدة تستهوينا وتجعلنا نتتبعها ونسبر اغوارها . فان مما يذكر بيائية مالك بن الريب التي رثى فيها نفسه بقصيدة التي مطلعها[١] :

الاليت شعريْ هل ابيتن ليلة　　بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

ابيات ابن شهيد التي قالها في مرض موته وكان قد عزم على الانتحار سنة ٤٢٦ هـ . وفيها لوعة شديدة وحرقة مريرة حيث يقول[٢] :

انوح على نفسي وندب نبلها　　اذا انا في الضراء أزمعتُ قَتْلَها
رضيتُ قضاءَ اللّه في كلّ حالةٍ　　عليَ وأحكاماً تيقّنتُ عَدْلَها
أظلّ قعيد الدّار تَجنبني العَصا　　على ضعفِ سَاقِ أوهنَ السّقم رِجلها
وأنعى خسيسات ابن آدم عاملًا　　براحة طفل احكم الضر نصلها

ومن ابواب الرثاء التي اكثر الشعراء النظم فيها . رثاء الملوك والقادة وقد اختلطت بعض اشعارهم في موضوع رثاء المدن والممالك حيث رثوا المعتمد بن عباد بعد زوال ملكه وابن الافطس كذلك . وبين ايدينا قصيدة لابن سوار الاشبوني يؤبن فيها أمير المسلمين ابي يعقوب يوسف بن تاشفين (ت ٥١٠ هـ) ذكر ابن بسام انه انشدها على قبره يقول فيها :[٣]

ملك الملوك وما تركت لعامل　　عملًا من التقوى يشارك فيه
يايوسف ما انت الا يوسف　　والكلّ يعقوبٌ بما يَطويه
اسمع أمير المسلمين وناصر الدّ　　دِين الذي بنفوسنا نفديــه
جُوزيتَ خيراً من رَعيتكَ التي　　لم تَرضَ فيها غيرَ ما يُرضيه
في كلّ عامٍ غزوةٌ مبرورة　　تردى عديدَ الرّوم او تُفنيه
تصل الجهاد الى الجهاد موفقاً　　ختَمَ القضاء بكلّ ما تقضيه
انا لمفجوعون منك بواحدٍ　　جُمعتْ خصالُ الخلق أجمع فيه

وواضح من أبيات القصيدة حفولها بالمعاني الاسلامية . والقيم الدينية في رثائه . لما عرف عن يوسف من تمسكه بهذه القيم والمعاني . وهي في ستة عشر بيتاً ..

---

(١) شعراء امويون ١ / ٤١ (٢) ديوانه رقم ٥٥ (٣) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٢١ ، البيان المغرب ٤ / ٤٧

ومن رثاء العلماء لابي عبدالله جعفر بن أبي طالب القيسي قالها في رثاء ابي مروان بن سراج العالم وأولها:[1]

انظر الى الأطواد كيف تزول ولحالةِ العلماء كيفَ تحول؟
يَهوى الفتى طول البقاءِ مؤملًا وله رحيل ليس منه قفـولُ

ومن رثاء القضاة قصيدة غانم بن وليد في رثاء القاضي ابي علي بن حسون ومطلعها[2]:

الموت أعرب في أصح مسـاق ان المنيـة شمَّرت عن سـاق

وهي طويلة أورد منها ابن بسام اكثر من عشرين بيتاً.

٤ ـ الزهد والتصوف[*]

المراد بالزهد لغة[3]: الرغبة عن الشيء. خصص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا وفي الاصطلاح. ترك المباح المحبوب المقدور عليه لاجل الله فتارك المحظورات لا يسمى زاهداً. وتارك مالا يؤبه به لا يسمى زاهداً. وتركه على سبيل السخاء والفتوة واستمالة القلوب في الثناء. لا يكون زاهداً. أذ الذكر والثناء وميل القلوب. ألذ وأحب من المال. ومن ترك ما لا يقدر عليه لا يكون زاهداً.

ودراسة الزهد والتصوف في الأندلس ترتبط بأصولها الاولى في المشرق. على نحو ما يتصل الفكر الأندلسي بجملته. باخيه المشرقي فدراسة الزهد والتصوف لا تكون بمعزل عن تياراته في المشرق.

اختلف الدارسون في اصل مفهوم «التصوف» فمنهم من رأى انه من الصفاء والصفو. لصفاء علاقاتهم بالله وصفو قلوبهم. وقيل من الصُفة وأهلها زهاد المهاجرين والأنصار. في المسجد النبوي وان كانت النسبة اليهم تأتي على (الصُفيَ»

---

(١) المغرب ١ / ١٠٨ (٢) الذخيرة ١ / ٢ / ٦٦ ـ ٦٨

(*) ينظر الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي ١٤٥ وما بعدها، كذلك دائرة المعارف الاسلامية (مادة تصوف، نشأة التصوف الاسلامي ص ٩، الحياة الروحية في الاسلام ٨٥ ـ ٩١، تاريخ التصوف في الاسلام ١ / ٢٦٩ ـ ٢٨٦.

(٣) لسان العرب، مادة «زهد»

وقيل انها من الصَف الأول لصلاتهم فيه او الصفة لاتصافهم بالاخلاق الحميدة ومن الكلمة اليونانية « صُوفيا » وتعني الحكمة والارجح ان التصوف مصدر الفعل الخماسي تصوف،الذي هو من الصَوف .

ويتشابه مفهوما الزهد والتصوف احياناً . ويأتي التصوف مرحلة تالية للزهد في احيان أخرى . ويتجلى الفرق بينهما في بعد زمني ومن ذلك يقول ابن خلدون : « وقد كان ذلك (الزهد) فاشياً في الصحابة والسلف ولما عمّ الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده . وجنح الناس الى مخالطة الدنيا . اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية او المتصوفة[١] ويرى أحد الباحثين ان التصوف أسمى درجات الزهد . وهو الزهد في اسمى درجاته[٢] .

ان التصوف الاسلامي نتاج تلقائي منفصل عن كل العوامل الدينية والفلسفية الاجنبية والاتفاق الحاصل بين عقيدتين لا يعنى أن احداهما أخذت من الأخرى بل هو يعني ان كلتيهما قد تكونت نتيجة لسبب واحد[٣] مع ان هذا الاتفاق ليس كاملًا بل جزئياً .

ويرى المستشرق الالماني شاخت من النظريات التي قيلت حول اقتباس المسلمين التصوف من اصول اجنبية أنّها مجرد افتراضات[٤]

لقد ولد الزهد الاندلسي في احضان الثورة على الحكم الربضي اذ كان الاتقياء ينظمون اشعار الزهد ويتغنون بها في الليل ، ويضمنونها التعريض به فضلًا عن عوامل بيئية ذووية ، منها الحياة اللاهية في المدن والانقياد لدواعي التقوى في النفس ايام الشيخوخة وقوة التيار المشرقي وذيوع اشعار ابي العتاهية[٥] ويمكننا ان نعد مذهب ابن مسرة عاملًا من عوامل استقواء حركة الزهد في الاندلس .

يقف الدارس امام عدد كبير من الكتب والمصنفات التي يتضح منها ان هذا الاتجاه أصيل في الاندلس ، ولا يتسع المقام لسرد قائمة بهذه المؤلفات[٦] ، ولم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣ / ١٠٦٣

(٢) مظاهر الشعوبية د . نبيه حجاب ص ٤٣

(٣) الحياة الروحية في الاسلام ٦٤ ـ ٦٥

(٤) تراث الاسلام ٢ / ٢٢٧

(٥) تاريخ الادب الاندلسي ، ١ / ١١٦ ـ ١١٧

(٦) الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي ١٥٤

يقتصر الامر في حركة الزهد على الرّجال بل تعداه الى النساء ، اذ تأتي اسماؤهن بكثرة في كتب التراجم الأندلسية لاسيما الصلة لابن شكوال ، والتكملة لابن الابار . يذكر المستشرق الفرنسي بروفنسال أن نساء الامراء « كل واحدة منهن أقامت في قرطبة مسجداً وسبيلاً يحمل اسمها[١] » .

ان شعر الزهد والتصوف في الاندلس يحتاج الى دراسة مستقلة وشعراء هذا الاتجاه منهم المقل ، ومنهم المكثر ، ومنهم من اقتصر على الزهد ، ومنهم من عالجه موضوعاً ضمن موضوعات شعرية ويأتي في مقدمة شعراء الأندلس خاصة وشعراء العرب عامة .

لم تكن دعوته سالبية الطابع[٢] ، بل اتجه نحو المشاركة الفعلية لمشكلات الاندلس القائمة ، فمن ذلك دعوته الى خلع الوزير اليهودي ابن النغريلة ، والاقتصاص منه في قصيدته النونية ، التي كانت بمثابة البيان الاول للثورة على الامير بلقين بن باديس ومنها قوله[٣] :

الا قل لصنهاجة اجمعين	بدور الندىٰ واسد العرين
لقد زلّ سيّدكم زلّةً	تقّر بها أعين الشامتين
أبا ديسَ أنتَ امرؤ حاذقٌ	تصيب بظنك نفس اليقين
وقد أنزل الله في وحيه	يُحذّر عن صُحبةِ الفَاسقين
ويضحكُ منا ومن ديننا	فإنا الى ربنا راجعون
فبادرْ الى ذَبحهِ قُربةً	وضَحِّ به فهو كبش سمين

ولقد استطاع الالبيري أن يصل بشعره الزهدي في الأدب العربي ـ لا في الاندلس فحسب الى قمة[٤] .

انه يقرع في نفوس الغارقين في ذنوبهم : الساربين وراء شهواتهم ناقوس « النار » التي تغلي بأصحابها .. فيصورهم مستغيثين معترفين نادمين ... لو تقبل توبتهم[٥]

ويل لاهل النار في النار	ماذا يقاسون من النار

---

(١) الشرق الاسلامي والحضارة العربية الأندلسية ٢٤

(٢) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٣٦ .

(٣) ديوانه ٩٦ .

(٤) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٣٦

(٥) ديوانه ٩٠

تنقدُ من غيض فتغلي بهم	كمرجل يغلي على النار
وكلهم معترف نادم	لو تقبل التوبة في النار

ويعرض لاصناف العذاب الذي تحتويه ، ثم يدعو لاخذ الحذر والتحصن بذكر الله ويفضي الخوف الى انه لو عقل الامر ... اذن لم تكتحل عيناه بالنوم ، ولم ترقأ دموعه ولم يرد ماءً ولا ساغ له نعيم الدنيا وسرورها . في ثمانية وثلاثين بيتاً .

لقد بنى قصيدته على « النار » وبنى اخرى على لفظ الجلالة « الله » فجاءت على نحو من « التسبيحة » ثلاثاً وخمسين حبة في مناجاة عذبة وهيام روحي[١] :

يا أيها المغترّ بالله	فرّ من الله الى الله
ولذ به واسأله من فضله	فقد نجا من لاذ بالله
وقم له ، والليل في جنحه	فحبذا من قام لله
واتل عن الوحي ولو اية	تكس بها نوراً من الله

والقصيدتان الآنفتان بمستوى فني واحد ، يخرج فيهما على نظام القافية بالتزام لفظتي « النار » و « الله » في كل منهما وتكرارها في ضرب كل بيت ، ويختار لها بحر السريع بتفعيلاته المتقاربة واجزائه المتلاحقة حيث تلهث انفاسه فيهما ، ويلحف في طلبه، فيلقي الروع في قلوب الغافلين تارة بلفظ الجلالة (الله) واخرى بلفظة (النار) فتنهال اللفظتان كالمطارق المتوالية على أذن السامع ، ويبقى صداها لامد بعيد ، وتكرار اللفظة في هذا الموضع « الحاح على جهة هامة من العبادة يعنى لها الشاعر اكثر من عنايته بسواها[٢].

وواضح ان تيار الزهد والتصوف كان قوياً ، والنتاج الذي كتب فيه كان غزيراً ولم يقتصر على الشعر فحسب بل تجاوزه الى النثر[٣].

---

(١) الديوان : ٦٥

(٢) ملامح النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الاندلسي ، مجلة آداب الرافدين العدد ١٢

(٣) كتبت رسالة ماجستير بعنوان « ادب الزهد في الاندلس في عهد الطوائف والمرابطين » جامعة بغداد ١٩٨٥ . للباحثة حميدة صالح .

الشعراء

ابن دراج القسطلي

(٣٤٧ ـ ٤٢١ هـ)

اولاً : حياته :

هو احمد بن محمد بن العاص بن دراج ، يكنى بابي عمر ، ويلقب بالقسطلي ، وقسطلة ، بلدة تابعة لجيان قرب قلعة بني سعيد ، أشارت اليها المصادر الاندلسية ، والمشرقية ،[١] ويرى الدكتور محمود على مكي ، أنها أرجح المواضع الثلاثة التي عرفت في الاندلس باسم « قسطلة » ، ولمكانة أسرة الشاعر عرفت المدينة بهم ، ونُسبت اليهم ، فسميت باسم « قسطلة دَراج » ، تنتمي أسرته الى قبيلة صنهاجة البربرية ... ولكننا لا نجد أيَ أثر لنسبه في قصائده الكثيرة .. والرَاجح أنها كانت شأن الاجناس ، والقوميات التي في الاندلس ، قد انصهرت في بوتقة الأندلس ولعله مما يلفت النظر الا يتوجه ابن دراج ، وهو الشاعر المادح في قصائده لمدح ملوك مملكة بني زيري الصنهاجيين في غرناطة على الرغم من انتسابه لهم ، ولذلك فخرت الاندلس به وازدهت لنبوغه ولقبته بمتنبي الاندلس ، واغفلته ممالك البربر في الاندلس والمغرب .

ولد سنة ٣٤٨ هـ في عهد عبد الرحمن الناصر وعاش طفولته وصباه في عهد الحكم المستنصر ، الذي عرف عصره بالتألق العلمي ، وبلغت الاندلس فيه عصرها الذهبي ، فقد روي أن الحكم أنشأ سبعةً وعشرين مكتباً لاولاد الضعفاء والمساكين ، منها ثلاثة حول المسجد الجامع والباقي في أرباض قرطبة[٢] ، وهي صورة رائعة لاهتمام حكام الاندلس بالتعليم وفي مثل تلك الظروف نتوقع أن يكون شاعرنا قد أدرك نصيبه ، وبلغ مأرب أسرته من الثقافة الرصينة التي انعكست على شاعريته بشكل واضح ، وانتهت به ليكون أبرز شعراء الأندلس في عصره .

ولاشك انه جَمَعَ الى تلك الثقافة ملكَة متميزة ، وشاعرية اغدقت ثمارها ، منذ عهد مبكر ، ولم يصل الينا من قصائده الأولى شيء ، اذ أن أقدم قصيدة وصلت الينا ، تمثله في مرحلة من نضج الشاعرية ، وهي تتصل بمدح المنصور العامري سنة

---

(١) ينظر حياته ، في مقدمة الديوان ١٩ ـ ٨٠

(٢) البيان المغرب ٢ / ٢٤١

٣٨٢ هـ . وقد ذكر الحميدي انه قالها يعارض قصيدة لصاعد البغدادي ، ومطلعها :[١]

أضاءَ لها فجر النُهى فنهاها عن الدَّنفِ المضْنى بحرِّ هَوَاها

وهي قصيدة طويلة تجاوزت خمسين بيتاً . جاءت في الديوان مستهلة بعبارة « وهي أول ما أنشده » ويوضح الحميدي[٢] ذلك . على أنها أول شعر مدح المنصور به . والقصيدة تجري على تقاليد الشعر العربي ، حيث يستهلها بمقدمة غزلية ، ثم ينتقل بعدها الى وصف الرحلة الى الممدوح ، ثم يحدثنا عن آثار تلك الرّحلة حديثاً وجدانياً مؤثراً . لأنه غادر مدينته « قسطلّة » الى قرطبة . وخلف فيها أفراد اسرته ، وفي ذلك يقول[٣] :

ولله عَزمـي يـومَ ودَّعت نحـوه نفوسـاً شجانـي بينهـا وشجاهـا
وربَـة خِدرٍ كالجمـان دُموعهـا عزيـزٌ على قَلبـي شطـوطُ نَوَاهـا
وبنـتُ ثمـانٍ مايـزالُ يرَوعُنـي على النّأى تذكارِي خفوق حشاها

ويصور نزاع اسرته اليه ، وشدة تعلقه بها . وتستغرق منه هذه المقدمات جل أبيات القصيدة لينتهي الى مدح المنصور في عشرة أبيات فقط ويبدو أن القصيدة كانت لها أصداء لدى شعراء العصر ممن قرّبهم المنصور بن ابي عامر فساءت به الظنون ، واتهموه في قصيدته انه منتحل ، لا يستحق أن يثبت في ديوان العطاء ، ثم استحضره المنصور وابتلاه ، فبرَعَ وسطع . ونسخ تلك الأراجيف والدعوات الباطلة ، وأصبح مذ يومها في ديوان الشعراء[٤] . وفي ذلك انشأ ابن دراج قصيدته البائية التي جاءت في اربعة وستين بيتاً ، ومطلعها :[٥]

حَسبي رِضاكَ من الدهر الذي عَتَبا وجودُ كفَّيك للَحظِ الذي انقلبا
من بعد ما أضرَم الواشونَ جاحمةً كانتْ ضُلوعي وأحشائي لها حَطَباً
ودسـوا لـي في مثنـى حبائلهم شنعـاءَ بـتّ بهـا حـرّان مكتئبـا

---

(١) ديوانه ق ٢ ، جذوة المقتبس ١١١

(٢) الجذوة ١١٠

(٣) ديوانه ٢ / ٢٥ ـ ٢٧

(٤) يشير الدكتور محمود على مكي الى الوهم الذي وقع فيه ابن الخطيب في الاحاطة ٢ / ١٠٦ ـ ١٠٧ حيث زعم ان الشاعر كان احد الشعراء الاربعين الذين رافقوا ابن ابي عامر في غزوته المشهورة الى برشلونة ٣٧٤ هـ ، مقدمة ديوان ابن دراج : ٣٨ ـ ٣٩

(٥) ديوانه ١٠٠ / ١ ، ٢٠ ـ ٢٣

حتى هُزِزت فلا زَندُ القريض كبا فيما لدي ولا سيف البديه نَبا
وأشرقت شاهداتُ الحقِّ تنشر لي نوراً غَدَتْ فيه أقوال الوشاةُ هبا

وفيها يشير الى محنته في التهمة التي وجهت ، ويردّ رداً عنيفاً على المرجفين به ، وهو في ذلك لا يختلف عن كبار الشعراء أمثال امرىء القيس والأعشى[١] . وهو في قصيدته كما لاحظنا لا يستهلها بمقدمة غزلية ، بل بلغت به سورة الغضب الى أن يباشر موضوعه على نحو ما رأينا . ويتضمن الدّيوان عدداً كبيراً من قصائده في مدح المنصور ومن بعده ولده المظفر . تبلغ نصف مدائحه تقريباً ولا جَرَم أن يمنح ممدوحه الأثير هذا الاهتمام بعد أن قضىَ في ظله شطر حياته الأول ، وصاحبه في كثير من غزواته الى قشتالة . وقد أحرز منزلة بين شُعراء المنصور متميزة . حيث يقترح عليه أن يعارض قصيدة أبي نواس التي نظمها في مدح الخصيب بن عبدالحميد صاحب خراج مصر ، ومطلعها :[٢]

أجارة بيتينا أبوك غيــورُ وميسورُ ما يرُجى لديك عسيرُ

وكان قد اقترح معارضتها على صاعد البغدادي ارتجالاً فابى ، وانشد معتذراً أبياتاً في ذلك ثم ألحف عليه المنصور ، فعارض تلك القصيدة بقصيدة أولها :[٣]

جَذال الشرى إنِي بِكنَّ بَصيـرُ طَوتكنَ عني خِلة وقَتيــرُ

واما قصيدة ابن دراج فقد انمازت على قصيدة صاعد . ومطلعها[٤]

دَعِي عزماتِ المستضامِ تسيرُ فتنجدَ في عرَضِ الفَلا وتَغورُ

وهي من قصائده المعدودة في الديوان . وقد جاءت في خمسة وستين بيتاً بينما جاءت قصيدة ابي نواس برواية الصولي في أربعين بيتاً ، وهي تمثل بواكير القصائد الاندلسية . ذات النزعة المعارضة ولكي يتبين الدارس القيمة الفنية لهذه القصيدة . ينبغي أن يوازنها بنظيرتها .

وتمضي الايام بأبي عمر . لتحل الفتنة الجائحة بقرطبة . فتتوقف شاعريته ويغيض معينها ، ثم ينتقل الى بلاط ملوك سرقسطة . بعد سنوات من الاضطراب وكانت أول قصيدة في مدح المنذر بن يحيى التجيبي سنة ٤٠٨ هـ . ومطلعها :

---

(١) ديوانه ـ ٤ / ٣٢ ـ ٣٤ .
(٢) ديوان ابي نواس برواية الصولي ٤١٧ (ط دار الرسالة بغداد ١٩٨٠)
(٣) الذخيرة ٤ / ١ / ٣٢ وتنظر مقدمة ديوان ابن دراج ص ٤٧ .
(٤) ديوانه ٧٨ .

بُشراكَ من طولِ التّرحل والسُّرى صبحٌ بروح السّفر لاح فأسْفَرا

ويمُضِي حوالي عشر سنوات في كنفِ المنذر وولده يحيى ، ليستعيد نفسه الشعري الذي كان مع أبي عامر ، وليواكب مجدهما الزاخر ، ويؤرخ انتصاراتهما الماجدة وأبرز المناسبات التي مرت بتلك المملكة .

ويعتري سنواته الاخيرة شيء من الغموض في صحبة يحيى بن منذر ، اذ لا يلبث أن يغادره الى بلاط مجاهد العامري ، في دانية فيلبث فيها سنوات حياته الاخيرة ، حيث يدركه الأجل عام ٤٢١ هـ .

ثانياً : ديوانه وموضوعاته الشعرية :

ظلت معلوماتنا من شعر ابن دراج محدودة حتى عام ١٩٦١ حيث صدرت الطبعة الاولى من ديوانه[1] بتحقيق الدكتور محمود علي مكي ، وقد اشار المحقق في مقدمة الديوان الى انه اول ديوان ينشر لشاعر اندلسي متقدم ، فلا يعرف ديوان مجموع لشاعر اندلسي منذ الفتح العربي حتى القرن الرابع الهجري ... وكانت الاحكام الادبية التي صدرت حول الشاعر وشعره ، تعتمد على النقول الضَافية ، والاختيارات الواسعة التي قام بها مؤرخو الادب الأندلسي ، والمشرقي ، كذلك ، فجاء تحقيق الديوان ونشره إضافة كبيرة الى ديوان الشعر الأندلسي لشاعر كبير في أزهى عصوره .

احتجن الديوان حوالي ستة آلاف بيت ، في مائة وتسع وستين قصيدة .

وحين نتحدث عن موضوعاته الشعرية التي نظم فيها ، وننظر في ديوانه نظرة متفحصة ، لنحدد تلك الموضوعات ، فإننا سنواجه حالة انماز بها هذا الشاعر ، اذ تأتي جل قصائده ، واكثرها مستهلة بعبارة (ومما قاله فيه) ، فالمديح هو الركن الركين في موضوعاته وليس الشاعر بدعاً في ذلك فقد مضى على سنته جل شعراء عصره في المشرق والاندلس ، فظاهر الدَيوان أن قصائده تركزت في مدح ملوك الأندلس وفي مقدمتهم ممدوحاه الاثيران المنصوران ، محمد بن أبي عامر ، ومنذر بن يحيى التجيبي ، الى جانب عدد آخر من ملوك ، ووزراء ، ورؤساء ، وقضاة وجه اليهم قصائده .

---

(١) طبع في المكتب الاسلامي ـ دمشق ، على نفقة الامير علي عبد الله آل ثاني وقد صدرت طبعة ثانية عن المكتب ذاته سنة ١٩٦٨ .

اما قصائده التي لم يوجهها الى الممدوح ، وتناول فيها موضوعات أخرى كوصف الطبيعة ، والرثاء ، فهي لا تتجاوز عشرين قصيدة .

ونلاحظ أن قصيدة المديح عند الشاعر كانت قصيدة طبعية منسجمة مع الظروف العامة للعصر ، والخاصة بالشاعر ، وهي لذلك تأتي متكاملة العناصر[١] . تمثل الممدوح في صورة رائعة ، يجسد من خلالها معالم القيم الخلقية ، وملامح الشخصية الاسلامية ، وهي في ذلك تذكرنا بقول ابي تمام .

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من اين تؤتى المكـارم

ومن هذه القيم التي نوه بها في قصائده ، توقير حماة الدين وخليفة المسلمين ، الدعوة الى الجهاد في سبيل الله ، احتساب الأجر والثواب من الله ، التنويه بأقامة أركان الدين من صلاة وصوم ، وحج وزكاة ، انتصار معاني الايمان على الشرك والضلال ، نفي العقائد الباطلة ، والمناهج المنحرفة ، المزاوجة بين قيم الدنيا والدين ، تمجيد البطولة في أشخاص الممدوحين ، والإشارة الى تمثلهم بمآثر قادة المسلمين ، وذكر الوقائع الاسلامية في التاريخ الاسلامي ، وسنلاحظ ان لغة الشاعر قد تأثرت بمصادر التشريع الاسلامي ، القرآن الكريم ، والحديث الشريف .

ومن الخطأ الظن بأنَ ملكة الشّاعر وباعه قد قَصُرا به عن النظم في موضوعات الشعر الاخرى ، كما حصل لعدد من شعراء العرب ، فتأخرت مراتبهم عن مراتب الفحول ، عند اكثر النقاد ومنهم ابن سلام الجمحى ، فأصبحوا في المراتب المتأخرة ، وكان حقهم التقدم[٢] ، وتقدم عليهم الذين تعددت اغراضهم وتنوعت .

ومن الدارسين المحدثين الذين وقفوا عند شاعرنا الدكتور احمد هيكل الذي رأى انه من الظلم لابن دراج وشعره ، أن تحسب تلك القصائد مدحاً خالصاً ، وأن يسقط من ديوانه ما فيه ، من موضوعات أخرى ، ربما كانت أهم ما فيه[٣]

وأبرز تلك الموضوعات الفرعية ، كانت تدور على محور الوصف ، وهي نزعة شخصها أحد كبار النقاد في العصور الاسلامية المتقدمة ، خلال حديثه عن تقاليد

(١) يرى د . هيكل ص ٣١٤ أن سطوة المنصور وابنيه كانت عاملاً دفع بالشاعر الى المدح .

(٢) طبقات فحول الشعراء ١ / ١٤٧ ، ٢ / ٥٤٥

(٣) الادب الأندلسي ٣١٥

القصيدة العربية التي تتصل ببناء القصيدة ، وتناسب أجزائها ، واعتدال اقسامها ، من استهلال بالنسيب ووصف للرحلة الى الممدوح ثم المدح .[١]

وشاعرنا يمضي على هذا النهج ، ويتوسع فيه توسعاً لا يخرجه عن طبيعة القصيدة العربية ، فيتناول موضوعات شعرية أخرى تتصل بموضوعه الرئيس ، فهو يصف رحلته الى الممدوح وما يقتضيه بعد الشقة عنه من نصب ووصب ، ومكابدة ومعاناة ، وما يتصل به من تعلق الأسرة ، وتشبث الابناء بأبيهم ، الذي يضطره ضيق الحال ، ولوازم العيش الى ضروب من الشحط والنوى ، وفي هذا الأتجاه يشير الدكتور هيكل[٢] الى أن أهم الاغراض الفرعية التي تضمنها الديوان في قصائد المدح هي :

وصف مواقف الوداع وفراق الاهل ، وهو وصف مشوب بمعاني الغربة والقلق والضياع .
ووصف الأسفار في البر والبحر .

كما يتناول موضوعاً لصيقاً بالممدوح هو وصف المعارك الحربية البرية والبحرية ، ويعلل الدكتور احسان عباس ذلك ، بأن الشاعر لم يكن مطمئناً في ظل ممدوحه الأول ، المنصور بن ابي عامر ، وذلك ما دعاه الى الاستكثار من معنيين هما .

ذكر مفارقته لزوجته وابنته وصعوبة الفراق .
وحاجته الى الرضا والثقة بحيث يحقق حالة من الاستقرار لا يخشى معها صروف الايام[٣] فمن الموضوع الأول قوله في قصيدته التي عارض بها أبا نواس[٤] .

ولما تدانتْ للوداع وقد هفا	بصبري منها أنةٌ وزفير
تناشدني عهد المودةِ والهوى	وفي المهدِ مبغوم النداء صغير
عَيِيٌّ بمرجوعِ الخطابِ ولفظُه	بموقع أهواء النفوس خبير
تبوَّأ ممنوع القلوب ومُهِّدت	له أذرعٌ محفوفةٌ ونحورٌ

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٠ (ط دار الثقافة)
(٢) الادب الأندلسي ، ٢٢٥
(٣) تاريخ الادب الاندلسي ـ ١ / ٢٤١ ـ ٢٤٢
(٤) ديوانه ، ق ٧٨

وقد تقدمت ابياته الهائية ـ في هذا المجال ـ في أول قصيدة انشدها للمنصور بن أبي عامر، وفي وصف الاسفار، قوله يصف رحلة البحر، في قصيدته النونية التي يخاطب فيها خيران العامري حاكم سبته سنة ٤٠٧ هـ[١]

إليك شحنّا الفلكَ تَهوى كأنّها وقد ذَعَرت عن مغربِ الشّمس ـ غربانْ
على لجج خَضرٍ إذا هَبت الصَّبا تَرامى بنا فيها ثَبيرٌ وثهلان
اذا غِيض ماء البحر منها مددته بدمع عيون يمتريهن أشجان
وان سكنت عنا الرياح جرى بنا زفير الى ذكر الأحبة حنّان

وقوله في قصيدة يخاطب بها منذر بن يحيى التجيبي[٢]:

وكم عجزت عنا ذوات قوائمٍ فعجنا بعوج مالهن قوائم
جاجيء غربانٍ تطير لنا بها على مثل أطواد الفيافي نعائم
لها من أعاصير الشمال إذا هوت خواف ومن عصف الجنوب قوادم

ورحلة البحر كثيرا ماتتردد في أشعار ابن دراج حتى اننا نستطيع ان نعده احد أبرز ثلاثة شعراء ترك البحر أثره في شعرهم[٣]

وأما وصفه الرحلة البرية فلا يخلو ديوانه منها فمن ذلك ما جاء في قصيدته الرائية المشهورة التي عارض بها ابا نواس[٤]:

ولو شاهدتني والصواخد تلتظي عَلَيَّ ورقراق السراب يمور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا على حر وجهي والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهي بوارح وأستوطىء الرمضاء وهي تفور
لبان لها أني من الضَيم جازعٌ واني على مضَ الخطوب صبور

وأما وصفه المعارك البرية والبحرية. فقد تناولها في قصائد كثيرة منها ماجاء في وصف واقعة خاضها بن أبي عامر في القضاء على ثورة زيري بن عطية. حاكم المغرب. وهي في خمسة وخمسين بيتاً منها قوله[٥]:

تحملَ منه البحر بحراً من القنا يَروعُ بها أمواجه، بهولْ
بكلَ معالاة الشراع كأنها وقد حملت أسد الحقائق ـ غِيلْ

---

(١) ق ٣٢ (٢) ق ٤٤

(٣) البحر في شعر الاندلس والمغرب: ٥٧

(٤) ق٧٨ (٥) ق١

اذا سَابقتْ شأوَ الرّياح تخيّلت خُــيولاً مَدى فُرسانِــهــنَ خــيولْ
أراقم تُقري ناقعَ السّم مالها بما حَمَلت دونَ الغُواة مَقيلْ

ثالثاً : شهرته وخصائصه الشعرية :

لعل ابن دراج احد المتقدمين بين شعراء عصره في شهرته حتى انه انه عدّ من شعراء الطبقة الأولى في الأندلس . فباهى به مؤرخو الأدب ونقاده من مشارقة واندلسيين .. وسنعرض لآرائهم في هذا المجال :

هذا أبو منصور الثعالبي (٤٢٩ هـ) يقرنه بالمتنبي فيقول « كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام . وهو من الشعراء الفحول . وكان يجيد ما ينظم ويقول »(١) .

وأما مواطنه ابن شهيد الأندلس (٤٢٦ هـ) الشاعر الناقد . فقد فصل القول في شاعريته وجلى لنا بملكته النقدية أبرز سماتها المتميزة . وذلك فيما نقله ابن بسام من كتابه المفقود « حانوت عطار »(٢) .

« والفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام . شديد أسر الكلام . ثم زاد بما في أشعاره . من الدليل على العلم بالخبر . واللغة . والنسب . وما تراه من حوكه للكلام . وملكة لاحرار الألفاظ . وسعة صدره . وجيشة بحره . وصحة قدرته على البديع . وطول طلقه في الوصف . وبغيته للمعنى . وترديده وتلاعبه به وتكريره . وراحته بما يتعب الناس . وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس)

وقد وقف الدكتور احسان عباس وقفة متأنية . عند هذا الحكم النقدي وترجمه الى لغة النقد الحديث . ورأى أن فيه خمس سمات فنية(٣) .

وأما ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) . وهو الشاعر الناقد فيصدر فيه حكماً نقدياً جزئياً . فيقول « لوقلت أنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد » ويرى في موضع آخر انه « لو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي »(٤)

أما ابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠ هـ فقد عرض لابن دراج في مقامة أدبية . ذكر بها الشعر والشعراء . وجعله من الطبقة المتأخرة في الزمان . المتقدمة في الاحسان .

---

(١) يتيمة الدهر ٢ / ١٠٣ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ط د دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٣
(٢) الذخيرة ١ / ١ / ٦١
(٣) تاريخ الأدب الأندلس ١ / ٢٦٠
(٤) الجذوة ١١٣ ـ ١١٤

وقرنه بأبي فراس الحمداني . والمتنبي . وابن الاحنف . وابن هاني الأندلسي . وغيرهم[١] . ثم اثنى عليه بقوله : « فهو أشعر أهل مغربه . في أبعد الزَّمان وأقربه »[٢] ويرى مؤرخ الأندلس وأديبها أبو مروان بن حيان (ت ٤٦٩ هـ) أن الشاعر « سَباق حلبة الشعراء العامريين . وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين » . ويشير كيف أن اضطراب الأمور بالأندلس . أفقد الشاعر مكانته . وأضاع حقه . فأضطر الى انتجاع ملوك الطوائف ويوسع في ترجمة الشاعر وايراد أشعاره صاحب الذخيرة ابن بسام الشنتريني (٥٤٢ ه) ثم يصدر حكمه النقدي مشيداً بشاعريته فيرى :

« أنّ من ذكره لم يوفه حقه . ولا اعطاه وفقه . ولا استوفى تقدمه وسبقه ولو أوفى الأيام . واستنفذ القراطيس والاقلام »[٣] وعلة ذلك أن الذين سبقوا هذا الناقد ـ كما يبدو ـ لم يطلعوا على ما وقف عليه ابن بسام فقد أورد نماذج شعرية كثيرة .[٤]

ويتصل الاعجاب بالشاعر بعد حوالي قرنين من وفاته . حتى يشهد الشقندي (٦٢٩ هـ) في معرض المفاخرة بأدباء الأندلس . وذكر فضائلها . بما للشاعر من براعة وتفوق في رائيته التي عارض بها ابا نواس . فيذهب في الاعجاب بها مذاهب شتى . ويرى أنّها تفوق مدائح ابي فراس الحمداني . وشعراء عصره . لسيّد بني حمدان .[٥]

أما نقاد العصر المحدثون . فقد أولوا أبا عمر عنايتهم . وأفردوه بصفحات وافية في دراساتهم . في الأدب الأندلسي . ولعل أقدم هذه الدراسات ما كتبه أحمد ضيف . حيث رأى فيه رأياً غير سديد وأصدر فيه حكماً زائفاً . غير رشيد . فكان مما قاله فيه . وهو يدرس رائيته التي عارض بها أبا نواس .[٦]

« ان ابن دراج لم يكن شاعراً فطرياً يقول الشعر عن شعور صحيح . أو دافع نفسي . وانما هو مقلد بارع . حتى في المعاني التي لم تشعر بها نفسه . وفي وصف

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ١٩٨

(٢) نفسه ٤ / ١ / ٢١١

(٣) الذخيرة ١ / ١ / ٦٢ وقد استغرقت ترجمته الصفحات ٥٩ ـ ٩٦ .

(٤) الذخيرة ١ / ١ / ٥٩ ـ ١٠٣ .

(٥) النفح ٢ / ٧٨٢ .

(٦) بلاغة العرب ١٠٠ .

الأمكنة . التي لم يرها الا في كلام الشعراء . فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية . وآلة من الآت الكلام . ليمدح من يريد »

وجاء أحمد أمين ليذهب مذهباً مماثلاً لرأي زميله أحمد ضيف فيتهمه بالتقليد الذي كان بدافع الرغبة في تأكيد الذات الأندلسية .[١]

وقد كفانا الدكتور أحمد هيكل . مؤونة الرد على هذين الناقدين . في مناقشة طريفة ومحاورة علمية هادئة .[٢]

ومن المستشرقين الذين أصدروا أحكامهم في الشاعر . المستشرق الاسباني غرسيه غومس . الذي وجد في لغة الشاعر صعوبة في فهمها . وهو أمر طبعي على أمثاله من المستشرقين . وذلك ما جعله يتجرأ على الشاعر . فيصفه بالتعقيد . وعسر الفهم . فشبهه بالشاعر الأسباني « جنجرة » . ولا ننكر أن الشاعر كان ذا لغة جزلة الالفاظ . متينة التراكيب . لكنها ليست لغة معقدة . على نحو ما يرى غومس .

وخاتمة اراء الدارسين المحدثين ممن أولوا الشاعر صفحات واسعة من دراساتهم الدكتور أحمد هيكل والدكتور احسان عباس .

أما هيكل فقد تناول اشعار الشاعر بالدراسة المتمحصة الدقيقة . فوقف عند موضوعاته الشعرية . محللاً إياها مستشهداً بنماذج من أشعاره . ثم انتقل الى أبرز السمات الفنية ورأى أنها تتمثل في خمس :

اللون المحلي . الشعور الاسري . والتحليل المعنوي . والوصف النفسي والنضح الثقافي . وقد وضح معالم هذه السمات مستطرداً في تحليله شافعاً ذلك بنماذج من اشعاره .[٣] والاشارة الى السمة الثانية ـ الشعور الأسري ـ تقدمت الاشارة اليها في موضوعاته الشعرية تحت عنوان « وصف مواقف الوداع »

وقد وردت الاشارة . في حالات مختلفة لأفراد أسرته . في حوالي عشرين موضعا من الديوان . وذلك الذي دعا الدكتور هيكل أن ينعته بـ « شاعر العاطفة الأسرية »[٤] و « شاعر الأسرة » و « شاعر الحب الأسري » .[٥] وهذه السمة لا يشاركه فيها شاعر عربي آخر !

(١) ظهر الاسلام ٢ / ١٣٤ .

(٢) الأدب الأندلسي ٢٢٥ .

(٣) الادب الاندلسي ٢٢٦ ـ ٢٣٣ . وقد كتب الدكتور هيكل بحثاً بعنوان « ابن دراج شاعر العاطفة الاسرية والأصالة الاندلسية » دراسات أدبية ص ٢٤٣ ـ ٢٦٧ (ط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٠) .

(٤) دراسات ادبية ص ٢٦٠ .

(٥) الادب الاندلسي ٢٢٠ .

وأما الدكتور احسان عباس فقد وقف عند شاعرية الشاعر . وشخص ابرز سماتها . ورأى أنها تتمثل في ست هي :[1]

ميله الى المقايسة في قصائده . ويشير بذلك الى نزعته المعروفة بالمعارضة . وتعلقه بالصورة الواحدة مسافة طويلة في شعره . والحاحه على جوانبها الى حد الاملال . وسيطرة الصور الحربية في شعره . ويعلل ذلك بأن الشاعر جنح الى نوع من التعويض . لأنه كان عاجزاً عن المشاركة في الحرب وكذلك استخدامه في اساليبه الشعرية فنون البديع . من طباق وجناس . وميله الى المطابقات في الفاظه .واكثاره من الاشارات التأريخية على طريقة أبي تمام .وميله الى المعاني المعقدة بحيث تصبح معانيه عسيرة الحل تتطلب سبراً وغوراً في أعماقها . ويبدو ذلك في استعاراته المستخدمة في قصائده .

ويخلص في مجال تحديد السمات الى « ان ابن دراج أول شاعر لا ينزل شعره عن مستوى الجزالة . وأن صياغته بالغة درجة عجيبة من القوة . حتى ليمكننا أن تقول أن اغرابه في طلب الصورة . ثم محافظته على هذا اللون من الضياغة القوية كان مزجاً عجيباً بين طريقة العرب وطريقة المحدثين . وتجيء قصيدته على مسرد واحد . لا ارتفاع فيها ولا انخفاض فليس في قصائد ابن دراج ذروة ينتقل بها القاريء من المستوى العام الى ثبج الموج .[2]

والذي نراه في شعر الشاعر انه يتميز بصفتين رئيستين تطغيان على معظم قصائده هما :

اولاً :ـ سعة ثقافته الشعرية . وامتدادها الى ابعادٍ بعيدة الاغوار . فقد استطاع ان يوظف ثقافته الاسلامية . ويسخرها في ديوانه . خير توظيف . وافضل تسخير . فأنت لا تحتاج الى كبير جهدٍ ولا مكابدة لكي تستبين هذه الثقافة . وهي ثقافة اسلامية تستمد من منابع الثقافة العربية الاسلامية . كالقرآن الكريم . والحديث النبوي الشريف والامثال العربية . والتأريخ الاسلامي بأحداثه المتمثلة في غزوات المسلمين والاشادة بقادتهم . وكذلك تبدو ثقافته بالاعتماد على ديوان الشعر العربي في عصوره المختلفة .

ومما يؤكد لنا عناية الشاعر باظهار ثقافته وعنايته بلغة شعره الى درجة التنقيح والتجويد . ما رواه الحميدي من أن المنصور بن ابي عامر . لما فتح شنت ياقب

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ٢٦٠ ـ ٢٦٦

(٢) نفسه ١ / ٢٦١

استدعى أبا مروان الجزيري . وابا عمر بن دراج . وأمر بأنشاء كتب الفتح الى الحضرة . فأما الجزيري . فقال ، سمعاً وطاعة . وأما ابن دراج فقال ، لا يتم لي ذلك في اقل من يومين أو ثلاثة وكان معروفاً بالتنقيح والتجويد والتؤدة فلما تم له ذلك اشتهر ما اتى، منه واشتهرت نسخة الفتح . ولم تزل منقولة متداولة الى عصر الحميدي (ت ٤٨٨ هـ)[١] ولم يكن هذا شأنه في الرسائل بل نجد عنايته واضحة في أشعاره كذلك .[٢]

ومن نماذج شعره التي تعكس لنا هذه السمة قوله يمدح سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين (ت ٤٠٧ هـ)[٣]

١	هنيئاً لهذا الدهر روح وريحان	ولـلـديـن والدنـيا أمان وإيـمان
٢	بأن قعيد الشرك قد ثل عرشه	وأن أمـير الـمؤمـنيـن سـليـمان
٦	وأنقذ دين الله من قبضة العدى	وقد قاده للشرك ذل وإذعان
٨	وجدد للإسلام ثوب خلافة	عليها من الرحمن نور وبرهان
١٠	به شد أزر الملك وابتهج الهدى	وفاض على الإسلام حسن وإحسان
١٣	سميُّ النبي المصطفى وابن عمه	ووارث ما شادت قريش وعدنان
١٩	قبائل من أبناء عاد وجرهم	لهم صفوُ ما تنميه عاد وقحطان
٢٨	دلفت بهم للفتح تحت عجاجةٍ	كأن مُـشـيرَيْـهـا عـلـيٌّ وهـمدان
٥١	بيمن الإمام الظافر الغافر الذي	صفا منه للإسلام سر وإعلان

ومن ذلك قوله في قصيدة يمدح فيها عبد الملك بن المنصور بن ابي عامر[٤]

١	جهز لنا في الارض غزوة محتسب	واندب إليها من يساعد وانتدب
١٤	واستوف بهجتها وطيب نسيمها	فإذا دنا رمضان فأسجد واقترب
١٥	وصل الجهاد الى الصيام بعزمة	من ثائر يرضى الاله إذا غضب
١٦	فالنصر مضمون على بر الهدى	وعواقـب الراحات أثـمار الـتـعـب

وقوله من قصيدة يخاطب فيها المنصور بن أبي عامر[٥]

٣٣	إن « امرأ القيس » في بعضِ لُمَتهمٌ	وفي يديه لواء الشعر إن ركبا
٣٤	والشعر قد أسر « الأعشى » وقيده	خبراً وقد قيل والأعشى إذا شربا

(١) الجذوة ص ١١٢ .

(٢) تنظر قصائده رقم (١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٢٨) ومقدمة المحقق للديوان ص ٥٥ .

(٣) ق ٢٦ .

(٤) ق ١٥ .

(٥) ق ١٠٠ .

٥٣ وصفوة الله من أنصار دعوته ومن تنقى لنصر الدين وانتخبا
٥٥ حيث اعترى فخر إسماعيل في سلفي هودٍ وحيث تلاقت خندفٌ وسبا

وله قصيدة يخاطب فيها المنصور بن أبي عامر وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن يشيد ببلائهما في غزوة شنتياقب وذلك سنة ٣٨٧ هـ . وقد أشرنا آنفاً الى موقف الشاعر حين طلب اليه أن يكتب كتاب الفتح . وتأخره في ذلك :[١]

١ لك البشرى ودمت قرير عين	بشأويْ كوكبيك الثاقبين
٢ مليكي حمير نشآ وشبا	بتيجان السناء متوجين
٥ هما للدين والدنيا محلا	سويدا واهما في المقلتين
١٧ ولا نسيت عهود الحارثين	ولا ضاعت وصايا المنذرين
١٨ ولا خزيت مآثر ذي كلاعٍ	ولا أخوت كواعب ذي رعين
٤٧ لئن وجدته أشأم من قدار	لقد عدمته أخيب من حنين
٤٩ طريد الروع لو حسب الزَّباني	تلاحظه لغار مع البطين

٢ ـ ان ديوانه كان مرآة صادقة لأحداث عصره فقد تفاعل الشاعر مع تلك الاحداث تفاعلاً تاماً صور لنا ابعادها السياسية بشكل خاص حتى اننا نستطيع ان تعد ديوانه تاريخاً دقيقاً لغزوات ممدوحة الأثير المنصور بن ابي عامر الذي غزا ممالك اسبانية اثنتين وخمسين غزوة وقد أشار الدكتور محمود علي مكي الى هذه السمة اشارة سريعة .[٢] وبعد أن تحل الفتنة بقرطبة يرحل ابن دراج ليكون شاعر المنذر بن يحيى التجيبي وفيه وجه ثلث شعره[٣] وتأتي اشارة الدكتور هيكل الى هذه السمة ضمن ما رآه في شعره واطلق عليه (اللون المحلي)

ومما استطعنا الوقوف عليه من قصائده المقترنة بالاحداث السياسية ما عرض له بذكر وفادة شانجة بن غرسية بن فردلند الى المنصور بن ابي عامر سنة ٣٨٢ هـ .[٤] وكذلك ما أرخه لوفادة غند شلب بن شانجة بن غرسية سنة ٣٨٣ هـ .[٥] وما أرخه لحملته على قشتالة سنة ٣٨٤ هـ .[٦] وما اشار اليه في تجهيز الجيوش الى زيري بن عطية بعد سنة ٣٨٦ هـ[٧] وتقترن ثلاث قصائد له بفتح شنتياقه العاصمة القديمة لمنطقة جيليقية سنة ٣٨٧ هـ[٨] ويؤرخ الشاعر لأسر المنصور لابن فردلند سنة ٣٨٤ هـ .[٩] كما يؤرخ لبعض صوائف المنصور سنة ٣٨٨ هـ[١٠]

---

(١) ق ١٠٢ (٢) مقدمة الديوان ٥٦ (٣) مقدمة الديوان ٧٢ (٤) ق ١١٢ (٥) ق ١١٧
(٦) ق ٤ (٧) ق ١ (٨) تنظر ق ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٢٨ (٩) ق ١١٨ (١٠) ق ١١٩ وفي ق ١١١ يهنئه في عودة من غزاة الى مملكة ليون .

وللغزوات التي غزاها ابنه عبد الملك سنة ٣٩٣ هـ .[١]

ونجد بعض قصائد الديوان تسجل العلاقات الدبلوماسية التي اقترنت بالمنذر بن يحيى التجيبي فمن ذلك ما سجله لعقد الصهر بين ابن فردلند وابن ريموند سنة ٤٠٨ هـ[٢] وما أشار اليه حين وصل المنذر بنت ابن فردلند الى زوجها ابن رايمند.[٣] كذلك سجل لنا وصفاً لقدوم الامير ابن ميرو الى المنذر في سرقسطة.

ولنا أن نقف عند بعض قصائده التي ارخ فيها لتلك الاحداث والوقائع ومنها قصيدته التي وجهها الى المنصور بعد انصرافه عن بنبلونة ومطلعها :[٤]

سعي شفى بالمنى قبل انتها امده ... ويوم سعد ارانا الفتح قبل غده

وفيها يقول :

٣٩ فتلك نفس ابن شنج لا مآل لها ... من ميتة السيف أو عيشٍ على نكده
٤٦ وجاحم من حريق لا خمود له ... إلا ونفس ابن شنج وسط مفتأده
٤٩ فتت منها قواصي « بنباويته » ... بالهدم والنار فتاً فت في عضده
٥٦ وقد تركت ابن شنج فل معتركٍ ... إن لم يمت من ظباه مات من كمده
٥٨ وفرذلند رددت الملك في يده ... وما رجا غير رد الروح في جسده

وتتجلى هذه السمة في قصيدة أخرى يخاطب فيها المنذر بعد ايابه من الغزوة التي عقد فيها الصهر بين ابن فردلند وابن رايمند ومطلعها :[٥]

عـمرت بـطول بـقاءك الاعـمار ... وجرت برفـعة قدرك الاقدار
٣٠ بهرت فهن على «ابن يحيى» في الوغى ... نورٌ له وعلى «ابن شنج» نارٌ
٤٤ ودنا « ابن رذمير » يزلزل خطوه ... أمـل تـقـسم نـفـسه وحذارُ
٤٦ ولقبلُ أيقن « فرذلند » ماله ... إلا إلـيـك مـن الـحـمام فرارُ
٥٢ أصبيتَ منها ملك « رذمير » وقد ... مـشـت الدهور عـلـيـه والأعـصارُ
٥٤ وبسطت من « قشتلة » يد آمن ... لرضاك فـيـها بارقٌ وسوارُ

---

(١) ق ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ .
(٢) ق ٤٢
(٣) ق ٤٤
(٤) ق ٤٢
(٥) ق ٤٣ والبارق نوع من الاسورة .

ابن حزم الأندلسي
(٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ)

١ ـ حياته :

هو ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي . لقب بالقرطبي وبالظاهري نسبة الى مولده ومذهبه . فقيه الأندلس وعالمها . صاحب التصانيف في الأدب والجدل والفقه والاحكام . ومجدد مذهب داود الظاهري . ومقعد أصوله ومبين احكامه الذي بلغت مؤلفاته نحو اربعمائه مصنف ورسالة .. في ميادين المعرفة كافة . ولم يعرف منها ـ تقريبا ـ الا ثلثها . اما ما وصل فعلاً فلعله يصل الى العشر[١] !

ولذلكم احتفت مدينة قرطبة (الاسبانية) بذكراه المئوية التاسعة في مايس ١٩٦٣ . وعدته « علماً من أعلام ثقافتها »[٢] . ورأى فيه المستشرق الاسباني سانتشت البرنس قمة اسبانية[٣]

ولد في أسرة عريقة في الاسلام . واختلف في أصله ولم يكن وحيداً في أسرته في النبوغ . بل عرف آخرون منهم ابن عمه ابو المغيرة عبد الوهاب بن احمد بن عبد الرحمن بن سعيد (ت ٤٣٨ هـ) الشاعر الأديب[٤] . واما أبوه احمد فقد كان وزيراً للمنصور بن ابي عامر . وكذلك لابنه المظفر . وهو لا يختلف في هذا عن ابن شهيد الذي زامنه . وكان ابوه وزيراً للمنصور ويستبسل الأسبان في نسبة الدماء الايبرية اليه من اجداد يفترضون أنهم من المولدين[٥] .

نشأ نشأة مترفة . وتقلب بين جنبات . التعليم في ظلال القصور . حيث شارك في الاستماع للمواعظ وأحاديث العلماء في مجالس أبيه . وهو صغير في الخامسة عشرة من عمره . وقد عهد الى النساء بتربيته . وتحفيظه القرآن . وروى الشعر على أيديهن . مما يحمل هذا الأمر أكثر من دلالة . حيث غلبت عليه رقة في شبابه

---

(١) ابن حزم الاندلسي واضع علم مقارنة الاديان ، د . عبد الحليم عويس ، مجلة الفيصل العدد ٢٨ سنة ١٩٧٩ ص ٥٩

(٢) وردت هذه العبارة في القاعدة الحجرية التي يقوم عليها تمثال ابن حزم القرطبي (ينظر اندلسيان ١ / ١٢٠)

(٣) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة د . الطاهر احمد مكي مكتبة وهبة سنة ١٩٧٧ ص ١٣٥ .

(٤) الذخيرة ١ / ١ / ١٣٢ وما بعدها

(٥) دراسات عن ابن حزم ١٤٣

وحياء وخجل في مجالس الرجال . وسوء ظن بالمرأة لانه شاهد من أسرار النساء ما لا يكاد يعلمه غيره . وتجاوز الأمر الى علاقات عاطفية مبكرة على نحو ما يذكره في سيرته الذاتية[١] . فلما أضاف الى ذلك نزعته الدينية لم يستغرب منه طوق الحمامة .

كان للفتنة اثر في نفسه . ولذلك درسه عدد من الباحثين في ظلها . وتناوله آخرون في عهد الطوائف . حيث بلغ نضجه العلمي . وقد نالته فيما نال الأندلس نكباتها وويلاتها . حتى انتهت به حياته السياسية الى السجن الذي كان نقطة تحول في حياته . وانصرف بعدها الى التأليف والتصنيف . ومناظرة العلماء وزعماء الاديان الاخرى . مثل ابن النغرالة اليهودي وزير صاحب غرناطة . وتكالب عليه الاعداء من كل مكان فلم يستقر به المقام . وكان يتقلب بين مدن الأندلس حتى انتهى به الأمر الى لبله موطنه الذي ولد فيه . فادركته المنية سنة ٤٥٦ هـ[٢]

٢ . ثقافته وشاعريته :

ليس من السهولة بمكان أن نتعرف على موارد ثقافته وجذورها . فقد كان موسوعي الثقافة . ملماً بأكثر ميادين المعرفة . حتى إننا نستطيع أن نعده ظاهرة فكرية متميزة في تراث الاندلس . ومن القدماء من وصفه بأنه (أجمع اهل الأندلس قاطبة لعلوم الأسلام . وأوسعهم معرفة . مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة . والشعر . والمعرفة بالسير والاخبار)[٣] . ووصفه ابو عبدالله الحميدي بأنه كان متفنناً في علوم جمة .. ذا فضائل جمة وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم .

ويرى الدكتور عبد الكريم خليفة أن رسالته في فضل الاندلس وذكر رجالها تدل على مدى عمق ثقافته وسعة اطلاعه[٤] . ولذلك وقف المحدثون دراسات كثيرة عليه وتعقبته الأقلام فتناولته أصولياً . وفقيهاً . ومحدثاً . ومؤرخاً . ولغوياً . وواضع علم مقارنة الاديان . فضلاً عن دراسته أديباً وشاعراً . ومن الدّراسات التي تناولت أدبه وشعره . ما كتبه الدكتور احمد هيكل[٥] في الأدب الاندلسي . والدكتور احسان

---

(١) طوق الحمامة ٤٨ ، ١٤٤ ، تاريخ الادب الاندلس ، ١ / ص ٢٠٧

(٢) الصلة ٣٩٦ .

(٣) طبقات الامم ٨٧ ، الصلة ٢ / ٤١٦ .

(٤) ابن حزم الاندلسي ١٠٤ .

(٥) الادب الأندلسي ص ٢٥٥ ـ ٣٦٤ .

عباس[1]. والدكتور طه الحاجري[2]. والدكتور عبد الكريم خليفة[3]. والدكتور الطاهر احمد مكي[4].

والذي يهمنا من شخصيته هو الجانب الأدبي ـ وهو جانب واضح ومتميز من شخصيته المتعددة الجوانب . المتشعبة المناحي ..

وأول ما يتبادر الى الذهن . ديوانه الشعري الذي ظلت معلوماتنا عنه شحيحة الى عهد قريب . فكان الظن سائداً أن نسخة مخطوطة فريدة له . في احدى المكتبات ولقد تبين بعد فحصها من الداخل أنها ليست ديوانه . بل أن ما له فيها هو ست قصائد فقط . واما بقية المخطوط فهي من لزوميات أبي العلاء . وقصائد الديوان وردت بهذا الترتيب في مخطوط « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري[5]. وقد أورد الدكتور احسان عباس هذه القصائد في آخر كتابه عن الادب الأندلسي[6]. واذا كان الأمل معقوداً على العثور على الديوان . فإن دراسة تعهدت أشعار الشاعر بالجمع والتحقيق . لتضعها بين أيدي الباحثين[7].

وأقدم من عني بديوانه ابو عبدالله الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) اشار في ترجمته له الى ديوانه . ونوه بغزارة شعره . وأنه جمعه على حروف المعجم[8]. وما بين أيدينا من أشعاره يتيح لنا أن نكون فكرة عامة عن شاعريته . وأكثر هذه الأشعار يرد في مؤلفاته . ولا سيما كتاب طوق الحمامة . وقد وصف شاعريته عصريه الحميدي فقال : (وكان له في الآداب والشعر . نفس واسع وباع طويل . وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه)[9] وفي شهادته دلالة واضحة على عدم اكتراثه بما ينظم من الشعر بحيث يأتي به دون روية وأناة . ولكأن شاعريته كانت تزري بعلمه . لذلك جاء الشعر عنده ثانوياً . وعلى الرغم من ذلك فانه كان يجيب

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ٣٠٢ ـ ٣٢٢ .

(٢) ينظر كتابه ابن حزم صورة اندلسية (ط الاعتماد بالقاهرة د . ت) .

(٣) كتابه ابن حزم الاندلسي حياته وادبه (ط المكتب الاسلامي بيروت د . ت) .

(٤) ينظر كتابه دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٧ .

(٥) ينظر تعليق د . احسان عباس في تاريخ الادب الاندلسي ١ / ٣٧٠ هـ او المخطوطة في دار الكتب المصرية رقم ١٦٣٠٢ في (٧١) لوحة

(٦) نفسه ٣٧٠ ـ ٣٨٧

(٧) وهي رسالة ماجستير في كلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

(٨) جذوة المقتبس ٣٠٩

(٩) نفسه ٣٠٩

أصحابه الذين يطلبون منه أن ينظم في تجارب حبهم التي تعرض لهم ويصفونها له . لعدم استطاعتهم ذلك . ولقد جاءت قريحته في مطلع حياته المبكرة . وهو دون العشرين في نزعة ذووية عاطفية)[١] .

ومما يعين في التعرف على مذهبه الفني في الشعر آراؤه النقدية في هذا الفن حيث نظر الى الأدب بشكل عام نظرة دينية فأفتى في جواب من سأله عن الآداب بأنها فرض واجب . على الكفاية . ثم فصل رأيه في الشعر فجعله على ثلاث مراتب . مرتبةٍ يراه فيها حراماً . وأخرى ليست بحرام ولكنه لا يحبذها وثالثة يحبذها ويحض عليها .

فأما الاولى فهي ان لا يكون للانسان علمٌ غير الشعر . وأما الثانية فهي ان يستكثر منه واما الثالثة فهي ان يأخذ منه بنصيب[٢] .

وتأتي نظرته النقدية في رسالة أخرى حيث يصنف الشعر الرديء في اربعة ضروب ويحذر منها معللاً نظرته وهي :

شعر الاغزال والترقيق . وشعر التصعلك وذكر الحروب . وشعر التغرب ووصف المفاوز والبيد . وشعر الهجاء .. وهي اشعار تدعو الى الفتنة . وتسهل على المرء موارد التلف والتغرب والتحول . وانتهاك الحرمات .

ويشير الى صنفين آخرين . يجدهما من المباح المكروه هما : المدح . والرثاء لأنَ فيهما ذكر فضائل المدوح والميت . ولأن أكثر ما فيهما كذب . ولا خير في الكذب[٣]. واذا كان ابن حزم متشدداً في احكامه النقدية منطلقاً من مبدأ الرقابة الدينية الخلقية . في تلك الاراء . فأنه لم يستطع أن يقدم لنا تطبيق ذلك في أشعاره التي تناولت اكثر موضوعات الشعر التقليدية ..

٣ . ابرز موضوعاته :

١ : شعر الغزل والنسيب :

وهو أكثر موضوعاته الشعرية التي تعرض لها الشاعر . واشعاره فيه تمثله في مرحلة الشباب وهو متميز بعمق التجربة الشعورية مع عفة ترتفع به عن الفحش

---

(١) الاتجاه الاسلامي ٤٢٩ وما بعدها

(٢) الرد على ابن النغريلة ١٦٠ .

(٣) رسائل ابن حزم ٦٥

والمجون . وليس ذلك الأمر عنه ببعيد ففي كتابه طوق الحمامة ما ينبىء عن تجارب ذووية له أخبرنا عنها دون أن يجد في ذلك بأساً[1] . وهو الذي جعل أطول أبواب كتابه با بين فضل التعفف وقبح المعصية ومن أبياته التي نظمها في (نعم) قوله[2] :

يعيبونها عندي بشُقرة لونها	فقلت لهم : هذا الذي زانها عندي
يعيبون لونَ النور والتبرضلة	لرأي جهول في الغواية ممتد
وأبعد خَلق الله من كل حكمة	مُفضلُ جرمٍ فاحم اللون مسود

وابياته التي تقدمت تعرب عن مذهبه وهو مذهب الأندلسيين . في تفضيل الشقرة على سائر الألوان . ونلمس في قصائده الغزلية نزعةً تجريدية . أو باطنية . حيث يذهب مذهب الكلاميين . ويخاطب الظاهر فيها خطاب الباطن فيقول :[3]

أمِن عالمِ الأملاك أنتَ أم آنسِي	أبنْ لي فقدْ أزرى بتَمييزي العيّ
أرى هيئةً أنسيةً غير أنه	اذا أعَمل التفكيرُ فالجِرم عُلوي
تبارك من سوى مذاهب خلقه	على أنك النور الأنيق الطبيعي

ومن أشعاره التي تكشف لنا عمق تجربته العاطفية قوله[4] :

وَددت بأن القلب شق بمدية	وادخلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره	الى مقتضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت فأن أمت	سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وفي هذه الابيات وأمثالها التي ضمنها في كتابه طوق الحمامة . ما يتنافى مع النظرية التي قدمها عن موضوعات الشعر الحرية بالنظم فهل جاءت تلك الآراء في آخريات حياته ام اننا نقبل اعتذاره عنها بقوله[5] :

« فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها بأختياره . ويحاسب عليها يوم القيامة . واما استحسان الحسن . وتمكن الحب فيه . فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه . اذ القلوب بيد مقلبها ... وأما المحبة فخلقة . وإنما يملك الانسان حركات جوارحه المكتسبة »

(١) طوق الحمامة ٤٨ ، ١٤٤

(٢) الطوق ٥٠

(٣) الطوق ٢٥

(٤) الطوق ٩٢

(٥) الطوق ص ٦٠

وقد اعتذر في موضع آخر من الطوق فنفى أن تكون أشعاره على سبيل المعاناة . وقرر أنه قالها على سبيل المحاكاة على مذهب المتحلين بقول الشعر[١] .

وعلى الرغم من انه قاسى الحب . وذاق لوعته . وأخبرنا عن ذلك في كتابه كما أشرنا اليه آنفاً . فانه يعترف بأن الحب داء عياء . وفيه الدواء .. وقد وصف فتى من معارفه « قد وحل في الحب . وتورط في حبائله .. »[٢] .

ولا شك أننا لا نستطيع أن ندرس شعر الغزل عند ابن حزم بمعزل عن كتابه . الذي يعد من الكتب القليلة في هذا المجال . وهو يعكس مزجاً فريداً بين فقيه يفكر بعقله . ويكتب بقلبه ... فقيه لا يستطيع أن يتجرد عن مفاهيم الشريعة الاسلامية . وهو يكتب عن النزعة العاطفية .. ولذلك فحين يكون الحب هو القضية . فإن « طوق الحمامة » هو الكتاب المفضل لدى الدارسين[٣] .

ومن الباحثين المحدثين[٤] . من وجد في حديث ابن حزم عن الحب . صبغة افلاطونية . وهو وصف جرى على ألسنة كثير من الباحثين لكنه ـ على التحقيق ـ لا علاقة له بتراثنا الأدبي في الأندلس . أذ مفهومه يخالف مفهوم الحب عندنا[٥] .

٢ ـ الفخر والرد على المنافسين :

وهو يمثله في مرحلة متقدمة من عمره بعد أن اشتدت عليه وطأة خصومه ومنافسيه فأخذ يدافع عن مواقفه وآرائه التي تحمس لها فيقول مخاطباً المعتضد بن عباد الذي أمر بحرق كتبه[٦] :

فإن تحرقوا القِرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن انزل ليدفن في قبري

---

(١) الطوق ١٦ وينظر الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي ٢٩٥

(٢) الطوق ٢٦

(٣) الحب في التراث العربي ٢٩ ، وينظر مفهوم الحب في الاسلام ، من وجهة نظر ابن حزم ، في كتابنا الاتجاه الاسلامي في الشعر الأندلسي ص ٢٧٨ ـ ٢٨٤

(٤) فصول في الشعر ونقده ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ٩٧١ ص ١٥١

(٥) تنظر مناقشة الباحث انقاذ عطا الله في دراسته ، اتجاهات شعر الغزل في عصر الطوائف، اطروحة مطبوعة على الالة الكاتبة كلية الآداب جامعة بغداد ص ١١٠ وما بعدها .

(٦) الذخيرة ١ / ١ / ١٧١ .

ويصور أزمته مع من حوله من حساد ومناوئين في أبيات يقول فيها [١]:

إني لأعجب من شأني وشأنهم — واحسرتا أنني بالناس ممتحن
كأن ذكريَ تسبيح به أمروا — فليس يغفل عني منهم لسن
ما إن قصدت لأمر قط أطلبه — الا وطارت به الأظعان والسّفن
أما لهم شغل عني فيشغلهم — أو كلهم بي مشغول . ومرتهن

ويشير في بداية القصيدة الى جوهر الخصومة التي أنتهت به الى هذه الحال . بأتخاذه الظاهر مذهباً له . واعتماده القرآن والسنة في الاحتجاج .

فقلت : هل عيبهم لي غير أني لا — أقول بالرأي إذ في رأيهمْ فتَن
وانني مولع بالنّص لست الى — سواه أنحو ولا في نصره أهِن
لا انثني نحو آراء يُقال بها — في الدين بل حسبيَ القرآن والسنن

وفي هذا الاتجاه يتألق شاعرنا في أبيات بائية مشهورة ينحى فيها باللائمة على ظروفه ونشأته في بلاد الغرب . وغفلة قومه عن مفاخر هذه البلاد . وانعقاد نظرهم ببلاد المشرق . ويتضخم في ابياته « الانا » تضخم من يُصارع امواج بحر متلاطم . فيقول [٢]:

أنا الشمس في جو العلوم منيرةً — ولكن عيبي أن مطلعيَ الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع — لجدَ على ما ضاعَ من ذكرىَ النهب
فأن ينزل الرحمن رَحلي بينهم — فحينئذ يبدو التّأسفُ والكرب
هنالك يدرى أن للبعد قصة — وان كساد العلم آفته القرب

وقد وقف عند هذا الاتجاه عدد من الدارسين . منهم الدكتور احسان عباس والدكتور عبد الكريم خليفة . واطلقوا عليه تسمية الشعر الذاتي او القصائد الذاتية [٣].

٢ ـ الشعر الاسلامي والفلسفي :

نجد هذا الاتجاه واضحاً عند الشاعر . وهو يبدو بصورته المتكاملة في قصيدتين ميميتين تنمان عن عاطفة دينية عنيفة . وتشفان عن قيم خلقية رفيعة . وكلتاهما

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ١ / ص ٢٨٢ (الملحق) .
(٢) الجذوة ٣١٠ ، الذخيرة ١ / ١ / ١٧٢ .
(٣) نفسه ص ٣٢٠ ، وابن حزم الاندلسي حياته وادبه ص ٢٢٩ .

من قصائده الطويلة ، وقد اوردهما الدكتور احسان عباس من المجموع الشعري المخطوط الذي وقع الوهم في أنه ديوان ابن حزم [١].

وأولى القصيدتين جاءت في ثمانين بيتاً بدون مناسبة في مقدمتها ، ولكنه أشار في آخرها الى أنها في اثبات حدوث العالم ـ وهي نزعة فلسفية ـ وصحة نبوة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ـ وهي نزعة عقدية ـ وفيها وعظ حسن ، وهي مما ارتجله في مجلس الخلافة دون اعمال روية ، ومن النظر في ابياتها تلاحظ انها تنحو الى الشكر والثناء لله سبحانه وتعالى وتوحيده وتنزيهه عن الحدود ، واثبات الخلق له ، والاشادة بتعقيد هذا الكون ، مما لا يدخل تحت حصر الكلام ، جاءت في بحر المتقارب ، بتفعيلاته الرتيبه ، وفيها يقول [٢]:

لك الحمد يا رب والشكر ثم	لك الحمد ما باح بالشكر فَمْ
لك الحمد في كل ما حالةٍ	فقد خصَّني منك فضلٌ وعم
من الماء أنشأتني نطفةً	ومن بعد ذلك لحمٌ ودم
واسكنتَ في جسدي روحه	وأجعلتها في طباق الرحم
وتشهدُ أنَّ الذي صاغها	هو الواحد الحقّ باري النَسمِ
هو الأول المبتدي خلقها	كما شاءَ إذ شاء فَرقٌ وضَمْ
ولا كانَ شيىءٌ سواه له	مثالاً ولا مُخرِباً ما نَظم

وينتقل بعدها الى الحديث عن نبوة محمد ومعجزاته . ومكانة هذه العقيدة بين العقائد الأخرى . وما طرأ عليها من تحريف وفساد . ثم يختمها بالدعوة الى أخذ الموعظة من قوة الله سبحانه وتعالى وجبروته وكيف انه افنى الامم السابقة وطواها . وان الموت مدرك جميع الناس في مراحل حياتهم المختلفة وليس بعدها الا نعيم مقيم أو نار وحميم :

بصدق النبوة والمبتدى	لخلق الجميع ومنشي النعم
فأرسل مرسله بالهدى	على ما قضاه وما قد حتمْ
محمد المصطفى بالكتاب	به أنبياءُ الهدى قد ختم
سيفنى العزيز ويفنى الذَّليل	وتَفنى القُوى وسيفنى الألم
يبيدُ الجميع فلا تغترر	بما لا يدوم لمن لم يذمْ
فدار النعيم لأهل الفلاح	ونار لمن قد عصى تضطرم

(١) ينظر ما ذكرناه خلال الحديث عن ديوانه .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ١ / ٢٧٠ ـ ٢٧٤ الملحق .

فبادر قبيل حلول الردى فتندمَ إذ ليسَ يُغني الندم

ويغلب على اسلوب القصيدة المباشرة والوعظ والارشاد حتى تقترب في منهجها من الشعر التعليمي . وتدنو لغتها من لغة التخاطب وتبعد عن لغة الشعر المبدعة ذات الثروة الخصبة المغدقة .

وأما القصيدة الثانية فهي في مئة وستة وثلاثين بيتاً . ارتجلها هي الأخرى . ولم يتلبث فيها حيث جاشت عاطفته . واحتدمت مشاعره . عند سماعه قصيدة وصلت من النقفور . ملك الروم نظمها كاتب مرتد . وأرسلها الى أمير المؤمنين المطيع (رضي الله عنه) ثم قرأت بين يدي أمير المؤمنين المعتد بالله بالأندلس على نحو ما جاء في ديباجتها . فأهتز الفقيه أبو محمد وأنشدَ أبياته . وفيها شعور بالغيرة والغضب لمحارم الله سبحانه واختار لقصيدته سيد البحور ـ الطويل ـ وسيدة القوافي المؤسسة . فقال[١] :

مَن المحتمي للّه رب العوالم ودينِ رسول الله من آل هاشمِ
محمدٍ الهادي الى الناس بالتُّقى وبالرَّشدِ والاسلام أفضل قادمِ
إلى قائلٍ بالإفك جهلاً وضلةً عن النقفور المنتزي في الأعاجمِ
فخرتمْ بما لو كان فهم يُريكمُ حقائق دين اللّه أحكم حاكم
إذن لعرتكم خجلةٌ عند ذكره وأخرس منكم . كلَ قيلٍ مُخاصم
ولما تنازعنا الأمورَ تخاذلاً ودالت لأهل الجهل دولةُ ظالمِ
ألم تنتصفْ منكم على ضعف حالها صقليةٌ في بحرَها المتلاطمِ
أحلت بقُسطنطينةِ كلَّ نكبةٍ وسامتكمُ سوء العذاب الملازمِ

ولعل قصيدته الوحيدة التي وصلت الينا مما نظمه الشعراء في الرد على قصيدة ملك الروم وجاءت الاشارة الى تلك القصائد[٢] . وتنزع القصيدة الى الفخر ببأس المسلمين . ومجدهم الزاخر وقوتهم في استضعاف الروم في مواطن كثيرة . وأزمان مختلفة . في نظرة عالمية لأقطار المسلمين في المشرق والمغرب .

وللشاعر قصائد أخرى في هذا الاتجاه . ومنها ابيات نونية في الحث على الأخذ من كتب الحديث وتعظيمها يقول[٣] :

---

(١) نفسه : ٢٧٤ .

(٢) نفسه : ٢٧٤ هامش ١ . (٣) نفسه ٢٨٢ ٢٨٣

أنائمٌ أنت عن كتبِ الحديثِ وما أتى عن المصطفى فيها من الدين
لمسلم والبخارى اللذان هما شدا عرى الدين في نقلٍ وتبيين
أولى بأجر وتعظيم ومحمدة من كل قول أتى من رأي سحنون

وله أشعار في الحكمة والزهد والتصوف وفي الرثاء والتفجع .

والخلاصة في شعر ابن حزم ان لغته واسلوبه غلبت عليهما السهولة لأنه كان يميل لقول الشعر على البداهة والارتجال . كما أنه تأثر تأثراً واضحاً بعلوم عصره والعقائد السائدة وفي اشعاره انتصار للفقه الظاهري الذي اتخذه مذهباً له بل نجد أن أشعاره زاخرة بالمعاني تكثر فيها المؤثرات الثقافية والتعليلات ونجد فيه جانباً دقيقاً قد نسميه « الجانب الباطني » كان يهرب اليه من قسوة الظاهر وحدته وينقل فيه معاني التنزيه والتوحيد[1] . وأبرز اشعاره قصائده في الغزل فإنها كانت تفيض بعاطفة جياشة وبراعة في النظم .

---

(١) رسائل ابن حزم الاندلسي ١ / ٧٩ .

المبحث الثاني

النثر

النثر الفني موضوعاته وخصائصه :

وقفنا في دراستنا المتقدمة على النثر الأندلسي في عصوره الاولى وتعرضنا لانماطه المختلفة واوردنا شواهد عليها . ولكننا نقف الآن امام نتاج أدبي ضخم حين ندرس النثر في هذا العصر فقد قطعت الأندلس شوطاً كبيراً في ميدان الادب وجابت مساحة عريضة في مجال فنونه فلهذا العصر ينتمي اكبر اعلام النثر الاندلسي فهو عهد تألق الأدب بشطريه . شعراً ونثراً . وابرز هؤلاء الاعلام الذين وصلت آثارهم النثرية :

ابن زيدون (ت ٤٦٣ هـ) . ابن اللبانة (ت ٥٠٧ هـ) . ابن عبدون (ت ٥٢٠ هـ) . ابن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) . ابن خفاجة (ت ٥٣٣ هـ) . ابن ابي الخصال (ت ٥٣٩ هـ) ابن بسام (ت ٥٤٢ هـ) صاحب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة . الذي يشير فيما ينقله لنا الكلاعي الى اشهر الكتاب في عصره بقوله : « كتاب العصر ورؤساء النثر اربعة : « كلاعيان وفهريان . اما الكلاعيان . فابو بكر بن القصيرة وابو محمد بن عبد الغفور . واما الفهريان : فابو القاسم بن الجد . وابو محمد بن عبدون »[1] .

ولقد باهى ابن سعيد[2] ـ وهو في مقام المنافرة بين الأندلس والمغرب ـ بجهود الاندلسيين في مجال النثر . فأشار الى ابي عبدالله بن ابي الخصال . وكتابه سراج الأدب . صنفه على طريقة النوادر للقالي . وزهر الآداب للحصري . كما نوه بابيه وكتاب ابي عبيد البكري « اللآلي » وهو على منزع امالى القالي . ونوّه بجهود ابن السيد البطليوسي في كتابيه الاقتضاب وشرح سقط الزند . واشار اخيراً الى شروح الاعلم الشنتمرى لشعر المتنبي والحماسة .

ونستطيع ان نستدل على شيوع هذا الفن وولع الكتاب به . وتعلقهم بألوانه المستحسنة من النثر المشرقي . ما حدثنا به ابن عبد الغفور الكلاعي (ت ٥٥٠ هـ)

---

(١) احكام صنعة الكلام ١١٠ .

(٢) النفح ٣ / ١٨٤ .

في كتابه (أحكام صنعة الكلام) وهو اوسع كتاب يمثل عصر المرابطين في موضوع النثر ـ ومؤلفه أديب بارع كان ابوه وجدّه ناثرين كبيرين وشاعرين مجيدين . ترجمت لهما كتب التراجم[1] . حيث ذكر أنه اجتمع مع صديق في اربعة مجالس وحين اخذ الحديث في ضروب الفصاحة والبلاغة اتهمه صاحبه بأنه لا يعرف كيف يكتب في السلطانيات . ان تلك التهمة حملت الكلاعي على تأليف كتاب على مثال (السجع السلطاني) لأبي العلاء . ثم انهما تذاكرا ما لابي العلاء من تواليف بديعة فقال صاحبه : « أنه لا يضاهى فيها ولا يجارى ولا يعارض في واحد منها ولا يبارى »[2] . فعاد ابن عبد الغفور ليثبت تفوقه فكتب رسالة (الساجعة والغربيب) معارضة لرسالة ابي العلاء (الصاهل والشاجح) ثم عارض « سقط الزند » بتأليف سماه « ثمرة الالباب » وكذلك عارض خطبة كتاب الفصيح ! بخطبة الاصلاح[3]

ويعلق الدكتور احسان عباس « هذا جهد واحد من المعجبين بابي العلاء .. ! »[4]

أما ابن ابي الخصال فقد اعجب هو الآخر بآثار المعري فعارض لزومياته في (ملقى السبيل) كذلك فعل ابو الطاهر محمد السرقطي المعروف بابن الاشتركويني (ت ٤٣٨ هـ) في مقاماته التي بناها على لزوم ما لا يلزم وسماها « المقامات اللزومية » وهي خمسون مقامة عارض بها مقامات الحريري[5] .

وبعد أن يحدثنا الكلاعي في مجلسه الرابع مع صاحبه وخصمه الذي يكيل له التهم . عن فضل البيان . وما جاء فيه من آيات وأحاديث . فينتقل الى فضل آخر ليتحدث عن الترجيح بين المنظوم والمنثور . وعلى الرغم من كثرة الخائضين والراكضين فيه . وان المنظوم مزين بالوزن والقافية فأنه فضل المنثور على المنظوم . وفصّل ذلك في كتاب « ثمرة الالباب » .

واما ادلته في التفضيل فهي دينية بدرجة رئيسة . معتمداً على تفسير الآيات والأحاديث وبعد أن يعدد لنا عيوب الشعر الكثيرة يخلص الى أنه لا ينكر فضائل الشعر . لكن سوء استخدامه هو الذي يجعله ينظر اليه هذه النظرة[6] .

---

(١) احكام صنعة الكلام ٢٢ . ٥٦ . وينظر . تاريخ الادب الأندلسي ٢ / ١١٣ .

(٢) احكام صنعة الكلام ص ٢٦ .

(٣) احكام صنعة الكلام ٢٨ وينظر تيارات النقد الاندلسي ٢٢ ـ ٢٤ .

(٤) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١١٣ .

(٥) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ٢١٧ .

(٦) احكام صنعة الكلام ٣٦ ـ ٣٩ .

وفكرة تفضيل النثر على الشعر وردت عند غيره من كتاب عصر الطوائف ، ومنهم ابن شهيد الاندلسي في رسالته التوابع والزوابع ، حيث قال بانهم اولى بالتقديم من الشعراء [١].

وبعد أن تستقر لدى الكلاعي حقيقة اهمية النثر ينتقل ليتحدث في فصل عن الكتابة وآدابها ، وما يتعلق بها من اسبابها في الباب الأول يتناول فيه رتبة الخط وتسوية البطاقة ، والعنوان ، والاستفتاح ، والصلاة على النبي وصدور الرسائل والدعاء ، والسلام في احد عشر فصلاً ويتناول في الباب الثاني انماط الترسيل ، العاطل والحالي والمصنوع والمرصّع وغيرها في ثمانية فصول ثم يفرد فصولاً عن الخطبة والمقامات وغيرها ويختم كتابه بالوقوف على قوانين الكتابة وآدابها .

ومن الكتب المتخصصة في نثر عصر الطوائف ، التي سبقت الكلاعي في احكامه ، كتاب « تسهيل السبيل الى تعلم الترسيل ، بتمثيل المماثلات وتصنيف المخاطبات »[٢]. لابي عبدالله الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) . ألفه سنة ٤٥٤ هـ ، وهو أضخم كتاب في نماذج النثر الأندلسي لكاتب في عصر الطوائف ، وجميع رسائله تدخل في باب الأخويات فقد وعد أن يؤلف كتاباً آخر في رسائل السلطانيات[٣].

اراد من تأليفه ان تكون فصوله وأمثلته قوانين لمن اراد تحسين لفظه وتقويم لسانه ، ومداراة أهل زمانه ، فيقوى بذلك لسانه[٤]، وخص به المتعلمين المبتدئين كما يشير الى ذلك ، في مقدمة كتابه .[٥]، لكن القارىء يعلم من نظره في فصول الكتاب انه على درجة عالية في الكتابة .. ومنهجه قائم على اختيار موضوعات الرسائل المختلفة ، والمتنوعة ـ حيث يمثل لكل حالة بخمسة امثلة متتابعة ... وتكاد تكون امثلته متقاربة الحجم .

ويستهل كتابه بالحديث عن ضروب البلاغة ، في الخطب والتأليف والرسائل ، كما يحدثنا عن الفصاحة ، وبعد التمهيد ينتقل الى الحديث عن آلات الامتثال ، ويريد بها عدة الكاتب الجيد ، وصفات المداد والقلم والورق ، وللاندلسيين رسائل في هذا المجال[٦]، ثم يعرض لنا ابواب الكتاب وفصوله التي مثل لها بامثلته وقد

---

(١) التوابع والزوابع ص ٩١ .

(٢) اقوم بتحقيقه على نسختين مخطوطتين وهو يتألف من (١٩٤) ورقة .

(٣) تسهيل السبيل ورقة ١٩٢ / أ .

(٤) نفسه ورقة ٢ / ب .

(٥) نفسه ورقة ٨ / ب .

(٦) النثر الاندلسي ٢٧١ .

جعل ابوابه ثمانية تفاوتت فصولها حسب موضوعات كل باب كثرة وقلة . على النحو التالي :

١ ـ في مثالات ادعية الاوقات . وهو في ستة عشر فصلاً .
٢ ـ في امثلة اللقاء وتصنيف اهله في الدعاء . في عشرة فصول .
٣ ـ في شذور التهنئة بأحوال السرور وهو في اربعين فصلاً .
٤ ـ فيما يجري مجرى تسلية المحزون . في سبعة فصول .
٥ ـ فيما يقال عند ارادة الافعال في ستة فصول .
٦ ـ في اسباب الوداد ونتائج حسن الاعتقاد في ستة عشر فصلاً .
٧ ـ في امثلة اصناف التعزية في سبعة فصول .
٨ ـ في مفردات نوادر المخاطبات في سبعة فصول .

ومن مجموع الفصول يجتمع لدينا مائة وتسعة في كل فصل خمسة امثلة يتألف منها ٥٤٥ مثالاً .

ومن الملاحظات الطريفة التي اشار اليها الحميدي ـ بصورة استطراد ـ خلال حديثه عن كتابه الذي يعزم على تأليفه ان الرسائل السلطانية تختلف عن الاخوانية انها لا يستجاز من ايراد الشعر في اهابها ما يستجاز في الرسائل الاخوانية . كذلك اشار الى أنه اضاف ما وجده من رسائل لغيره في كتابه ليكون ذلك اكثر عوناً للمستزيد .

ولضخامة مقدار النتاج الأندلسي وكثرته . فضلاً عن جودته . ذلك ما لفت أنظار الدارسين فأفردوه بدراساتهم وبحوثهم . ومن هذه الدراسات التي وقفت عليها . رسالة الدكتور حازم عبدالله خضر . « النثر الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين » وقد خلص الباحث من دراسته الى أن النصوص النثرية التي تنتمي لهذا العصر تفوق الحصر . وتجعل من الصعوبة . الاحاطة بها واستيعابها . فقد تنوعت موضوعاتها فتناولت السياسة والمجتمع والفرد والجماعة . فكان من فصول الرسالة التي صنفت تلك الرسائل : الرسائل الدينية . الرسائل الاجتماعية . الرسائل الاخوية . الرسائل الديوانية . الرسائل الوصفية . كذلك تناولت انماطاً مختلفة من النثر القصصي والمقامات .

وقد لاحظ الباحث كذلك أن اكثر النماذج المتوفرة كانت في غرضها وموضوعها مطبوعة بطابع ديني . وان الرسائل الدينية ليست الا جزءاً من مجمل تلك الرسائل وذلك امر طبعي يتسق مع طبيعة الحياة التي كانت تعنى بتلك القيم وان

صلة المجتمع كانت قوية بها . فكانت رسائل الكتاب في ميادين السياسة . حيث لاحظ قوة صلة الكاتب بملوك عصره وامراءه . وكانت له مواقف من الاحداث المهمة آنذاك وكذلك تناولت الاخلاق والتعامل والاقتصاد . فقد صورت لنا تلك الرسائل طبيعة المجتمع وملامحه وسماته وما اتصل به من ضعف وتخاذل وفرقة بين الامراء . انتهت الى دعوة لجمع الشمل .

اما الرسائل الاخوية الكثيرة فهي تعكس لنا العلاقات بين الاصدقاء والاصحاب من الادباء في احوالهم المختلفة . واعتماد تلك الرسائل على اسلوب الهزل والمداعبة لدفع السأم عن النفس والترويح عنها .

وقد سجلت الرسائل الديوانية احوال السياسة وطبيعة المشكلات التي تعترضهم والأساليب المتبعة في معالجة تلك المشكلات وحلها .

وكانت الرسائل الوصفية ثمرة منسجمة مع طبيعة البيئة الاندلسية والمجتمع الأندلسي وتفاعل الأديب معهما . حيث عكس لنا صورة متألقة لا تقل عن دور الشعر في هذا المقام .

أما النثر القصصي فقد عالج اموراً خيالية وأخرى واقعية عبرت عن المجتمع الأندلسي في جوانبه المختلفة وقد جنحت في اساليبها الى الفكاهة والسخرية .

وقد استطاعت تلك الرسائل أن تعطينا صورة واضحة متكاملة السمات عن الشخصية الأندلسية التي اختلفت عن قرينتها المشرقية بحكم اختلاف البيئة . واختلاف عناصر المجتمع الاندلسي وطبيعة مشكلاته الاجتماعية والسياسية . ومن هنا فأن النظرة المتأنية تهدينا الى القول بأنه على الرغم من كون جذور الثقافتين المشرقية والاندلسية واحدة . فأن النثر الأندلسي . شأنه في ذلك شأن الشعر . والفنون الأخرى . استطاع ان يكون شخصيته الذووية . من خلال ظروف شبه الجزيرة الاندلسية . بعناصرها المختلفة . سياسية واجتماعية وثقافية ... وكان النصيب الأكبر يعود لتلك البيئة . ولذلك النسيج المتنوع من عناصر المجتمع وهذا ما توصلت اليه دراسة الدكتور حازم عبدالله في بعض نتائجها[١] .

وقد لاحظ عدد من الدارسين قلة نصوص الخطابة التي وصلت الينا وهي ضرب مهم من ضروب النثر ـ على الرغم مما يشير الى رواجها وذيوعها[٢] . وقدموا في

---

(١) ينظر النثر الاندلسي ص ٥٧٣ .

(٢) الادب الاندلسي في عهد المرابطين ١١٤ .

ذلك تعليلات كثيرة لتفسير الظاهرة منهم الدكتور حازم عبدالله[1] والدكتور مصطفى السيوفي[2].

وقد لاحظنا ان من خصائص الأساليب النثرية في عصر الطوائف، ازدياد ظاهرة المزج بين الشعر والنثر، مما يستدل معه أن الكتاب كانوا بشكل عام شعراء، او انهم جمعوا بين رياستي الشعر والنثر.. على نحو ما يقول احمد امين « وكثير من الادباء كان يجمع بين النثر والشعر وكان عند الادباء ملكة لطيفة يميزوا بها بين الموضوعات التي تصلح للشعر والتي تصلح للنثر، فهم يشعرون حتى تهيم عواطفهم، ويحسون انهم في حاجة الى تعبير وجداني يغذيها، ويلجأون الى النثر عندما يكون الموضوع اميل الى العقل »[3]. وهي تدل على براعة ادباء الاندلس حيث جادت قرائحهم بهذه الفنون وذلك لأن ـ الكتابة والشعر شيئان متنافران لتنافر طباع اهلهما ومن أمثالهم: « اثنان قلما يجتمعان: اللسان البليغ والشعر الجيد.. »[4]. ولابن بسام وابن خلدون كلام مثل هذا في عدم اجتماع النثر والشعر.

ومن هنا نستطيع ان نقرر اصالة النثر في هذا العصر وخصوصيته، لأن الدراسات التي كتبت عن الاندلس ـ في عمومها ـ ظلت تتهم النثر الاندلسي ـ شأنه شأن الأدب الأندلسي بشكل عام ـ بأنه أدب مقلد، « بل تظل مصّرة على السير في ركاب تزينيها واقتفاء اثرها »[5] وهي وجهة نظر كثير من الباحثين حيث ظلوا يعقدون الموازنات بين النثرين المشرقي والأندلسي ويخلصون الى تقليده للأدب المشرقي بل وجد الدكتور الشكعة ان الفرق بينهما كالفرق بين الاستاذ والتلميذ[6]. الا ان من الدارسين من نفى هذه الشبهة ولم ينظر الى النثر الاندلسي على انه نثر مقلد لشقيقه المشرقي[7].. وقد حدد لنا الدكتور حازم عبدالله ابرز خصائص النثر من حيث الشكل والمضمون فمن الناحية الاولى وجد[8]:

---

(١) النثر الاندلسي ٩١.

(٢) ملامح التجديد في النثر الاندلسي ٢٣٢.

(٣) ظهر الاسلام ٣ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٤) احكام صنعة الكلام ٣٩، والقول من البيان والتبيين ١ / ٢٤٣.

(٥) الادب الاندلسي ـ الشكعة ٥٧٣.

(٦) نفسه ٥٧٠.

(٧) النثر الاندلسي ٥٢٥.

(٨) نفسه ٢٥٩ وما بعدها

ميلها الى عدم الاستهلال بالحمد والصلاة ، وكثرة احتفالها بجمل الدعاء والاعتراض ، وتنويعها بين الشعر والنثر ، وميلها الى الاطناب ، وكثرة الاقتباس من القرآن والحديث ، وتضمنها اسلوب الحوار والقصص واسلوب السخرية والفكاهة ، وكانت الالفاظ المستخدمة تعتمد السجع والازدواج والجناس .

وأما من حيث المضمون[1] فقد مالت الرسائل الى نزعة الترادف والتكرار ، وكان في مقدمة تلك المعاني ، المعتقدات والأفكار الاسلامية ، كذلك تناولت مشكلات الحياة السياسية حيث كانت قوية الصلة بالحكام والامراء ، كما صورت المجتمع تصويراً دقيقاً الى حد بعيد ، وجاءت تحفل بقوة العاطفة في الرسائل الدينية والاخوية والوصفية ، اما الرسائل الديوانية فكانت العاطفة فيها ضعيفة وكانت الاساليب المعتمدة في التعبير عن هذه المضامين ، الخيال بما يتضمنه من تشبيه واستعارة واساليب الطباق والمقابلة .

ولا يفوتنا ان تنوه باهم الفنون النثرية ، التي ابدع فيها الاندلسيون في هذا العصر ، ادب المناظرات . وهو من الفنون الأدبية التي عرفها الأدب العربي في عهد مبكر فمن امثلته المناظرة التي اجراها الجاحظ بين صاحب الكلب وصاحب الديك في كتابه الحيوان وان له كتاباً آخر هو سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف » ولكن أدباء الأندلس كانوا ـ كما يرى الدكتور عبد السلام سرحان ـ بذلك أشهر وكان هذا اللون لديهم أكثر ، ولذلك ذكروا به ، وذكر بهم ، حتى نسب اليهم دون سواهم[2] .

ويرى تلميذه الدكتور مصطفى السَيوفى أن هذا اللون من التعبير لم يعرف في المشرق العربي على الوضع الذي صار اليه في الأندلس ، بل لا نجاوز الصواب اذا قلنا ، إن المشارقة لم يعرفوه الا بعد اقتباسهم نماذجه من الأندلس فهو بحق اندلسي الوجه واليد واللسان[3] .

وأشهر أدباء هذا العصر أبو حفص بن برد الذي عده الدكتور السيوفي مخترع هذا الفن وأول من كتب في هذا الموضوع ووجد في مناظراته انها تدل على سعة خيال الأديب وحسن ذوقه في انتقاء الالفاظ ونفاذ بصره بمواقع الكلام بالاضافة الى ميله

---

(١) نفسه ٢٩١ وما بعدها

(٢) مقالات وبحوث ٢٢٩

(٣) ملامح التجديد في النثر الأندلسي ١٢٨

الى الاسلوب القصصي الذي لم يعرف في الأدب المشرقي . ذلك الاسلوب الذي افتن به الاندلسيون فعرف لهم في اطار المحاورات بين الورد والازاهير[١] .

وممن اشتهر بهذا الفن أبو عمر الباجي[٢] . وأبو الوليد الحميري في كتابه البديع في وصف الربيع » حيث اجرى محاورات كثيرة بين الزهور . وكذلك أبو بكر الجزار السرقسطي الذي ألف كتاب بادرة العصر وفائدة المصر وجعله مناظرة بينه وبين خصمه أبي الحسن البرجي وقد وصلت الينا نقول من هذا الكتاب . [٣]

واليك هذا النموذج من رسالة أبي حفص بن برد الاصغر في المناظرة بين السيف والقلم وقد جعلها رسالة الى الموفق أبي الجيش مجاهد العامري . وبعد أن يذكر ما تشابه من خصالهما ومناقبهما وانهما سلمين لارتقاء المراتب وطريقين لنهج الشرف الرفيع وشفيعين لا يؤخر تشفيعهما . انتقل الى المناظرة بينهما :[٤]

« فقال القلم : ها . الله أكبُر ! أيها المسائل بدءأ يعقل لسانك . ويُحيرُ جنانك . وبديهة تملأ سمعك . وتضيق ذرعك . خير الأقوال الحق . وأحمد السجايا الصدق والأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله . مقسماً به لرسوله . فقال : « ن . والقلم وما يسطرون » (القلم : ١) . وقال : (إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم » (العلق : ٤) فجلَ من مُقسِم . وعز من قسم . فما تراني . وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره . وجلت بين قلب الإنسان وخاطره ؟ لقد أخذتُ الفضل برمته . وقدت الفخر بأزمته .

فقال السيف : عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة . ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة . لا أسرَ ولكن أُعلن . قيمةُ كل امرىء ما يحسن . إن عاتقاً حمل نجادي لسعيد . وإن عضداً بات وسادي لسديد . وإن فتى اتخذني دليله لمهدي . وإن امرأ صيرني رسيله لمفديً . يشق مني الدجى بمصباح . ويقابل كل باب بمفتاح . أُفصِحُ والبطل قد خرس . وأبتسم والأجل قد عبس . أقضي فلا أنصف . وأمضي فلا أصرف . أزري بالوفاء . وأهتك اللأمة هتك الرداء »

---

(١) نفسه ١٤٢

(٢) الذخيرة ٢ / ١١٦ ـ ١١٧

(٣) ينظر بحثنا دراسة في ديوان ابي بكر الجزار السرقسطي ص ٢٦٠ ـ ٢٦٩ ، مجلة آداب المستنصرية العدد ١٥ / ١٩٨٧ .

(٤) الذخيرة ١ / ١ / ٥٤ .

ومن أمثلة النثر لهذا العصر ما جاء في ديوان ابن خفاجة الأندلسي في صفة متنزه[1] : « ولما أكب الغمام إكباباً ، لم نجد معه إغباباً ، واتصل المطر اتصالاً ، لم نلف معه انفصالاً ، ثم أذن الله ـ تعالى ـ للصحو أن يُطلِع صفحته ، وينشر صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ، كما طوى السجل الكتاب ، وطفقت السماء تخلع جلبابها ، والشمس تحط نقابها ،وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت ، وقد تحلت ـ ذهبت في لُمة من إخواني نستبق الى الراحة ركضاً ، ونطوي للتفرج أرضاً ، فلا ندفع إلا إلى غدير ، نميرٍ ، قد استدارت منه في كل قرارة سماء ، سحائبها غماء ، وانساب في كل تلعةٍ حباب ، جلدته حباب ، فترددنا بتلك الأباطح ، نتهادى تهادي اغصانها ، ونتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم ، أثناء ذلك المنظر الوسيم ، تراسل مشيٍ ، على بساط وشيٍ ، فإذا مر بغدير نسجه درعاً وأحكمه صنعاً ، وإن عثر بجدول شطب منه نصلاً ، وأخلصه صقلا ، فلا ترى إلا بطاحاً ، مملوءةً سلاحاً ، كانما انهزمت هنالك كتائب ، فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف مسلول » .

ولن يستطيع الباحث ان يغفل اشهر اعلام هذا العصر ابن زيدون الذي ترك لنا رسائل قليلة الا أنها مشهورة :

١ ـ الرسالة الجدية .
٢ ـ الرسالة الهزلية .
٣ ـ رسالة الى استاذه ابي بكر مسلم بن احمد بعد فراره من السجن مستشفعاً به لاصدار العفو عنه .
٤ ـ رسالة للمظفر بن الافطس في شفاعة صديق .
٥ ـ ثلاث رسائل في التمهيد للرحيل الى اشبيلية ، اثنتان للمعتضد بن عباد سماهما الدكتور علي عبد العظيم العباديتين والثالثة العامرية الى ابي عامر بن مسلمة باشبيلية .

الرسالة الجدية والهزلية :

حظيت الرسالتان الاوليتان بالقسط الاوفر من عناية الدارسين والشراح فقد شرح الرسالة الجدية صلاح الدين الصفدي (٧٦٤ هـ) بكتاب « تمام المتون الى شرح رسالة ابن زيدون » .

---

(٢) ديوان ابن خفاجة رقم ٢٤٦ ص ٢١٧ .

اما الرسالة الهزلية فقد شرحها ابن نباته المصري (٧٦٨ هـ) بكتاب اسماه « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » . والرسالة كتبها ابن زيدون على لسان ولّاده الى ابن عبدوس وتلتقي الرسالتان في جملة خصائص ومميزات من حيث الاسلوب(١) .

١ ـ فيهما إطالة واطناب والرسالة الجدية أقل اسهاباً واكثر اتزاناً وتعقلاً من الهزلية . فالجدية في حوالي ١٢٥ سطراً . والهزلية في حوالي ١٥٢ سطراً .
٢ ـ فيهما صناعة لفظية معتمدة على السجع وازدواج العبارة ولقد بلغ في صنعته مما يجعل الدكتور شوقي ضيف يرى ان ذوقه في نثره كان قريباً من ذوق اصحاب التصنع في المشرق .
٣ ـ وتشترك الرسالتان ايضاً في قوة الخيال وكونه عنصراً مهماً في التعبير والتصوير .
٤ ـ كما تشتركان في الاكثار من استعمال الامثال والحكم وذكر الأحداث التاريخية .
٥ ـ وذكر وقائع القرآن الكريم وحوادث الاسلام الحنيف .

وتتميز الرسالة الجدية بقوة العاطفة وعمقها اذ فيها تصوير لحالة الشاعر فقد كان يرزح تحت وطأة السجن وينوء بآلامه وشماتة الاعداء به وقد كتبها في السجن ووجهها الى الأمير ابي الحزم بن جهور .

ان ابن زيدون في اسلوبه متأثر بطريقة ابن العميد (ت ٣٦٠ هـ) ومدرسته التي تعتمد السجع والازدواج منهجاً وهو متأثر برسالة التربيع والتدوير للجاحظ في رسالته الهزلية ويرى الدكتور مصطفى الشكعة انه في رسائله تلميذ لاستاذ الرسالة الاخوانية عند المشارقة بديع الزمان الهمداني ينهج نهجه ويسجع سجعه يميل نحوه ويلتزم طريقه(٢) .

ولا شك ان ثقافة ابن زيدون الواسعة تجعل معرفة الاستاذ الذي تأثر به أمراً غير متيسر فأنت تجد في رسائله أسلوب الجاحظ وابي اسحاق الصابي وابن العميد . استمع اليه في رسالته الجدية يقول :

« يا مولاي ، أبقاك الله ، ماضي حد العزم ، وارىَ زَند الأمل ، ثابت عهد النعمة . إن سلبتني ـ أعزَّك الله ـ لباس نعمائك ، وعطلتني من حلى ايناسك ، واظمأتني الى برود إسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغَضَضَت عني طرفَ

(١) انظر ابن زيدون عصره حياته ادبه ص ٤١٠ / ٤١٢ / ٤١٣ .
(٢) الادب الاندلسي ٥٩٢ .

حمايتك . بعد أن نظر الأعمى الى تأميلي لك . وسمع الأصم ثنائي عليك وأحس الجماد باستحمادي اليك . فلا غرو قد يغص بالماء شارُبه ويقتل الدواء المستشفي به . ويؤتى الحَذِر من مأمنه وتكون منية المتمني في امنيته والحين قد يسبقه جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهونُ غير شماتة الحساد »

ويقول في رسالته الهزلية :

« أما بعد ، أيها المصاب بعقله . المورط بجهله . البيّن سَقَطُه . الفاحش غلطهِ . العاثر في ذيل اغتراره . الأعمى في شمس نهاره . السّاقط سقوط الذباب على الشراب المتهافت تهافت الفراش في الشهاب . فإن العجب أكذب ومعرفة المرء نفسه أصوب . وانك راسلتني مستهدياً ـ من صلتي ـ ما صَغرت منه أيدي أمثالك . متصدياً ـ من خلتي ـ لما قُرِعَتْ دونه صنوف اشكالك . حتى يقول :

« بطليوسَ سوّى الاسطرلاب بتدبيرك . وصوَّر الكرة على تقديرك وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف حسّك وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك كلاهما قلدك في العلاج وسألك عن المزاج واستوصفك بتركيب الأعضاء واستشارك في الدّاء والدَّواء » .

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي

تعريف بالمؤلف :

هو ابو عامر احمد بن عبد الملك بن احمد بن عبد الملك بن شهيد وكنيته ابو عامر وكنية ابيه ابو مروان اشجعي يرجع نسبه الى الوضاح الذي كان مع الضحاك بن قيس في مرج راهط سنة ٦٥ هـ . ورث المكانة عن آبائه كابراً من كابر فقد كان جده الاعلى وزيراً للأمير محمد بن عبد الرحمن الاوسط . وجده الادنى وزيراً للخليفة الناصر . وابوه عاملاً للمنصور بن ابي عامر .

ولد بقرطبة سنة ٣٨٢ هـ وتقلب في احضان النعمة ومهاد السعادة والبلهنية فأنعكست نشأته الاولى على حياته فيما بعد فمال الى اللهو والبطالة واسرف في الكرم الى حد المبالغة الا انه بقي على شيء من عزة النفس والكبر وذلك لنسبه الرفيع ومال الى الفكاهة والهزل على نحو ما يصوره أدبه .

وينقل لنا ابن بسام ترجمة تفصيلية لحياته وآثاره من شعر ونثر ويصور لنا معاناة الشاعر من معاملة ابيه القاسية في حادثتين كانتا معه في الخامسة من عمره وفي الثامنة .

تفاعل مع احداث عصره وابناء زمانه تفاعلاً شديداً . فقد صور لنا الفتنة في قرطبة والحياة الأدبية فيها حتى توفي سنة ٤٢٦ هـ بعد معاناته سبعة اشهر من مرض الفالج .

وقفت دراسات كثيرة عند شاعريته ونثره وعلى الرغم من كونه من شعراء عصره المتميزين الذين شهد لهم النقاد بالبراعة والتفوق ومنهم ابن بسام الشنتريني[١] . فان ديوانه لم يجمع في حياته ولم ترد الاشارة الى جمعه بعد وفاته كذلك . حتى نهض باحثون محدثون لهذه المهمة[٢] . وما بقي من اشعاره يمثل جزءاً مما نظمه وقد بلغت (٨٥٣) بيتاً .

ويلاحظ ان ابن شهيد كان واحداً ممن كتب لهم ـ وهم قلائل ـ التفوق والابداع في ميادين الشعر والنثر والنقد . وتبدو براعته في النثر والنقد في آثاره الأدبية التي تركها ومنها كتاب حانوت عطار . ورسائل متفرقة فضلا عن رسالة التوابع والزوابع .[٣]

التوابع والزوابع[٤] :

لغة :

جمع تابع وتابعة ومعناها في المعاجم ، الجني او الجنية اللذان يكونان مع الانسان يتبعانه حيثما ذهب[٥] . والزوابع جمع زوبعة . اسم شيطان ويكنى الاعصار ابا زوبعة حين يدوم ثم يرتفع الى السماء ساطعاً يقال فيه : شيطان مارد . كذلك يطلق على رئيس الجن[٦]

---

(١) الذخيرة ١ / ١ / ١٩١

(٢) جمع أشعاره وحققها الدكتور شارل بيلات . (دار المكشوف بيروت ١٩٦٣) كذلك حققه يعقوب زكي (دار الكتاب العربي القاهرة د . ت) .

(٣) الجذوة رقم ٢٣٢

(٤) ذكر الحميدي اسماً آخر لهذه الرسالة هو « شجرة الفكاهة » الجذوة : ٣٧٤

(٥) العين ، مادة (تبع) القاموس المحيط (تبع)

(٦) العين ، مادة (زبع) القاموس المحيط مادة (زبع)

اصطلاحاً :

اطلقت تسمية التوابع والزوابع على رسالة خيالية كتبها ابن شهيد الأندلسي متصوراً نفسه في رحلة مع جني يسميه (زهير بن نمير) يرحل به الى ارض الجن حيث يلتقي هنالك بتوابع الشعراء وزوابعهم . وواضح من تسمية الرسالة صلتها بالمعنى اللغوي . مما وصل الينا من هذه الرسالة . وهو مجموعة فصول يدرجها الباحثون المحدثون ضمن الاطار القصصي[١] ونستطيع أن نكون فكرة عنها . مفادها أن الشاعر إفترض هذه الرحلة الى عالم الجن ليقابل الشعراء والكتاب العرب ممن سبقوه . يجري المحاورات والمناظرات الأدبية على لسان توابعهم فينتزع اعجابهم بعد أن يسمعهم أمثلة من أشعاره .

انفرد ابن بسام الشنتريني (٥٤٢ هـ) بايراد فصول هذه الرسالة[٢] . واستهلها بقوله : (وان صدرت عنه مصدر هزل فتشتمل على بدائع روائع)[٣] . وفي صدر الرسالة يخاطب يقول : « لله أبا بكر ظن رميته فأصميت .. » ويسترسل في توجيه رسالته اليه . فمن يكون ابا بكر هذا ؟ تشعبت آراء المحدثين وتعددت فيه . الا أن أوثق مصدر يتحدث[٤] عن ابن شهيد هو الذخيرة لابن بسام يثبت قبل الرسالة أن المقصود به (ابو بكر بن حزم) وتابعه في ذلك ابن سعيد الاندلسي[٥] .

وينسب الدكتور احمد هيكل الالتباس لابن بسام . ذلك أن الشاعر كانت له صلات قوية ببني حزم[٦] . فافترض ان يكون المذكور . ابن حزم شقيق ابي محمد بن حزم الفقيه . وينفي الدكتور هيكل صلة ابن شهيد بأبي بكر بن حزم . كما ينفي ان تكون الرسالة موجهة اليه لانه مات صغيراً بالطاعون سنة ٤٠١ هـ .

---

(١) ملامح التجديد في النثر الاندلسي خلال القرن الخامس الهجري ص ٦٧ ، د . مصطفى محمد السيوفي ط عالم الكتب ـ بيروت سنة ١٩٨٥

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ٢٤٥ وما بعدها ، وقد قام بطرس البستاني بضم هذه الفصول بين دفتي كتاب ، نشره بعنوان رسالة التوابع والزوابع ممهداً له بدراسة تفضيلية عن حياة الشاعر وأدبه وقيمة الرسالة واهميتها ، دار صادر بيروت ١٩٦٧

(٣) الذخيرة ١ / ١ / ٢٤٥

(٤) نفسه ١ / ١ / ٢٤٥

(٥) المغرب ١ / ٧٩

(٦) الذخيرة ١ / ١ / ٢٤٥

كما يذكر الفقيه في كتابه طرق الحمامة . وكان ذلك قبل تأليف رسالة التوابع والزوابع[١] . وقد وقع في مثل هذا الوهم الدكتور شارل بيلا[٢].

لذلك يترجح لدى الدكتور هيكل ان يكون المقصود « بابي بكر » الكاتب الملقب بـ باشكمياط والذي أوقع الباحثين في هذا الالتباس . جهلهم بوجود شخصية اخرى باللقب والكنية هي شخصية ابي بكر يحيى بن حزم . الذي ترجم له الحميدي . والضبي . وذكره ابن سعيد كذلك ..[٣] وللدكتور احسان عباس فضل اجلاء هذا الالتباس . حيث نفى الصلة بين شخصية ابي بكر بن حزم وأسرة بني حزم المشهورة[٤].. مستفيداً من ترجمة الحميدي (المتوفي سنة ٤٨٨ هـ . بعد وفاة ابن شهيد بحوالي ستين عاماً) حيث نص في ترجمته على أنه من بيت آخر غير بيت الفقيه . كما نص على أن رسالة ابن شهيد موجهة اليه . واما ابن بسام (ت ٥٤٢ هـ) فقد كان هو الآخر من ابناء عصر الشاعر وكان دقيقاً جداً في المعلومات التي ضمنها كتابه « الذخيرة » حيث « مارس البحث الطويل والزمان المستحيل »[٥] على ما يذكره في مقدمة كتابه .

ومن الباحثين الدكتور حازم عبد الله الذي استوفى مناقشة هذه القضية . فحقق هذه الشخصية . في رسالته الجامعية وأبره ذلك بالحجج المنطقية[٦].

فصولها :

ساق ابن بسام مقدمتها وسماها « صدر الرسالة » ثم يورد بعدها اربعة فصول منها ... وسنتناول التعريف بها .

جعل ابن شهيد صدر رسالته مدخلاً مناسباً ليعلل به رحلته الى عالم الجن فقد اورد على لسان ابي بكر بن حزم اعجابه ببراعته الشعرية ـ على صغر سنة ـ حيث عزاها الى تابعة تنجده وزابعه تؤيده لان تلك الشاعرية ليست في قدرة الانس .

---

(١) الادب الاندلسي ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٢) ابن شهيد الاندلسي حياته وآثاره ٥٤ ، ٩٥ (محاضرات القاها في الجامعة الاردنية عمان ـ كلية الاداب ١٩٦٥)

(٣) الجذوة ٣٧٤ ، البغية ٥٠٠ المغرب ١ / ٧٩

(٤) تاريخ الادب الاندلسي ـ ١ / ٢٨٤ كذلك هامش د . احسان عباس رقم ٤ في الذخيرة ١ / ٢٤٥

(٥) مقدمة الذخيرة ١ / ١ / ١٦ .

(٦) ابن شهيد الأندلسي حياته وادبه ٢١٠ ـ ٢١٢ .

فيعلل ابن شهيد براعته الشعرية الى انه في مطلع حياته . ومبدأ شبابه . مات من كان يهواه فجزع عليه جزعاً شديداً وقصد رثاءه فاستغلق عليه ذلك ثم نظم ابياتاً قليلة وارتج عليه القول ثم أسعفه فارس يمتطي فرساً أدهم ويصيح به أعجزاً يافتى الانس ؟ ثم يجيز أبياته وبعد أن يثبت ابن شهيد أجازته يسأله عن شخصيته . فيخبره بأنه زهير بن نمير من أشجع الجن وتتفق الصحبة بينهما وتتأكد المودة[1] .

اما الفصل الاول . فيلتقي فيه الشاعر بتوابع الشعراء والخطباء بعد ان يرحل معه على متن جواده كالطائر يجتاب الجو فالجو ويقطع الدو فالدو حتى ينزل أرضاً متفرعة الشجر عطرة الزهر يعلم من صاحبه انها ارض الجن فيخيره فيمن يبدأ في اللقاء فيقول ابو عامر . « الخطباء اولى بالتقديم . لكنني الى الشعراء أشوق . فيتجول في أودية تلك الأرض يتعرف على توابع الشعراء ـ الذين نذكرهم كما وردوا في الرسالة ـ امريء القيس . وطرفة بن العبد . وقيس بن الخطيم . من الجاهليين وأبي تمام والبحتري وابي نواس وابي الطيب المتنبي . من العباسيين يجري في لقائه بهم محاورات ومناظرات شعرية ينتزع فيها اعجابهم بشعره ويحصل على اجازتهم برواية اشعارهم وكانت طريقته في ذلك انه يستمع لهؤلاء الشعراء غرر اشعارهم ثم ينشدهم روائع شعره وقد بلغ الاعجاب ببعضهم انهم عدوه مشرقياً .

واما الفصل الثاني . ففيه يلتقي بتوابع الكتاب ويسميهم (الخطباء) فيلتقي في مجلس واحد بتابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب . ثم يقرأ عليهما رسالته في صفة البرد والنار فأستحسناها ويورد رسالته في الحلواء ثم ينتقل الى وصف برغوث وثعلب . وبعدها يلتقي بتابع بديع الزمان الهمداني حيث يصف له جارية . ويصف الماء . وعلى هذا المنوال يسترسل في حديثه حتى يحظى باعجاب الكتاب كذلك واجازتهم أياه .

وفي الفصل الثالث . ينتقل ابن شهيد مع تابعه الى مجلس من مجالس الجن حيث يتذاكر معهم ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن زاد فأحسن الأخذ ومن قصر في الاخذ فيورد امثلة ونصوصاً شعرية لشعراء امثال الأفوه الأودي والنابغة الذبياني وابي نواس وصريع الغواني وابي تمام والمتنبي وغيرهم من مراحل الأدب العربي وعصوره المختلفة وفي هذا القسم تبدو براعة ابن شهيد النقدية في تتبع المعاني لدى الشعراء واسهامه كذلك .

(١) رسالة التوابع والزوابع ص ٨٩ ـ ٩٠ . وينظر قول الجاحظ في سبب رفعة مكانه الخطيب على الشاعر وذلك لاتخاذهم الشعر مكسباً ـ

اما الفصل الرابع فيتألف من مشهدين . الاول يلتقي فيه بقطيع من حمر الجن وبغالهم حيث يحتكمون اليه في قصيدتين لبغل وحمار فيحكم بينهما .

وفي الثاني يقف على بركة ماء يتحدث مع اوزة بيضاء شهلاء يصف لنا جمالها وحركتها وحسن سباحتها وحين يسأل زهيراً عنها يخبره بأنها تابعة من توابع شيخ من مشيخة الأنس وبعد أن يستغرق في وصف محاسنها بأسلوب ادبي بليغ . يداخلها عجب بنفسها . ثم يدور حوار بينهما فيه تحدٍ له لا يلبث ان يتحول الى انسى ومودة حيث يودعها الى عالم الأنس .

مصادرها :

بعد أن وقفنا على مضمون رسالة ابن شهيد نستطيع أن نعزو الجانب الابداعي في رسالته الى مصدرين رئيسين هما :

١ ـ **التراث العربي** : يتصل بايمان شعراء الجاهلية بالشياطين التي تعينهم على قول الشعر .. وهي جزء من الاوابد[١] التي جرى عليها العرب منذ زمن بعيد وقد وصلت الينا عن طريق اشعارهم وبين ايدينا اسماء تلك الشياطين فمنها : الغول التي تتشكل وتتصور في ضروب الصور والثياب وقد زعموا : أنها اذا عرضت لانسان فضربها ضربة واحدة ماتت فاذا ثنى حييت وقد صوروها تصويراً مخيفاً .

وكان مما تداوله شعراؤهم من ذكر الشياطين قول ابي النجم العجلي :

انى وكل شاعر من البشر   شيطانه انثى وشيطاني ذكر

وقال غيره :

انى وان كنت صغير السن   وكان في العين نبو عني
فأن شيطاني كبير الجن

ومن الشعراء الاسلاميين من ذكر ذلك فقال العرجي :
« من نسج جن مثله لم ينسج »
وقال البحتري في وصف الديوان :

---

(١) الاوابد ، جمع أبدة وهي العادة المتأصلة ، ويمكن الرجوع الى كتاب (شياطين الشعراء) للدكتور عبد الرزاق حميدة

ليس يدري أصنع انس لجن سكنوه ام صنع جن لانس

وقد هذب الدين الاسلامي تصور العرب عن الجن فأقر بوجودهم وان لهم عالماً مثل عالمنا وانهم امة عاقلة يروننا ولا نراهم « انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم »[١] وفي القرآن الكريم سورة باسم « الجن » نزلت بعد عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف حيث بايعته طائفة منهم بالاسلام .

٢ ـ حادثة الاسراء والمعراج التي ثبتت صحتها في القرآن الكريم والسنة النبوية وفيهما تفصيلات وافية عنها ـ كما ان في الحادثة خروجاً عن عالمنا الى عوالم أخرى .

أهميتها وقيمتها الأدبية :

تتجلى اهمية الرسالة في جوانب كثيرة في مقدمتها مضمون الرسالة . اذ لا يستطيع اي باحث ان ينكر ان هذه الرسالة تعد بكراً في مجال الرسائل الأدبية تفتق عنها ذهن ابن شهيد وتبدو قيمتها من حيث اسلوبها الأدبي المتميز الذي تضمن ضروباً من المزج بين النثر والشعر . بأسلوب قصصي . يتضمن أدب الحوار والمساجلة . واستنطاق الحيوان . مع طرائف مستملحة تستهوي القاريء وتستميله . بحيث لا يعتريه سأم او ملل من متابعتها ومن خصائص اسلوبها سهولة الفاظها وسلاسة اسلوبها واستخدام المحسنات البديعة بشكل غير متكلف .

وهي بهذه الخصائص تمثل نموذجاً متميزاً من نماذج الأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري .

وتكمن أهمية الرسالة كذلك في النَاحية النقدية[٢] حيث تمثل نزعة نقدية استقوت في القرن الخامس الهجري وحاولت اثبات البراعة والتفوق لأهل الأندلس . وتحقيق الذات . بعد أن واجهوا من المشرق ازدراء وانكاراً لمكانتهم وبراعتهم .. وقد استطاع ابن شهيد أن يصحح الفكرة التي تنفي امكانية اجتماع الشعر والنثر والبراعة فيهما لدى أديب واحد . وهي فكرة تبناها المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) فيما بعد .

---

(١) الاعراف : ٢٧

(٢) مراجعة ما كتبه د . هيكل بعنوان آراء نقدية الادب الاندلسي ٢٩٤ ـ ٢٩٨

ويرى الدكتور محمد رضوان الداية أن ابن شهيد شغلته عدة قضايا وجعل رسالته عرضاً لها وتبياناً لموقفه منها :

١ ـ ما منزلته بين شعراء قومه وكتابهم ؟ وما منزلة شعره ونثره في الادب العربي بعامة ؟
٢ ـ ما حدود الاخذ ؟ ومتى يسوغ ؟
٣ ـ ما هو الموقف من طغيان السجع على كتابة الكتاب ؟[١]

ويتناول الدكتور الداية الجانب النقدي في الرسالة فيستنبط المفاهيم النقدية التي مال اليها ابن شهيد وعرض لها وهي تتصل بالابداع الفني والسرقات الأدبية واللفظ والمعنى والبديهة[٢] وممن استوقفه الجانب النقدي عند ابن شهيد الدكتور هيكل حيث اشار الى نظراته النقدية على نحو سريع والدكتور احسان عباس الذي فصل القول في مواقفه وبسط آراءه التي تميز بها[٣].

وفضلاً عما تقدم في اهمية الرسالة فأن الحركة العلمية التي اقترنت بها في مجال البحث والدراسة قد وقف دارسون كثيرون عندها وافردوا فيها بحوثاً ومؤلفات أغنت المكتبة الأندلسية والأدبية بشكل عام[٤].

الرسالة بين التجديد والتقليد :

احتدم نقاش طويل بين دارسي الادب حول قيمة هذه الرسالة وقيمة رسالة الغفران . ومدى تأثر احدهما بالأخرى . وتبع هذا النقاش نسبة الابتكار لأهل المشرق تارة ولأهل الأندلس تارة أخرى لان كلاً منهما يمثل علماً من اعلام بلاده .

ومن الباحثين من رأى ان كلا الشاعرين عادا الى أصول واحدة واستمدا منهما رسالتهما واما فكرة شياطين الشعراء فقد سبق اليها بديع الزَمان الهمداني (ت ٣٩٨

---

(١) تاريخ النقد الادبي في الاندلس ص ٣٠١

(٢) نفسه ٣٠٢ ـ ٣٠٥

(٣) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٤٧٦ ـ ٤٨٢

(٤) ينظر ما كتبه احمد ضيف في بلاغة العرب في الاندلس ٥٨ ـ ٦٤ ، وزكي مبارك في النثر الفني في القرن الرابع الهجري (١ / ٣١١ ـ ٣٣١) ، والدكتور احمد هيكل في الأدب الاندلس ٣٨١ ـ ٣٩٤ ، والدكتور احسان عباس في تاريخ الادب الاندلسي جـ ١ ومن الدراسات التي افسحت المجال في دراسة الرسالة ما كتبه بطرس البستاني في مقدمتها ٣٣٤ ـ ٣٤٠ ودراسة الدكتورة بنت الشاطيء لرسالة الغفران حيث تناولت التوابع والزوابع في مجال الموازنة . ورسالة الدكتور حازم عبد الله عن ابن شهيد حياته وادبه

هـ) في مقامته الابليسية ومنها استمد ابن شهيد مباشرة فلم يُدخل الا تغييرات قليلة وتعديلات طفيفة[١] .

ولاشك أن بين الرسالتين نقاط التقاء واختلاف وليس ما يعنينا دراسة نقاط الخلاف . وقد فصل فيها القول ـ في بحث متخصص ـ الدكتور عبد السلام الهراس[٢].

ولكننا نجد أن كلتا الرسالتين كانتا رحلة عن العالم الحسي المعاش الى عالم غيبي لا تدركه الابصار فكان هذا العالم عند ابن شهيد عالم الجن وعند المعري عالم الآخرة وما فيها من جنة ونار . وان الرسالتين عرضتا المشكلات الأدبية باسلوب قصصي . وان كان المعري بطبعه مائلا الى المعضلات الدينية والفلسفية[٣].

وقبل استعراض اراء الباحثين في هذه القضية نشير الى أن الذي دعا الدارسين للوقوف عندها عدة أمور هي[٤] :

١ ـ ان الرّجلين عاشا في عصر واحد .
٢ ـ شيوع التقليد بين المشرق والمغرب .
٣ ـ تشابه الرسالتين من حيث الاطار الفني .

وقد ناقشت الدكتورة بنت الشاطيء هذه الاحتمالات في دراستها التفصيلية عن رسالة الغفران واذا كان تاريخ تأليف رسالة الغفران متفقاً عليه انه عام ٤٢٤ هـ[٥] فأن الخلاف ما يزال قائماً حول تاريخ تأليف رسالة ابن شهيد كما يبدو في الجدول التالي :

---

(١) المقامة ص ٢٢ (د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤ ، سلسلة فنون الأدب العربي) .

(٢) رسالة التوابع والزوابع وعلاقتها برسالة الغفران ، مجلة المناهل المغربية العدد (٢٥) سنة ١٩٨٢ .

(٣) نفسه ص ٢١٥

(٤) الغفران ص ٢٠٢ (بنت الشاطيء ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٢)

(٥) الغفران ١٠ .

تاريخ تأليف التوابع والزوابع[1]

١ ـ د . بروكلمن	٤٠٤ هـ
٢ ـ د . زكي مبارك	٤٠٣ ـ ٤٠٧ هـ
٣ ـ د. احمد امين	٤٠٠ ـ ٤٠٧
٤ ـ بطرس البستاني	بعد ٤١٤
٥ ـ د . احمد هيكل	٤١٥ هـ
٦ ـ د . حازم عبد الله	بعد ٤١٥ هـ
٧ ـ يعقوب زكي	٤١٦ ـ ٤٢٠

والراجح من هذه الآراء ان يكون قد الف الرسالة بين عامي ٤١٤ ـ ٤١٥ . وذلك من الادلة التي يكاد يتفق عليها الباحثون . البستاني وهيكل وحازم عبد الله فأن ابن شهيد في تأليفه لرسالته يكون سابقاً أبا العلاء . ولكن هل يمكن ان نحكم بتقليد الثاني للاول ؟ وما ادلتنا على ذلك ؟

لقد رأى عدد من الدارسين ان ابن شهيد كان مقلداً للمعري . ومنهم احمد ضيف[2] . ورأى آخرون ان المعري كان مقلداً لابن شهيد ومنهم زكي مبارك[3] .

---

(١) تنظر كتبهم التي اوردت هذه الحقيقة على التوالي ، تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٠٨ ، النثر الفني ١ / ٣١٩ ، ظهر الاسلام ٢ / ٢١٠ ، ابن شهيد حياته وادبه ، الادب الاندلسي ، ٢٨٧ ، رسالة التوابع والزوابع ص ٧٠ ، ديوان ابن شهيد ص ٤٤ .

(٢) بلاغة العرب في الاندلس ٥١

(٣) النثر الفني ١ / ٣٢٠

واحمد امين[١] . وبطرس البستاني[٢] . واحمد هيكل[٣] ومحمد رجب البيومي الذي اثبت أن الثعالبي كان يعرف رسالة التوابع وأن ابا العلاء قد قرأ اليتيمة[٤] .

واما ثالث الآراء فهو رأي من يقول بعدم وجود صلة بين الرسالتين وقد قالت به الدكتورة بنت الشاطيء[٥] وذلك لأنها ترى في النصين أثرين متميزين لأديبين مختلفين من أقليمين متباعدين . وممن قال بنفي الصلة كذلك . الدكتور حازم عبد الله[٦] .

ويبدو من هذه الاراء ان ارجحها الرأي الأخير وأضعفها هو الرأي الأول اذ ان تاريخ الرّسالتين ينفي الأحتمال الأول . ولكن التهمة الموجهة الى الأندلسيين بتقليد المشارقه هي التي دعت ضيفاً الى القول بذلك . على الرغم من سبق التوابع للغفران .[٧] ولعدم توفر الأدلة القاطعة في وصول رسالة التوابع الى بلاد المشرق لانستطيع ان نحكم بتأثر المعري بها .[٨]

والخلاصة اننا نستطيع ان ننفي نفياً قاطعاً فكرة تأثر ابن شهيد بابي العلاء ... واذا كان لابد من القول بتأثر أحدهما بالآخر فأن ابن شهيد هو السَابق في تأليف رسالته . وأن المعري هو المتأثر بها .

---

(١) ظهر الاسلام ٣ / ٢١٠ ـ ٢١١
(٢) رسالة التوابع والزوابع ٧٥
(٣) الادب الاندلسي ٢٨٨
(٤) الادب الأندلسي بين التأثير والتأثر ١٧٩
(٥) الغفران ٢١٧ .
(٦) ابن شهيد الأندلسي حياته وآدبه ٢٣٤
(٧) بلاغة العرب في الاندلس ص ٥١
(٨) وذلك مادعا بعض الباحثين الى الاتيان بأدلة اخرى تعزز فكرة نفي تأثر السابق باللاحق ا ينظر بحث رسالة التوابع ـ الهراس ص ٢١٢

الفصل الثالث

الأدب في عصري الموحدين وبني الأحمر

الثقافة والادب في عهدي الموحدين وبني الأحمر :

لم تلبث دولة المرابطين ان انهارت باستقواء حركة الموحدين التي اسسها المهدي بن تومرت (ت ٥٢٤ هـ) المنتسب الى قبيلة هرغة من المصمودة جنوب المغرب وقد استمرت دولة الموحدين زهاء قرن من الزمان . وعلى الرغم من وجود الثورات الداخلية واشتداد هجمة الاسبان على الاندلس فان الحياة الثقافية اجمالاً والأدبية بشكل خاص كانت استمراراً لحالة النماء والتقدم التي عاشتها الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين .

ان الحياة الأدبية التي ازدهرت في عهد الموحدين كانت نتيجة طبعية ومنسجمة للاهتمام البالغ الذي اولاه الحكام انفسهم فقد اهتم ابن تومرت بالعلم وكانت مجالسه عامرة بالعلماء وقد ترك مؤلفات كثيرة أصبحت الكتب التي تدرس بعد وفاته وسار على هذا النهج الخلفاء الذين جاءوا بعده . ولا سيما في عهد المنصور الموحدي حيث اتسمت الحياة الادبية بسمات متميزة منها انتشار اللغة العربية فاصبحت اللغة الرسمية للبلاد وشاعت بجوارها لغة قبائل البربر . على ان بعضها كان يتحدث العربية كذلك .

ازدهرت العلوم الاسلامية في عصر الموحدين ، في علم القراءات ، والتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام ، الى جانب الطب والرياضيات ، ومن اعلامهم ، عبد الحق بن عطية (ت ٥٤١ هـ) صاحب تفسير المحرر الوجيز وابو الحسن علي الغرناطي المفسر ، وابو بكر المعافري السبتي المعروف بابن الجوزي وعبد الجليل الانصاري (ت ٦٠٨ هـ) وابن عات (ت ٦٠٩ هـ) وابن القطان (ت ٦٢٧ هـ) وابو الربيع سليمان الكلاعي (ت ٦٣٣ هـ) وغيرهم .

وفي ميدان التاريخ وكتب التراجم عرفت الاندلس ثلاثة من اصحاب البرامج ، ابن خير الاشبيلي (ت ٥٧٥ هـ) وابو الحسن الرعيني (ت ٦٦٦ هـ) ، وابن ابي الربيع الاشبيلي (ت ٦٨٨ هـ) واما ابرز مؤرخي هذا العصر ، فابو العباس العزفي (ت ٦٣٣ هـ) صاحب الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، وابو الخطاب بن دحية (ت ٦٣٣ هـ) وعبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧ هـ) وابن الابار القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) ومن مخضرمي الدولتين ابن فرتون السلمي (ت ٦٦٠ هـ) صاحب الذيل على صلة ابن بشكوال وابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) وابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣ هـ) وابن الزبير (ت ٧٠٨ هـ) ، وابن عذاري (ت ٧١٢ هـ) . وفي الجغرافية اشتهر ابو عبد الله الادريسي (ت ٥٦٠ هـ) صاحب كتاب نزهة المشتاق .

وقد ازدهرت العلوم الفلسفية ازدهاراً لم تشهد الاندلس له مثيلاً فعرفنا اعظم شخصيات التفكير الاسلامي على الاطلاق مثل ابن طفيل وابن زهر وابن رشد ففي عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ازدهرت الفلسفة على نحو ما ينقل المراكشي عنه فيقول : « ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من أجزائها ..) وكان من المقربين اليه ابو بكر بن طفيل وابن رشد ، وكانت تدور المناظرات الفلسفية ويشارك فيها الخليفة بما يحوز على اعجابهم[١] .

وظل شأن الفلسفة مرموقاً في عهد المنصور الموحدي حتى نكب ابن رشد لاسباب اختلفت الروايات فيها ولم ينحسر ظل الفلسفة كثيراً . اذ سرعان ما صفح عنه . وعادت الصحبة الى سابق عهدها .

وفي مجال اللغة والنحو ظهرت المؤلفات واشتهر من علماء الموحدين ابو عبد الله بن هشام اللخمي (ت ٥٥٧ هـ) وابو القاسم السهيلي (ت ٥٨١ هـ) المعروف بدراساته اللغوية وتحقيقاته النحوية كذلك عرف ابو موسى الجزولي (٦١٠ هـ) وابن معط (٦٢٨) . وقد تحقق الازدهار الثقافي في جميع ميادنيه . فضلاً عما ذكرناه .

ومن العوامل التي ساعدت على هذا الازدهار ـ وهو ما اشرنا اليه آنفاً ـ إقبال ملوك الموحدين على الثقافة وعنايتهم الخاصة بها . فمما يروى عن عبد المؤمن بن علي . انه كان مؤثراً لأهل العلم محباً لهم محسناً اليهم يستدعيهم من البلاد[٢] .. حتى أنه أنشأ مدرسة لتخريج رجال السياسة وموظفي الحكومة تضم ثلاثة الاف طالب . من ابناء الاكابر . يسمون طلبة العلم والحفاظ . وكان لعبد المؤمن من هؤلاء ثلاثة عشر ولداً تثقفوا على هذا النحو وأبدوا براعة في الفنون الحربية[٣] . وكان عبد المؤمن نفسه عالماً بالجدل والاصول حافظاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم مشاركاً في علوم كثيرة دينية ودنيوية اماماً في النحو واللغة والأدب والتاريخ وعلم القراءات[٤] وقد حرص على تأديب أولاده فاستدعى لهم العلماء والأدباء أمثال احمد بن حسن الجراوي المالقي . واحمد بن عبد الجليل التدميري .

---

(١) الحضارة الاسلامية ، حسن علي حسن ص ٥٠٨

(٢) المعجب ٢٦٩

(٣) تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٣٠١ ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ٢٣

(٤) الانيس المطرب ٢ / ١٧٠

وكذلك كان ابنه يوسف متنوع الثقافة في العلوم الدينية وعلوم العربية وغيرها وقد بلغ المنصور الموحدي مبلغاً كبيراً في مشاركاته في العلوم الاسلامية حتى شهد له بذلك المقري في نفح الطيب[1] ومن الدراسات الحديثة التي تناولت النهضة الثقافية في عصر الموحدين كتاب محمد المنوني العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين[2]. ودراسة محمد الرشيد ملين التي اختصت بعصر المنصور الموحدي. فقد حرص على استدعاء العلماء المشهورين لتأديب اولاده ومن ذلك انه كلف عاملاً له ان يرسل مؤدباً لابنائه فأرسل العامل رجلين فلما امتحنهما لم يرض بهما ووقع على ظهر كتاب العامل (ظهر الفساد في البر والبحر)[3]

والخلاصة في عصر الموحدين ما قاله الدكتور محمد بن شريفة: « ان العلوم وصلت في هذا العصر الى ذروتها العليا وبلغت مداها البعيد الذي جمع زبدة الحقب الماضية. وعاشت على زاده العصور التالية »[4].

ولم تكن الثقافة في عصر بني الأحمر متخلفة عن المستوى الذي شهدناه لها - قبل قليل في عصر الموحدين - فقد عنى حكام بني الأحمر بالثقافة واجتمع لديهم من الادباء والعلماء عدد كثير وقد اختلفت الحياة الثقافية في عهد بني الاحمر لاسباب تعود الى طبيعة الحياة واشتداد هجمة الاسبان الذين احاطوا بهذه الدولة من كل جانب وكثرة الثورات الداخلية. وكثرة الهجرات من مدن الأندلس المختلفة الى دولة المسلمين التي ساسها بنو الأحمر فبعد ان كانت مدن الأندلس في شبه الجزيرة الايبرية مراكز حضارية للثقافة والعلم انحسرت سيادة المسلمين الا عن هذه الدولة.

والملاحظ ان حكام دولة بني الاحمر كانوا وراء حركة التقدم والازدهار في الحياة الفكرية والادبية على نحو ما نرى في عصر محمد الاول (ت ٦٧١ هـ) ومحمد الثاني (ت ٧٠١ هـ) ومحمد الثالث (ت ٧٠٨ هـ) وكان الاخيران ينظمان الشعر ويحتفيان بأهله ويعقدان المجالس الأدبية. وابرز امراء بني الأحمر الامير يوسف الاول الذي ظهرت في عهده طائفة من الشعراء والادباء من امثال ابن الخطيب وابن زمرك وابي الحسن النباهي. وقد اسس هذا الامير مدرسة غرناطة ذات السمعة

---

(١) نفح الطيب ٢٨٠

(٢) ط ٢ دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط ١٩٧٧

(٣) عصر المنصور الموحدي ١٧١، الحضارة الاسلامية ٤٩٩.

(٤) ابو المطرف بن عميرة ص ٢٤

الواسعة[1] وكذلك كانت عناية يوسف الثالث ومحمد الخامس ، وقد خلف الأمير ابو الوليد بن الأحمر كتباً كثيرة[2] .

وابرز العلوم التي حظيت بعناية الحكام ومؤازرتهم لاصحابها العلوم الاسلامية المختصة بالقرآن الكريم والحديث الشريف كعلوم القراءات والتفسير . والفقه ، فمن علماء التفسير ابن جزى الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١ هـ) وابو حيان الغرناطي (ت ٧٤٥ هـ) وابو عبد الله بن رشيد السبتي (ت ٧١١ هـ) صاحب الرحلة وابراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي صاحب الاعتصام والموافقات (ت ٧٩٠ هـ) والقاضي النباهي صاحب المرقبة العليا والحسن بن ابراهيم البلوي (ت ٧٤٠ هـ) واحمد بن محمد الرعيني (ت ٧٤٤ هـ) ومحمد بن احمد بن صفوان القيسي (ت ٧٤٩ هـ) وقد اشتهر بالعلوم الدينية محمد بن عاصم القيسي الغرناطي صاحب المؤلفات الكثيرة .

وقد انحسرت بعض العلوم التي ازدهرت في عصر الموحدين كعلوم الفلسفة والطبيعة لهجرة الكثير من العلماء من الاندلس واستمر سلطان الفقهاء على منتحلي هذه العلوم بأزدرائها والطعن على اصحابها حتى ان خصوم لسان الدين بن الخطيب نالوا منه بهذه الحجة واحرقوا كتبه بمحضر الفقهاء والمدرسين على ما يذكر القاضي النباهي[1] . لما تضمنته من عقائد او جبت ذلك عندهم ثم انتهت الحادثة بمقتله فيما بعد .

---

(١) يوسف الاول بن الاحمر ص ٤٤

(٢) ينظر ابو الوليد بن الاحمر ٢٥٧

(٣) المرقبة العليا ٢٠٢

المبحث الأول

الشعر والشعراء

الشعر في عهد الموحدين وبني الأحمر

رأينا عهد التألق الشعري مقروناً بملوك الطوائف . وعرضنا للاراء المختلفة حول حالته في عصر المرابطين . اما عصر الموحدين فالآراء تكاد تجمع على اهتمام ملوكهم بالأدب بشكل عام والشعر بشكل خاص . اذ شعرت الدولة بأهمية الشعراء واتخذتهم اداة ووسيلة اعلامية لدعم مكانتها وقد افاضت الدراسات الحديثة في هذا المجال . وفي مقدمتها دراسة الدكتور عباس الجراري . الذي أشار الى أبرز دواوين هذا العصر[١] . وهي تمثل القليل من الكثير الضائع . كما اشار الى ظاهرة قرض الملوك وأمراء الدولة للشعر ودورهم في تشجيع الأدب .[٢] وساق امثلة كثيرة على ذلك ثم تحدث عن أصناف الشعراء وطبقاتهم وانتهى الى القول في خصائص الشعر حيث استطاع ان يحدد خمسة اتجاهات في شعر هذا العصر فقد صنفهم ـ من حيث ازمانهم ـ في ثلاث طبقات[٣] :

١ ـ شعراء العصر المرابطي الذين ادركوا الموحدين لكنهم لم يتأثروا بالدعوة ولم يعرضوا لها باشعارهم ومنهم القاضي عياض (ت ٥٤٤) وكان مقلاً في شعره ..

٢ ـ شعراء عاصروا عهدي المرابطين والموحدين . وساروا في ركاب المرابطين . ثم انحازوا الى الموحدين واحرزوا مكانة عندهم . ومنهم ابو عبد الله محمد بن حبوس (ت ٥٧٠ هـ)[٤] . فقد كان مقدماً عند علي بن يوسف بن تاشفين ثم هرب الى الأندلس . فاصبح شاعر الخليفة الموحدي فيما بعد وعلى الرغم من مكانته الرفيعة التي أحرزها فان ديوانه لما يزل مفقوداً[٥] .

---

(١) الامير الشاعر ابو الربيع الموحدي ٩٨ ـ ٩٩

(٢) نفسه ٩١ ـ ٩٨

(٣) نفسه ١١٠

(٤) ينظر عنه بحث الاستاذ عبد القادر زمامه « ابن حبوس » مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة محمد الخامس ١٩٨٠ العدد ٧ ص ١٣٧ ـ ١٥٥

(٥) نفسه ١٥٤

٣ ـ شعراء نشأوا في أحضان الدولة الموحدية ووهبوا انفسهم وشعرهم لها . ومنهم ابو العباس احمد بن عبد السلام الجراوي الكورائي (ت ٦٠٩ هـ) أديب المغرب على الاطلاق في زمانه كما يقول ابن سعيد[١] . وقد باهى بـه عبد المؤمن حين قال فيه : ياأبا العباس انا نباهي بك أهل الأندلس .. » والمقولة تتضمن ـ فيما تتضمن ـ روح المنافسة بين ادبي العدوتين التي تجلت في مظهر اقوى دلالة هو رسائل فضائل الأندلس وأهلها . وقد وصلت مؤلفات ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) . وابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) والشقندي (ت ٦٢٩ هـ) التي جمعها المقري متوالية في كتابه نفح الطيب[٢]

وما بين ايدينا من اشعاره لا يمثل الا النزر اليسير من شعره . وديوانه مفقود .

ثم يضيف الدكتور الجراوي طبقتين الى الثلاث المتقدمة :

٤ ـ شعراء ذاتيون . ساروا على ماسار عليه شعراء الطبقة الاولى . فمالوا في اشعارهم الى الموضوعات الذووية[٣] كالغزل والوصف وقالوا في الموشحات والازجال . الا أن بعضهم قال في مدح الموحدين بعض اشعاره مثل ابي حفص السلمي الاغماتي[٤]. وابي الربيع سليمان الموحد .

٥ ـ شعراء ساروا في ركاب دعوة المهدي مؤسس الدولة الموحدية ثم اتجهوا في آخر الدولة الى المنهل الديني يستوحون منه في روح تصوفي . هروباً من الواقع المفجع . كما يرى الدكتور الجراري . وابرز شعراء هذه الفئة في رأيه . ميمون ابن خبازة (ت ٦٣٧ هـ) صاحب القصيدة البائية المشهورة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام[٥].

ويتبين لنا من الدراسة المتأنية لشعر الموحدين مدى عنايتهم بالشعر وتشجيعهم لقائليه ومن أمثلة ذلك موقف عبد المؤمن من الاصم المرواني ـ هو حفيد الشريف الطليق ـ الذي أنشد قصيدته البائية التي يعارض بها قصيدة ابي تمام (السيف اصدق انباءً من الكتب) فكان ذلك حين قدومه جبل الفتح سنة ٥٥٥ هـ فقال :

---

(١) الغصون اليانعة ١٠٢

(٢) النفح ٢ / ١٥٦ ـ ٢٢٢

(٣) الصواب في نسبة ذات الى ياء المتكلم « ذووي » وذاتي من الاخطاء الدائرة على الألسنة

(٤) ينظر ازهار الرياض ٢ / ٣٦٥

(٥) ازهار الرياض ٢ / ٣٨٤ ـ ٣٩٢ وينظر بحثنا المديح النبوي في عهد الموحدين مجلة آداب الرافدين الموصل ١٩٨١ العدد ١٣ ص ٤٨٣

ماللعدا جنة أوقى من الهرب !

فقال عبد المؤمن رافعاً صوته : الى اين الى اين ؟

فقال الشاعر :

.......أين المفر وخيل الله في الطلب ؟

واين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشُّهب

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا يمدح الخلفاء [١]

وحين انشده ابن سيد الملقب بـ « اللص » :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر الى الجبل الرأسي على جبل

انى استقر به انى استقل به انى راى شخصه العالي فلم يزلِ

فقال له عبد المؤمن : لقد ثقلّتنا يارجل [٢]. والقصيدة كما يرى المراكشي ـ من خيار مامدح به لولا انه كدَّر صفوها بهذه الفاتحة .

وتعكس لنا دواوين الشعراء والمصادر التاريخية كيف استطاع الشعر أن يصور الاحداث السياسية على نحو مانجد . في كتاب ابن عذاري الذي أرَّخ للموحدين [٣]. أو كتاب المراكشي المعجب في تلخيص اخبار المغرب . فقد واكب الشعراء الاحداث خطوة خطوة . لاسيما في قصائد المديح . ويكفي من الدلالة على غزارة هذا الاتجاه ان ابا يوسف يعقوب المنصور . اثر عودته من غزوة الارك (سنة ٥٩١ هـ) لم يتسع له المقام لاستماع اشعارهم فاقتصر على بيتين لكل واحد [٤].

ومن تلك الأحداث الهزيمة التي الحقها خليفة الموحدين المأمون بابن هود سنة ٦٢٥ فقد اسهم في الحديث عن هذا النصر المؤزر عدد من الشعراء منهم ابو زيد عبد الرحمن الجزولي وابو جعفر بن الكاتب وابو الحسن علي بن الفضل وابو أمية اسماعيل بن سعد السعود [٥].

ولا يفوتنا أن ننوه بالمهرجان الشعري الذي عقده الشعراء لملك الموحدين بعد جوازه ال جبل الفتح سنة ٥٥٥ هـ [٦] واقامته فيه شهراً . فقد روى المراكشي أنه

---

(١) المعجب ٢٨٤ ـ ٢٨٥

(٢) المعجب ٢٨٦

(٣) ينظر البيان المغرب (ط تطوان) ٣ / ٦١ ، ٦٦ ، ٧٠ ـ ٧٧

(٤) نفسه ٣ / ١٩٧

(٥) البيان المغرب ٣ / ٢٥٨ ـ ٢٥٩

(٦) المعجب ٢٨٢

استدعى الشعراء .. ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك انما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم وهذا تحول ايجابي في موقف عبد المؤمن من الشعر .. واقرار منه بأهميته حيث استدعاهم بعد أن كانوا يقصدونه دون استدعاء منه .

وقد أشرنا قبل قليل الى بعض القصائد التي القيت في تلك المناسبة . وكان أول من انشده ابو عبد الله محمد بن حبوس ، قصيدته التي مطلعها :

بلغ الزمان بهديكم ما أمّلا وتـعـلـمـت أيامـه أن تـعدلا

ثم انشد الاصم المرواني قصيدته البائية .
وانشد ابن سيد « اللص » قصيدته اللامية .

واستطاع شاب ناشيء أن يشق طريقه بين هؤلاء الشعراء الشيوخ ذلكم هو الرصافي البلنسي ابو عبد الله محمد بن غالب . فالقى قصيدته الرائعة التي مطلعها :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبستَ ما شئتَ من علم ومن نور

ولقد ساق المراكشي القصيدة كاملة ، وهي في اثنين وستين بيتاً انشدها ولم تكمل له عشرون سنة . وفي رواية ابن عذاري[1] ، ان ابا بكر بن المنخل (ت ٥٦٠ هـ) انشد قصيدة مطلعها :

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا فان نسيم النصر بالفتح قد هبا

وان ابا عبد الله بن صاحب الصلاة انشد قصيدة مطلعها :

تلألأ من نور الخلافة بارق اضاءت به الآفاق والليل غاسق

ومن شعراء الموحدين فضلاً عمن ذكرناهم الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي (ت ٦٠٤ هـ) . وابو زيد الفازازي[2] (ت ٦٢٧ هـ) وابو بكر يحي التطيلي الغرناطي[3] (٦٢٩ هـ) . ابن قوم الأشبيلي[4] (ت ٦٣٩ هـ) وابن ابي عرفة[5] . وابو سهل الاشبيلي ٦٤٩ . وابو المطرف بن عميرة المخزومي (ت ٦٠٨ هـ) .

---

(١) البيان المغرب (تطوان) ٢ / ٤٥ ـ ٤٦
(٢) التكملة (مجريط) رقم ١٦٤١
(٣) المغرب ٢ / ٤٥٠ الاحاطة ٤ / ٤١٥
(٤) التكملة ٢ / ٦٤٩
(٥) ازهار الرياض ٢ / ٣٧٤

ولعل اوسع كتاب ضم أشعارهم هو كتاب صفوان التجيبي (ت ٥٩٨ هـ) : زاد المسافر وغرة محيا الادب السافر[١] . وابرز هؤلاء الشعراء كما يرى أحد الباحثين ثلاثة[٢] :
الرصافي البلنسي وابن مجبر الفهري ، وصفوان التجيبي .

ولم تختلف موضوعات الشعر في عهد الموحدين عن العهود السابقة بل دارت في اكثر موضوعاته ولكن السمة العامة التي اتسم بها هي انه تأثر بالمنهج العام الذي انتهجته الدولة ، فكانت موضوعاته جادة ـ في مجملها ـ وغلبت عليه السمة المتأثرة بالتعاليم الاسلامية وزاد عدد شعراء المديح النبوي في هذا العصر[٣] ، وكان المديح يختلط بمعان دينية تخلق نوعاً من الشعر المتصل بالعقيدة والتصوف[٤] ، ومن الظواهر المتميزة في أدبهم شيوع الشعر في مراسلاتهم الرسمية ومخاطباتهم .

واما حالة الشعر في عهد بني الأحمر فقد كانت امتداداً للشعر الأندلسي في عصر الموحدين . وقد حظي بعناية ملوك بني الأحمر على نحو ما رأينا من عنايتهم بالعلوم الاسلامية كافة فقد اشار ابن الخطيب الى ان محمد الثاني كان فضلاً عن ولعه بالشعر والأدب . ناظماً له وكذلك شأن محمد الثالث وقد وصل الينا ديوان لأمير من امراء بني الأحمر هو يوسف الثالث[٥] . اما ابو الوليد بن الأحمر فقد نظم في فنون الشعر كافة وان لم يتفق لاحد أن يجمع ديوانه .

وازدحمت في بلاطاتهم الشعراء حتى حفلت كتب التراجم في القرنين السابع والثامن بأسماء العديد منهم ومن الدواوين التي وصلت الينا ديوان ابن خاتمة الانصارى وديوان ابي الحسن بن الجياب وديوان ابن الخطيب (الصيب والجهام والماضي والكهام) .

---

(١) طبع باشراف عبد القادر محداد في دار الرائد العربي ـ بيروت ١٩٨٠

(٢) الشعر الاندلسي بحث عبد الله كنون مجلة المجمع العربي السوري ١٩٥٦ ، ٣١ / ٢ / ٢٨٦

(٣) ابو الربيع سليمان الموحدي ١٧٩ كذلك ينظر الدولة الموحدية ، اثر العقيدة في الادب ، الاستاذ حسن جلاب منشورات الجامعة سنة ١٩٨٣

(٤) نفسه ٩١ ، وينظر للمؤلف ديوان ابن الجنان الاندلس (نسخة مخطوطة) قسم الدراسة شعر الاخويات والمراجعات .

(٥) نشر ديوانه بتحقيق عبد الله كنون ط الانجلو المصرية ١٩٦٥

ومن الملامح الواضحة في شعر هذا العهد سيادة الروح الدينية واصطباغه بالمفاهيم الاسلامية كما يقرره عدد من الدارسين[١]. ولعل السبب في ذلك واضح للحماسة البالغة في نصرة الاسلام اذ ان الحروب المتوالية مع مستغلبي الأندلس بعثت في نفوسهم الحمية جيلاً بعد جيل[٢]. ومن الموضوعات الشعرية التي اتصلت بهذه الوجهة ازدهار شعر الزهد والتصوف وشعر المديح النبوي وانتعاش الشعر في المولد النبوي الشريف. فعرفت الاندلس اشهر شاعر صوفي هو محي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) وابو البقاء صالح بن شريف الرندي (ت ٦٨٤ هـ) وابو عبد الله محمد بن خميس التلمساني (ت ٧٠٨ هـ). ومحمد بن جابر الهواري (ت ٧٤٩ هـ) ومحمد بن شلبطور (ت ٧٥٥ هـ) وابو القاسم محمد بن احمد الشريف الحسيني (ت ٧٦٠ هـ) وابو سعيد لب (ت ٧٨٢ هـ). وابو الوليد بن الاحمر (ت ٨٠٧ هـ).

ويشير الاستاذ زمامة الى مخطوطة « مظهر النور الباصر في امداح مولانا ابي الحجاج الملك الناصر الى انها جمعت غير قليل من اسماء شعراء غرناطة في اوائل القرن التاسع الهجري[٣].

ابن سهل الاشبيلي

من ابرز شعراء الموحدين ابراهيم بن ابي العيش بن سهل الذي ولد في مدينة اشبيلية سنة ٦٠٩ هـ وهي السنة التي اقترنت بوقعة العقاب. وقد امضى طفولته الأولى في اشبيلية ودرس على شيوخ عصره على نحو ما ذكر ابن سعيد ومنهم ابو الحسن الدباج (ت ٦٤٦ هـ) ابو على الشلوبين (ت ٦٤٥ هـ). وقد اشتهر بقرض الشعر في سن مبكرة كما استبانت عليه مخايل الفطنة والذكاء.

كانت اشبيلية احدى حواضر الاندلس التي ازدهرت فيها الحركة العلمية فضلاً عن كونها موطناً خصباً للطبيعة الخلابة لكثرة متنزهاتها ومتفرجاتها التي وردت الاشارة اليها في اشعاره مثل مرج الفضة والعروس والسلطانية وشنتبوس. كذلك

---

(١) غرناطة في ظل بني الاحمر ص ١٥٨، الشعر في غرناطة في عهد بني الاحمر ص ٢٢٨ د. حسين نصر بغداد ١٩٨٣.

(٢) مقدمة نثير فرائد الجمان ص ٤٥

(٣) ابو الوليد بن الأحمر ص ٧٥

كانت لشاعرنا صلات اجتماعية بأبرز ادباء عصره امثال ابن سعيد وابي البقاء الرندي وآخرين .

لم يزل ابراهيم في اشبيلية حتى العقد الثالث من عمره حيث ودعها متجولاً بين مدن الاندلس الاخرى . والراجح ان السبب الذي دعاه الى ترك اشبيلية هو سقوطها بيد الأسبان سنة ٦٤٥ هـ . وليس واضحاً اين كانت محطته الثانية والثالثة الا ان المصادر تشير الى انه قصد حاكم منورقة(*) ـ احدى ثلاث جزر في البحر الابيض المتوسط تعرف اليوم بجزر البليار ـ حيث مدح فيها أبا عثمان سعيد بن حكم الذي استتب له الحكم ردحاً طويلاً من الزمن (٦٣١ ـ ٦٨٠) وكانت منورقة موطناً قصده العلماء والادباء والشعراء وذلك لان ابا عثمان عرفت عنه صفات هؤلاء على نحو ما يفصل ذلك ابن عبد الملك المراكشي(١) . وفي ديوان ابن سهل قصائد كثيرة في مدحه .

وترد اشارات ـ ومنها ما ذكره الراعي (ت ٨٥٣ هـ) ـ الى ان ابن سهل عمل كاتباً لدى ابي علي الحسن بن خلاص (٦٣٧ ـ ٦٤٦) صاحب سبتة ثم اتصل بعد وفاته بابنه علي بن خلاص(٢) . حيث حفظ الديوان عدة قصائد مدحه بها . وفي سبتة تردد على مجلس شيخه ابي اسحاق ابراهيم الغافقي . شارح الجمل المتوفى سنة ٧١٦ هـ . كذلك اتصل بحاكم المرية . اذ يحفظ الديوان قصائد مدح فيه .

لقب ابن سهل بالقاب كثيرة منها (الاسرائيلي) وذلك لان اباه سهلاً كان يهودياً واما ابراهيم فقد اسلم وحسن اسلامه ولذلك لقبه صديقه ابو البقاء الرندي بلقب الاسلامي واختلف الرواة في اسلامه وما اذا كان ذلك في الظاهر ام في الباطن . وفي الممتع السهل(٣) رواية موثقة عن اسلامه .. ومن الواضح ان شعره كان متأثراً تأثراً واضحاً بالثقافة الاسلامية

اختلفت الروايات في تاريخ وفاته . والراجح انها كانت سنة ٦٤٩ هـ . وقيل انه جاوز الاربعين(٤) وكانت وفاته بعد أن غرق به غراب قصد به الى حاكم تونس

(*) ينظر الروض المعطار ٥٤٩ وكذلك الآثار الاندلسية الباقية ١٢٤ .

(١) الذيل والتكملة ٤ / ٢٨ / ٢٣

(٢) الممتع السهل ـ حوليات الجامعة التونسية ص٤٥ . وفي مقدمة الديوان ص ٢٣ يورد الدكتور احسان عباس الروايات التي جاءت حول اسلامه .

(٣) حوليات الجامعة التونسية ص ٤٥ العدد ١٩ سنة ١٩٨٠

(٤) فوات الوفيات ١ / ٤١ . النفح ٣ / ٥٢٦ .

الحفصي المستنصر بالله (٦٤٧ ـ ٦٧٥) فلما علم الحاكم بذلك قال : « رجع الدر الى معدنه » ، وهو معنى ذكره ابن سهل في قصيدة يرثي فيها صاحبه الذي مات على نحو ميتته[٢] :

هو الدر غار الدهر عنه فرده لمعدنه اذ ماله عنده ثان

شاعريته

اثنى ابن ابي غالب الاشبيلي عليه وكان معجباً بحفظه فقال[٣] : نظم الهيثم قصيدة يمدح بها المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود ملك الأندلس وكانت اعلامه سوداء لانه بايع الخليفة ببغداد فوقف ابراهيم على قصيدته وهو ينشدها لبعض اصحابه وكان ابراهيم صغيراً فقال للهيثم : زد بين البيت الفلاني والبيت الفلاني :

أعلامه السّود أعلام لسؤدده كأنهن بخـد الملك خيلان

فقال له الهيثم ، هذا البيت ترويه ام نظمته ؟ قال : بل نظمته الساعة فقال الهيثم : ان عاش هذا ليكونن اشعر اهل الأندلس .

وفي ارتجاله يقول ابن سعيد وهو الذي عاشره أمداً طويلاً طويلاً بأنه (كان اسرع الناس ارتجالاً واوسعهم فيما يدوم من الكلام ، مجالاً) .[٤] وذكر كذلك انه « لم يشتهر بعد ابن الصابوني[٥] شاعر اشتهاره ولا حاز انطباعه في الشعر واقتداره »[٦] ووصفه بأن له المعنى الصعب واللفظ السهل ،[٧] ولم يبرع ابن سهل في القصيد فحسب بل نظم واكثر النظم في الموشحات . وقد ذاعت موشحته التي مطلعها :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلبَ صبٍ حلّه عن مكنسِ
فهو في حَرٍ وخفقٍ مِثلما لعبتْ رِيحُ الصَّبا بالقبسِ

---

(٢) اشعار ابن سهل مجلة الحوليات التونسية ق ٢٩ / ٨ .

(٣) فوات الوفيات ١ / ٤٢ .

(٤) اختصار القدح ٧٧ .

(٥) شاعر اشبيلية في عصره (ت ٦٣٦ هـ) وتنظر ترجمته في المغرب ١ / ٢٣٦ . الوافي ٢ / ٩ ، النفح ٢ / ٥١٨ .

٦) اشعار لأبن سهل ، حوليات الجامعة التونسية ٥١ .

(٧) اختصارالقدح ٧٦

ولشهرتها ومكانتها شرحها الافراني في كتاب سماه المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل وعارضها شعراء كثيرون ذكر الافراني انه وقف على ازيد من اثنتي عشرة موشحة من معارضاتها ومن تلك المعارضات قصيدة ابن الخطيب المشهورة (جادك الغيث اذا الغيث همى)[١] وله موشحات اخريات حظين بعناية الشعراء منها ما قاله :

ليل الهوى يقظان	والحب ترب السهر
والصبر لي خوّان	والنوم عن عيني بري

ذكر المقري انه عارضه فيها غير واحد فما شقوا له غبارا[٢]

ديوانه وموضوعاته الشعرية :

عرف ديوانه منذ عهد قديم . فقد طبع طبعة حجرية سنة ١٣٠٢ وأخرى سنة ١٣٢٤ وصدر الديوان كذلك سنة ١٩٥١ وقد نهض الدكتور احسان عباس بتحقيق الديوان واصدره سنة ١٩٦٧ وصدرت منه آخر طبعة سنة ١٩٨٠ ووجد أحد الباحثين المتتبعين لديوان الشاعر النقص الكبير الذي اعتراه . وذلك بسبب اعتماد المحقق على نسخة مخطوطة واحدة . وقد انبرى الاستاذ محمد قوبعة لأستدراك الديوان متقصياً النسخ المخطوطة له . وتم له ذلك بالوقوف على (٤٦) قصيدة ومقطعة يجتمع فيها (٤٥٣) بيتاً لم ترد في الطبعة السابقة . اصدرته كلية الآداب والعلوم الانسانية في عدد من حولياتها ..[٣] فاذا اضفنا هذا العدد الى ما احتواه الديوان اجتمع لدينا (٣٤٠٧) أبيات .

ان الدراسة الاحصائية لديوان الشاعر واشعاره المستدركة تبين أن الشاعر أكثر من النَظم في موضوعين فقط . ألفا أكبر نسبة في الديوان هي ٧٧ ٪ . وهذان الموضوعان هما الغزل والمديح . وقد أحرزت قصائد الغزل ـ من حيث عددها ـ النسبة الغالبة في الديوان فتصدرت . حيث بلغت (١٠١) نصاً مؤلفة ٥٧ ٪ من مجموع نصوص الديوان ثم تلتها قصائد المديح (٣٥) قصيدة بنسبة ٢٠ ٪ وأما الموضوعات الأخريات كوصف الطبيعة والرثاء والهجاء .. فتمثل بقية الديوان .

---

(١) ديوانه ٢٨٣ .

(٢) النفح ٣ / ٥٣٧ .

(٣) حوليات الجامعة التونسية العدد ١٩ سنة ١٩٨٠ .

جاءت قصائده الغزلية بصيغة مقطعات في الغالب تراوحت بين بيتين الى عشرة أبيات ولم تتجاوز عشرين بيتاً في جميع الأحوال، بينما كانت قصائد المديح ـ وهذا اتجاه عام في الشعر العربي ـ تميل الى الطول في عدد ابيات القصيدة، وعلى الرغم من تصدر قصائده الغزلية ـ من حيث العدد ـ فأن كفة المديح ترجحها وتتفوق عليها حيث اجتمع ما بين ايدينا من شعره المدحي في الديوان (٢٢٧١)[١] بيتاً، لكن عدد أبيات شعر الغزل جاءت في (٩٠٣) ففاق شعر المديح شعر الغزل حيث كان بنسبة ٦٧ ٪ وشعر الغزل ٢٦ ٪ وبقية الموضوعات ٧ ٪ والملحظ الآخر الذي يتضح عن الدراسة الاحصائية هو قلة ما نظمه الشاعر في موضوعات الشعر الأخرى اذ لم يحقق الشاعر تنوعاً في موضوعاته الشعرية .. هذا الى جانب مشاركته في نظم الموشحات اذ بين ايدينا خمس واربعين موشحة اربع وعشرين منها في الديوان والبقية في استدراك قوبعة .[٢]

والموضوعان اللذان غلبا على الديوان يمثلان الشاعر في مرحلتين من حياته، وباتجاهين مختلفين شعر جاد وآخر لاه وشعر المديح الذي رجحت كفته في الديوان، يمثل الاتجاه الأول في المرحلة الثانية من حياته بعد رحيله من اشبيلية الى سبتة حيث قصد الحسن بن خلاص، وعمل كاتباً لديه. كذلك امتدت علاقته بابنه كما اشرنا آنفاً، وتبلغ قصائد مديحه خمساً وثلاثين، تسعاً وعشرين قصيدة في الديوان وستاً في المستدرك واكثر ما نظمه الشاعر في اثنين هما ابو علي بن خلاص وابو عثمان بن الحكم حيث تأتي خمسة عشر قصيدة فيهما بحيث تؤلف ٤٣ ٪ من مجموع مدائحه ونصيب اسرة بني خلاص راجحة بين ممدوحيه حيث اختصها بأحدى عشرة قصيدة تسعاً منها في عميدها ابي علي الحسن بن خلاص بحيث الفت هذه القصائد ٣١ ٪ من مجموع مدائحه، ومن قصائده فيه قوله، ويبدو أنه يندبه لمساعدة اشبيلية ازاء حصارها :[٣]

أهدى التلاقي صبح وجهك مسفرا	فحمدت عند الصبح عاقبة السرى
الله أكبر قد رأيت بك الذي	يلقاه كل مكبر إن كبرا

---

(١) ادرجنا في الاحصاء الابيات التي يستهلها بالغزل في قصائد المديح وقد جاءت في ثماني قصائد وقصيدتان واحدة استهلها بالخمرة والثانية بوصف الطبيعة.

(٢) حوليات الجامعة التونسية ص ١٤٩ ـ ١٨٠، وهي مما اسقطه د. سيد غازي في ديوان الموشحات الأندلسية ٢ / ١٨٢ ـ ٢٤٩.

(٣) ق . ٤ .

يا أهل سبتةٍ اشكروا آثاره ... إن المواهب قيدها أن تُشكرا
هو فوقكم للأمن ظلّ سابغٌ ... لو أن ظلًا قد أضاء ونورا
يارحمة بالغرب شاملةً بدت ... فيه أعم من النهار وأشهرا
حمص التي تدعوك : جهز دعوة ... لغيائها إن لم تجهّزْ عسكرا

وأما الممدوح الثاني فهو ابو عثمان سعيد بن الحكم(١) اذ اجتمع لدينا فيه ست قصائد ، وهي مطولات وقد وصف ابو عثمان بالذكاء والفطنة والأدب ، فقد استطاع أن يهادن الروم ويحكم منورقة حوالي نصف قرن ، وكانت في عهده موطناً قصده فيها الشعراء والعلماء والادباء وقد اورد ابن سعيد كثيراً من اشعاره ومما قال ابن سهل فيه : .

تجلى شهاب للسعادة آفل ... وأخصب مرعى للمكارم ما حلُ
وراق محيا الدهر وافتر ثغره ... وحلي جيد منه واشتدّ كاهل
فتى لم تنم الا نبائله المنى ... كأن اكف المانحين يداخل
ولم تضحك الايام الا لوجهه ... كان الليالي السالفات ثواكل
بملك ابي عثمان أنشر غابرٌ ... وشيّد مهدوم وجدد مائل
ولولاه لم يسكن من الشرك طائش ... ولاذل معتز ولا لان صائل

وفي ابياته التي يشير فيها الى مداراته الروم بالمال والمهادنة يقول :(٢)

حاربت حزب الشرك عنه بالحجى ... والرفق مثل البطش يقصم أظهرا
وطعنتهم بالمكرمات وباللها ... في حيث لو طعن القنا لتكسرا
قد تجهل السمر الطوال مقاتلًا ... تلقى بها الصفر القصيرة أبصرا

وهو موقف من الشاعر يذكر بأبيات ابن اللبانة التي خاطب فيها المعتمد بن عباد الاشبيلي ، فأنكرها عليه ابن بسام .(٣)

أما موضوعه الثاني فيتمثل الشاعر في مطلع حياته بأشبيلية ، ولم يكن غزله مما ألف في بيئة الأندلس ، أو لدى شعراء الأندلس فكيف نفهم تغزل الشاعر بموسى بهذه الصورة الواضحة في أكثر قصائده الغزلية في الديوان ، هل يحمل على ظاهرة

---

(١) له ترجمة واسعة في اختصار القدح ٢٨ ـ ٤١ ، الحلة السيراء ٢ / ٢١٨ ـ ٢٢٠ ، الذيل والتكملة ٤ / ٢٨ مقدمة الديوان ٢٦ .
(٢) ق ٢٩ .
(٣) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٤٩ .

على أنه نزعة واقعية ، أم أنه رمز اوجده الشاعر ليعبر عن مشاعر دينية أو قومية على نحو ما يرى الافراني ،[١] ام انه نزعة تقليدية قصد فيها مجاراة اعلام هذا الفن ..؟ الراجح انها صورة تقليدية على نحو ما نجد نظيرها عند شاعر لم يثلب خلقه هو الرصافي البلنسي .

وقد رأى الدكتور احسان عباس في تعليل هذه الظاهرة ، ان غزله كان صورة لاخفاقه في ان يتحول الى انسان طبيعي مثلما كان صورة لاخفاقه في الحب ، وكان مما يزيد الاخفاق حدة في نفسه انه كان قبيح المنظر بشهادة صديقه ابن سعيد الذي أعجب بأدبه ..[٢]

وفي مجال الموازنة بينه وبين ابي نواس لمح احمد امين ان الأخير كان أجزل لفظاً وأمرح في غزله نفساً ، وكان متعدد النواحي .. أما هذا فشعره كله في غزله بموسى ، وكان اسهل لفظاً واحسن معنى .[٣]

ومن امثلة شعره في هذا الباب قوله :[٤]

عليـل شاقه نفسٌ عليـلُ	فجاد بدمعه أملٌ بخيلُ
أعد الصبر للأشواق جيشاً	فأدبر حين أقبلت القبولُ
ومعشوق الشباب له جفونٌ	تعلم كيف تختلس العقولُ
بديع الحسن تعشقه حلاهُ	أحتى الحسن يعشقُ أو يميل
أنا العبد الذليلُ ولافخارٌ	أتمنعني أقولُ : أنا الذليل
إذا ناديت أنصاري لما بي	تبرأ مني الصبرُ الجميل

سماته الشعرية :

ذكرنا ان الشاعر كان متأثراً بالثقافة الاسلامية . على نحو ماتكشف لنا اشعاره التي نقرؤها في الديوان ، وبين ايدينا منها قصيدة عينية مطلعها :[٥]

تنازعني الآمال كهلاً ويافعاً	ويسعدني التعليل لو كان نافعاً

---

(١) المسلك السهل ١٧ نقلاً عن مقدمة الديوان ص ١٧ .

(٢) مقدمة الديوان ص ١٨ .

(٣) ظهر الاسلام ٣ / ١٨٤ .

(٤) ق ٦٤

(٥) ديوانه ق ٩٩

وفي الديوان انه نظمها استجابة لدعوة ابي علي بن خلاص ، حاكم سبته . وفيها يصف رحلة الحجيج الى بين الله الحرام والمسجد النبوي ، وقد حظيت القصيدة بعناية المتأخرين في المغرب ومنهم ابو العباس احمد بن عبد الله الانصاري الذي خمَّسها ، ونال الكرامة بتخميسها . وربما زيد في القصيدة وهي في ثمانية وعشرين بيتاً . وفيها يقول :

وركب دعتهم نحو يثرب نية ... فما وجدت الا مطيعاً وسامعاً
تكاد مناجاة النبي محمد ... تنم بها مسكاً على الشم ذائعا

وهي قصيدة جيدة في المستوى الفني ، وقد اعجب بها من القدماء ابو حيان ووصفها بالابداع والبراعة بعد ان وقف عليها كاملة فقال : « وهي من أبدع ما نظم في معناها »[١]

وأما قصيدته الثانية التي تنضوي ضمن هذا الاتجاه فهي مخمسة ساقها المقري ومطلعها[٢]

جعل المهيمن حب احمد شيمة
واتى به في المرسلين كريمة
فغدى هواه على القلوب تميمة

وغدا هداه بهديهم تتميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما

وكذلك نجد بيتين تكثر المصادر من ايرادهما في سياق الحديث عن اسلامه وهما قوله :[٣]

تسليت عن موسى بحب محمد ... هديت ولولا الله ما كنت اهتدي
وما عن قلى قد كان ذاك وانما ... شريعة موسى عطِّلت بمحمدِ

ومن أمثلة تأثره بالثقافة القرآنية اشاراته الكثيرة الى اسماء السور في مثل قوله :

حسنه يتلو « الضحى » مبتسماً ... وهو من اعراضه في « عبس »

او قوله :

---

(١) النفخ ٢ / ٥٢٦

(٢) النفخ ٧ / ٤٤٥ ـ ٤٤٨ (وهي مما أخل به الديوان)

(٣) ديوانه ق ٣٢ ، ويرى الدكتور احمد امين انه ورى البيتين بفتى اسمه (محمد) بعد أن علقه ، لكنه لم يشر الى الرواية في ذلك ، ونستبعد ان يصح هذا الرأي ، لاننا لا نجد في شعره ما يؤيد ذلك (ينظر ظهر الاسلام ٣ / ١٨٤)

واغزُ تتلو « الفجر » غرته كما يتلو لقلبي « فاطراً » بجفونه

ويقتبس من سورة يوسف الآية ٣١ في قوله :

قطعت القلوب لك وقيل : ماهذا بشر !

ومن قصائده التي اكثر فيها من الاقتباس المباشر من القرآن الكريم يائيته التي جاءت في خمسة عشر بيتاً متأثرةً تأثراً واضحاً بسورة مريم وفيها يقول [١] :

لست أنسى الأحباب مادمت حيًا ولعمري نأوا مكاناً قصيا
وتلو آية الوداع فخروا خيفة البين سجداً وبكيا
وأناجي إلاله من فرط حبي كمناجاة عبده زكريا
وهن العظم بالعباد فهب لي رب بالقرب من لدنك وليا
واستجب سيدي دعائي فإني لم أكن بدعاك ربي شقيا

الا ان ما يؤخذ على الشاعر ـ في مجال الاقتباس ـ انه كان يقتبس في موضوعاته اللاهية غير الجادة وفي هذا ورد النهي عند اكثر العلماء ومنهم عمر بن خليل الاشبيلي الذي انكر عليه تضمينة آيات القرآن الكريم محرفة عما انزلت فيه وقال (وهذا كله وما اشبهه حرام اطلاقه)[٢]

الا أن هذا التأثر يأتي منسجماً في سياقه العام في بعض قصائده الجادة ـ على نحو ما نجده في قصيدته التي اجاب فيها ابا عبدالله بن السيد ابي عمران والى اشبيلية وجعلها كتاب استنفار لعرب المعقل[٣] :

وِرْداً فمضمون نجاح المصدرِ هي عزة الدنيا وفوز المحشرِ
نادى الجهاد بكم لنصرِ مضمرِ يبدو لكم بين العتاق الضمرِ
وتجشموا البحر الأُجاج فإنه سببٌ به تردون نهر الكوثر
إن الإله قد اشترى أرواحكم بيعوا ، ويهنكم ثواب المشتري
أنتم أحقُ بنصر دين نبيكم وبكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ذاك البناء بكل ألعسى أسمر
كم نكروا من معلمٍ ، كم دمروا من معشرٍ ، كم غيروا من مشعرِ

(١) اشعار لابن سهل رقم ٤٥ حوليات الجامعة التونسية العدد ١٩ ص ١٤١
(٢) مقدمة الديوان ٤١
(٣) الديوان ٤١

ك أبطلوا سنن النبي ، وعطلوا من حلية التوحيد ذروة منبرِ

وأما ثقافته النحوية فينبري للاعراب عنها في قصيدة يقول فيها[١]:

لامُ العذار لتوكيد الهَوى خُلقت أم للتعجبِ مما ذُقْتُه مُشقتْ
أم لابتداءِ صَباباتِ المُتيم أم لملكِ مُهجته للعينِ إذ رَمَقَتْ
أم لاختصاصي بنبل من لواحظه أمْ لاستغاثة قلبي منه إذ رُشقتْ
أم ذي لتعريفِ وجدي أم لجحد دمٍ خيولُه من مجاري أدمعي آستبقتْ

ومن السّمات المتميزة في بناء القصيدة لدى الشاعر . أنَ غزله جاءَ منفصلاً عن قصائد المديح . إذ لم يلتزم الاستهلال بالغزل في قصائده . على ما هو معهود لدى الشعراء[٢] . فمن مجموع قصائده في المديح التي تبلغ خمسة وثلاثين لم يستهل بالغزل الا في ٨ قصائد وقصيدتان اخريان استهل احداهما بالخمرة[٣] والثانية بوصف الطبيعة ، وبذلك تبلغ نسبة اهمال الشاعر ٧٢ ٪ من مجموع قصائده ومن امثلة هذه القصائد التي يباشر فيها المديح قوله يستهل قصيدة في مدح صاحب سبتة ابي علي الحسن بن خلاص[٤]:

أنــهــض بأمرك فالــهدى مــقــصودُ واسعدْ فأنتَ على الأنام سعيدُ
والأرضُ حيث حَللتَ قدْسٌ كلها والدّهر أجمع في زمانك عِيدُ
ماضـي الزمان عليك يَحسدُ حاله لا زال غَيظَ الحاسدِ المحسودُ

ابن الجنان الأنصاري

من شعراء عصر الموحدين ، ابو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري ، ليس بين ايدينا معلومات عن نشأته وحياته الأولى . ولكنّا نعلم من قصيدته الفائية بانه كان شديد التعلق بأبيه لا سيما بعد أن رحل هو عن مدينته مرسية الى اوريولة سنة ٦٤٠ هـ وكانت هجمة الأسبان عليها شديدة ..

هجرت داري واحبابي ومن شيمي وصل المُهاجرِ أمّا خانني وجفا

وفي القصيدة ذاتها نعلم أن له أخوين ويخاطبهما بعد وفاة ابيه بقوله :

---

(١) اشعار لابن سهل ق ٥

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٢٠ (ط دار الثقافة ـ بيروت)

(٣) ديوانه ق ٢٨

(٤) ديوانه ق ٢٢

يا ابني ابي اسعدا بالله صنوكما بـعـبرة تـفـضـح الـهـطالة الوَكـفا

وتوحي بعض ابيات القصيدة أن أباه كان عالماً أو محباً للعلم لأن الشاعر لا ينسى فضله عليه حين نشأه وربّاه وعلمه القرآن الكريم :

أيام علّمني التنزيل يمنحني منه الهُدى وعلى أخذى له اللُطفا
قد كانَ علةَ كوني ثم رشَّحني الى الحياةِ التي أرجو بها الزُلفا

تفاعل مع أحداث عصره السياسية . فانحاز الى محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل على الله الذي ثار بالأندلس على الموحدين في آخر دولتهم .. وكانت مدينة الشاعر مرسية اول مدينة تخضع لحكمه سنة ٦٢٣ هـ .. فقد حرر لابن هود وصيته المشهورة التي كتبها عنه الى أخيه الأمير . وهي طويلة معروفة[١] .

كما خاطبه في عدة قصائد منها قصيدته الميمية[٢] :

لله دَرك مـــن هـــمام عَلامة هاد امام
مـتـمـيز بمـآثـر بـيـن الأنام على الأنام
هو مـنـهـم لـكـنـه ايـن الـنـضار مـن الرَّغام

ويعدد فضائله ومآثره :

ذو عروةٍ أمـنـتْ قُوى مـن الانـفـصال والانـفـصام
ذو حـجة وبلاغةٍ وفـصول انواع الـكلام
يا كوثراً يَـلـقَى الـعـفا ة بالابـتـهاج والإبـتـسام
وأغد مـسـعاه الى يوم الـقـيامةِ والـقـيام

وبعد أن تسقط مرسية سنة ٦٤١ هـ . يبكيها أبو عبدالله بكاء حاراً . ويحدثنا عن فداحة نكبة المسلمين بها كانه شاهد عيان ويغادرها الى اوريونة ثم الى صاحب سبتة ابي علي الحسن بن خلاص (٦٣٧ ـ ٦٤٦ هـ)[٣] حيث يستدعيه ويحظى عنده بالمكانة لكنه لم يلبث ان رحل الى افريقية (تونس) واستقر ببجاية . ولعل ذلك كان بعد وفاة ابن خلاص .. فلئن صحَ ذلك فأنه يكون قد توفي بحدود سنة ٦٤٨ هـ لأن ابن المرابط الذي تحدث عنه واكثر من ايراد أخباره . كان قد انتهى

(١) النفح ٧ / ٤٠٦ ـ ٤١٤
(٢) ق ٣٥ وفي الديوان قصيدتان اخريان فيه رقم ٢٤ و ٢٩
(٣) البيان المغرب (تطوان) ٣ / ٣٥٩ . النفح ٧ / ٣٦٥ هامش ٢ .

من تأليف كتابه زواهر الفكر في سنة ٦٤٨ هـ وكان قد استخدم مع اسمه عبارات الترحم ، مما يدل على وفاته قبل انتهائه من تأليف الكتاب . وقد نص ابن الخطيب على أن وفاته كانت في عشر الخمسين وستمائة [١] .. وهو تحديد ينسجم مع ما ذكرناه

تشيد كتب التراجم بفضل الشاعر وعلمه حيث أحرز مكانة رفيعة بين علماء عصره وكان من ذوي المواهب المزدوجة ، شاعراً وناثراً ، جرت بينه وبين علماء عصره مخاطبات ومكاتبات ومنهم ، ابو الحسن الرعيني وأبو المطرف بن عميرة وابن المرابط ، وقد حفلت المنتديات الأدبية بأمثاله .. واغدقت نتاجاتهم الأدبية شعراً ونثراً .. فقد كان يطيب له أن يجيب من يسأله في النظم من ساعته [٢]، كما انه عارض رائية ابن الجهم المشهورة [٣] وشينية المتنبي [٤]، وبارى جلساءه في وصف طاووس [٥].

أثنى المؤرخون على شاعريته كما استحسنوا منه نثره البليغ حتى انه اصبح مضرب الامثال « وكتابته شهيرة . تضرب بذكره فيها الأمثال . وتطوى عليه الخناصر » [٦]. واظهر إعجابه بأدبه ابو العباس المقري في غير موضع من نفحه [٧].

ديوانه وموضوعات شعره :

على الرغم من غزارة نتاج شاعرية ابن الجنان . وبراعته وكثرة مراسلاته النثرية . واعجاب ابناء عصره به . فاننا لم نقف على اشارة الى ديوان شعره أو رسائله وذلك ما عرض اثار الشاعر الى الضياع والفقدان . وجل ما وصل منها جاء برواية واحدة أو مصدر واحد وتعرض الكثير منها للتصحيف والتحريف .

---

(١) الاحاطة ٢ / ٣٥٩

(٢) تنظر مواضع متفرقة مما نظمه اجابة لابن المرابط صاحب زواهر الفكر .

(٣) ديوانة ق ١٦

(٤) ديوانه ق ١٨

(٥) ديوانه ق ١٤

(٦) الاحاطة ٢ / ٣٥٢

(٧) النفح ٧ / ٤١٥ ، ٤٣١

وقد نهضت بجمع ما تبقى من شعره وتحقيقه . ووقع في الف واربعمائة بين[1] .

نستطيع أن نطلق على ابي عبدالله لقب شاعر المديح النبوي في القرن السابع الهجري ، وذلك لأنه يتصدر شعراء عصره في هذا الاتجاه غزارة نتاج وجودة شعر . وقد غني بمديح الرسول صلى الله عليه وسلم عن مديح ذوي الجاه والسلطان . وكفاه سؤال الله سبحانه مسألة الناس والتذلل لدى اولى الأمر والتزلف اليهم ، وابرز موضوعاته الشعرية اربعة هي الالهيات والنبويات والاخويات والرثاء .

والموضوع الأول والثاني يؤلف حوالي نصف الديوان . وهما يأتيان متصلين في كثير من قصائده ، اتصال ركني شهادة المسلم ... والشاعر بهذا يعد من كبار شعراء عصره ذوي النزعة الاسلامية الخالصة . التي كرّسها الشاعر في الموضوعين السابقين وأن لم يهمل الموضوعات الأخرى .

ويسلس قياد الشعر للشاعر في المناسبات الاسلامية كالحج وقدوم رمضان . واما الحج فقد أطال الوقوف عنده كثير من الشعراء ، وكان ميداناً خصْباً لانطلاق العواطف من عقالها وبث معاني اللوعة والشجون لا سيما حين تكرس ابيات القصيدة لهدف رئيس هو الشوق والتوق لزيارة بيت الله الحرام :[2]

يا حادي الركب قف بالله يا حادي	وارحم صبابة ذي نأى وأبعادِ
ما ينبغي عنك الا أن تصيخ له	سمعاً ليسأل عَمن حَلَّ بالوادي
بين الجوانح نار للجوى وقدت	فان قدرت فأخمد بعض اخمادِ
هيهات تستطيع اخماداً وذكرهم	يزيد نار ضلوعي نار إيقادِ

ويقول :[3]

لهن من الاشواق حاد فان ونت	حداة يرجّعن الحنين أهازجا
ألا بأبي تلك الركاب إذا سرت	هوادي يملأن الفلاة هوادجا
سما بهم طوفٌ ببيتٍ مطامح	أراهم قباباً للعلا ومعارجا
فأبدوا من الصدعات ما كان كامناً	وأذروا دموعاً بل قلوباً مناشجا

---

(١) الديوان قيد الطبع
(٢) ق ١٣ .
(٣) ق ٦

ويعظم شهر رمضان الركن الركين من الاسلام . فيودعه متشبثاً به . بعد أن انصرف في خطى سريعة وهو لا يعلم ان كان قد تحقق له في هذا الشهر الاجر والثواب [١] :

فيا عهده ما كان اكرم معهداً ويا عصره أعززِ عليّ أن انقضى
الم بنا كالطيف في الصيف زائراً فخيم فينا ساعة ثم قوّضا
فيا ليت شعري اذ نوى غربة النوى ابا لسُخط عناقد تولى أم الرضا
فلله من شهر كريم تعرّضت مكارمه الا لمن كان أعرضا

ويطيب له أن يتفانى في تقديم الطاعة في ليلة القدر :

فيا حُسنها من ليلة جلّ قدرها وحظ عليها الهاشمي وحرّضا
لعل بقايا الشهر وهي كريمة تبين سراً للاواخر أغمضا

ولا يعني الشاعر ان يحدث عن الذات الالهية . اذ لا ينحو منحى الفلاسفة بل يتتبع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام والسلف الصالح فيتفكر في الآء الله ونعمه ويقول : [٢]

يـ مـن تـقدس عـن أن يـحيط وصـف بذاتـه

وإذا ما أستغرق أبن الجهم بصفات محبوبه . واطلق العنان لمشاعره . وحلا له سماع حديث ظلوم وجارتها .. ومحادثتها ووصلها على الرغم من كبر سنه وشيبه . اذ لم يستطع كبح جماح نفسه وزجرها : [٣]

كفى بالهوى غياً وبالشيب زاجراً لو آن الهوى مما ينهنه بالزجر

وهو مما قاله في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

فيعارضها ابن الجنان بقصيدة على وزنها ورويّها ولكن قصيدته تأتي في سنة وأربعين بيتاً أقل من قصيدة ابن الجهم في ابياتها التي بلغت اثنين وستين بيتاً . وقد قصر الشاعر همه في المعارضة على قسمها الغزلي الذي بلغ حوالي ثلاثين بيتاً ..

---

(١) ق ١٩

(٢) ق ٥

(٣) ديوان علي بن الجهم تحقيق خليل مردم بك ص ٢٥٢

عيون النهى بين التدبر والفكر جلبن الهدى من حيث أدري ولا ادري

وفي القصيدة كشف لمشاعر الحب الالهي التي ملأت جوانح الشاعر وملكت جوارحه يتضاءل ازائها . الحب الحسي . فاين النور الالهي من الاهلتي التي حدثنا عنها ابن الجهم :

ولاح سنا مهما تبدي لناظر توارى سنا الشمس المنيرة والبدر
فهمت بمحبوب فهمت كماله فلم يلتفتْ الا لحضرته سِرى
له المثل الأعلى فلاند مشبه ولا مثلٌ في فضلٍ تسامي عن الحصرِ
قريب مجيب ظاهر وهو باطن وجل جلالاً عن حجاب وعن ستر

ويحدثنا عن اولياء الله الصالحين ، القانتين الذاكرين له اناء الليل واطرافَ النهار حتى يخلص الى القول بأن حبه لله سبحانه ملأ عليه أقطار كل شيء ، وجعله يصد عن العرض الزائل الممثل في عيون المها .

نهى النفس عما تشتهيه وصدَّ عن « عيون المها بين الرصافة والجسر »

وواضح ان القيم التي اراد التركيز عليها من خلال قصائده تقوم على مفاهيم التوكل على الله والتسليم له . والرضا التام بقضائه . واللجوء اليه ودعائه والتضرع اليه .

ان النسبة الغالبة من اشعاره نحت هذا المنحى الذي يعرب عن شخصية العالم الذي تشرب قلبه بحب الله سبحانه وحب رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهو يواجه مواقف الحياة المتنوعة بالتوجيهات التي جاء بها الكتاب القويم ورسوله الكريم .

فاذا نزلت به نازلة ، او حز به أمر عضال ، تجالد ازاءه ، واستسّلم لله سبحانه استسلاماً تاماً ، ينبىء عن حسن ظنه به ، وثقته بنصره لعباده ، وهذا شأن المؤمن ان اصابته ضراء صبر ، فكان له بذلك خير .. ويستخير الله سبحانه في آخر القصيدة كي يختار له الرشد والفلاح[1] :

سأصبر حتى ينجز الله وعده ولا بد للرحمن أن ينجز الوَعدا
وما زال لطف الله يفرج أزمةً إذا استصعبت عقداً او استحكمت شَدًا
فقد وثقت نفسي بوعدك سيدي وقد علقت منه الأذمة والعهدا

---

(١) ق ٨٠

وحسنت صبري راضياً ومسلماً ... وإن كان مني الصبر قد بلغ الجهدا
وخر لي ، وإختر لي فحسبي ما ترى ... من الأمر لي خيراً وتختاره رُشدا

وهو دائم التَّرداد لهذا الموقف ولا ييأس من روح الله بل يجرد من اليأس انساناً على سبيل الاستعارة يجهز عليه فيقتله[١]

سللت على اليأس الرميم عزيمتي ... حساماً ، فألفته قتيلاً مُضرجا
وقلت لنفسي : لا تراعي لأزمةٍ ... فكمْ نَفَّسَ الرحمن كرباً وفرجا
واذا كرهت الأمر فارضي وسلِّمي ... ففي طيه المحبوب ، يأتيك مُدرجا
ولي ثقة بالله أعلم أنها ... تسهل صعبي ، إن زمانيَ حَرَّجا

ويسمح ابن الجنان بالشعر فيجيب من يسأله على سبيل الارتجال ، وعلى نحو من التسبيح بجلال الله ، وذكره حيث يجعل اول البيت لفظ الجلالة وآخره كذلك[٢] :

لله أبعث رغبتي متيقناً ... ألا يخيب راغب لله
لله ألطاف تعاظم شأنها ... تخفى ويظهر سرها لله
لله أسأل من خزائن فضله ... ما رُد قبلي . سائلٌ لله
لله أدعو باضطرار إنه ... ليجيب مضطراً دعا لله
لله عفو واسع وتجاوز ... يرجوه مثلي عاصيا لله

وتقترن الظواهر الكونية بتسبيح الله والتمجيد له . فيقول من قصيدة حين ينحبس المطر مرة ويرغب الناس فيه ، ويتوسلون اليه تعالى[٣] :

لوجهه الحمدُ لا نُحصي الثناء له ... ولا نطيق له شكراً كما وجبا
أحيا البلاد وأرواها برحمته ... فاهتز هامدها من بهجةٍ وربا
فضلا من الله أولانا الجميل به ... فانظر لآثار رُحماه ترى عجبا

وثاني أبرز موضوعين في شعره ، هو النبويات ويزيد بها مدائحه للرسول عليه الصلاة والسلام وهو موضوع التفت اليه الشعراء في العصور المتأخرة ، واطالوا المكث عنده ، فبذلوا غاية الجهد في إظهار حبهم وولائهم له .. وهو يقترن بموضوعه

---

(١) ق : ٧
(٢) ق : ٥٢
(٣) ق ٤

السابق ، اذ قلما يثنى على الله سبحانه دون أن يصلي على النبي الكريم ويجعل ذلك في ختام القصيدة . والشواهد على ذلك من شعره كثيرة .

وفحوى مدائحه النبوية يدور حول التفاني في حب الرسول . والتفنن في ذكر مواجده واشواقه اليه ، وعرض خلاله وصفاته ، ومعجزاته .. والاستشفاع به يوم العرض على الله سبحانه ولا يجد بأساً من تكرار هذه المعاني في القصيدة تلو القصيدة[1] :

فما لي لا مالي سوى حب احمد　　وصلت له من قرب قلبي وشائجاً

ويقول في الأخرى :[2]

قد تشفعت من ذنوبي الى ذي ال　　عزة الواحد العلي السميع

والاستهلال بالمقال والختام لا يصحان الا بالصلاة والسلام عليه ولذلك يقول[3]

ابدأ مقالك بالثناء على النبي　　جلت محامده عن الاحصاء

ويقول[4] :

اختم بذكر محمد فبذكره　　يزكو شذا مسك الختام ويعبق

وينتهي الامر بالشاعر الى تأكيد مفهوم الصلاة والسلام عليه حين يعمد الى استهلال عدد من ابياته بعبارة :[5]

صلوا على خير البرية خيما　　وأجل من حاز الفخار صميما
صلوا على نور تجلى صبحه　　فجلا ظلاماً للضلال بهيما
صلوا على هذا النبي فإنه　　من لم يزل بالمؤمنين رحيما
يأيها الرّاجون منه شفاعةً　　صلوا عليه وسلموا تسليما

وتقوم مخمسته الوحيدة على هذه العبارة « صلوا عليه وسلموا تسليما » وذلك بعد كل اربعة اشطار[6] .

---

(١) ق ، ٦

(٢) ق ، ٢٦

(٣) ق ٢

(٤) ق ، ٢٩

(٥) ٣٧

(٦) ق ، ٢٨

ولا يمكننا ان نغفل ابرز قصيدة للشاعر في المديح النبوي تلك الموسومة بـ « القصيدة المباركة الشريفة[1] » ولئن كان المقال يتسع فيها ويطول في غير مطال .. فاننا نشير الى ابرز مناحيها التي تلتقي بقصائده الاخرى اذ هي تقوم على اساسين :

اولهما : ذكر معجزاته عليه الصلاة والسلام . وهي كثيرة
وثانيهما : الحديث عن خصاله وشمائله

وفي القصيدة تأكيد على مكانته الخاصة ومنزلته التي آثره الله بها .. وفيها سمة التكرار . وهي سمة مؤكدة في شعره في غير قصيدة

واما الموضوع الثالث الذي نظم فيه الشاعر فشعر الأخويات والمراجعات وهو موضوع تميز فيه الشاعر تميزاً ملحوظاً وقد اكثر النظم فيه امثاله من الشعراء العلماء والفقهاء الذين كانت صلاتهم قوية مع بعضهم وكانت المنتديات تجمع فيما بينهم . وابرز علماء عصره الذين كاتبهم شعراً ونثراً ابو بكر بن المرابط الذي بين ايدينا سبع قصائد في حوالي مئتين وخمسين بيتاً تقترن بخطابه ويبدو ان صلة قوية كانت تربطه به وانهما كانا تربين وصديقين حميمين ثم ادى اضطراب الامور بمرسية التي جمعتها الى التفريق بينهما فكانا يتراسلان ولا سيما في مناسبة كالعيد حيث يخاطبه فيقول : [2]

دنا العيد ليت العيد لم يدن وقته ... فقد هاج لي وجداً وزاد عراما
فمن لي بأعياد تعيد مسرتي ... بمغنى . به خط الجلال حماما
عسى أحرفي تحظى بقرب منى المنى ... فتنهي الى أهل الصفاء سلاما

وتصوره قصائده في مراسلاته على حالة من الشوق الى صاحبه وشوقه يختلط بمأساته التي دعته الى مغادرة الوطن ولذلك جاءت همومه واحزانه مسطورة في رسائله[3]:

ياليت شعري هل يرى ... من بعد فرقتنا اجتماع ؟
إنـي سألتك ذاهلاً ... والفكر في كفّ الضياع
لم يدر ما كتبت يراعته مشوقا ذو ارتياع

---

(١) ينظر مقالنا عنها في مجلة الرسالة الاسلامية ص ٩٧ العدد ١٧٦ سنة ١٩٨٤
(٢) ق ٣٦
(٣) ق ٢١

فـــــمـاعـــكـــم أخـــباره ... فــــيـــــه على الــــحالِ اطلاع
ولــــــــه بذلـــــــك راحةٌ ... ما ساغ تـــــسريــــــب الرقاع

ومن ابياته التي تصور غربته وحنينه الى الوطن قوله [١]:

سلام كما قد جاء من ذلك المجد ... كشمس الصبا جرت ذيولاً على نجد
تسير بأشواقي إليك حثيثةً ... تؤكد في بثي ، لبثي لكم وكدي ؟
أحن حنين النيب نحو دياركم ... وأشكو ، وقلبي في ذراكم ، من البعد
يظل قريح الجفن محترق الحشا ... فكف على جفنٍ وأخرى على كبدِ
يسائل من يلقاه وهو مولهٌ : ... أعندك يا هذا حديث عن المجدِ ؟

وقصائد المجاوبات تنحو منحى شعر المعارضات من الناحية الفنية حيث يلتزم ثاني الشاعرين الموضوع والبحر والقافية لقصيدة الاول . وعلى هذا النحو نقف على قصائد اخرى مماثلة لسابقتها في خطاب ابي العلاء بن المرابط صاحب زواهر الفكر وجواهر الفقر ، الذي ضم اكثر هذه المراسلات واكثر اشعار ابن الجنان . وهي تتجه للاخويات اكثر مما تتجه للرسائل الجوابية لان ابا العلاء لم يعارض ابن الجنان على نحو ما فعل ابن عمه ابو بكر بن المرابط .

وتحفظ المصادر مراسلة ادبية تتميز على سابقتها جرت بين ابي عبدالله شاعرنا وابي عبدالله بن عابد وابي الحسن الرعيني والمراسلة جاءت شعراً ونثراً وقد بدأها شاعرنا اذ كتب رسالة التزم فيها حرف العين في جميع كلماتها وهو يريد ان يفتح باب المساجلة معه مظهراً براعته اللغوية في رسالته فذاعت تلك الرسالة على نحو ما يذكر ابن عبد الملك المراكشي واسقط في يد ابن عابد ولم يراجع ابن الجنان ودخل المساجلة ثالثهما أبو الحسن الرعيني فكتب رسالته وافتتحها بأبيات سبعة ملتزماً حرف العين وعلى نحو رسالة ابن الجنان فيجيبه شاعرنا برسالة أخرى مستهلة بأبيات نونية ملتزماً بكلمة عين في ابياتها اجمع لأن الرعيني التزم حرف العين قبل روى ابياته ومنها قوله : [٢]

أتعتبني عمادي عمد عين ... وعين العذر تعرفه كعيني
وعهدي عهد معتقدٍ عليمٍ ... بمعتز اعتزازك في رعين
وعجزي معلنٌ بالعذر عني ... فدع عتبي أيا سمعي وعيني

---

(١) ق ١١

(٢) ديوانه ق ٤٦ .

ويا معتام صنعته اختراعاً   عجيب النوع معتاماً لعين

ويختمها بقوله :

وبعض الشعر عن عين عري   فعد الموضعين بموضعينِ

ويذيع خبر هذه المساجلة الادبية الطريفة في جزيرة الأندلس ، فيدخلها رابع هو ابو المطرف بن عميرة (ت ٦٥٨ هـ) شارة للأعجاب بابن الجنان والرعيني ، ويختار لرسالته الحرف الذي يجمع فيه بين اسميهما ، النون وينشيء رسالته مستهلًا اياها بابيات مطلعها :

محاسن دنيانا تبين لناظر   ينقب عنها مستبينا لعينها

ولكن الرسالة لم تصل الرعيني ـ كما ذكر ذلك ابن عبد الملك المراكشي ـ بعد الاضطرابات التي حلّت بالأندلس ومنها مدينة ابي المطرف ، بلنسية ، ويحفظ ابن عبد الملك رسالة يشتاق فيها الرعيني الى رسالة ابي المطرف بن عميرة تلك ، اذ انه سمع بها ولم يطلع عليها .

ولا بد لنا ان نشير الى رابع موضوعاته الشعرية ، ذلكم هو الرثاء ، والظاهر انه وافق من نفسه سبباً .. حيث كانت قصائده طويلة النفس فاجتمع حوالي اربعمائة بيت في سبع قصائد وكانت اطول قصيدة في الديوان في رثاء ابيه في مئة وواحد وسبعين بيتاً ومطلعها :

لا امنع الدمع أن يهمى وان يكفا   ولا ازال بربع الحزن معتكفا

وقد سلك بها افانين متشعبة وسبلاً متعددة على نحو ما بسطت القول فيه[1] .

ولا تقل عنها قصيدته الكافية التي رثى فيها شيخه ابي الحسن سهل بن مالك التي مطلعها :

دعوني وتسكاب الدموع السوافك   فدعوى جميل الصبر دعوة آفك

اما ابرز السمات الفنية التي اتسم بها ابو عبدالله ، فقد كانت اشعاره في مجملها مطبوعة غير متكلفة ، ولكنه كان معنياً بلغته واسلوبه على نحو ما نلاحظ في قصيدته الدالية التي كرر فيها « سلام » في مطالع ابياتها جميعاً في مائة وواحد

---

(١) تنظر مقدمة الديوان(قيد الطبع)

واربعين بيتاً[١] . او على نحو ما يكرر جملة « صلوا على » في سبعة ابيات ، وجملة « صلوا عليه وسلموا تسليما »[٢] في جميع ابيات مخمسته (الوحيدة) وعبارة « يارب » في سبعة ابيات[٣] . وشبه الجملة « الله » في واحد وعشرين بيتاً بداية البيت وآخره[٤] وعلى نحو ما وجدناه من التزامه حرف العين في كلماتها اجمع[٥] . او اختتامه ابيات القصيدة بكلمة « عين »[٦] بحيث يصبح أسلوبه ضرباً من التكلف . وللشاعر قصيدة اعتمد فيها ضرباً من التكرار يطلق عليه البلاغيون محبوك الطرفين حيث استهل ابيات قصيدته بحرف الشين وانهاها به[٧] .

ومما يأتي منسجماً مع حضور بديهته ، واسماحه بالشعر ، عدد من قصائده التي قالها ساعة اقتراحهم عليه القول في الموضوع .. على نحو ما اشرنا اليه حين درسنا موضوعاته الشعرية وكانت لغته سهلة ميسورة . وهو ما ينسجم مع موضوعات الزهد والمديح النبوي التي يقصد بها مخاطبة جمهور كبير من المسلمين ، لا طبقة خاصة من الأدباء .

على ان عدداً من قصائده ، قصد الشاعر فيه تخير الاساليب وفصاحة الالفاظ وبناها بلغة متميزة ، ومنها قصيدته الكافية التي رثى فيها استاذه فهي تعرب عن ثروته اللغوية وهذا الاتجاه هو الأقل في الديوان ... ويلاحظ انه يعمد الى المحسنات البديعية في عدد من قصائده ، حيث كان يؤكد على الجناس بين هذه الفنون في مثل قوله[٨] :

نراهم سواماً من سراهم أصبحوا رسوماً على تلك الرسوم عوالجا
لهم من منى اسنى المنى ولدى الصفا يرجون من اهل الصفاء المناهجا

او في قوله[٩] :

فهمت بمحبوب فهمت كماله فلم يلتفت الا لحضرته سري
وصول به نلت الوصول الى المنى وفي وصله ، صرحت للغير بالهجر
معتقةٌ كم اعتقت عبد غيرها وكم ملكت في ذلك العتق من حر
نداؤهم إن مسَّ مسّ من الجوى جوانحهم : رحماك ياكاشف الضر

---

(١) ق ٩ (٢) ق ٣٧ (٣) ق ٣٧ (٤) ق ٥٢ (٥) ق ١٥ (٦) ق ٤٦ (٧) ق ١٨ (٨) ق ٦
(٩) ق ١٦

المبحث الثاني

النثر

النثر في عهد الموحدين وبني الاحمر

موضوعاته وخصائصه

اشرنا في دراستنا للحياة الثقافية والادبية الى حالة الازدهار التي بلغتها في هذين العهدين ولم يكن نصيب النثر أقل من شطره الثاني الشعر . وبين ايدينا مصادر كثيرة احتفظت لنا بديوان النثر في عصر الموحدين في مقدمتها الرسائل الموحدية التي جمعها ليفي بروفنسال وهي تتضمن سبعاً وثلاثين رسالة(١) . وكذلك كتاب الاحاطة في اخبار غرناطة . تضمن اكثر من مائة نص نثري ولا بن الخطيب ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب . تضمن رسائل كثيرة ، ويتضمن كتاب الذيل والتكملة بأجزائه المتفرقة مجموعة أخرى من الرسائل النثرية وفي كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ثمانية عشر نصاً نثرياً . وللبيدق ابو بكر الصنهاجي كتاب أخبار المهدي الذي نشر مع كتاب المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الأصحاب للسبكي(٢) .

ويتضمن مخطوطان اندلسيان مهمان مجموعة قيمة من الرسائل اولهما فصل الخطاب في ترسيل الفقيه ابي بكر بن خطاب (ت ٦٨٦ هـ) حيث تضمن مائة وتسع رسائل(٣) واما الثاني ف (زواهر الفكر وجواهر الفقر) الذي فرغ ابن المرابط من تأليفه سنة (٦٤٨ هـ) اذ تضمن مجموعة كبيرة من الرسائل .

وقد نبغ في هذين العصرين من اعلام الكتابة عدد كبير خلف نتاجا غزيراً في النثر بحيث تكاد نصوصه تخرج عن دائرة الاحاطة والتحديد خلافاً للنثر في العهود التي سبقته وذلك لجملة اسباب منها ، انه كان عهد تدوين للادب . ولطول العهد الذي استغرق حوالي ثلاثة قرون ونصف(٤) .

لقد حظيت فنون النثر بعناية امراء الموحدين وسلاطين بني نصر فقد اعتمد ابن تومرت على الخطابة في نشر دعوته وتثبيتها واما المنصور الموحدي فقد كان

---

(١) رباط الفتح ١٩٤١ (٢) طبعة باريز ١٩٢٨ (٣) تنظر مجلة دعوة الحق ص ٩٠ ـ ١٠٠ العدد ٢٤٩ سنة ١٩٨٥ (٤) ينظر ابو المطرف بن عميرة ٢٤ ـ ٢٨

يجمع الخطباء ليستمع اليهم وهم يتنافسون في اظهار براعتهم وتفوقهم ومن هؤلاء الخطباء محمد بن عبد العزيز بن عياش وسهل بن مالك . وكذلك كانت عنايتهم بالتوقيعات الأدبية ومن ذلك توقيع الخليفة عبد المؤمن على القصيدة التي ارسلها وزيره ابو جعفر بن عطية يستعطفه حيث كتب (الآن قد عصيت من قبل . وكنت من المفسدين)

ان ازدهار النثر في هذين العصرين يجعلنا نلم بضروب مختلفة من النثر الفني فضلاً عما اشرنا اليه من خطب ووصايا وتوقيعات . ففي مجال الرسائل نقف على الرسائل الديوانية والاخوية والوصفية ورسائل المناظرات وفي مجال النثر التأليفي نحظى بصور مختلفة منها ما يتصل بالتفاسير والسير والتراجم وكتب الرحلات وفي مجال النثر القصصي نتعرف على القصة الفلسفية التي ابتدعها خيال ابن طفيل والمعروفة بأسم قصة حي بن يقظان . ونتعرف على كتب المقامات الكثيرة .

ونظرة عجلى في كتاب فصل الخطاب الذي عرفنا به الاستاذ العلوي البلغيثي تجعلنا نتعرف على ابوابه العشرة فقد جاء الباب الاول في البيعات اي كتب البيعة اما الباب الثاني ففي البشائر والفتوحات والاستصراخ والاستمداد . والاضراخ والانجاد والظهائر واما الباب الثالث ففي المجاملة والمواصلة والاهداء والتعريفات واما الرابع فيدور حول العنايات وجاء الباب الخامس ليختص بالاخويات والسادس للتهاني والسابع للتعازي والثامن للصدقات والتاسع للالغاز والعاشر لمعارضة ابي الفرج ابن الجوزي .

لقد خلص الدكتور عباس الجراري الى ابرز الخصائص التي تميز بها النثر في عصر الموحدين ومنها ما لاحظه من تنوع في موضوعاتها واما اسلوبها فقد مال الى الوضوح والجزالة والمحسنات البديعية والرسائل تبدأ بذكر امير المؤمنين والدعاء له وذكر من توجه اليه الرسالة وعبارة اما بعد ثم التحميد والصلاة على الرسول وصحابته وذكر المهدي والثناء عليه ثم بدأ الرسالة حيث الدخول الى الموضوع وذكر مكان الارسال وتاريخه وقد مال عدد من امراء الموحدين الى الايجاز . فقد ذكر ابن عذاري ان المنصور طلب من كاتبه ابي الفضل ان يوجز غاية الايجاز . وان ينحو فيه منحى كتب الصحابة (رضى الله عنهم) في فتوحاتهم ومما قاله في هذا الشأن : (الفتح اعظم من الاطناب في وصفه)[1] .

---

(١) البيان المغرب (تطوان ٢ / ١٩٧)

الا اننا نلاحظ ميل الرسائل بشكل عام الى الطول من حيث بناؤها . واما لغتها فقد كانت متنوعة بحيث تعكس ثقافة الكاتب وبراعته في التأليف فقد كانت بعض الرسائل تميل الى النثر المرسل واخرى تميل الى الصنعة اللفظية . وقد لاحظنا المزج بين النثر والشعر او الانتقال في الرسائل من الاسلوب النثري الى الشعري اذ ان ابرز اعلام النثر كانوا شعراء امثال ابن صفوان وابن الخطيب وابن الاحمر وغيرهم كما يلاحظ ميلهم الى الاقتباس والتضمين . وقد لاحظ احد الباحثين المحدثين في دراسة للنثر في هذين العهدين من حيث المضامين الفكرية والروحية الى انه كان يميل الى الاسلوب الوجداني ويعمق الروح الوطنية الاندلسية والروح العربية الاسلامية [١] .

ومن النماذج التي تمثل النثر في هذا العصر الرسالة التي كتبها ابو بحر صفوان التجيبي الى الأمير عبد الرحمن بن يوسف بن عبد المؤمن [٢]. وقد اختار لها موضوعاً طريفاً حيث جعلها في الحوار والمناظرة بين مدن الاندلس يرى الدكتور مصطفى السيوفي في اسلوب الكاتب انه تميز بالرقة والسهولة التي اصبحت طبعاً في الكاتب يتصرف من خلاله . كما لاحظ ميل الكاتب الى الاقتباس من القرآن الكريم بكثرة دون اشارة لذلك بل يقتبس من القرآن الكريم على نحو ما يقتبس الحكم والأمثال دون الاشارة لصاحب القول او الحكمة . كما تميز بمهارته في المزج والتركيب بين اساليبه والأقوال التي اقتبسها . في براعة وحذق بحيث يقر الباحث لهم بالتفوق التجديدي في النثر [٣] . والرسالة بهذه الخصائص تقترن من المقامات ولذلك ادرجها بعض الباحثين ضمن هذا الفن ولكنا نرى أن فرقاً رئيساً لم يلتفت اليه . ذلك هو لغة الرسالة التي تخالف لغة المقامات . فهذه تميل الى الرقة والسهولة وتلك تجنح الى التعقيد اللفظي . وتعمد الى المحسنات البديعية المتكلفة بقصد اظهار البراعة اللغوية .. كما ان صفوانا لم يختر لرسالته ان تكون مقامة والا لصرح بذلك . اما انها تشابه اسلوب رسالة ابن الخطيب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والامصار . فذلك ليس دليلاً قاطعاً . لأن رسالة ابن الخطيب المذكورة مستهلة بذكر الراوي والبطل وهما من عناصر المقامات بينما لا نجد ذلك في رسالة صفوان .

---

(١) النثر الاندلسي في عهدي الموحدين وبني الاحمر ، رسالة دكتوراه للطالب حسين نصر جامعة بغداد ١٩٨٧ .

(٢) ينظر عنه البيان المغرب ـ القسم الموحدي ١٦٦ (تحقيق محمد الكناني وآخرون ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ودار الثقافة ـ الدار البيضاء سنة ١٩٨٥ .

(٣) ملامح التجديد في النثر الاندلسي ١٢٩ ـ ١٣٢ ، الا أن الدكتور السيوفي تحدث عن هذه الرسالة على أنها من نثر القرن الخامس الهجري علماً بأن صفوان التجيبي قد توفي سنة ٥٩٨ هـ .

وفكرة الرسالة التي وجهها لأميره الأثير الى نفسه تقوم على أساس اعجاب مدن الاندلس به ومنافستها في دعوته للاقامة فيها لأن الله القى محبته حتى على الجماد ، والحوار تبدأ به اشبيلية فقرطبة ، فغرناطة فمالقة ، فمرسية ثم بلنسية التي تكون آخر المتحدثات ، فتدعو للأمير بالتوفيق المؤزر وتختم الرسالة بالسلام . واليك هذا النموذج منها[١] :

« مولاي ، أمتع الله ببقائك الزمان وابناءه ، كما ضم على حبك احناءهم واحناءه، ووصل لك ما شئت من اليمن والأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان ، فإنك الملك الهمام ، والقمر التمام ، أيامك غرر وحجول ، وفرندُ بهائها في صفحات الدهر يجول . ألبست الرعية برود التأمين . فتنافست فيك من نفيسٍ ثمين . وتلقت دعوات خلدك لها باليمين . فكم للناس ، من أمنٍ بك وإيناس ، وللأيام ، من لوعة فيك وهُيام ، وللأقطار من لُبانات لديك وأوطار . وللبلاد ، من قراع لها على تملكك لها وجلاد ، يتمنون شخصك الكريم على الله ويقترحون ، ويغتبقون في رياض ذكرك العاطر بمدام حبك ويصطحبون . (كل حزب بما لديهم فرحون) (الروم : ٣٢) .

فنظرتها قرطبة شزراً ، وقالت : لقد كثرت نزراً ، وبذرت في الصخر الاصم بزرا ، كلام العدى ضربٌ من الهذيان ، وأنى للإيضاح والبيان ، متى استحال المستقبح مستحسناً ، ومن أودع أجفان المهجور وسناً (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) (فاطر : ٨) . يا عجباً للمراكز تُقدم على الأسنة وللأثفار تفضل على الأعنة . إن رعيتم سبقا (فما عند الله خيرٌ وأبقى) لي البيت المطهر الشريف ، والاسم الذي ضرب عليه رواقه التعريف .

فقالت غرناطة : لي المعقل الذي يمتنع ساكنه من النجوم ، ولا تجري إلا تحته جياد الغيم السجوم ، فلا يلحقني من معاند ضررٌ ولا حيف ، ولا يهتدي إلي خيال طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولاً وفعلاً (فقد أفلح اليوم من استعلى) (طه ٦٤) .

فقالت مالقة : أتتركوني بينكم هملا ، ولم تعطوني في سيدنا أملا ، ولِمَ ولي البحر العجاج والسبل الفجاج ، والجنات الأثيرة ، والفاكهة الكثيرة ، لدي من البهجة ما تستغني به الحمام عن الهديل ، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشى إلى تعويض عنه ولا تبديل ، فما لي لا أعطى في ناديكم كلاماً ، ولا أنشر في جيش فخاركم أعلاما ؟

---

(١) نفح الطيب ١ / ١٧٠ ـ ١٧٥ ، مقدمة زاد المسافر ١٣ ـ ١٨ .

فقالت مرسية : أمامي تتعاطون الفخر ، وبحضرة الدر تنفقون الصخر ؟ إن عُدّت المفاخر ، فلي منها الأول والآخر ، أين أوشالكم من بحري وخرزكم من لؤلؤ نحري ، وجعجعتكم من نفثات سحري ؟

ومن النماذج الطريفة التي تمثل النثر في عصر الموحدين رسالة ابي المطرف بن عميرة في وصف الطبيعة[١] .

« كتابي هذا من وادي الزيتون ونحن فيه مختلفون ، ببقعة اكتست من السندس الأخضر ، وتحلت بأنواع الزهر ، وتخايلت بأنهار تتخللها ، وأشجار تظللها ، وتحجب أدواحها الشمس لالتفافها ، وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها ، وما شئتم من محاسن تروق وتعجب ، وأطيار تتجاوب بألحان تلهي وتطرب ، في مثلها يعود الزمان كله صباً ، وتجري الحياة على الأمل والمنى ، وأنا فيها ـ أبقاكم الله سبحانه ـ بحال من طاب غذاؤه ، وحسن استمراؤه ، وصحا من جنون العقار ، واستراح من مضض الخمار ، وزايلته وساوسه ، وخلصت من الخباط هواجسه » .

ولا شك ان النصوص النثرية الأحمرية اعتراها ما اعترى نصوص النثر المشرقية ، حيث سادت طريقة القاضي الفاضل كما يقرر ذلك الباحثون ، ولعل ابرز سمة في طريقته هي المبالغة في المحسنات البديعية والصنعة اللفظية القائمة على السجع والطباق والجناس واسباغ الالقاب على السلطان في الرسائل الديوانية ، وكانت هذه الالقاب تزيد في بعض الأحيان على ثلاثين لقباً يصر السلطان المملوكي على أن يلقب بها دون زيادة او نقصان[٢] كما سيأتينا النص حين نقف عند دراسة ابن الخطيب .

ابن الخطيب[٣] (ت ٧٧٦ هـ)

هو ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله السلماني ، المعروف بابن الخطيب قرطبي الأصل ثم طليطليه ثم لوشيه ثم غرناطيه[٤] . من اشهر اعلام

---

(١) النفح ١ / ٥٣٤ .

(٢) الادب الاندلسي الشكعة ٥٧٢ .

(٣) ينظر : محمد عبدالله عنان لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري ط الخانجي القاهرة ١٩٦٨ .

(٤) الاحاطة ٤ / ٤٣٩ .

القرن الثامن الهجري بالأندلس ، ومن أعظم كتاب عصره وشعرائه ويبالغ الاستاذ عنان حين يقول : « بل هو من اعظم كتاب الأندلس وشعرائها على الاطلاق »[١] ربما كان السبب في نعته هذا النعت ، المنزلة السياسية التي تحققت لابن الخطيب ، وتنوع شخصيته العلمية ، وغزارة نتاجه على مستوى العلوم الانسانية المتنوعة .. ويحق للأندلس أن تزهو بابنها البار الذي اقترن اسمه بها كما اقترنت هي به ، فقد مثّل الحركة الفكرية في الأندلس على عصره ، بل كان صاحب مدرسة اتخذت لها طابعه العبقري الفذ ، وغدت في اوج قوتها وروعتها ممتدة الى أوائل القرن التاسع الهجري ، وتجاوز غرناطة واتسع نطاقها الى أبعد ما يتصوره العقل[٢] .

ولمكانته العريضة أصبح عنوان عصره ، في فنون الأدب وضروب العلم ، فحين أراد الاستاذ عبدالله كنون دراسة أدب عهد غرناطة وملوك بني الأحمر قال :

« فان واحداً منهم يكفي للتنويه بنهضة الشعر فيه ، هو لسان الدين بن الخطيب الذي ملأ الدنيا شعراً وأدباً ، وعفّى ذكره على السابقين واللاحقين من ادباء الأندلس ، فما من مجال الاوله فيه ذيل سحب ، وما من موضوع الا وقد تناوله بذراع رحب ، وبقدر ما له في الشعر من الآيات البينات ، فان له في النثر الفني ، والكتابة العلمية والتاريخية الآثار الخالدات ، وبالجملة فقد كان معجزة قطره ، ومفخرة عصره »[٣] .

« ولمكانة ابن الخطيب وقوة اشعاره وقر في بعض الاذهان ان تربة الاندلس المسلمة قد عقت فلم تنتج أدباً او علماً او فناً ، فكأن سطوع ذلك الاشعاع اعشى الابصار فلم تعد ترى غيره »[٤] .

ولد ابن الخطيب في « لوشة » في رجب ٧١٣ هـ وكان جده سعيد أول من استوطنها من أسرة عربية النجار من حيث الأب والأم ذات جذور طيبة في الفضل والعلم ، وقد عرف بيته قديماً ببيتي وزير ، ولما مارس جده الأدنى التعليم والتدريس غلب عليه لقب « الخطيب » وورثه فيه ابناؤه ، كما تولى جده فضلاً عن ذلك بعض المناصب الادارية وكذلك شغل ابوه « عبدالله » منصباً في دولة ابن الوليد اسماعيل وقد كانت نشأة أبي عبدالله الأولى في غرناطة وفيها حلّ الشباب

---

(١) لسان الدين بن الخطيب ٢٠٠

(٢) يوسف الأول : ١٥٨ .

(٣) الشعر الأندلس مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٣١ / ٣ / ١٩٥٦ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

(٤) مجلة اوراق ٧ / ٨ ـ ١٩٨٥ .

تمائمه .. لكن « لوشة » ظلت وتراً يترنم به ، حيث كان يسميها بنت الحضرة ، اي « بنت غرناطة » ، وغرناطة يومها في عنفوانها احدى اعظم حواضر الأندلس ، ولذلك سميت « سنام الاندلس »[١] بعد انحسار دولة المسلمين الى الجنوب .

اخذ علوم عصره على يد اكابر علماء العصر[٢] ، امثال ابن الفخار الالبيري شيخ النحاة والمحدث شمس الدين بن جابر الوادى آش . والقاضي ابي البركات بن الحاج البلفيقي وابي جعفر بن الزبير . واما الأدب والكتابة والشعر فقد اخذها عن ابن الحكيم اللخمي ، وابي الحسن بن الجياب . وعن ابي سعيد فرح بن لب .

وحين توفى ابوه سنة ٧٤١ ، خلفه في ديوان الانشاء الذي كان يرأسه ابو الحسن بن الجياب وزير السلطان ابي الحجاج يوسف بن اسماعيل (٧٣٤ ـ ٧٥٥) ، فتولى امانة سر هذا الديوان . ثم خلف ابن الجياب بعد وفاته بسبب الوباء الجارف عام ٧٤٩ هـ فأصبح رئيس الكتاب ورئيس ديوان الانشاء . كما انعم عليه السلطان رتبة الوزارة و « تألق نجم ابن الخطيب وعظمت منزلته »[٣]. وحين خلف محمد الغني بالله (٧٥٥ ـ ٧٦٠) سلطان أبيه يوسف . بقي ابن الخطيب في منصبه وما زال فيه حتى نشبت الفتنة سنة ٧٦٠ هـ فيتولى شقيقه اسماعيل الحكم . ويرحل ابن الخطيب والغني بالله الى المغرب ، ولم يزالا كذلك حتى عادا الى الحكم ثانية .. واحفظ حسّاده عليه السلطان فنكبه . ثم غادر الأندلس الى المغرب لاجئاً سياسياً . وانتهى الأمر بسلطان الأندلس ، بتحريض الفقهاء ، أن أحرق كتبه سنة ٧٧٣ هـ ، ثم تولى حكم المغرب الأمير احمد بن ابي سالم ، وحقق لابن الأحمر ما أراد في ابن الخطيب حين سجنه ثم قتله ، سنة ٧٧٦ هـ .

وفيما تقدم المامة سريعة لحياة هذا الأديب الكبير ، وبأمكان الدارس التعرف على مزيد من التفصيلات بالرجوع الى عدد من المصادر ، في مقدمتها الترجمة الواسعة التي كتبها ابن الخطيب بقلمه وجعلها بقية السفر الثاني عشر في الاحاطة[٤]، وهي تتضمن معلومات تفصيلية عن حياته ، فضلاً عن النصوص الشعرية الطويلة التي أوردها والنصوص النثرية الزاخرة في هذا السفر الثمين .

---

(١) **اللمحة البدرية ص ٢١ .**
(٢) **ينظر في شيوخه لشيخته التي ذكرها في ترجمته لنفسه الاحاطة ٤ / ٤٥٨ .**
(٣) **لسان الدين بن الخطيب ٣٦ ـ ٣٧ .**
(٤) **الاحاطة ٤ / ٤٥٩ ـ ٤٦٢ .**

وقد بدأ تلك الترجمة بالحديث عن أوليته ، ومراحل حياته الاولى ، وانتقل الى الكلام في بعض ما صدر له من التشريفات الملوكية ، وتحدث عن مشيخته ، وعن تآليفه ، وأورد أمثلة من شعره ، ومن رسائله المختلفة ، ومنها رسالة السياسة .

ومن أوسع الذين ترجموا لابن الخطيب ، المقَري في كتابه نفح الطيب ، فقد كان معجباً أشد العجب به وذلك ما دعاه الى تأليف كتابه في مراحله الأولى بعنوان عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب[1] ، ثم غير ابو العباس المقري خطة بحثه ليفيد اهل المشرق بمعلومات اخرى كثيرة عن الأندلس ، فكان كتابه المعروف بنفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، وقد استغرقت ترجمة ابن الخطيب القسم الثاني من هذا الكتاب الموسوعي وكما جعل القسم الأول الخاص بالأندلس في ثمانية ابواب فأنه التزم هذا العدد من الأبواب في التعريف بابن الخطيب ، ويلي كتاب النفح في الأهمية كتاب اعمال الاعلام ، حيث نجد حديثاً مفصلاً .. لا غنى للباحث عنه .

ومما يدخل في المرتبة الثانية في الكتب التي ترجمت لابن الخطيب ، الترجمة القيمة التي قدمها صديقه ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) في كتابه المشهور «العبر ..» ومما يدخل في المرتبة الثالثة في المصادر التي تناولت ابن الخطيب ، كتابا الامير أبي الوليد بن الأحمر (ت ٨٠٧ هـ) ، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ، ونثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان[2] . وكتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، لابي زكريا يحيى بن خلدون (ت ٧٨٠) .

آثاره ومؤلفاته :

يعد ابن الخطيب احد الاعلام القلائل في تاريخ الأندلس الذين كان لهم نتاج خصب في ميدان التأليف وقد وقف الدارسون على أشهر مؤلفاته من خلال مصادر ترجمته وهي تأتي عند الاستاذ محمد عبدالله عنان مصنفة حسب موضوعاتها والاعداد التي وصلت منها ، حيث بلغت نحواً من ستين كتاباً ، وصل منها حوالي ثلثها[3] ، ونستطيع أن نصنف آثاره في ثلاثة أضرب ،

---

(١) مقدمة محقق النفح ١ / ١٥ ، وقد أشار المقري (النفح ٦ / ١٦٤) أن حديثه عن ابن الخطيب ، أصل القصد اليه في تأليف الكتاب ، وان غيره كالتبع له .

(٢) كلا الكتابين نشر بتحقيق د . محمد رضوان الداية ، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ ، ومؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٧٦ .

(٣) لسان الدين بن الخطيب ص ٢١٦ .

النثر التأليفي ونريد به مصنفاته وتآليفه . وهي أهم ما في تراث ابن الخطيب ويتجه بعضها نحو نزعة موسوعية . ويأتي الآخر بصيغة رسالة موجزة . وهي تنحو وجهتين . الأولى : تاريخية والثانية : علمية . وقد اشار الاستاذ عنان من النوع الأول الى أحد عشر مصنفاً . من أشهرها : الاحاطة في اخبار غرناطة . التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى . الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالاندلس من شعراء المئة الثامنة . اللمحة البدرية في الدولة النصرية . نفاضة الجراب في علالة الاغتراب . اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر . الاكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر . عائد الصلة . الاماطة عن وجه الاحاطة .

ولا يمكننا أن نغفل دور ابن الخطيب المؤرخ ومكانته في هذا الميدان ولا سيما في التاريخ المعاصر له . فقد عد عنان كتبه من أقيم ما كتب في تاريخ الأندلس والمغرب في القرن الثامن[١] . وعلى الرغم من أن نظريته في فهم التاريخ لا ترقى الى نظرية عصريّه ومزامنه ابن خلدون . فالتاريخ عنده رواية واداة لتدوين السير . والاعتبار بالحوادث الماضية[٢] . ويلخص عنان أبرز خصائصه في مجال التدوين التاريخي وهي أخذه بالمنهج النقدي للرواية التاريخية . وكذلك أخذه بالمنهج الاجتماعي في دراسة التاريخ . واخيراً اتسمت كتاباته بالتثبت والتحقيق . ولا سيما فيما كتبه عن عصره[٣] ...

وأما الوجهة الثانية التي سلكتها مؤلفاته ونعنى بها العلمية . فقد خلف مجموعة من المصنفات بلغت سبعة وهي في مجملها رسائل في الطب وفي الأغذية وعلاج السموم ومنها رسالته التي كتبها عن الوباء (الطاعون) الذي عم الأندلس وسائر العالم الاسلامي سنة ٧٤٩ هـ وهذه الآثار ذات قيمة علمية جعلت المتخصصين يهتمون بها . ومما يتصل بهذه الآثار منظوماته العلمية . ومنها أرجوزته الموسومة « الحلل المرقومة في اللمع المنظومة » وهي وعدتها ألف بيت . في أصول الفقه وارجوزته التي ألفها في العروض . وقد وصلت تحت عنوان « كناش منظوم في عروض الرجز » وله أرجوزة اخرى في فن السياسة في ستمائة بيت .

وأما الضرب الثاني من مؤلفاته فيتصل برسائله الأدبية وسنتوقف عندها بشيء من الأناة حين الحديث عن نثره . وأما الثالث فيتصل بشخصية ابن الخطيب

(١) لسان الدين ابن الخطيب ٢١٧ .

(٢) نفسه ٢٢٠ .

(٣) نفسه ٢٢٠ .

الشاعرة وهي تؤلف الشطر الثاني من آثاره وقد وسم ديوانه بعنوان « الصيب والجهام والماضي والكهام »[١] ، ولا يحتوي الديوان جميع اشعاره فقد أظهر لنا الجزء الرابع من كتاب الاحاطة الذي صدر سنة ١٩٧٧ ، مجموعة ضخمة من أشعاره لم ترد في الديوان . وقد وصلت الينا كتب اخرى تمثل مجاميع شعرية اختارها ابن الخطيب ، ومنها كتاب السحر والشعر[٥] ، وكتاب جيش التوشيح الذي يعد أوسع مجموع شعري للموشحات . كما سيأتي الحديث عنه في موضوع الموشحات . وقد جمع ابن الخطيب مجموعة من شعر استاذه ابن الجياب على نحو ما فعل في جمعه لمنثوره كما جمع مجموعة من شعر ابي جعفر بن صفوان المالقي وكلا المجموعين مفقود[٣] .

واذا كنا تحدثنا عن مصنفات ابن الخطيب في الفنون المختلفة ، فلا بد أن نشير الى أن عدداً كبيراً منها لم يصل الينا . ولا نشك في أن للمحنة التي تعرض لها في آخر حياته أثراً في فقدانها ، وقد أشار الاستاذ عنان الى تسعة منها[٤] .
والخلاصة في آثاره ومصنفاته البيتان اللذان قالهما المقري معجبا[٥] :

تصانيف الوزير ابن الخطيب ألذُّ من الصّبا الغض الرّطيب
فأية راحة ونـــعـــيـــم عـــيـــشٍ توازي كتبه أم أيَّ طيب

واستحسن عباس المراكشي البيتين اللذين أوردهما المقري فذيلهما معرباً عن إعجابه بالجانب الأدبي من ابن الخطيب فقال[٦] :

وما زين الشباب وأنت تجري مع الأحباب في لهو وطيب
ووصلٍ من حبيبٍ بعد هجرٍ بأحلى من كلامِ ابن الخطيب

شاعريته :

أشرنا قبل قليل الى الموهبة التي انماز بها ابن الخطيب . فقد كان من ذوي المواهب المزدوجة . حيث جمع بين ملكتي الشعر والنثر . وتفوق فيهما جميعاً .

---

(١) حققه د . محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية الجزائر ١٩٧٣ .
(٢) ممن حققه السيد عمار ابراهيم قدور ، جامعة عين شمس ١٩٧٥ .
(٣) لسان الدين بن الخطيب ٢٧٤ .
(٤) لسان الدين بن الخطيب ٢٨١ .
(٥) النفح ١ / ٧٦ .
(٦) الاعلام للمراكشي ٣ / ٢٥٣ .

وقد أشاد الباحثون بشاعريته قديماً وحديثاً حيث تناولت أشعاره اكثر موضوعات الشعر التقليدية فنظم القصيدة السياسية في باب المديح كما نظم في الغزل والزهد والتصوف والمديح النبوي . وكانت له مساهمات واسعة في ميدان التوشيح والزجل .

وانعقد الاعجاب به شاعراً لدى علماء عصره واترابه فهذا ابن خلدون يقول فيه « ونبغ في الشعر والترسيل بحيث لا يجارى فيهما . واصبح شاعر الأندلس والمغرب في عصره »[١] وأما ابو الوليد بن الاحمر فقد وصفه بقوله « هو شاعر الدنيا . وعالم المفرد والثنيا وكاتب الأرض الى يوم العرض . لا يدافع مدحه في الكتب . ولا يجنح فيه الى العتب . آخر من تقدم في الماضي وسيف قوله ليس بالكهام اذ هو الماضي ... نفيس العروتين ورئيس الدولتين .. »[٢] .

وقد ساق الاستاذ عنان طائفة من أقوال المستشرقين الذين بُهروا به . واعجبوا بأدبه فقد وصفه المستشرق سيمونت بأنه أمير الأدب الغرناطي وأنَ شهرته وصلت بلاط[٣] قشتالة . ووصفه المستشرق جسبار ريميروا بأنه شاعر وكاتب وضاء وآخر الطرافة والرُشاقة . واما المستشرق خوسية كاسيارو فقد عده آخر عملاق في الآداب الاسبانية الاسلامية . ويرى المستشرق الاسباني غرسية غومس أنه قدر له أن يختم حوليات الأندلس المجيدة أقوى ختام وأعظمه في النفس وقعاً . وأما بالنثيا فقد أعجب هو الآخر به وبتلميذه ابن زمرك فوجدهما فريدين في بابهما . وأنه أعظم شعراء العصر الغرناطي[٤] .

ومن العرب المحدثين الذين اختصوا شاعريته بالدراسة التفصيلية باحثان أعدًا في دراستهما رسالتيهما . اولهما : الدكتور محمد الشريف قاهر . حيث قام بتحقيق ديوانه ودراسة أدبه دراسة تفصيلية . وثانيهما : وهاب سعيد الامين جاءت دراسته موسومة بـ « شعر لسان الدين بن الخطيب وخصائصه الفنية »[٥] .

ولنا أن نتوقف وقفة عجلى عند أمثلة من أشعاره التي أشرنا الى موضوعاتها قبل قليل . واكثر أشعاره تقترن بممدوحه الأثير الذي أحرز عنده مكانة . ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل فقد اشار محقق الديوان الى تسعة وأربعين قصيدة تشتمل على

---

(١) العبر ٧ / ٦٨٩ .
(٢) نثير فرائد الجمان ٢٤٣ .
(٣) لسان الدين ٢١٤ .
(٤) مقدمة الديوان ١٢٩ .
(٥) جامعة القاهرة ١٩٨٠ .

حوالي الفي بيت أقترنت به وجاءت تلك القصائد في مناسبات مختلفة كالتهنئة بعيدي الفطر والأضحى ، أو الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، وقدوم النيروز ، وازدياد مولود ، وتعزية بمفقود ، والاشادة بعمل عظيم او التهنئة بالبيعة ، ونستطيع أن نعد قصائده سجلاً حافلاً للوقائع العسكرية التي انتصر فيها ممدوحه على ملوك اسبانيا ، فمن ذلك قوله يصف حصار جبل الفتح ، وهلاك الاذفونش عام ٧٥٠ هـ [١] :

ألا حدثاها فهي أم العجائبِ	وما حاضر في وصفها مثل غائب
هو الخبر الصدق الذي وضحت به	سبيل الهدى بعد التباس المذاهب
سيوفك في أغمادها مطمئنة	ولكن سيف الله دامي المضارب
لقد طوق الأذفنش سعدك خزية	تجدّ على مر العصور الذواهب
إذا قيل أرض الله إرث عباده	بموجب تقوى أنت أقرب عاصب
ألست من القوم الذين اذا انتموا	نمتهمُ الى الأنصار غر المناسب

أما ممدوحه الثاني الذي قال فيه أشعاره فهو محمد الغني بالله الذي خلف أباه يوسف بسلطان غرناطة ، وفيه نظم قصيدته الداليه التي تقع في أربعين بيتاً يهنئه ببيعته عام ٧٥٥ هـ [٢] :

إمام هدى من آل سعد نجاره	ونصر الهدى ميراثه لبني سعد
غمام ندى جاء البلاد فأصبحت	تجرر ذيل الخصب والعيشة الرغد
من النفر الوضاح والسادة الألى	يغيثون في الجلى ويوفون بالعهد

ثم يمدح اسماعيل بن يوسف الثائر على اخيه محمد بقصيدة واحدة ، وكان اول ممدوحيه من ملوك بني نصر سادسهم ابو عبدالله محمد بن اسماعيل (٧١٥ ـ ٧٢٠ هـ) .

أما الغزل عنده فهو يرد استهلالاً لقصائد المديح والتهاني على عادة الشعراء ، ويأتي ضرب آخر من قصائده في هذا الباب غزلاً خالصاً بقصائد مفردة فيه وفي الديوان عشر قصائد في هذا الاتجاه ومنها قوله [٣] :

يا حبيبا من لعيني أن تراه	قد رمى حبك قلبي وبراه

---

(١) الديوان ق ١٨ .

(٢) الديوان ق ١٧٣ .

(٣) الديوان ق ، ٢٤٧ .

لم يدعْ هجرك لي من رمق — آه مما فعل البين وآه
يا لقلبي كلّما هبّت صَبا — شفّه الوجد لأيّام صِباه
يا نسيمَ الريح بلِّغ خبري — إنْ أتيت الرَّبع أو جئت حماه
ولقد كنت صبوراً إنما — صدع البينُ فؤادي وكواه
جلّ ما ألقاه من فَرط الجوى — حَسبيَ اللّه ، فلا رَبَّ سواه

وتغلب مسحة دينية على أشعاره فنتعرف على رجل ورع يميل الى التصوف ، ويضرع الى الله كما يتشوق الى لقائه ، ولديه قصائد كثيرة في هذا الاتجاه ، ومن ذلك قوله[1] :

جلا الحقّ قلبي حتى أنارا — فآنستُ من جانبِ الطّور نارا
وحققتُ آنيتي وهي كنز — فأخرجته إذ هدمت الجدارا
وأبصرتُ رسمي رسماً محيلا — وأبصرتُ وصفي وصفا معارا
فمهما نطقت ، نطقت ادكارا — ومهما صمتُّ صمتَ اعتبارا

كذلك نجد الشاعر ينظم في ضرب من الشعر الديني اطلق عليه الدارسون اسم « المولديات » وهو معدود في باب المديح النبوي الذي انتعش ـ كما تقدمت الاشارة اليه في عهدى الموحدين وبني الاحمر وقد جرى فيه على مذهب شعراء المديح النبوي الذين يستهلون قصائدهم بالغزل ثم يخلصونها في مدح الرسول وينتقلون بعدها الى مديح من رفعت اليه القصيدة ، ومن ذلك قوله من قصيدة في حوالي اربعين بيتاً في الجناب الكريم وهي من اوليات نظمه في ذلك الغرض ، لكن الملاحظ انه لم يستهلها بالغزل بل بوصف تباريح الشوق الى الحضرة النبوية حيث يقول فيها :[2]

هل كنت تعلم في هبوب الريح — نفساً يؤججَ لاعج التبريح
وخضيبة المنقار تحسب أنّها — نهلتْ بمورد دمعي المسفوح
فاحت بما تخفي وناحت في الدجى — فرأيت في الآفاق دعوة نوح

وينتقل الى وصف زيارته عليه الصلاة والسلام :

لما حططت لخير من وطىء الثرى — بعنان كل مولد وصريح
يا صفوة الله المكين مكانه — يا خير مؤتمن وخير نصيح

(١) الديوان ق ، ٢٥٧ .

(٢) ديوانه ق ، ١٤٢ ، الاحاطة ٤ / ٤٦٢ .

أقرضت فيك الله صدق محبتي | أيكون تجري فيك غير ربيح ؟
مدحتك آيات الكتاب فما عسى | يثني على علياك نظم مديحي
صلى عليك الله ما هبت صبا | فهفت بغصنٍ للرياض مرووح
واستأثر الرَّحمن جلَّ جلاله | عن خلقه بخفي سرّ الروح

وأما ما تبقى من موضوعاته الشعرية ، فيدور في موضوع الرثاء والأخويات ، واما شعر الهجاء فقد كان مقلاً فيه ، ومن فنونه البديعية التي اولع بها ، ما قاله في مقطوعات في غرض التورية[١] :

قال لي والدموع تنهل سحبا | في عراض من الخدود محول
بك ما بي فقلت مولاي عافا | ك المعافى من عبرتي ونحول
أنا جفني القريح يروي عن الأعـ | ـمش و الجفن منك عن مكحول

وله في باب التضمين ابيات كثيرة من ذلك قوله مضمناً من آية[٢] :

قال جوادي عـــــندما | هــمزت هــمزاً أعــجزه
الى مــتى تــهــمزنــي | « ويــل لــكــل هــمزه »

ومن ذلك قوله مضمناً معنى الحديث الشريف[٣] :

أصبح الخدّ منك جنة عدن | مـجـتلى أعـيـن وشـم أنوف
ظـلـلـتـنا مـن الـجـفون سـيوف | جنة الخلد تحت ظل السيوف

والسمة الملاحظة في بناء قصائد ابن الخطيب ، أنه حقق فيها ضرباً من التنويع ، فجاءت بين مقطعات ومطولات ، وفي باب المقطعات أورد امثلة كثيرة ، في كتاب الاحاطة ، وهو يقصد هذا البناء قصداً حتى انه استهلها بقوله : « المقطوعات المشتملة على الاغراض العديدة »[٤] .. والعبارة تنطوي كذلك على رغبته في تنويع موضوعاته .

---

(١) الاحاطة ٤ / ٤٩٨ .
(٢) الاحاطة ٤ / ٥٠٩ .
(٣) الاحاطة ٤ / ٥٠٩ .
(٤) الاحاطة ٤ / ٤٩٧ ـ ٥٢٥ .

نثره :

لقد مضت بنا الصفحات حديثاً عن شاعرية ابن الخطيب . وقد انطوت شهادات ابناء عصره وعصرنا على اشادة بأدبه شعراً ونثراً .. ولكنا اخترنا الوقوف وقفة اناة وتؤدة عند نثره لنفصل القول فيه بعد أن ضرب بسهم وافر . ولم يدع زاوية الا خاض فيها او اتجاها الا واختار القول فيه .

وعلى نحو ما اثنى مؤرخو الأدب على شعر ابن الخطيب . اثنوا على نثره . فقد اعجب المقري فقال : « اما نثره فهو البحر الزخار . بل الدر الذي به الافتخار »[١] .

وقد اشرنا خلال حديثنا عن آثاره الى ضروبها . وبعضها مما يتصل بموضوعنا . اذ نجد النثر التأليفي عنده من أبرز انماط النثر . وذلك يتجلى في مقدمات كتبه . وفي سياقها كذلك . فقد نوّه في مقدمة « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » بتحميداته التي صدر بها عدداً من كتبه ومؤلفاته فساق أمثلة من ثلاثة عشر مصنفاً من مصنفاته قال عنها : « بعض من كل ويسير من جل »[٢] وهي بستان الدول . وتلخيص الذهب . وجيش التوشيح . واللمحة البدرية . ورقم الحلل والسحر والشعر . وتاريخ غرناطة . والتاج المحلى . وروضة التعريف واستنزال اللطف والوصول لحفظ الصحة .. وكأنه بذلك يريد أن يهيىء أمثلة للكتّاب في الكتاب الذي جعله ريحانةً لهم ومنتجعاً . فمن ذلك ما ثبته في كتاب تلخيص الذهب المرفوع الى خزانة السلطان المقدس المجاهد . ابي الحجاج بن نصر رحمه الله عليه[٣] :

« أما بعد حمد الله . الذي قصر وصف الكمال المحض على ذاته . وجعل الألسن تتفاوت في رتَب البيان ودرجاته . والثناء عليه . بما به على نفسه أثنى من أسمائه الحسنى وصفاته . والاعتراف بالقصور عما لا تدركه قوى الأذهان من كنه سلطانه العظيم الشأن . فكثيراً ما كان عجب الإنسان من آفاته . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد . الصادع بآياته . المعجز ببيناته الذي اصطفاه لحمل أمانته العظمى . وحباه بالقدر الرفيع . والمحل الأسمى والله يعلم حيث يجعل رسالاته . والرضى عن آله وأصحابه وأحزابه نجوم الدين وهداته . وأنصار الحق وحُماته »

---

(١) النفح ٦ / ١٦٤ .

(٢) ريحانة الكتاب ٢١ وقد ساق المقدمات ص ٢١ ـ ٥٢ .

(٣) نفسه ٢٢ .

إن أكثر رسائل ابن الخطيب كانت سلطانية أو ديوانية ، وليس ذلك غريباً على من تولى رآسه ديوان الكتابة ، وكانت دولة بني نصر تمرّ بأيام حاسمة بعد أن تكالب عليها الاعداء من كل حدب وصوب فطمعوا فيها وسعوا الى القضاء عليها .. فكانت مهمة ابن الخطيب خلال تلك الظروف العسيرة ـ مهمة شاقة تحتاج منه براعة ودقة .. لا سيما لمن يكون في موقع المسؤولية التي كان فيها ابن الخطيب. ولذلك وجد فيها ضرباً يعد من أروع نماذج النثر الدبلوماسي .[١]

ومن رسائله المشهورة رسالته[٢] التي كتبها عن سلطان الأندلس الغني بالله الى سلطان مصر أحمد بن الناصر قلاوون يشرح فيها أحوال الاندلس والمخاطر الخارجية التي كانت تهددها حيث وقف عندها عدد من الدرارسين بالدراسة والتحليل فقد جاءت ممثلة للاتجاه الذي غلب على رسائله في الاطالة والاطناب ، ويلاحظ ان رسالة ابن الخطيب ، التزمت بالتقاليد المرعية ، في استهلالها ، بالحمدلة والصلاة والتسليم على الرسول الكريم ،[٣] على نحو ما التزمته الكتابة المشرقية ، الا اننا لم نجد البسملة في مستهل نصوصه النثرية ، ولعلها سقطت بسبب من الاختصار والايجاز .. الا انّ السّمة المميزة لتحميداته أنها غالباً ما تطول ، وهو أمر ينسجم مع طول الرسائل بشكل عام ، وكذلك نجد مقدمات رسائله الموجهة للسلاطين والملوك من حيث الطول .. ، ثم يسوق التحميد بعدها . فرسائله من هذه الناحية . تختلف عما نجده في رسائل القرن الخامس الهجري ، حيث جاءَتْ خلواً من التَحميدات على نحو من الخطبة البتراء أو الشوهاء ،[٤] وقد قدم الدكتور حازم عبدالله وجوهاً من التعليلات في ذلك[٥] .. ولا تخلو رسائله (الأخويات) لا سيما تلك التي غَلبت عليها صفة اللهو والمرح ، من الإخلال بالتحميد[٦] .. وقد تقدمت الاشارة الى سمة اسباغ الألقاب على السّلطان في الرّسائل الديوانية وهي صفة اتسم بها نثر العصر تدخل في باب استخدام الترادف في أساليب التعبير .

---

(١) لسان الدين بن الخطيب ٢٠١ .

(٢) نفح الطيب ١ / ٢٢٢ .

(٣) وقد تتبعت هذه الظاهرة فاطردت في مقدمات كتبه جميعها .

(٤) سميت خطبة زياد بن ابيه « البتراء » وفي تعليل التسمية يقول الجاحظ « .. ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد « البتراء » ويسمون التي لم توشح بالقرآن ، وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : الشوهاء » .

(٥) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٦٢ .

(٦) ينظر النفح ٦ / ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

لقد أنكر عدد من الدارسين على ابن الخطيب ميله الشديد الى السّجع المتكلف ومن هؤلاء الاستاذ أحمد ضيف الذي حدد أبرز خصيصتين انماز بهما ابن الخطيب في مجمل رسائله « وكان قدر الكتابة عنده في الاكثار لا في الإجادة أو أن الاجادة كانت لا تفارق الاطالة لديه ... فكانت كتاباته لا تخلو من مللين : ملل الاطالة ، وملل السجع . وربما كان أعظم عيب في أسلوب ابن الخطيب تلك الإطالة المملة والسجع المتكلف »[1] ويبالغ ضيف في انكار هذا النهج على ابن الخطيب حتى يقول معقباً على استخدامه السجع « وهذه الطريقة دليل على انحطاط اسلوب النثر لأن طريقة السجع ليست طبيعية ولسان الدين كان من أكبر رجال هذه الصناعة وربما انفرد بالمبالغة فيها »[2]

أما نظرة الدكتور مصطفى الشكعة فتأتي أكثر واقعية من نظرة سلفة أحمد ضيف فقد وجد رسائل ابن الخطيب منسجمة مع عصرها بل أشار الى انها كانت مصرة على السير في ركاب قرينتها المشرقية واقتفاء أثرها .[3] ذلك لأن الكاتب كان خاضعاً لمواضعات عصره من الاعتناء بالمحسنات البديعية ، مستجيباً للذوق السائد في ذلك العصر مواكباً لأساليب النثر المشهورة وفي مقدمتها طريقة القاضي الفاضل ..

ويشير الدكتور الشكعة الى ان ابن الخطيب بالغ في استخدامه الالقاب السلطانية في رسالته حتى انها أوشكت ان تبلغ مائة لقب وصفة ، وهي أكثر بكثير مما كان يرضي السلطان نفسه . ولكن ربما كان للكاتب هدف في ذلك طالما كان ساعياً الى الاستنجاد والاستعانة بجيشه .

ومن التحميدات أتى الكاتب منها بأربع وعشرين سجعة على حرف واحد وهو أمر إن أجازه الشعر فأن النثر لا يستسيغه ، فالنثر من الانتثار والنظم من الانتظام . فأذا ما نَوع الكاتب في سجعه وبَدل في جرسه كان ميسراً على قارئه غير مثقل على سمعه ..[4]

« الأبواب التي تفتح لنصرها أبواب السماء . وتستدر من آفاقها سحاب النعماء . وتجلى بأنوار سعدها دياجي الظلماء . وتعرف نكرة البلاد والعباد بالانتساب الى

---

(١) بلاغة العرب في الاندلس ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٢) نفسه ٢١٦ .

(٣) الادب الاندلسي ٥٧٢ .

(٤) الشكعة ٥٧٩ .

محبتها والانتماء، على اختلاف العروض وتباين الحدود وتعدد الأسماء، ويجتزىء من صلات صلاتها عند الموانع من كمال حالات صفاتها بالإيماء. وتحمل لها التحية ذوات الدواسر والألواح طاعنة نحر الصباح على كتد الماء. أبواب السلطان الكبير. الجليل الشهير. الطاهر الظاهر. الأوحد الأسعد الأصعد الأمجد. الأعلى العادل. العالم الفاضل الكامل. سلطان الإسلام والمسلمين. عماد الدنيا والدين. رافع ظِلال العدل على العالمين. جمال الإسلام. علم الأعلام. فخر الليالي والأيام. ملك البرين والبحرين. امام الحرمين. مؤمل الأمصار والأقطار. عاصب تاج الفخار. هازم الفرنج والترك والتتار. الملك المنصور ابن الأمير الرفيع الجادة. الكريم الولادة. الطاهر الظاهر. الكبير الشهير. المعظم الممجد الأسمى. الموقر الأعلى. فخر الجلّه سيف الملّة تاج الامارة. عز الاسلام. مستظل الأنام. قمر الميدان. أسد الحرب العوان. المقدس المطهر. الأمير أحمد ابن والد السلاطين »[١].

الا ان هذه السمة لا تبلغ جميع انماط نثر ابن الخطيب بل نجدها في السلطانيات فقط. حيث تنسجم المبالغة في المحسنات البديعية مع فكرة اظهار التعظيم والتبجيل للسلطان.. كما تنسجم مع أدب المقامة التي سنسوق عليه مثالاً فيما بعد. الا ان المقرى لاحظ في اسلوب ابن الخطيب انه يميل الى الترسل دون السجع في نفاضة الجراب ومما ساقه بين يدي حديثه ما قاله ابن الخطيب في مكناسة الزيتون:

« وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد. رافلة في حلل الدوح. مبتسمة عن شنب المياه العذبة. سافرة عن اجمل المراد. قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى. قيد النص وفذلكة الحسن. فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً.. والتفت بسوره الزياتين المفيدة. وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو اليه الطرف. ورحب ساحة والتفاف شجرة ونباهة بنية وإشراف ربوة. ومثلت بإزائها الزاوية القدمى المعدة للوراد. ذات البركة النامية. والمئذنة السامية. والمرافق المتيسرة. يصاقبها الخان البديع المنصب الحصين الغلق الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى. تقابلها غرباً الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال »[٢]

---

(١) النفح ١ / ٣٢١ ـ ٣٢٢

(٢) النفح ٦ / ٢١١

ومن الخصائص الموضوعية لدى الكاتب ، ما رآه الدكتور أحمد امين في نثره يتسم بدقة الوصف وغزارة المعنى »[١]

وبعد أن وقفنا عند أبرز خصائص نثره لا بأس أن نقف على نص من ضروب نثره في التراجم فمما قاله مترجماً لابي عبدالله الشديد محمد بن قاسم بن احمد بن ابراهيم الانصاري الجياني الأصل ثم المالقي قال[٢] :

« جملة جمال من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله ، بلبل دوح السبع المثاني ، وماشطة عروس أبي الفرج ابن الجوزي ، وآية صقعه ونسيج وحده في حسن الصوت وطيب النغمة ، اقتحم لذلك دسوت الملوك ، وجر أذيال الشهرة ، عذب الفكاهة ، ظريف المجالسة ، قادراً على المحاكاة ، متسوراً حمى الوقار ، ملبياً داعي الانبساط ، قلد شهادة الديوان بمالقة فكان مغار حبل الأمانة ، شامخ مارن النزاهة ، لوحاً للالقاب ، وعززت ولايته ببعض الألقاب النبيهة ، وهو الآن الناظر في أمور الحسبة ببلده ، ولذلك خاطبته برقعة أداعبه بها وأشير إلى أضداده بما نصه :

يا أيها المحتسبُ الجزل ... ومـن لديـه الـجد والـهزل
يهنيك والشكر لمولى الورى ... ولايةٌ لـيـس لـها عزلُ

وقد عرف ابن الخطيب بمراسلاته مع ابناء عصره من العلماء والادباء ، فضلا عن المراسلات التي تولاها عن السلطان ابن الاحمر وكانت تجري مجرى الاخويات والمجاوبات ومن اروعها المراسلة التي جرت بينه وبين الاديب ابن خاتمة الانصاري (ت ٧٧٠ هـ) وذلك بعد أن انقبض عن الخدمة للدولة ، ونفر عن الأندلس بالجملة فمما قاله ابن خاتمة :

« وإلى هذا يا سيدي ومحل تعظيمي وإجلالي ، أمتع الله تعالى بطول بقائكم ، وضاعف في العز درجات ارتقائكم ؛ فإنه من الأمر الذي لم يغب عن رأى العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ، أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دُرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وكمال زينها على العموم والخصوص ، وختم الرسالة بقوله :[٣]

---

(١) ظهر الاسلام ٢ / ٢١٩

(٢) النفح ٦ / ١٦٨

(٣) ازهار الرياض ١ / ٢٦٧

« فالشمس وإن كانت أم الأنوار ، وجلاء الأبصار ، مهما أغمى مكانها من الأفق قيل : أليل هو أم نهار ، وكما في علمكم ما فارق ذوو الأرحام ، وأولو الأحلام ، مواطن استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم ، واستبدال دار خير من دراهم ، ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب « ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُباد ، وما فوقه مرابط جهاد ، ومعاقد ألوية في سبيل الله ومضارب أوتاد ، ثم يبوىء ولده مبوأ أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيذ أنظاركم المسددة من رأى فائل ، وسعي طويل لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد » قال ابن الخطيب : فاجبته بقولي :[1]

لم في الهوى العذري أولا تلم	فالعذل لا يدخل أسماعي
شأنك تعنيفى وشأني الهوى	كل امرىء في شأنه ساعي

اهلاً بتحفة القادم ، وريحانة المنادم ، وذكرى الهوى المتقادم ، لا يصفر الله مسراك ، بما أسراك ، لقد جبت إلي من همومي ليلاً ، وجست رجلاً وخيلاً ، ووفيت من صاع الوفاء كيلاً .

وما حال شمل وتده مفروق ، وصواع بنى أبيه مسروق ، وقلب قرحه من عضة الدهر دام ، وجمرة حسرته ذات احتدام ، هذا وقد صارت الصغرى ، التي كانت الكبرى ، لمشيب لم يدع أن هجم لما نجم ، ثم تهلل عارضه وانسجم :

لا تجمعي هجرا على وغربةً	فالهجر في تلف الغريب سريع

نظرت فإذا الجنب ناب ، والنفس فريسة ظفر وناب ، والمال أكيلة انتهاب ، والعمر رهن ذهاب ، واليد صفر من كل اكتساب ، وسوق المعاد مترامية والله سريع الحساب :

ولو نعطي الخيار لما افترقنا	ولكن لا خيار مع الزمان

وهب أن العمر جديد ، وظل الأمن مديد ، ورأى الاغتباط بالوطن سديد فما الحجة لنفسي إذا مرت بمطارح جفوتها ، وملاعب هفوتها ، ومثاقف قناتها ، ومظاهر عزاها ومناتها ، والزمان ولود ، وزناد الكون غير صلود ،

وإذا امرؤ لدغته أفعى مـرة	تركته حين يجر حبل يَفْـرَق

---

(١) نفسه ٢٦٧ ـ ٢٦٩

وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليمن طيره ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ، وعمران رباه ووهاده ، بأشلاء عباده وزهاده ، حتى لا يفضله إلا أحد الحرمين فحِق بريء من المين ، لكنني للحرمين جنحت ، وفي جو الشوق اليهما سنحت ، فقد أفضت إلى طريق قصدي محجته ، ونصرتني والمنة لله حجته ، وقصد سيدي أسنى قصد توخاه الحمد والشكر ، ومعروف عُرف به النكر ، والآمال من فضل الله بعد تمتار ، والله يخلق ما يشاء ويختار ، ودعاؤه بظهر الغيب مَدَد ، وعدة وعَدَد ، وبره حالي الظعْن والاقامة معتمل ومعتمد ، ومجال المعرفة بفضله لا يحصره أمد . والسلام » .

ولابن الخطيب مشاركة في آدب المقامات ، وذلك في ثلاثة نصوص نثرية وصلت الينا هي مقامة السياسة ، وخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف ، ومقامة معيار الأختيار في ذكر المعاهد والديار ، وقد جاءت الاولى في القسم الاخير من كتاب الاحاطة[1] . كما تقدمت الاشارة اليه ـ وكذلك نقلها في كتاب ريحانة الكتاب ، ونقلتها مصادر أخرى مثل نفح الطيب[2] . وجاءت خطرة الطيف في مشاهداته[3] التي حققها الدكتور احمد مختار العبادي ، وكذلك تضمنت المشاهدات مقامة معيار الاختبار .[4]

وقد نص على هذه المقامات من المحدثين الدكتور احسان عباس[5] ، واضاف اليها مقامة بعنوان مقامة وصف البلدان . ولكن النظرة المتمعنة تشير الى ان وصف البلدان على نحو ما جاء في ازهار الرياض ، هو جزء من معاهد الاختيار ، وقد وقع في هذا الظن كذلك للدكتور يوسف نور عوض[6] . حين جعل مقامات ابن الخطيب ثلاثاً منها هذه .

وليست خصائص المقامات واضحة فيها كل الوضوح ، وربما كان هذا الاختلاف مقصوداً بقصد التفريق بين مقامات المشرق والمغرب .

---

(١) الاحاطة ١ / ٦١٤

(٢) النفح ٦ / ٤٣١ ـ ٤٤٥

(٣) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (ط جامعة الاسكندرية ١٩٥٨) ص ٢٥ ـ ٥٧

(٤) نفسه ص ١٩ ـ ١١٥

(٥) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ٢٠٧ تنظر عن المقامات رسالة عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجي « فن المقامة والرسالة الادبية في الأندلس » جامعة القاهرة ١٩٧٤

(٦) فن المقامات بين المشرق والمغرب ٢٠٤

ومن النظر في معيار الاختيار نجد أن المؤلف جعله في مجلسين[١]، وهو وان لم يستخدم البطل والراوية فان اسلوب رسالته يماثل اساليب المقامات، واقدم من عدها في المقامات، المقري الأديب الناقد[٢]. وقد قال فيها الدكتور حسين مؤنس بانها اقرب كتابات ابن الخطيب الى طريقة المقامة وأسلوبها وروحها[٣]. بل يجدها مقامة من الطراز الاصيل الذي نجده عند اساطين ذلك الفن

واما رسالة السياسة فنجد أن فيها بطلا يصفه بانه شيخ طويل القامة ظاهر الاستقامة ... »

واليك هذا النموذج من مقامته، معيار الاختبار[٤]:

قال: ضمنى الليل وقد سدل المسح راهبه، وانتهب قرصة الشمس من يد الأمس ناهبه، ودلفت جيوشه الحبشية وكتائبه، وفتحت الأزهار بشط المجرة كواكبه، وجنحت الطيور الى وكونها، وانتشرت الطوافات بعد سكونها، وعوت الذئاب فوق هضابها، ولوحت البروق ببيض عضابها وباهت الكفُ الخضيب بخضابها، وتسللت اللصوص لانتهاز فرصها، وخرجت الليوث الى قسمها وحصصها، في مناخ رحب المنطلق، وثيق الغلق، سامي السور كفيل بحفظ الميسور، يأمن به الذعر خائفه، وتدفع معرة السماء سقائفه. يشتمل على مأوى الطريد، ومحراب المريد، ومرابط خيل البريد، ومكاسع الشيطان المريد.

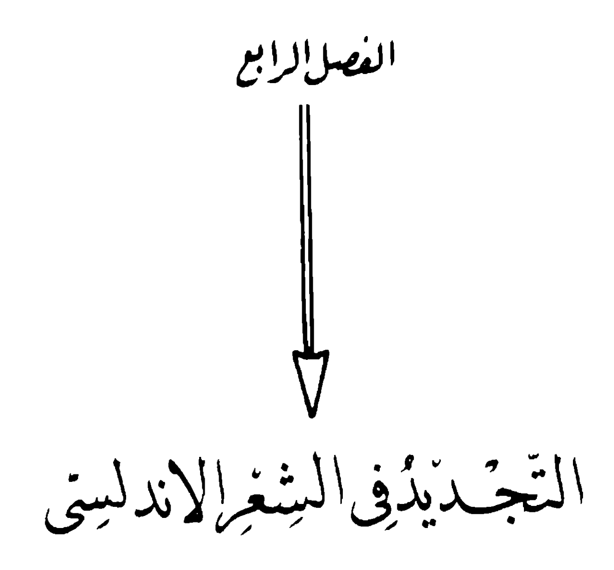
حتى اذا اطمأن حلوله، وأصحب ذلوله، وتردد الى قيمّ الخان زغلوله، واستكبر لما جاءه بما يهواه رسوله، استجمع قوته واحتشد، ورفع عقيرته وأنشد:

أشكو الى الله ذهاب الشباب	كم حسرة أورثني واكتئاب
سد عن اللذات باب الصبا	فزارت الأشجانُ من كل باب
وغربة طالت فما تنتهي	موصولة اليوم بيوم الحساب
يارب شفع فيَّ شيبي ولا	تحرمني الزُلفى وحسن المآب

ثم أنَّ، والليل قد جن، فلم يبق في القوم الا من أشفق وحن، وقال وقد هزته أريحَية، على الدنيا سلام وتحية، فلقد نلنا الأوطار وركبنا الأخطار، وأبعدنا المطار وافترقنا الأقطار، وحلبنا الأشطار. فقال فتاه، وقد افترت عن الدرّ شفتاه، مستثيراً لشجونه، ومطلعاً لنجوم همّه من دجونه، ومدلاً عليه بمجونه. وماذا بلغ الشيخ من أمدها أو رفع من عمدها حتى يُقضى منه عجب، أو يجلى منه محتجب ؟.. فأخذته حمية الألفاظ ، وقال أي بني، مثلي من الأقطاب، يخاطب بهذا الخطاب ! !

---

(١) معيار الاختبار، مشاهدات لسان الدين ٦٩ ـ ٩٧ (٢) ازهار الرياض ١ / ٣٠، النفح ٦ / ٢١١
(٣) تاريخ الجغرافية والجغرافيين ٥٧٥ (٤) معيار الاختبار، مشاهدات لسان الدين ٧٠ ـ ٧١


الفصل الرابع
التّجديدُ في الشعْرِ الاندلسيّ

المبحث الأول

الموشحات الأندلسية

١ ـ فن الموشحات :

فن من فنون الشعر العربي التي اينعت في الأندلس ، وسنتوقف عند ابرز قضاياه المهمة :

اولاً : بين اللغة والاصطلاح :

إن المفهوم الاصطلاحي لهذا الفن ، متصل بالمفهوم اللغوي ، فالموشح اسم مفعول من الفعل وشح ، وفي القاموس : الوشاح (بالضم والكسر) كرسان من لؤلؤ وجوهر ، منظومان يخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر ، وأديم عريض يرصع بالجوهر تشدّه المرأة على عاتقها وكشحيها ، والجمع وشحٌ ، وأوشحة ، ووشائح .. ويقال توشح بسيفه وثوبه ، تقلده ، ولسنا نعلم من أطلق هذه التسمية لأول مرة على الفن الشعري[١] ، ويرى الدكتور احسان عباس أن السبب في تسميته « تصور الاندلسيين هذا النوع من النظم كرقعة الثوب وفيه خطوط (اوسمها اغصاناً) تنتظمه أفقياً أو عامودياً »[٢]

ومن هنا فان الموشحة في الاصطلاح الأدبي نوع من النظم يشبه الوشاح الذي تتخذه المرأة للزينة ، والجامع بين المعنيين ، مقرون بفكرة التجميل المنوع ، المعتمد على التقابل[٣] ، فهو يتألف من فقرات مختلفة العدد والمقاطع ، اختلف الباحثون في تحديد اسمائها وضوابطها من حيث الوزن والقافية .. وقديماً عرّف ابن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ) الموشح فقال :

كلام منظوم على وزن مخصوص ، يتألف في الأكثر من ستة أقفال ، وخمسة ابيات ، وفي الأقل من خمسة أقفال .

---

(١) الموشحات والازجال ٧ (مصطفى عوض الكريم ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ٢ / ٢٢٠ .

(٣) الادب الاندلسي ١٤٤ .

ثانيا : اجزاء الموشحة : اختلف في تسمية اجزاء الموشح . واليك ابرزها :

أ : **المطلع ، او المذهب** : وهو القسم الاول من الموشحة يتألف من شطرين الى ثمانية وخمسة ابيات . ويقال له الاقرع . فالتام ما ابتدى فيه بالاقفال . والاقرع ما ابتدىء فيه بالابيات اشطار .

ب : **الدور** : وهو مجموعة من الأشطار . تتركب من مجموعة من الفقرات . مختلفة العدد . تأتي في أشطار متباينة الأقسام . وفي الغالب يلتزم قافية الدور الواحد . ويغيرها في الدور الذي يليه .

جـ : **القفل** : وهو مجموعة الاشطار التي تلي الدور وتكون غالباً على غرار المطلع من حيث بناؤه وقوافيه . ويلتزم الوشاح في الاقفال . الوزن . وعدد الأشطر . واجزاءها . وهي تبنى على المطلع . او على قفل البيت الأول في الموشح الأقرع . او على القفل الاخير (الخرجة) .

د : **الخرجة** : وهي القفل الاخير من الموشحة . وأهم جزء فيه . وقد اشترط ابن سناء الملك[١] فيها . أن تكون حجاجية . من قبل السخف . قزمانية من قبل اللحن . حارُة محرقة . حادَة منضجة من ألفاظ العامة ولغات الدّاصة (اللصوص) . فان كانت معربة الألفاظ . منسوجة على منوال ما تقدمها من أبيات الموشحة . خرج الموشح من ان يكون موشحاً . الا في المدح . وقد تكون الخرجة معربة . بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً . هزازة . سحَارة خلابة . بينها وبين الصبابة قرابة .. وهذا معجز معوز .. أي انه قليل . ولم يجد منه ابن سناء سوى موشحتين .

وفي موضع آخر يذكر ان الخرجة قد تكون عجمية اللفظ . بشرط أن يكون لفظها في العجمي سفسافاً نفطياً . واكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان . والسكرى والسكران .. وتأتي في البيت الذي قبل الخرجة عبارة : « قال . أو قلت . او قالت . او غنى . او غنيت . او غنت .. »

ومن فهرس الخرجات الرومية[٢] الذي أورده الدكتور غازي في آخر ديوانه نستطيع أن نقرر أنها لا تؤلف نسبة كبيرة في الموشحات . اذ تؤلف حوالي ١٠ ٪ من

---

(١) دار الطراز ٤٠

(٢) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٧٣٠ .

مجموع الخرجات المستعملة حيث جاءت (٤٥) موشحة بخرجة أعجمية من مجموع الديوان الذي تضمن ٤٤٥ موشحة .

تطلق تسمية السمط على الشطر الواحد في الدور . كما يطلق على أشطار (اجزاء) المطلع او القفل أو الخرجة تسمية الغصن . وأما البيت . فهو الدور والقفل الذي يليه . ويراعي في الأدوار أن تتفق في الوزن . وعدد الأشطر والفقر . لا في القوافي . إذ يحسن أن يستقل كل دور بقواف مغايرة »[١]

واليك نموذجاً من الخرجة الاعجمية من موشحة ابن القزاز التي مطلعها[٢] :

مِن ورد التسنيم . من سلك فَلْج . ذي غروبْ . في قُلْتِ
ان ذاقه عاطش . مُلظَى وجيبْ . اطفى اللهيبْ . في الوقتِ

والخرجة هي :

مِوْسيدى ابراهيم . بانوا من ذَلْجْ . فانت ميبِ . ذي نُخْتِ
إن نون شنون كارش . بيريم تيب . غرمي أوب لقَرْتِ

ومعناها :

ياسيدي ابراهيم . ياصاحب الاسم العذب
أقبل إلي . في المساء . فإن لم ترد . جئت اليك . ولكن أين أجدك ؟

ثالثا : أولية الموشحات ومراحلها :

يشير عدد من المصادر الأندلسية الى اسم أول مخترع للموشحات . وأقدم من ذكره الحجاري[٣] (توفي بعد ٥٣٠ هـ) حيث سماه مقدم بن معافي القبري . اما ابن بسام[٤] (ت ٥٤٢ هـ) فيسميه (محمد بن محمود القبري الضرير) وذكر الحميدي[٥] (ت ٤٤٨ هـ) انه (محمد بن حمود)

---

(١) في اصول التوشيح ، ١٢
(٢) الموشحات والازجال ١٦ . وينظر ديوان الموشحات الاندلسية ١ / ١٨٦
(٣) هو ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الحجاري . ذكر ذلك في كتابه المسهب في غرائب المغرب . نقل ذلك ابن سعيد في كتابه المقتطف من ازاهر الطرف . ينظر اعمال مهرجان ابن خلدون ص ٤٧٧ . وقد نقل هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته الفصل الاخير . اشعار العرب واهل الأمصار لهذا العهد كما اشار د . الاهواني الى ذلك .
(٤) الذخيرة ١ / ١ / ٤
(٥) الجذوة ٢٥٥

ويرى الدكتور الاهواني أن هذين الأسمين لشاعرين اثنين نشآ في بلدة واحدة هي (قبرة) قرب قرطبة . وكانا في عصر واحد . فأما محمد فضرير ، واما مقدم فغير ضرير .

وقد ذكر ابن خلدون[1] نقلاً عن الحجاري أنَ مقدماً من شعراء الأمير عبدالله ابن محمد المرواني (٢٧٥ ـ ٣٠٠) اما الحميدي فيرى أنه من شعراء عبد الرحمن الناصر[2] الا أنه لا ينسب اليه اختراع الموشحات ، ولم تصل أية موشحة لاحد هؤلاء . فاذا صح أن أحدهم نظم موشحة . فأن أولية الموشح تكون في الأندلس .

اما الذين نسبوا موشحة (ايها الساقي) الى ابن المعتز فانهم يزعمون مشرقية هذا الفن . ولكننا اذا ناقشنا نسبة هذه الموشحة الى الامير العباسي المتوفى سنة ٢٩٦ هـ فأننا سننتهي الى نفي نسبتها عنه ، اذ أن ورودها في ديوانه[3]. لا يعد دليلاً على صحة نسبتها اليه ويفسر هذا على أنه سهو من الناسخ . وقد اجتمع لدى الباحثين من الأدلة ما ينفي نسبتها اليه . ومن البحوث المبكرة . في هذا الموضوع . بحث الاستاذ طه الراوي الموسوم : « وهم شائع . موشحة ابن زهر لا موشحة ابن المعتز »[4]. واليك هذه الادلة :

اولاً : ان هذه الموشحة وردت في مصادر أندلسية وغير أندلسية منسوبة الى ابن زهر الحفيد (ت ٥٩٥ هـ) الذي عاش بعد ابن المعتز بنحو ثلاثة قرون . فقد أوردها ابن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ) في دار الطراز . وابن دحية (ت ٦٣٣ هـ) في المطرب . وابن ابي اصيبعة (ت ٦٦٨ هـ) في عيون الانباء ، وابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) في المغرب ، والصفدي (ت ٧٦٤ هـ) في الوافي ، وابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) في جيش التوشيح ، والنواجي (ت ٨٥٩ هـ) في عقود اللآل . وغيرهم[5] . كلهم نسبها الى ابن زهر الحفيد . واما المصادر التي نسبتها الى ابن المعتز فقليلة[6] .

---

(١) المقتطف ٢٥٥

(٢) الجذوة ص ٢٥٥

(٣) ديوانه (بتحقيق د . يونس السامرائي) ٢ / ١٧٠ ، وممن اعتمد على هذه الموشحة في نسبة هذا الفن الى المشرق ، كامل الكيلاني ، نظرات في تاريخ الادب الاندلس ص ٢٧٢ ، وكذلك الدكتور صفاء خلوصي في كتابه فن التقطيع) ص ٣٠٢ .

(٤) مجلة الرسالة المصرية العدد (١٠) سنة ١٩٤٢

(٥) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٧٦

(٦) اشار الدكتور يونس السامرائي ٢٠ / ١٦٩ ـ ١٧٠ الى ثلاثة مصادر تنسب الموشحة الى ابن المعتز ، ولكنه رجح عدم نسبتها اليه .

ثانياً : بعد الموشحة ، عن روح الشاعر وعواطفه ، كما أنها لا تمثل شيئاً من نظراته في الحياة ولا فنه الأدبي وليس فيها تشبيه واحد من التشبيهات التي عرف بها ، وليس فيها شيء من خصائص فنه»[١] . لا تعرف لابن المعتز موشحات اخرى ، فلو صحت نسبة هذه الموشحة ، فمن غير المعقول ان تكون الوحيدة التي نظم ، كذلك لا نجد في ترجمته في المصادر التي ترجمت له ، انه كان وشاحاً ، وحين ألف كتابه البديع ، وتناول ثمانية عشر فناً من فنونه ، لم يذكر فيها هذا الفن الجديد .

ثالثاً : لو كان ابن المعتز صاحب هذه الموشحة لشاع هذا الفن في المشرق ، ولكن الذي حصل أنه شاع في الأندلس ولم يعرف في المشرق الا بعد ثلاثة قرون .

رابعاً : ان هذه الموشحة جاءت موافقة ومناظرة لموشحات اخرى[٢] ، أثرت عن ابن زهر الحفيد في روحها وأسلوبها وبنائها[٣] .

لقد ظن الدكتور خفاجة ان الموشحة لأبن معتز الأندلس ، مروان بن عبد الرحمن الأمير الشاعر المشهور ، وانها نسبت لابن المعتز العباسي خطأ ، حتى صح لديه نسبتها لابن زهر الحفيد[٤]

ومن الوشّاحين المتقدمين الذين نصت المصادر على خوضهم في هذا الفن ، ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) ، فقد ذكر ابن بسام انه أول من سبق الى هذا النوع ، وأشار الى عدد من شعراء عصره في هذا الفن ، مكرم بن سعيد ، وابني ابي الحسن ، وأما يوسف بن هارون الرمادي (ت ٤٠٣ هـ) ، فقد كان « يكثر من التضمين في المراكيز ، يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة»[٥] وهي عبارة يفهم منها ان الشاعر كان في المراحل الاولى لنظم الموشحات .

---

(١) **ابن المعتز وتراثه ـ خفاجي (ط الحسين التجارية القاهرة ١٩٤٩) وينظر الموشحات الاندلسية ـ محمد زكريا عناني ص ١٧ ، فن التوشيح ـ الكريم ٩٤ ـ ٩٧**

(٢) **في ديوان الموشحات الاندلسية (٢ / ٦٥ ـ ١٢٢) خمس وعشرون موشحة لابن زهر منها ست موشحات في بنية هذه الموشحة .**

(٣) **أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ج ٢ / ١٦٥ ـ ١٦٦ (ط دار مارون عبود ، بيروت ١٩٧٩) كما ينظر ، الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ، حيث اورد حججاً كثيرة في هذه القضية ص ١٠٩ .**

(٤) **ابن المعتز وتراثه ١٧٨**

(٥) **الذخيرة ١ / ١ / ٤٦٩**

ولعل السبب في قلة معلوماتنا عن المراحل الاولى للمرشحات مارآه عدد من الدارسين المحدثين[1] من ان علماء الاندلس لم يكترثوا بها ولم يفردوها في صفحات من كتبهم واكتفوا بالافتخار بأنها أختراع اندلسي . فقد اعجب ابن بسام بها لكنه اعتذر عن ايرادها لان اكثرها على غير اعاريض اشعار العرب .[2] وكذلك كان شأن المراكشي (ت ٦٤٧ هـ) في كتاب المعجب وكان اعتذاره مماثلاً (لان العادة لم تجر بايراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة)[3] وهذه النظرة هي التي جعلت المقّرى يشعر بشيء من الحرج ، وهو يورد موشحات . ثم لم يجد بأساً لأنها في مدحه (صلى الله عليه وسلم)[4]

وهذا الموقف مقبول وهو رد فعل طبيعي تُواجه به حركات التجديد . على امتداد العصور . لا سيما ان النظرة كانت الى المرشحات على انه فن شعبي لا يبلغ مقام الشعر فضلاً عن أن النظرة المثالية للشعر كانت معقودة بالشعر المشرقي الذي لم يعرف عنده هذا الفن.[5]

إن هذه النظرة هي التي جعلت هذا الفن محاطاً بالغموض في مراحله الأولى وهي تفسير لنا موقف كبار الشعراء في الاندلس الذين خلت دواوينهم من الموشحات امثال ابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس وغيرهم .

وجاء المحدثون فعادوا يبحثون في بطون الكتب والمصادر للوقوف على نشأة هذا الفن ولتدوين نصوصه الشعرية فكان أن انتهوا الى أن أقدم وشاح وصلت الينا موشحته هو عبادة بن ماء السماء (ت ٤١٩ هـ أو ٤٢١ هـ) حيث وصلت له

---

(١) في اصول التوشيح ص ١٥

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ٤٧٠

(٣) ازهار الرياض ٢ / ٢٥٨ ، موشحات مغربية ١٢٤

(٤) المعجب ص ١٤٦ ، وينظر هامش المحقق العريان في الصفحة ذاتها رقم (١)

(٥) ذكر الدكتور احسان عباس ان الحجاري (توفي بعد ٥٣٠ هـ) في كتابه المسهب كان اول من خرج على هذه القاعدة ، وذكر نقلاً عن الذيل والتكملة أن ممن أفرد هذا الفن بكتاب ابن سعد الخير البلنسي (ت ٥٢٥ هـ) في كتابه « مشاهير الموشحين بالاندلس » او « نزهة الانفس وروضة التأنس في توشيح اهل الأندلس » ذكر فيه عشرين رجلاً . (تاريخ الادب الاندلسي ١ / ٢١٨ .

موشحتان.[1] وقد اثنى ابن بسام على شاعريته وبراعته في هذا الفن . واوضح دوره فيها فقال : « فأقام عبادة هذا منآدها وقوم ميلها وسنادها فكأنها لم تُسمع بالأندلس الا منه . ولا أخذت الا عنه .. »[2]

ومن الوشاحين المتقدمين قرينه . محمد بن عبادة القزاز . شاعر المعتصم بن صمادح . في المريّة . وابن اللبانة الداني (ت ٥٠٧ هـ) . والأعمى التطيلي (ت ٥٢٠ هـ) . وابن باجة الفيلسوف (ت ٥٣٣ هـ) . وابن بقي الطليطلي (ت ٥٤٠ هـ) . وابن قزمان (ت ٥٥٥ هـ) .

ويرى الدارسون أن الموشحات مرت بعدة مراحل حتى انتهت في صورتها الأخيرة فقد أشار الدكتور سيد غازي الى ثلاث منها :

المرحلة الاولى : كان الوشاح يضع الموشحة على القفل أو المركز دون تضمين فيها ولا فقر .

المرحلة الثانية : انتقل الوشاح نقلة جديدة حيث ضمن في الاقفال أو المراكيز وأتى بأسماطها مركبة أو مرضعة . وكان الرمادي أول من اكثر من ذلك .

المرحلة الثالثة : وتتمثل في ما أحدثه عبادة بما يسمى (التضفير) وأخذ يضمن في الادوار ويلتزم مواضع الوقف ويأتى بأغصانها مع أسماط الأقفال مركبة أو مرصعة .

وفي رأي الدكتور هيكل ان الموشحات مرت بمرحلتين . الاولى قبل القرن الخامس الهجري والثانية بعده . وفي رأي الدكتور احسان عباس أن الموشح في طور نشأته فيما ينيف على قرن مرَّ بثلاث مراحل .[3] ووجد الاستاذ مقداد رحيم أن الموشحات مرت في عمرها الطويل خلال تسعة قرون بأدوار ثلاثة قبل النضج والتكامل .[4]

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٤٢٦ (ط محمد محيي الدين عبد الحميد) . وقد نسب الصفدي احدى الموشحتين الى ابن القزاز . الوافي بالوفيات ٣ / ١٨٩ . وتنظر ترجمته في الجذوة ٢٩٢ . الذخيرة ١ / ١ / ٤٦٨ ـ ٤٨٠ . الصلة ٢ / ٤٥٠ . فوات الوفيات ١ / ٤٢٥ .

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ٤٦٩ .

(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ٢٢٠ .

(٤) الموشحات في بلاد الشام : ٥٠ وما بعدها .

ويبدو ان الموشحات في مراحلها الاولى ، كانت صورة مختلفة بعض الشيء ، عن المسمطات المربعة والمخمسة ، التي يحتفظ ديوان الشعر العربي ، بأمثلة كثيرة منها ، كما احتفظ بانماط أخرى من المزدوجات ، والمثلثات ، والمربعات ، والمخمسات ، التي عرفت في المشرق ، وأفاد الوشاحون منها في بناء الدور والقفل . وقد ساق الدكتور سيد غازي[1] امثلة كثيرة لتلك المحاولات .

وفي إطار تدوين الموشحات ، كانت أول محاولة وصلت الينا ما قام به ابن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ) حيث ضمن كتابه دار الطراز سبعين موشحة منها اربعة وثلاثون موشحة مغربية ، والبقية مشرقية ثم تلاه ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) في كتابه « جيش التوشيح » أورد فيه (١٦٥) موشحة أندلسية وجاءت محاولات أخرى بعدهما .

وفي العصر الحديث استطاع سيد غازي ، أن يجمع فَيوعي ، موشحات الاندلس طيلة خمسة قرون ـ في محاولة جريئة ـ وأطلق على هذا الجمع : « ديوان الموشحات الاندلسية » وكان مجموع ما وقف عليه (٤٤٥) موشحة ، بالرجوع الى حوالي ثلاثين مصدراً بين مطبوع ومخطوط[2]

وواضح من هذه الاحصائية : وجود ثغرة في الموشحات من حيث النصوص ـ في العصر الاموي اذ فقدت المحاولات الاولى لنظم الموشحات .

كذلك يتضح لنا أن العصر الذهبي للموشحات هو عهد الموحدين ، وأن عدداً غير قليل من الموشحات لما يزل مجهول النسبة .

---

(١) في اصول التوشيح ص ٢٠ ـ ٣٥ .

(٢) لخص لنا هذا المجموع في مقدمة ديوان الموشحات الاندلسية ١ / ١٤ على النحو التالي :

العصر الاموي	٢ موشحتان	لوشاح واحد
عصر الطوائف	٧٨ موشحة	١٢ وشاح
عصر المرابطين	١٠٧ موشحة	١٥ وشاح
عصر الموحدين	١٥٧ موشحة	٢٠ وشاح
العصر الغرناطي	٥٥ موشحة	١١ وشاح
عصر مجهول	٤٨ موشحة	ـ
المجموع	٤٤٧	٦٩ وشاحاً

رابعاً : الموشحات بين الاندلس والمشرق :

يحتدم النقاش بين الباحثين وتختلف الحجج في موطن الموشح ومنشأه . ولا شك ان الاتفاق معقود على أن الاندلس أنجبت هذا الفن ولكن الخلاف قائم حول الجذور التي انبثق منها . والمؤثرات التي أثرت فيه فأنتهى الى هذه الصورة . ومن الباحثين المحدثين استاذنا الدكتور حكمة الأوسي . حيث تناول هذا الجانب بدراسة تفصيلية .[١] والدكتور سيد غازي ..[٢] والاستاذ مقداد رحيم خضر .[٣]

الاتجاه الأول :

ويرى انصاره . أن الموشح تطور عن الشعر العربي المشرقي . المتمثل في النماذج الشعرية الكثيرة . التي برع فيها الشعراء . وانصرفوا عن الأنماط التقليدية . في أوزان الشعر العربي وقوافيه . فيما عرف بالمسمطات والمزدوجات . وما شابهها . ويقدم هؤلاء أمثلة كثيرة لتلك المحاولات .. في نماذج شعرية . لعصور الشعر العربي . بدأ بأمريء القيس . وانتهاء بشعراء الاندلس . الذين احتذوا نماذجها . بل ذهب أحد الباحثين أبعد من ذلك . حين جعل سورة المرسلات من القرآن الكريم .[٤] أصلاً لنشأة الموشحات . وهو رأى لايخلو من غلو .. وتعسف . وتتجلى هذه المحاولات بصورة خاصة لدى شعراء العصر العباسي الاول . أمثال أبي العتاهية . وأبي نواس . ومسلم بن الوليد . اذا صح ما نسب اليهم . وقد حاول الدكتور فؤاد رجائـي أن يثبت الأثر المشرقي في ظهور هذا الفن . بطريقة أخرى . حيث وجد أن زرياب المغني . كان له تأثير في نقله طريقة الغناء المشرقية . القائمة على أصول النَوبَة الغنائية . وتتمثل هذه الطريقة في عدد من المغنين . يغني كل . حين تأتي نوبته . عدداً من الأبيات . على لحن واحد . بأيقاع وقافية مختلفتين .[٥]

---

(١) فصول في الادب الاندلسي ص ١٢٨ ـ ١٣٨ .

(٢) في اصول التوشيح ص ١٥ وما بعدها .

(٣) الموشحات الاندلسية ص ١٦ وما بعدها .

(٤) نظرية نشأة الموشحات الأندلسية بين العرب والمستشرقين ص ٦٤ . مقداد رحيم الموسوعة الصغيرة (العدد ٢٣٢ بغداد ١٩٨٦)

(٥) الموشحات الاندلسية ص ١٢٥ ـ ١٢٦ (رجائي) .

ومَمن ذهب الى القول بالأصل المشرقي من المستشرقين نيكل ، وهارتمان ، ويوهان فك[١] ومن العرب . الدكاترة احسان عباس ،[٢] وشوقي ضيف .[٣] وصفاء خلوصي .[٤]

واما الاتجاه الثاني :

فيتمثل في آراء الدارسين التي ترى في الموشح ثمرة من ثمار الأندلس اليانعة ومن الذين نحوا هذا المنحى ، عدد من مستشرقي الاسبان ، ميندالث پيلانو ، وخوليان ريبيرا ، وغرسيه غومس ،[٥] وكذلك عدد من الباحثين العرب ، ومنهم محمد كرد علي ،[٦] وعبد العزيز الاهواني ، والدكتور مصطفى عوض الكريم ، وبطرس البستاني ،[٧] وعباس الجراري .[٨]

وجد ريبيرا في الموشحات أثراً من آثار الاغاني الجليقية . وهي خلاصة الاغاني الرومانثيهالاسبانية . فالنساء الجليقيات اللاتي انتشرن في البيوت كن يستخدمن تلك الأغاني في الحفلات . وفي ساعات الفراغ ، وليس بين أيدينا ما يمكن أن نتأكد به من صحة هذه الفرضية .[٩]

ومن الآراء التي استحوذت على الاهتمام مدى صلة الموشحات بالشعر الفرنسي والاسباني ، الجونكلر ، والتروبادور ، البروفانسيين ، اذ وجد بطرس البستاني[١٠] ان الاتفاق الموجود بين هذه المنظومات والموشحات يدل على تأثر العرب بالأدب الأسباني الفرنسي . وهي فرضية ، ذهب عدد من الدارسين الى اثبات عكسها .[١١]

---

(١) تنظر تفصيلات هذه الآراء في فصول في الادب الاندلسي ١٢٩ ـ ١٣٢ ، وموشحات مغربية .

(٢) تأريخ الادب الاندلسي ٢ / ٢٢١ ـ ٢٢٧ .

(٣) العصر العباسي الاول ١٩٩ .

(٤) فن التقطيع الشعري ٣٠٥ .

(٥) فصول في الأدب الأندلسي ، ١٣٢ .

(٦) الاسلام والحضارة ٢٣٠ .

(٧) تنظر آراؤهم في فصول في الادب الاندلسي ١٣٢ .

(٨) موشحات مغربية ٥١ .

(٩) الادب الاندلسي ـ ١٥٢

(١٠) ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث ، ٨٢ .

(١١) موشحات مغربية ٥٠ . كذلك ينظر مقال الدكتور الطاهر احمد مكي ، العلاقة بين الشعر الاندلسي وشعر التروبادور مجلة آفاق عربية ، بغداد ص ٢٧ العدد ٦ شباط ١٩٨٢ تأثير الموشحات في التروبادور د . عبدالاله ميسوم الشركة الوطنية للنشر ـ الجزائر ١٩٨١ .

أما الدكتور عبد الهادي زاهر . فينفي أن تكون صلة بين اللونين الادبيين ،[1] وقد تناول الدكتور الطاهر احمد مكي هذه القضية كذلك في بحث مفصل .

ومن حجج هؤلاء إختلاف الموشح في بنائه ، وأوزانه عن فنون الشعر العربي المشرقية ، وابتكار الاندلسيين له دون المشارقة . وقد اعتمد هؤلاء في تعزيز رأيهم على الخرجات الاعجمية ، التي اكتشفت في كتاب (عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس)[2] وكتبت بحوث ودراسات كثيرة حول الخرجة .

ومن الباحثين ، المستشرق الاسباني (ميليكروسا) المتخصص في الدراسات العبرية الذي رأى في الموشحات أثراً من آثار الأغاني والأناشيد الدينية ، مثل (البزمون) وكان يرددها اليهود المعايشون للمسلمين ،[3] وهو رأى يحتاج الى نصوص تعززه .

وممن قال بالأصل الأندلسي للموشح المستشرق الانكليزي (جب) .[4]
وقد تناول الدكتور هيكل جملة العوامل التي أدت الى نشأة الموشح ، وأجملها في اثنتين :

١ / **العوامل الاجتماعية** : وهي تتمثل فيما طرأ على المجتمع الاندلسي من تطور في الحياة الاقتصادية والثقافية وما بلغته الاندلس من الرفاه والترف وسعة العيش مما أتاح لهم الاقبال على اللهو والتفنن في اساليبه وطرقه .

٢ / **العوامل الفنية** : وهي ثمرة للتطور الذي حصل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية مما دعا الناس الى الالتفات الى الحياة الفنية بتشجيع الغناء والمغنين واغداق الأموال عليهم وكان من عوامله الاساسية ، دخول زرياب الى الاندلس ، وما اقترن به من أثر كبير في المجتمع الاندلسي ، على نحو ما فصله المقري في نفحه ، وقد تفنن زرياب في انواع الأطعمة . وطريقة اعدادها . وكان على نصيب وافر بآداب المجالسة ، وطيب المحادثة ، وضروب الظرف وفنون الأدب ، ما لم يجده أحد من أهل صناعته حتى أن الاندلسيين لقبوه : (معلم الناس المروءة) لما علمهم من اللطف ، والرقة ، وارهاف الذوق ،[5] هذا فضلاً عن جهوده المعروفة ، في مجال

---

(١) صلة الموشحات والازجال بشعر التروبادور ، ٩ (ط مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٧) .
(٢) فصول في الادب الاندلسي ١٣٤ .
(٣) الادب الاندلسي ١٥٣ .
(٤) ينظر موشحات مغربية ٥٣ .
(٥) النفح ٣ / ١٣٠ .

الغناء والموسيقى ، حيث أسس أول معهد فني فيهما ، وأرسى له تقاليده وكان أول تلامذة معهده ابناؤه العشرة .[1]

واصبحت الحاجة ماسة ـ كما يرى الدكتور هيكل ـ الى لون من الشعر جديد يواكب الموسيقى والغناء في تنوعهما واختلاف الحانهما . فكانت الموشحات .[2] وفيها جانبان يؤكدان نسبتها الى الاندلس هما :

جانب موسيقي يتمثل في تنويع الوزن والقافية بشيوع الموسيقى والغناء . وجانب لغوي يتمثل بالثنائية اللغوية المسببة عن الثنائية العنصرية وهي ظاهرة آثارها في الأندلس عميقة في مجالات أخرى غير الموشحات .

فالموشحات ثمرة من ثمار الاندلس اليانعة . تأثرت ـ من حيث بناء القصيدة واوزانها ـ بـ المحاولات المشرقية القديمة التي خرجت على الاوزان المألوفة . أما في مضمونها فهي ابنة شرعية لبيئة الاندلس الجديد ..

ويعزز الرأي القائل بأندلسية الموشح ، بل يؤكده ، ما أوردته مصادرنا القديمة التي تحدثت عن أولية الموشحات ، حيث نصت على أنها نشأت بالأندلس ، فعرفت به ، وعرف بها . وقد تقدم آنفاً آراء عدد منهم . وممن نص على ذلك ابو محمد الحجاري ـ وهو أقدمهم ـ وابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ) وابن دحية (ت ٦٣٣ هـ) ، وابن سعيد الاندلسي (٦٨٥ هـ) .

وخلاصة القول في أمر نشأة الموشحات ـ كما يرى الدكتور حكمة الأوسي ـ أن الرأي لم يستقر بعد على شيء قاطع جازم في ذلك . وأن لكل من الرأيين المتعارضين ، حججه القوية ، وأدلته الناصعة . ولا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر ، أو القطع بصحته وفساد الثاني ما لم تتوفر لدينا نصوص جديدة واضحة .

---

(١) نفسه ٢ / ١٢٩ .

(٢) الادب الاندلسي (هيكل) ، ١٤٨ ، ومن الباحثين المحدثين مقداد رحيم ، الذي ينفي الصلة بين الموشحات والغناء ، على أساس أن الأدوار الأولى للموشح لم تكن شديدة الصلة بالغناء ، لا سيما وأن أوزان التقسيم الأخير منه غير عربية ، وأن الكتب القديمة لم تشر الى هذه الصلة بين الغناء والموشح ـ (نظرية نشأة الموشحات ص ٣٠ وما بعدها) وفي دراسة الدكتور سيد غازي من النصوص القديمة ، ما يعزز الصلة بين الغناء والموشح (في اصول التوشيح ص ٤٢) .

وإن بَدا أنّ الطابع الغالب على كل من الموشحة والزجل يوحي بأنهما ثمرة فريدة للامتزاج بين الثقافتين الاسبانية والعربية .[١]

خامساً : بناء الموشحة :

لاحظ مؤرخو الموشحات القدماء اختلاف بناء الموشحة عن القصيدة التقليدية ، فحاولوا على ضوء ذلك تحديد أبعاد الموشحات في بنائها ، اوزانها وقوافيها ، وابن سناء الملك هو ـ بغير منازع ـ أول من قنن للموشح بعد أن درس طرائقه وأصوله .[٢] وهو وان كان له فضل الرّيادة ، لم يضبط عروض التوشيح ، على أسس علمية دقيقة ، كما فعل الخليل في اوزان الشعر العربي ، واختلط عليه الأمر في تحديد أنماط البنية ،[٣] وقد سبقت محاولة ابن سناء الملك محاولات أخريات ، في التنبيه الى اختلاف بناء الموشحة عن قصائد الشعر العربي ، ولكنها جاءت سريعة غير متريثة . حيث أشار ابن بسام في الذخيرة الى أوزان الموشحات المخالفة لأعاريض أشعار العرب .[٤] وأما ابن سناء فأنه حاول ضبط أوزانها ، فاعترف بعدم تمكنه « فعزّ ذلك وأعوز »[٥] وفهم عدد من الباحثين من كلامه أن أوزان الموشحات تختلف عن أوزان أشعار العرب ،[٦] لكن الدكتور احسان عباس نبّه الى أنه ليس المراد بقول ابن بسام ، مجيء الموشحات على أوزان غير عربية . بل المقصود خروجها على الأعاريض المألوفة الى المهملة . فالايقاع فيها عربي خالص ، ولكننا لا نستطيع أن ننسبها الى بحور الخليل المعروفة ، اذ هي مشتقة من بحوره ، دون ان تجد « خليلًا » آخر ليمنحها أسماءها .[٧]

ولعل السبب في عدم مجيء محاولات في ضبط اوزان وقوافي الموشحات ، ما ذكره الدكتور عباس الجراري ، ان هذا الفن ، وجد ليخرج على أوزان الخليل « ولو فعلوا ، لأطروه في قوالب جاهزة تعيدهم الى نفس حلقة الرتابة التي انطلقوا منها رافضين »[٨]

---

(١) فصول في الأدب الأندلسي ص ١٣٨ .
(٢) في اصول التوشيح ٢٩ .
(٣) ديوان الموشحات الاندلسية ١ / ١٢ .
(٤) الذخيرة ١ / ١ / ٤٧٠ .
(٥) دار الطراز ٤٧ .
(٦) ينظر على سبيل المثال الموشحات الاندلسية ، عناني ص ٤٠١ .
(٧) تأريخ الادب الاندلسي ٢ / ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
(٨) موشحات مغربية ص ٢٩ .

اما وقد انتهت هذه المحاولات واستقرت ضوابط هذا الفن . فإن تقعيدها أمرٌ ينسجم مع قواعد البحث العلمي لاسيما في إطار الأدب الأندلسي ـ الذي أصبح أثراً بعد عين .

ومن المحاولات في هذا المجال محاولة المستشرق الالماني هارتمان الذي أرجع تلك الاوزان الى ١٤٦ وزناً أو بحراً مشتقة من بحور الشعر العربي الستة عشر[١] . ولم نطلع على تفصيلات عمله . وكيفية اشتقاق هذا العدد الضخم .

ويرى الدكتور سيد غازي . أن اوزان الموشحات لم تقتصر على مقاييس الخليل . التي ضبط بها أوزان الشعر العربي . بل تعدتها الى مقاييس جديدة . ولُدها الوشّاحون . وما من وزن من هذه الاوزان « المبتكرة » الا وهو « مولّد » من أوزان الخليل . لا كما ذهب ابن سناء الملك[٢] . ويعود الدكتور غازي الى تخريج أوزان الموشحات . حتى تلك التي زعم ابن سناء الملك . انها خارجة على الاوزان .. وينفي ان تكون خاضعة للعروض الاسباني .. على الرغم من ورود جزء من أغنية شعبية . بلغتها العامية . والاعجمية . في ختام الموشحة . وهو ما يعرف بالمركز أو الخرجة ..

ومحاولة الدكتور غازي فذة في ضبط الأوزان . حيث طَبقها على جميع الموشحات الاندلسية التي جمعها في « ديوان الموشحات الاندلسية » وهي تقارب خمسمائة موشحة . والاوزان الخارجة على البحور الخليلية . تضطره الى استخدام اجزاء التفعيلة . ومقلوب البحور .. . لكن المحاولة لا تخلو من تعسف في تخريج بعض البحور كالذي حصل في بعض الموشحات[٣] .

---

(١) في الادب الأندلسي ـ جودة الركابي ٣٠٢

(٢) في اصول التوشيح ٤٢ .

(٣) نسوق على سبيل المثال موشحتين لابن خاتمة (٢ / ٤٤٤) حيث خرّج البحر على أنه من الرجز وكتب التفعيلات :

الدور : مستفعلن فعولن مفعولن فعولاتن

القفل : مستفعلن فعولن مفعولن فعولاتن

تفعلن عولان مفعولن فعولاتن

وعقب بقوله : او من المقتضب بحذف أوله وآخره ..

وفي موشحة أخرى (٢ / ٤٣٢) خرّج البحر على النحو التالي ..

الدور : مفعولن . مستفعلن فعلن

القفل : مفعولان مستفعلن فعلان

مفعولان مستفعلن فعلان على فعلن

ثم عقب بقوله : ام من الرجز او السريع .

والمحاولة الثانية لمقداد عبد الرحيم خضر ، جاءت بعد سبع سنوات من محاولة الدكتور غازي ، في منهج يختلف عن منهج سابقه ، فقد حاول فيها أن يضع أوزاناً (شبه منضبطة) من أوزان الخليل ، لكن محاولته لم تقدم لنا ضوابط نهائية ، ينطوي تحتها ما بين أيدينا من موشحات ... ومنهجه في ذلك يناظر منهج ابن سناء في نظرته الى أوزان الموشحات[1] ، وقد أشار الى ظاهرة التنوع في أوزان الأدوار والأقفال بين اكثر من بحر ، ولذلك قسّم أوزان الموشحات على ثلاثة أنواع[2] :

النوع الأول : ما جاء على أوزان الشعر العربي المألوفة ، وهو أربعة انماط :

أ ـ ما جاءت أقفاله وأدواره على وزن واحد .

ب ـ ما جاءت أقفاله وأدواره على وزنين .

جـ ـ ما جاءت أقفاله على اكثر من وزن ، وأدواره على وزن واحد .

د ـ ما جاءت أقفاله على اكثر من وزنين ، وأدواره على وزنين .

النوع الثاني : ما جاء على أوزان غير مألوفة ، وفيه نوعان :

أ ـ ما كانت أقفاله وأدواره ، على وزن واحد .

ب ـ ما كانت أدواره على وزن واحد ، وأقفاله على وزنين .

النوع الثالث : هو المتنوع الاوزان ، ويأتي على قسمين :

أ ـ أقفاله متنوعة الأوزان وأدواره على وزن واحد .

ب ـ ما تنوعت أوزان أقفاله وأدواره معاً .

وقد ساق أمثلة على الانواع التي ذكرها ..

واما بناء الموشحة ، فقد اعتمد الدكتور غازي في توضيحه على مصطلحات ، يصف فيها اجزاء القفل والدور مثل المشطر المجرد ، وهو الذي يبنى الجزء فيه ، على شطر واحد ، وتأتي فقر أشطاره ، بقواف داخلية ، تلتزم في القفل او في البيت ،

---

(١) في دار الطراز اشارة الى تنوع الاوزان في الموشحات ، ما جاء على أوزان العرب ، وما لا وزن له فيها ص ٤٤ وقسم أقفاله على وزن أبياته (الادوار) ص ٤٧ ، وآخر خالفت أقفاله أبياته ص ٤٨ ، وقسم لأبياته وزن يدركه السمع ولا يحتاج الى ميزان العروض وآخر مضطرب الوزن ص ٤٩ ، وقسم يستقل التلحين به ، وهو اكثرها ، وآخر لا يحتمله التلحين ، ولا يمشي به ص ٥٠ .

(٢) مجلة المورد ١٥ / ١ / بغداد ١٩٨٦ ص ٧٣ وما بعدها

وأوجدوا بذلك فواصل موسيقية ، تثرى البيت بالايقاع والنغم [١] .. وجاء البيت عند بعضهم « مضفراً » بفقرة أو فقرتين . وأتوا به « مذيلاً » او قدموا عليه فقرة فأصبح « مرؤوساً » او قدموا عليه فقرة ، واعقبوه بأخرى فأتوا به « مجنحاً » وجعلوه مذيلاً او مرؤوساً ، في القفل وحده ، او البيت كله ، ولم يأتوا به مجنحاً ، الا في القفل خاصة ، واقتصروا على تضفير القفل ، اول الأمر ، فكانوا يأتون بالغصن مجزوءاً ، وبالسمط مضفراً ، ثم انتقل الى الغصن كذلك .. وحذفوا من القفل فقرة ، واتوا به « أعرج » تنويعاً لايقاعه [٢].

وعلى هذا النمط يفصل الدكتور غازي اجزاء الموشحة ، ويستخدم هذه المصطلحات في وصفها ، ويبدو أن لها علاقة بالبحور المستخدمة في تلك الموشحات ، والمجال التطبيقي لهذا الحشد من المصطلحات ، في ديوان الموشحات الاندلسية ، ومن تلك الاوصاف « المجرد المرصع الدور ، والقفل ذو السمطين » [٣]

وقوله [٤] : (المرؤوس القفل ذو السمطين الاعرج)

وحين يصف موشحة « ايها الساقي » [٥] يقول : (مربع مشطر ، مزدوج القفل ، ساذج) وفي موشحة ابن باجة يقول [٦] : (مسدس مشطر مجرد ، ساذج)

ومحاولة مقداد رحيم خضر التي قصد فيها ضبط بنية الموشحة ، تنهج نهجاً آخر هو الاعتماد على تتبع قوافي الموشحات ، بتقديم اشكال تخطيطية لها ، يدرس الاقفال اولاً ، ثم الادوار ، وقرر أن ما تألف عن قسمين جاء على شكلين ، وما تألف من ثلاثة أقسمة جاء على أربعة أشكال ، وما تألف من أربعة أقسمة ، جاء على ثمانية اشكال ، وهكذا كما يتبين في الجدول رقم (١) ثم عاد فدرس قوافي الادوار ، فرأى أن ما كانت فقراته واحدة ، جاءت على شكلين في ثلاثة أقسمة وأربعة ، وما كانت فقراته اثنتان ، جاءت على خمسة اشكال ، وعدد من الأقسمة ، كما يتبين في الجدول رقم (٢) ، ولا شك أن تقسيماته تركزت بشكل اساس على قافية الموشحات ، فيما تناولت نعوت واوصاف الدكتور غازي ، بنية القصيدة وقوافيها كذلك ...

---

(١) في اصول التوشيح ٥٨ ـ ٦٢ .
(٢) نفسه ٦٨
(٣) نفسه ١٥٨
(٤) نفسه ١٤٢
(٥) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٧٦
(٦) نفسه ١ / ٤٠٦

جدول رقم (١)

قوافي الاقفال

عدد أقسام القفل	اشكالها
٢	٢
٣	٤
٤	٨
٥	٥
٦	٦
٧	١
٨	٨

جدول رقم (٢)

قوافي الادوار

عدد الفقرات	عدد الاشكال	عدد الاقسمة
١	٢	٣ ، ٤
٢	٥	٤ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠
٣	٢	٩
٤	صورة متعددة	١٢

سادساً : اغراضها ولغتها :

واما اغراض الموشحات . فقد تعددت وتشعبت . ولم تعد مقصورة على ما نظمت من أجله ـ في عصورها الاولى ـ حيث جاءت في موضوع الغزل بشكل رئيس . ولكن هذا الموضوع . بقي المتقدم على الموضوعات الأخرى . واذا شئنا أن نصل الى خلاصة دقيقة في هذا المجال . فإنا نجدها في فهرس الأغراض الذي جاء في آخر ديوان الموشحات الأندلسية[1] . وهي مرتبة حسب كثرتها :

١ ـ الغزل ٢ ـ المديح ٣ ـ الوصف ٤ ـ الرثاء ٥ ـ الزهد والتصوف .

ونماذج هذه الموشحات في تلك الموضوعات كثيرة في مواضيعها في الديوان .

ويرى الدكتور جودة الركابي أن الموشحات ـ في معانيها ـ لم تتضمن جِدةً او عمقاً . انما جاءت لطيفة حلوة على ابتذالها . ويستر هذه المعاني ظلاء خارجي مستمد من ضروب البيان والبديع . لا سيما ان الهدف من هذا الفن . خلق اجواء الحب واثارة عواطف الحنين وشطحات الخيال[2] .

وقد تناول الدكتور محمد مجيد السعيد مضمون الموشحات في عصري ازدهارها ـ المرابطين والموحدين[3] .

اما لغة الموشحات . فقد رأى بعض الباحثين ان الضَعْفَ والركاكة غلبا عليها .. لان الشاعر كان يبغي ارضاء الاذواق العامة[4]... وهو فيها مبالغ . لان قوله هذا . يصدق في الزجل وفنون الشعر غير المعربة . ولا يصدق في الموشح . وهو من الفنون المعربة . والجانب العامي يأتي في بعض الموشحات . التي اختارت خرجتها لتكون اعجمية او بلغة عامية .. واما بقية أجزاء الموشحة فيأتي منضبطاً ضمن احكام اللغة العربية .

وينكر الدكتور السعيد على الباحثين الذين يرون في الموشحات انحداراً وانحطاطاً في اللغة . وتفككاً وسوقية في التعبير . ويلاحظ ان الموشحات ـ إبّان العصرين الذين درسهما ـ لم تكن ركيكة هزيلة[5] . « صحيح أن ظاهرة التساهل

---

(١) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٧٣٢ وينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين٣٩٦ ٤٠٧

(٢) في الادب الأندلسي ٣٠٥

(٣) الشعر في عهد المرابطين والموحدين ٤١٢ / ٤٢٢

(٤) في الادب الاندلسي ٣٠٥

(٥) الشعر في عهد المرابطين والموحدين ٤٢٤ ـ ٤٢٧

اللغوي ونثرية التعبير وسمت أسلوبها . غير أن ذلك لا يصل الى الدرجة التي زعموها[١] »

وبعد أن استعرضنا أبرز القضايا الاساسية في الموشحات اليك هذين النصين وهما من الموشحات المشهورة :

(١)

اشتهرت موشحة ابن باجة . ابي بكرمحمد بن الحسين بن الصائغ السرقسطي (ت ٥٣٣ هـ)[٢] وذاعت . ولذلك جعل عدد من الوشّاحين من مطلعها خرجة لموشحاتهم ومنهم ابن عربي (ت ٦٦٨ هـ) وابن الصُباغ[٣] . وقد روى أن ابن باجة لمّا ألقى على أحدى قينات ابن تيفلويت موشحته .. طَرِب .. ولما ختمها بقوله : عقدَ اللّه راية النصر .. صاح واطرباه ! وشقّ ثيابه . وقال ما أحسن ما بدأت به وما ختمت . وحلف بالإيمان المغلظة ان لا يمشي الى داره الا على الذهب . فخاف الفيلسوف سوء العاقبة . فاحتال بان جعل ذهباً في نعله ومشى عليه[٤] . (مسدس . مشطر . مجرد . ساذج)

جرّر الذيـــــــل ايّـــــــما جرّ وصـل الـشكر منـك بالـشكر

(٢)

ذاك ضوء الصباح قد لاحا
ونـــســــيـــم الرياض قد فاحا
لا تَقدْ في الظلامِ مصباحا
خلّ عنه وشــعـــشــع الرّاحا

حيث تنهلّ أدمعُ القطر وترى الروض باسم الزّهرِ

---

(١) نفسه ٤١٣

(٢) تنظر ترجمته في قلائد العقيان ٢٤٦ . المغرب ٢ / ١١٩ . وفيات الاعيان ٤ / ٥٩ الوافي بالوفيات ٢ / ٢٤٠ . مقدمة ابن خلدون ٤ / ١٣٣٠ . جذوة الاقتباس ١٠٧ . أزهار الرياض ٢ / ٢٠٩ . فن التوشيح ١٤٥

(٣) ابن الصباغ ابو عبدالله محمد بن احمد الصباغ تنظر ترجمته في ازهار الرياض ٢ / ٢٣٠

(٤) ديوان الموشحات الاندلسية ١ / ٤٠٦

(٣)

نظمت جوهر العلا سلكا
كن ملكٍ يزين الملكا
ما برا الله مثله ملكا
لاح بدراً وفاح لي مسكا

كالحيا ، كالامان كالدهر   كعلي في الحرب أو عمرو

(٥)

كلما لاح وهو ملتثم
كهلال تحفه ديم
خافقاً فوق رأسه علم
غنّت العرب فيه والعجم

عقد الله راية النصر   لامير العلا أبي بكر

« ٢ »

وقال ابن زمرك[١] في موشحته[٢] :

نسيم غرناطة عليلُ   لكنه يبريء العليلَ
وروضها زهره بليل   ورشفه ينقع الغليلَ

(٢)

عقيلة تاجها السبيكة   تُطل بالمرتب المنيف
كأنها فوقه مليكة   كرسيها جنة العريف
تطبع عن عسجد سبيكة   شموسها كلما تطيف
أبدعك الخالق الجليل   يامنظراً كله جميل
قلبي الى حسنه يميل   وقبلنا قد صبا جميل

---

(١) ابن زمرك ابو عبدالله محمد بن يوسف بن زمرك (ت بعد ٧٩٢ هـ) تنظر ترجمته في الكتيبة الكامنة ٢٨٢ الدرر الكامنة ٤ / ٤١٢ ، نثير فرائد الجمان ٢٢٦ ، التعريف ٢٦٢ ، جذوة الاقتباس ٤ / ٩٨ النفح ٧ / ١٤٥ ـ ٢٦٦ ، ٢٧٩ ، فن التوشيح ١٤٥ .

(٢) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٥٠٢ ـ ٥٠٦

(٦)

وزاد للحسن فيك حسنا محمد الحمد والسماح
جدد للفخر فيك مغنى في طالع اليمن والنجاح
تدعى رشاداً وفيك معنى يخصك الفأل بافتتاح
فالنصر والسعد لا يزول لأنه ثابت اصيل
سعد وانصاره قبيل آباؤه عترة الرسول

(٧)

يا سرحة في الحمى ظليلة كم نلتُ في ظلك المنى
روضك الله من خميلة يجنى بها أطيب الجنى
وبرقها صادق المخيلة ما زال بالغيث مُحسنا
أنجز لي وعدك القبول فلم أقل مثلَ من يقول
يا سَرحة الحيّ يا مطول شرح الذي بيننا يطول

المبحث الثاني
المعارضات

المعارضة في الشعر الاندلسي

هل اختلف الشعر الأندلسي عن شقيقه المشرقي ؟ وما اوجه هذا الاختلاف ؟

هذان سؤالان قديمان جديدان شغلا كثيراً من النقاد القدماء والمحدثين ومن خلال هذين السؤالين نستطيع أن نفهم ونعلل ظاهرة المعارضة في الشعر الأندلسي . (لقد يخطىء من يزعم أن شعر الاندلسيين يغيب في سواد غيره من الأقاليم كالعراق والشام والحجاز ، بحيث يشتبه النسيج وتلتحم الديباجة . وذلك رغم من لا يعرف الشعر الا بأوزانه ولا يميز غير ظاهره[1]) .

فما المقصود بالمعارضة ؟ واين تقع من التقليد او الابداع ؟

لعل افضل تحديد لمفهومها ما ذكره الاستاذ احمد الشايب ، « والمعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما ، من أي بحر وقافية . فيأتي شاعرٌ آخر ، فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني ، وصياغتها الممتازة . فيقول قصيدة في بحر الأولى ، وقافيتها ، وفي موضوعها أو مع انحراف عنه يسير او كثير . حريصاً على أن يتعلق بالأول في درجته الفنية ويفوقه . فيأتي بمعان أو صور بإزاء الأولى . تبلغها في الجمال الفني ، او تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل ، وجمال التمثيل ، او فتح آفاق جديدة في باب المعارضة[2] » . ولا علاقة بين اتفاق الشاعرين في العصر أو اختلافهما فيه ..

ونلمح الصلة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي حين نعلم أن المعارضة في اللغة هي المقابلة . يقال ، فلان يعارضني اي يباريني ، وعارضته في السير اذا سرت حيالهُ وحاذيته ، وعارضته بمثل ما صنع اي اتيت اليه بمثل ما أتى ، وفعلت مثل ما فعل[3] ، ومنه اشتقت المعارضة وهذا هو القياس ، كأن عرض الشيء الذي يفعله مثل عرض الشيء الذي أتاه[4] .

(١) تاريخ آداب العرب الرافعي ٣ / ٢٩٦

(٢) تاريخ النقائض في الشعر العربي القديم ص ٧ (ط السعادة بمصر ١٩٥٤)

(٣) اللسان مادة عرض ، المحيط ، عرض

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤ / ٢٧٢

ويروق لبعض الباحثين ان يوازن بينها وبين المناقضة ، ليبين أوجه اللقاء والخلاف ، وهي بينة واضحة . فالاولى تدل على الاعجاب ، وتعرب عن الوفاء وتتصل بالبراعة الفنية التي تصل الى درجة التحدي . واما المناقضة فتدل على الاختلاف بين الشاعرين وعدم اتفاقهما من حيث الافكار بشكل اساس ، على نحو ما يبينه هذا الحوار بين يوسف بن هارون المعروف بالرمادي وشيخه يحيى بن هذيل ، حين يسأله التلميذ عن شعره فينشده ابياتاً منها :

ومُرِنّه والدّجن ينسج فوقها بُردين من حَلَكٍ ونَوء باكي
مالت على طي الجناح وانما جعلت اريكتها قضيب اراكِ

فيعجب بها . وينظم شعراً على نهجها ومنها :

أحمامة فوق الاراكة بيني بحياة من ابكاك . ما ابكاك ؟
اما انا فبكيت من حرق الهوى وفراق من اهوى . أأنت كذاكِ ؟

فلما سمعها ابن هذيل قال له : اعارضتني ؟ فقال : لا . انما ناقضتك ! فقال له ابن هذيل : اذهب فقد اخرجتك من الكتب[1]

ان مجرد قول الشاعر قصيدة في بحر قصيدة أخرى وقافيتها وموضوعها . لا يدل على تقليد مطلق للشاعر السابق على نحو ما ذهب عدد من الدارسين منهم الدكتور عمر فروخ والدكتور بدير متولي حميد[2] والصواب انها مظهر من مظاهر الابداع وصورة من صور التفوق ، لاسيما في مراحلها الأخيرة . فقد يبدو الشاعر مقلداً وتكون المعارضة مظهراً من مظاهر هذا التقليد لكنه لن يجرؤ على معارضة كبار الشعراء الا بعد أن تستقوي لديه ملكة الشعر فيحاول مجاراة أعلام الشعراء ومظاهاتهم ، وتنتهي به هذه النزعة وتستوي على ساقها . حين يدرك مرتبة أولئك الشعراء . الذين بدأ معجباً بهم . ومن هنا نستطيع أن نقرر بأن المعارضة حالة تتجاوز التقليد الى الابداع . والمتابعة الى الابتكار . والشاعر يمزج فيها بين القديم والجديد .. وهي وجه من وجوه النقد الفطري ـ كما يرى الدكتور عمر فروخ[3] ـ أليست هي مظهراً من مظاهر الاعجاب والحكم لشاعر بأنه أحسن ؟

---

(١) نثار الازهار ٨٢ وينظر تاريخ الادب الاندلسي ١ / ٢١٤

(٢) تاريخ الادب العربي ٤ / ٧٨ ، قضايا اندلسية ٥٨ .

(٣) تاريخ الادب العربي ٤ / ٧٨

ولدينا أمثلة كثيرة على الشعراء الذين وقفت بهم شجاعتهم دون المعارضة او انهم عارضوا واخفقوا على نحو ما حصل حين طلب المنصور بن ابي عامر من صاعد البغدادي (ت ٤١٧) أن يعارض ارتجالاً قصيدة ابي نواس التي مطلعها :

اجارة بيتينا ابوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

فلم يجرؤ واعتذر ثم انه جاء من الغد بقصيدته التي مطلعها :

جذال الشرى اني بكن بصير طوتكن عني خلسة وقتير

يعلق ابن بسام على الحادث فيرى ان المنصور تعمد ذلك وحمله على غرر وعرضه لسوء الخبر لانه كان دعياً ومتمادياً في لجاجته [1].

وقصيدة ابن دراج في معارضتها مشهورة ، ومطلعها :

دعي عزمات المستضام تسير فتنجد في عرض الفلا وتغور

ورأى ابن بسام الشنتريني الناقد في عدد من الشعراء اخفاقاً في معارضاتهم حينما ساق خبر ابي عبدالله بن شرف الذي سأل المأمون بن ذي النون ان يقترح عليه اي قصيدة شاء من شعر ابي الطيب حتى يعارضه بقصيدة تنسي اسمه وتعفي رسمه فتثاقل ابي ذي النون اشفاقاً من فضيحته حتى الح عليه واحرجه فقال له دونك قوله : « لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي » يقول ابن بسام فخلا بها ابن شرف أياماً فوجد مركبها وعراً .. وارهق نفسه في امرها عسراً فما قام وما قعد ولا حل ولا عقد [2].

والمعجبون بالمتنبي في الأندلس كثيرون فقد حاول ابو علي بن رشيق ان يعارضه واختار قصيدة من شعره ليست ذات شأن هي « أمن ازديارك في الدجى الرقباء » ثم صنع قصيدة بذل فيها طاقته لكنه قصر عن ان يبلغ شأوه (وعلم أن الاحسان كنز لا يوجد بالطلب .. وصان نفسه عن أن يحدث عنه بأن تكون الهرة أحزم منه)[3]

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٤

(٢) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٤

(٣) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٥ حول منزلة المتنبي لدى الاندلسيين ينظر بحث الدكتور محسن جمال الدين
(معالم شخصية المتنبي في الاندلس) المورد ٦ / ٣ / ١٩٧٧

ولم تكن نظرة ابن شهيد الأندلسي ـ فيما نقله الحميدي عن كتابه حانوت عطار ـ مختلفة عن ابن بسام فقد انكر على من تولى ديوان الشعراء حيث قدم عبادة بن ماء السماء على عبدالرحمن بن ابي الفهد مع أن الأخير كان من اشعر من انبتته الاندلس حتى انه لم يكد يلقي شاعراً جاهلياً ولا اسلامياً الا عارضه وناقضه مثل الجواد اذا استولى على الأمد لا يني ولا يقصر.

لقد أنكر ابن بسام في ذخيرته، على بني قومه، تقليدهم لأهل المشرق التقليد الأعمى وذلك كان في مقدمة الأسباب التي دعته الى تأليف كتابه: «الا أن أهل هذا الأفق أبوا الا متابعة أهل الشرق، يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على ذلك صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً»[١]

الا أن هذا الاعتراف والاقرار من ناقد غيور مثل ابن بسام جرّه الى الدّفاع عن الأندلس أنفه وكبرياء، فاخذ يتتبع محاسن أهل بلده، وعصره، غيرة عليهما ثم صاح صيحته وبأعلى صوته فقال: «وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالاحسان؟ وقد كتبت لارباب هذا الشأن.. محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتاب.. واودعت هذا الديوان.. من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم ماهو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة.. لأن أهل هذه الجزيرة ـ مذ كانوا ـ رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة..»[٢]

لقد كانت نظرة الاستهانة الى نتاج الأندلسيين وأستضآل ما يصدر عنهم، من الاندلسيين أنفسهم، إكباراً لنتاج أهل المشرق، وصورة من صور اتصال الفرع بالشجرة الأم، حتى أن ابن حزم الاندلسي العالم الفقيه أشار الى هذه الظاهرة في مقام المباهاة بجهود الاندلسيين وتفوقهم على عدوة المغرب في رسالته المشهورة في فضائل أهل الأندلس حيث يذكر أن من امثالهم «أزهد النّاس في عالم أهله» و «لايفقد النبي حرمته الا في بلده» وكأنه يسوغ بهذين القولين ما لقيه هو وامثاله من ابناء عصره وبلده من عدم احتفاء واهتمام.

---

(١) الذخيرة ١ / ١ / ١٢

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ١٢ ـ ١٤

وظهرت هذه النظرة كذلك عند المشارقة في مقولة أحد ادبائهم وعلمائهم حين بلغه ظهور كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه فحصل عليه ثم ازرى به باقتباسه من قوله تعالى، « بضاعتنا ردت الينا » وهو موقف ينم عن ولع المشارقة. وشدة اهتمامهم بتتبع أخبار الأندلس لمعرفة مايأتي منهم، ومدى السبق الذي قد يحققونه.

وقد وقف ابو عبدالله الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) موقف الحيطة والحذر ازاء هذا التتبع من المشارقة لاخبارهم حين نزل في بغداد وطلب اليه ان يضع مؤلفاً يجمع فيه ما يحضره من أخبار اهل الأندلس في الشعر واللغة والحديث فاعتذر ببعده وقلة مواده متذرعاً بسببين،

أما أن أبخس القوم حظهم. وانقصهم فضلهم. فأتعرض للائمتهم فيما أوردت.. واما أن أوهم من رأى قلة جمعي. ونهاية مافي وسعي. أنه ليس من أهل الفضل في تلك البلاد الا نزر من الاعداد.[1]

والسببان الآنفان يدلان دلالة واضحة على تحسب الحميدي وحيطته ازاء المشارقة. ونلاحظ ان عدداً من المشارقة ابدى اعجابه بنتاج الأندلسيين ولدينا على ذلك شهادات لادبائهم وشعرائهم فمن ذلك ما رواه ابن بسام عن ابي علي القالي الذي زار الاندلس وصرح باعجابه من أهل الأندلس في ذكائهم حتى انه يتغطى عنهم عند المباحثة والمناقشة[2].

وكذلك ما روى عن اعجاب شاعر كبير هو المتنبي بشاعر اندلسي هو ابن عبد ربه. حيث أنشد بعض اشعاره فاعجب بها وقال، لقد يأتيك العراق حبواً »[3]

وفي القرن السادس الهجري يعرب ابن العماد الاصفهاني عن اعجابه هو الآخر بسلاسة شعرهم ورقته ورونقه حين يقرأ لبعض شعرائهم[4].

وتنطوي المعارضة على بعد سياسي. لا سيما حين يكلف امير او حاكم أندلسي شاعراً بمعارضة شاعر مشرقي. فانه إن نسب لشاعره التفوق على الشاعر المشرقي. يكون قد عزز ملكه بشاعر متميز يفوق شعراء ملوك المشرق!.

---

(١) الجذوة ١ ـ ٢ وينظر تيارات النقد ٩٢

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ١٥

(٣) معجم الأدباء ٤ / ٢٢٢

(٤) الخريدة ٢ / ١٣٢

ويتجلى الأمر بشكل واضح حين يكون العداء مستحكماً على نحو ما نجد بين المغرب والأندلس . فقد أمر ابو تميم معد المعز لدين الله الفاطمي شاعره (اابا الحسن علي بن محمد الايادي التونسي) أن يعارض قصيدة ابن عبد ربه التي يستهلها بقوله :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس

بعد أن أشتهر امر القصيدة .. فاستجاب لأمر الملك بقصيدته التي مطلعها[1] :

ربع لزينب قد درسْ واعتاض من نطق خرسْ

واعجاب الاندلسيين بادب المشرق ونتاجه آكد . وأشد ، لانهم كانوا يجدون فيه الوطن الأم الذي نزحوا منه . ومن مظاهر اعجاب الأندلسيين بالمشرق ما تجلى في صورة المعارضة في الحياة الثقافية والادبية حيث نجد ولعلهم الشديد بأتخاذ اسماء المشرق لمدنهم في الأندلس على نحو ما نقل المقري ان ابا الخطار حسام الكلبي كثر اهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد وانزل اهل دمشق البيرة لتشابههما وسماها دمشق وانزل اهل حمص اشبيلية وسماها حمص . واهل قنسرين جيان وسماها قنسرين واهل الأردن رية ومالقة وسماها الاردن واهل فلسطين شذونة وسماها فلسطين واهل مصر تدمير وسماها مصر[2] .

ومثل ذلك نشهده في اتخاذهم اسماء الكتب والمؤلفات مماثلة لنظائرها المشرقية واحتذائهم فيها مناهج مشابهة لكتب المشارقة فمن ذلك كتاب الحدائق لابن فرج الجياني (ت ٣٦٦ هـ) الفه معارضاً كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني[3] (ت ٢٩٧ هـ) وكتاب الكبير لأبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ) عارض به كتاب احياء علوم الدين للغزالي[4] . ولابن عبد ربه كتاب العقد الفريد حاكى فيه عيون الأخبار لابن قتيبة[5] . وكتاب ابن بسام المشهور (الذخيرة) تأثر في تأليفه بكتاب يتيمة الدهر للثعالبي[6] وكتاب امية بن أبي الصلت (ت ٥٢٩ هـ)

---

(١) وفيات الاعيان ١ / ١١٢ (ط احسان عباس) الوافي بالوفيات ٨ / ١٢

(٢) الاحاطة ١ / ١٠٣ وينظر تاريخ النقد الأدبي في الاندلس ٤٣ .

(٣) الذخيرة ١ / ١ / ١٢ ، الصلة ١ / ٥

(٤) البغية ١٢٥ ، الاعلام للزركلي ٧ / ١٣٣

(٥) ابن عبد ربه وعقده ، ٥٧

(٦) الذخيرة ـ المقدمة ١ / ١ / ٣٢

(الحديقة) قلد فيه كتاب اليتيمة كذلك . ولابن زيدون كتاب التبيين في خلفاء بني امية في الأندلس جعله على منزع التعيين في خلفاء المشرق للمسعودي[1]. ولابي عبدالله بن أبي الخصال كتاب المنهج عارض به كتاب مبهج الثعالبي[2] وكذلك عارض ابا العلاء في كتاب ملقى السبيل[3]. ولعثمان بن ربيعة القرطبي (ت ٣١٠ هـ) طبقات الشعراء بالاندلس وهو يشبه طبقات ابن سلام ولمحمد بن هشام المرواني اخبار الشعراء بالاندلس يقوم على فكرة الطبقات نفسها ولعبدالله بن محمد بن مغيث شعر الخلفاء من بني أمية وهو يشبه كتاب الاوراق للصولي وليحيى بن الجدج المرسي كتاب الاغاني الاندلسية وهو كتاب يشبه كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني . ويطلب الحكم المستنصر من ابن الصفار أن يؤلف كتاباً في اشعار خلفاء الأمويين بالمشرق والاندلس مثل كتاب الصولي في اخبار خلفاء بني عباس . ولابن عبدالغفور الكلاعي[4] كتب عارض فيها ابا العلاء المعري منها في السلطانيات والمقامات والساجعة والغربيب . وثمرة الالباب وملقى السبيل وفيها يعارض كتاب السجع السلطاني . والصاهل والشاحج وسقط الزند وغيرها من كتب المعري كما تقدم بنا في دراسة النثر في عهد الطوائف .

ولابن شرف القيرواني مقامات يعارض فيها البديع[5]. كما عارض ابو حفص بن برد ابا الفضل ابن العميد في بعض رسائله الديوانية . ولابن خطاب فصل من كتابه « فصل الخطاب » في معارضة ابي الجوزي على ما سيأتينا .ولابن الخطيب كتاب التاج المحلي في مساجلة القدح المعلى سلك فيه هذا السبيل[6].

بل انهم شبهوا بعض ملوك الاندلس بالخلفاء العباسيين . يقول ابن حيان . « ان المعتضد كان يتخذ سيرة سميه الخليفة المعتضد بالله العباسي قدوة له . ويهتدي باخباره » ويقول ابن القطان عنه « كان ذا سطوة كالمعتضد العباسي »[7].

وكذلك كان الشأن في اطلاقهم القاب شعراء المشرق على شعرائهم فابو الأجرب جعونة بن الصمة. وابو الخطار حسام بن ضرار لقبا بعنترة[8] والرمادي يوسف بن

---

(١) رسالة ابن سعيد في فضائل الاندلس النفح ٣ / ١٧٨ ـ ١٨٦

(٢) فهرسة ابن خير ٢٨٦

(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١١٣

(٤) نفسه ٢ / ١١٣

(٥) الذخيرة ٤٥ / ١ / ١٩٦

(٦) لسان الدين بن الخطيب ٢٣٨

(٧) البيان المغرب ٣

(٨) المغرب ١ / ١٣١

هارون (ت ٤٠٣ هـ) لقب بأمرىء القيس وغالب بن رباح لقب بأبي تمام ، وابن زيدون وابو عبدالله بن مجبر لقبا بالبحتري[١] وحمدونة بنت زياد بالخنساء او صنوبرية المغرب[٢] وابن اللبانة بالسموءل[٣]. وابو بكر الاعمى المخزومي بشار الاندلسي[٤] . وابو الربيع سليمان بن علي عرف بكثير ومؤمن بن سعيد دعبل الأندلس[٥] والرصافي البلنسي ابن رومي المغرب وابن خفاجة صنوبري الأندلس وابن وهبون شبه بأبي نواس والمتنبي وابن عبدون شبه بالمتنبي وابن دراج القسطلي وابن هاني الأندلسي وابو طالب عبد الجبار لقبوا بمتنبي الأندلس ومروان الطليق شبه بابن المعتز واحمد بن محمد الجياني (تيس الجن) شبه بأبي نواس والمعتمد وشاعره ابن عمار شبها بالرشيد وجعفر بن برمك ويحيى الغزال شبه في خمرياته بابي نواس وابو مروان الجزيري شبه بابن عبد الملك الزيات والاعمى التطيلي بمعرى الأندلس[٦] وابن مرج الكحل بالوأواء .[٧]

وقد عبر الدكتور احمد هيكل عن دواعي المعارضات ـ بشكل عام ـ ووجد أنها تتمثل في محاولة الأندلسيين التفوق على سابقيهم المشارقة .. وهم في ذلك مدفوعون بروح القومية الأندلسية التي كانت تدعوهم دائماً لتأكيد ذوويتهم ، وابراز جهود بلدهم[٨].

واذا كان الاعجاب بشاعر او بقصيدة من قصائده سبباً من الأسباب التي دعت الى المعارضة ـ على المستوى الفردي ـ فان ذيوع قصائد معينة وانتشارها واعجاب النقاد بها وارتقاء منزلتها هو الآخر من الأسباب الداعية للمعارضة ، وهو أمر شبه متواتر في القصائد المشهورة . فمن ذلك نونية ابن زيدون : « وكان شعر ابن زيدون مثلاً يحتذيه من جاء بعده من الشعراء » كما يقول اوجست كور[٩]. ومن ذلك سينية ابن الأبار التي قال عنها ابن سعيد[١٠] :

---

(١) الذخيرة . ترجمة ابن زيدون ، رايات المبرزين ١١١

(٢) المغرب ٢ / ١٤٥

(٣) المغرب ٢ / ٤١١ ، المعجب ١٦٩

(٤) المغرب ١ / ٢٢٢

(٥) المغرب ١ / ١٣٢

(٦) الرايات ١٢٤

(٧) ينظر تاريخ النقد الادبي ٤٤

(٨) الادب الاندلس ٢٥٩

(٩) تاريخ الفكر الاندلسي ٨٦

(١٠) اختصار القدح المعلى ص ١٩١

« وعارضه جمع من الشعراء ما بين مخطىء ومحروم ، واغرى الناس بحفظها ، اغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم » .

ويرى الدكتور سعد شلبي[1] ان نزعة التقليد التي أشار اليها ابن بسام وصلت بهم الى حد الشعور بالحرج من تقليدهم المشارقة وقد تجلى هذا الحرج في مظهريه :

اولاً : تأليفهم الكتب للاشادة بشعرائهم كما فعل الحميري في كتابه البديع وابن بسام في الذخيرة وابن خاقان في القلائد والمطمح .

ثانياً : تحرج الشعراء من التقليد والاقتباس من الشعراء المشارقة واتجاههم الى كبار شعراء الاندلس واتخاذهم اساتذة لهم .

اذا كانت المعارضة تلتزم الوزن والقافية فان موضوعها لا يتحدد بل يتعدد والمعارض الكفء هو الذي يتابع الشاعر المعارض في قصيدته في كل غرض وموضوع كما يتابع الفارس الفارس في نزاله في كل خطوة لا يتجاوزه ولا يبعد عنه حتى ينتصر عليه .

وتتعدد ضروب المعارضة وانماطها في الشعر الأندلسي وقد صرح ابن خفاجة باعجابه بالمتنبي في مقدمة ديوانه وحدد موضوع الاعجاب بقوله (من لف الغزل بالحماسة) واورد على ذلك مقطعات من شعره من مثل قوله :

ورب ليالٍ بالغميم ارقتها لمرضى جفون بالفرات نيام

ومقطعات اخريات[2]،ويعقب عليها بقوله (ولكل واحد مأخذ طريف لطيف يأخذ بمجامع النفوس) مما يستدل معه ان معارضته ومحاكاته للمتنبي لم تكن محاكاة عمياء صماء بل انه كان يضفي على قصائده نَسغاً من روحه بحيث يتميز اسلوبه بطابعه . بل اننا نجد من انواع المعارضات عنده ما يأخذ المعنى والوزن ولا يلتزم القافية[3] . ومن القصائد مالم يصرح به على انه يعارض فيها بل اشار الى انه يقتفي طريقة مهيار[4] .

---

(١) دراسات ادبية ٦٨ ـ ٧١

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ١٦

(٣) ديوانه ص ٢٥٨

(٤) ديوانه ص ١٤

ويرى الدكتور محمد نوفل ان اتفاق القصيدتين في البحر والروي والموضوع يجعل المعارضة تامة ووافية وان اي اختلاف في هذه العناصر الثلاثة يجعلها معارضة ناقصة(١) .

ونلاحظ ان النقاد نظروا الى المعارضة وكانوا في ذلك بين منكر ومستحسن وقد تقدم بنا موقف ابن شهيد حين ترجم لعبد الرحمن بن ابي الفهد الذي عارض عدداً من الشعراء فاستحسن ذلك منه ووجد فيه امارة على الابداع والتفوق ، لكننا نشهد طائفة اخرى من النقاد تنكر وتستهجن وتنعى على الشعراء نهجهم هذا على نحو ما يسوق خبرهم ابن خفاجة ليرد عليهم ويطالبهم بأن يأتوا بشيء يسير من هذا الأسلوب الضعيف على زعمهم ، ويتردد مثل هذا الحوار بين المنكر وابن خفاجة في مواضع من ديوانه(٢) .

ودراسة عجلى عن المعارضات في الشعر الأندلسي لا تستطيع ان تستقريء نصوصها وتستبين اساليبها وضروبها على نحو دقيق ولكننا سنشير اشارة عامة الى ابرز انماط المعارضات لمحاولة اعطاء فكرة عن حجم هذه الظاهرة وابرز شعرائها ، والمكثر منهم والمقل .

نستطيع أن نقرر أن ابرز اعلامها في القرن الرابع الهجري هو ابن عبد ربه حيث تجلت لديه هذه الظاهرة واكتملت في شواهد كثيرة وامثلة شعرية متعددة،لقد كان ينظم الابيات ثم يذيلها ببيت من القصيدة التي عارضها وترد اكثر هذه القصائد مجتمعة في آخر الجوهرة الثانية في اعاريض الشعر والقوافي ، ومجموع ما يرد منها ثلاث وستون قطعة بعدد ضروب العروض التزم فيها ذكر الزحاف والعلل التي يقوم ذكرها في الجزء الأول الذي اختصر فيه فرش العروض ، ليكون كتابه مكتفياً بنفسه فمن امثلة ذلك ما اورده في البحر البسيط والضرب المجزوء(٣) :

ظالمتي في الهوى لا تظلمي	وتصرمي حبل من لم يصرم
اهكذا باطلاً عاقبتني	لا يرحم الله من لم يرحم
قتلت نفساً بلا نفس وما	ذنب بأعظم من سفك الدم
لمثل هذا بكت عيني ولا	للمنزل القفر وللارسم
(ماذا وقوفي على رسم عفا	مخلولق دارس مستعجم)

---

(١) تاريخ المعارضات ١٣

(٢) الديوان ص ١٢ ، ١٥ ، ١٨ .

(٣) العقد الفريد ٥ / ٤٤٩

والبيت الاخير للمرقش كما أشار الى ذلك محقق العقد . وقد تقدم بنا نص أخر في ابيات لامية عارض فيها عدي بن زيد العبادي وذلك حين درسنا اشعاره .

وقد اشرنا في حينها الى نزعة الشاعر المستحكمة الى المعارضة وانواع ما يرد في شعره منها وخصائصها[١] .

ومن شعراء هذا القرن كذلك جهور بن ابي عبدة الذي كان شاعر عبد الرحمن الناصر الا ان اكثر اشعاره لم تصل الينا ومما اورده ابن الابار قطعة من خمسة ابيات قالها في تفضيل الورد وكأنه يرد بها على ابن الرومي (ت ٢٨٣ هـ) في قصيدته التي مطلعها :

خجلت خدود الورد في تفضيله   خجلاً توردها عليه شاهد

وقد تركت هذه القصيدة آثاراً بعيدة في شعراء الاندلس على نحو ما اورد الحميري في كتاب البديع في وصف الربيع ، وممن عارضها ابو عثمان سعيد بن فرج الجياني ، وابو بكر بن القوطية ، وقصيدة ابن الرومي قالها مفضلاً النرجس على الورد وهي اربعة عشر بيتاً وفيها يقول[٢]

شتان بين اثنين هذا موعدُ   بتسلب الدنيا ، وهذا واعدُ
للنرجس الفضل المبين وان أبي   آبٍ وحاد عن الطريقة حائدُ
من فضله عند الحجاج بأنه   زهر ونور وهو نبت واحدُ
يحكي مصابيح السماء وتارة   يحكي مصابيح الوجوه تراصدُ
والورد ـ لو فتشت ـ فردٌ في اسمه   ما في الملاح له سمي واحدُ
هذي النجوم هي التي ربُتهما   بحيا السحاب كما يربى الوالدُ
اين العيون من الخدود نفاسةً   ورياسةً لو لا القياس الفاسدُ ؟

اما ابيات ابن ابي عبدة فهي قائمة على الاحتجاج يحاول فيها ان يثبت للورد صفات تجعله يفضل النرجس إذ انه على الرغم من مجيئه متأخراً فهو يحدد الحياة فيبعث فيها النشاط حين تكون النواوير الاخرى ومنها النرجس مصفرةً لتموت وليست للنرجس ميزة التبشير لان المبشر به هو الاهم كما يقول في ابياته[٣] :

---

(١) اعلاه ابن عبد ربه ص ٨٨

(٢) ديوان ابن الرومي ٢ / ٦٤٢ تحقيق د. حسين نصار ـ دار الكتب المصرية حـ ١ ـ ٦ القاهرة سنة ١٩٧٦

(٣) الحلة السيراء ١ / ٢٤٧ ـ ٢٤٨ مطمح الانفس ١٨٥

خضعت نواوير الرياض لحسنه   فتذللت تنقاد وهي شوارد
واذا تبدى الورد في أغصانه   ذلت ، فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً   بطلوع صفحته فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه   خبرٌ عليه من النبوة شاهد
واذا تعرى الورد من أوراقه   بقيت عوارفه فهن خوالد

ومن بدائه الامور أن نجد شعر الطبيعة معدوداً في موضوعات الاندلس الاصيلة التي تقترن بالبيئة اقتراناً مباشراً ، اذ أن نظمهم فيه ينم عن اتجاه اصيل نتيجة للتفاعل بين الشاعر والطبيعة الاندلسية التي من خصائصها هذا الجمال المتفرد .

لكن الشعر المشرقي بقي يرفد الاندلسيين حتى في مثل هذه الموضوعات . وظل شعراء الاندلس يستلهمون تجاربهم من النماذج الجيدة في الشعر المشرقي حتى نجد قصيدة ابي تمام التي مطلعها :

رقت جواشي الدهر فهي تمرمر   وغدا الثرى في حليه يتكسر

يعارضها ابو بكر بن نصر الكاتب . وابن قلبيل البجائي .[١]

وفي مطلع القرن الخامس الهجري يطالعنا شاعر كبير هو ابو عامر بنن شهيد الذي كان شاعراً وناثراً وناقداً . وقد دعته ثقافته الادبية الواسعة الى ان يخوض غمار هذا الميدان على نحو ما تقدم بنا حين وقفنا عند دراسة رسالته (التوابع والزوابع)[٢] والذين عارضهم كثيرون . امرؤ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم وابو تمام والبحتري وابو نواس والمتنبي وتأتي معارضاته على صورة مقطعات شعرية او قصائد ينشدها بعد ان يستمع الى شيطان ذلك الشاعر ويكتفي من هؤلاء الشعراء بمطالع قصائدهم واحياناً يورد شيئاً من أبياتهم على نحو ما فعل مع ابي نواس فمن معارضاته قصيدته التي عارض فيها امرأ القيس التي مطلعها[٣] :

سمالك شوق بعد ما كان اقصرا   وحلتْ سُليمى بطنَ قوٍ فعَرعَرا

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١١١ وترجمة الشاعرين في الجذوة ٣٩٤ ، ٣٩٠ .
(٢) اعلاه ص ١٨١
(٣) ديوان امرىء القيس ق (٤)

فيعارضه ابو عامر في قسمها الذي يفتخر فيه امرؤ القيس بنفسه وشجاعته وهي في اصلها تجاوز ستين بيتاً واما ابيات ابن شهيد فهي جزء من قصيدة لم يصل منها الا خمسة ابيات والمطلع"[1]

« شجته مغانٍ من سليمى وأدور » ثم يقول :

ومن قبة لا يدرك الطرف رأسها	تزل بها ريح الصبا فتحدرُ
تكلفتها والليل قد جاش بحره	وقد جعلت أمواجه تتكسرُ
ومن تحت حضني ابيض ذو سفاسق	وفي الكف من عسالة الخط أسمرُ
هما صاحباي من لدن كنتُ يافعاً	مقيلان من جد الفتى حين يعثر
فذا جدول في الغمد تسقى به المنى	وذا غصن في الكف يجنى فيثمر

وخلاصة القول ان فكرة المعارضة لا تدل على مجرد التقليد وليس فيها ما يشير الى ضعف المستوى الفني للشاعر كما ليس فيها ما يدل على ضعف الادب الأندلسي قياساً لنظيره المشرقي صحيح ان الاندلسيين عارضوا المشارقة للإعراب عن اعجابهم لهؤلاء الشعراء وبقصائد منتخبة لهم ، لكننا وجدنا المعارضة تجري فيما بين الاندلسيين انفسهم ، كما وجدنا المشارقة هم المعارضون لقصائد الاندلسيين كذلك .

وتتردد فكرة الاتفاق بين الادبين المشرقي والاندلسي لدى كثير من الباحثين وهو اتفاق طبعي منسجم مع طبيعتيهما ، لان المنابع الفكرية والثقافية وروافدها واحدة .. ولذلك اتجهت الدراسات الى عقد موازنات بينهم وبين اهل المشرق ، وذلك ما حجب عنا روائع الاندلسيين . فشوهت هذه الموازنات مجال اشعارهم عندما وجدنا الشبه قوياً بين الادبين .[2]

وتأخذ فكرة التقليد والتجديد بعداً واقعياً وتطبيقياً لدى احد الباحثين الذين وقفوا عند دراسة الأدب الأندلسي في فن من فنونه هو النثر حيث يرى الدكتور جازم عبدالله[3] ان الأدبين المشرقي والأندلسي كل متكامل مكون من اجزاء لا يمكن فصلها الا بما يمتاز به كل جزء في ذاته من غير اخلال بالقواعد لأمور عديدة :

---

(١) ديوانه ق ٢٤

(٢) دراسات ادبية ٧١

(٣) النثر الاندلسي ٥٢٧

١ ـ ان الادبين مكتوبان بلغة واحدة هي اللغة العربية ...
٢ ـ ان ثقافة الادباء الاندلسيين هي ثقافة الادباء المشارقة نفسها، قد أخذت الطائفتان من معين واحد، وسارت على مثل وقواعد متفقة موحدة.
٣ ـ الصلة بين المشرق والاندلس كانت قوية متينة ودائمة مستمرة وبخاصة على الصعيد الثقافي والعلمي حيث كانت افواج العلماء والادباء تروح وتغدو من الاندلس الى المشرق او من المشرق الى الاندلس والمؤلفات كذلك.
٤ ـ وجودهم في بلد بعيد عن المشرق كان يحدوهم الى التطلع الى اخوانهم ويشدهم الى التمسك بمثلهم وافكارهم وعقائدهم كما يشدهم الى اثارهم في شتى الوان المعرفة.
٥ ـ الشبه الكبير في مظاهر البيئة الأندلسية بمظاهر البيئة العربية.

هذه الامور جعلت الأندلسيين معنيين باهل المشرق وما يصدر عنهم كما كان من الطبعي ان يتشابه الادباء الاندلسيون في آثارهم بآثار اخوانهم المشارقة.

من هنا يخلص الدكتور حازم الى القول بأن فكرة التقليد لا مكان لها في العلاقة بين الأدبين كما ان فكرة التقليد لم ترد على اذهان الباحثين بين مصر والعراق والشام والحجاز او اي اقليم عربي واقليم عربي آخر.
وان هناك اموراً امتازت بها الاندلس عن المشرق مع اتفاق اللغة والعادات والعقيدة وغيرها منها:

١ ـ البيئة الاندلسية التي التقت مع المشرقية، ولكنها زادت عليها وأربت في صفاتها ومظاهرها بما احتوته من جمال الطبيعة الدائم..
٢ ـ العادات الاندلسية التي انطلقت من العادات العربية الاصيلة لكنها افادت من بعض العادات المحلية التي كان عليها اهل البلاد الاصليون.
٣ ـ الامتزاج الذي حصل بين العرب وغيرهم من الأقوام.

ومن الدراسات الحديثة كتاب الدكتور محمد محمود قاسم نوفل[١] الذي كرسه لدراسة المعارضات في الشعر العربي بشكل عام وقد تناول في الفصل الاول معاني ومدلولات المعارضة، اللغوي الاصطلاحي ثم استعرض في الفصل الثاني المعارضات في العصر العباسي حتى نهاية العصر الاموي وجاء الفصل الثالث اطول فصول الكتاب حيث وقفه لدراسة المعارضات في بلاد المغرب الاسلامي وقد جعله في ثلاثة

---

(١) مؤسسة الرسالة ودار الفرقان ـ بيروت ١٩٨٣

اضرب ، المعارضات الأندلسية الداخلية ، ومعارضات الاندلسيين لشعراء المشرق ، المعارضات في الموشحات واما الفصل الرابع فقد درس المعارضات لبعض القصائد المشهورة كقصيدة بانت سعاد والبردة وكان الفصل الخامس آخر فصول الكتاب درس فيه المعارضات عند البارودي والهاشمي واحمد شوقي ومعارضات منوعة بين عدد من الشعراء المعاصرين والقدامى .

والكتاب بوجه عام يحقق الهدف المعقود عليه بتعريفنا بأكبر عدد وصل اليه الباحث من المعارضات وفصول الكتاب تناولت القضية بشكل عام وان كانت قد اهملت دراسة المعارضات المشرقية للشعر الأندلسي وهي كثيرة ، ثم تأتي دراسة أخرى انجزت حديثاً لتقف عند المعارضات الاندلسية بشقيها ، التي عارضت الشعر المشرقي وتلك التي كانت بين الاندلسيين انفسهم ، وذلك في القرنين الخامس والسادس الهجريين .(١)

وسنعرض لابرز المعارضات بضروبها الثلاثة مشيرين الى ابرز شعرائها كيما يعود الطالب اليها فيتعرف على أبعاد هذا الفن وهي :

أ ـ معارضة الأندلسيين للمشارقة :

١ ـ ابو ايوب سليمان بن الحكم في قصيدته التي مطلعها :

عجباً يهاب الليث حدّ سناني ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان

يعارض هارون الرشيد .(٢)

٢ ـ ابو بكر بن سوار الاشبوني في قصيدته التي مطلعها

وليل كهم العاشقين قميصه ... ركبت دياجيه ومركبها وعر

يعارض ابا فراس الحمداني (٣)

٣ ـ صاعد الأندلس يمدح ابا حسن بن وداعة السلمي سنة ٤١٧ هـ في قصيدته التي مطلعها :

---

(١) الباحث يونس طركي سلوم البجاري ، كلية الآداب ـ جامعة الموصل آذار ١٩٨٨ وهي رسالته للماجستير

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ٤٧ (٣) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨١٥

ابا حسن ربيعة من سليم ـ سنان زان عالية الرماح

يعارض ابن ميادة ، الرماح بن ابرد بن ثوبان (ت ١٣٦ هـ)[١]

٤ ـ ابو جعفر بن الابار في قصيدته التي مطلعها :

غادرت عرضي عرضة وابحته ـ وتركت نهب نفائس ونفوس

يعارض الاشتر النخعي (ت ٣٧ هـ)[٢]

٥ ـ ابن عبد ربه في قصيدته التي مطلعها :

أتقتلني ظلماً وتجحدني قتلي ـ وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل

يعارض مسلم بن الوليد (صريع الغواني) (ت ٢٠٨ هـ)[٣]

٦ ـ ابو الخطاب عمر بن أحمد بن عطيون التجيبي الطليطلي يمدح المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس في قصيدته التي مطلعها :

عاكف جفنى على سهره ـ سيف جفن سل من حوره

يعارض ابا نواس (ت ١٩٨ هـ)[٤]

٧ ـ ابن الخطيب في قصيدته التي مطلعها :

اطلعن من سدف الفروع شموسا ـ ضحك الظلام لها وكان عبوسا

يعارض ابا تمام (ت ٢٣١ هـ)[٥]

٨ ـ وفي قصيدة ابن عطيون التي مطلعها :

أمن كيوان أطلب أن اقادا ـ لقد أعظمت شأوى ذا بعادا

يعارض ابا العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ)[٦]

٩ ـ ابن اللبانة الداني في قصيدته التي مطلعها :

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٥٢

(٢) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٩٦

(٣) ديوان ابن عبد ربه ص ١٣٢

(٤) الذخيرة ٢ / ٢ / ٧٧٤

(٥) نفح الطيب ٦ / ١٩٥

(٦) الذخيرة ٢ / ٢ / ٧٧٧

في الطيف لو سمح الكرى تعليل يكفي المحب من الوفاء قليل

يعارض ابا المظفر البغدادي من شعراء القرن الخامس الهجري [١]

١٠ ـ ابن الجنان الاندلسي في قصيدته التي مطلعها :

عيون النهى بين التدبر والفكر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

يعارض على بن الجهم[٢] (ت ٢٤٩ هـ)

١١ ـ ابن دراج في قصيدته التي مطلعها :

دعي عزمات المستضام تسيرُ فتنجد في عُرض الفلا وتغورُ

يعارض أبا نواس[٣] على نحو ما سنفصل القول فيها .

١٢ ـ وفي قصيدة أبي المطرف بن عميرة (ت ٦٥٨ هـ) التي مطلعها :

اقلوا ملامي أو فقولوا واكثروا ملومكم عما به ليس يقصر

يعارض رائية عمر بن أبي ربيعة[٤]

١٣ ـ ابن حزم الأندلسي في قصيدته التي مطلعها :

أودك وداً ليس فيه غضاضة وبعض مودات الرجال سراب

يعارض فيها المتنبي وابا فراس الحمداني .[٥]

ب ـ معارضة الاندلسيين فيما بينهم :

١ ـ ابن اللبانة في قصيدته التي مطلعها :

خلعت عذاري في عذار على خد حكى خضرة الريحان في حمرة الورد

يعارض ابن خفاجة .[٦]

---

(١) الذخيرة ٣ / ٢ / ٦٩٠

(٢) ديوان ابن الجنان رقم ١٦

(٣) ديوان ابن دراج ق ٧٨

(٤) أبو المطرف بن عميرة ص ٢٣١

(٥) رسائل ابن حزم الاندلسي ١ / ٨٥

(٦) ديوان ابن اللبانة ق ٢٠

٢ ـ وفي قصيدته التي مطلعها :

عرج بمنعرجات واديهم عسى تلقاهم نزلوا الكثيب الاوعسا

يعارض أبا الربيع بن أحمد القضاعي[١]

٣ ـ أبو مروان عبدالملك بن رزين (ق ٥ هـ) في قصيدته التي مطلعها :

هبوا لنا حظكم من آل لبَونِ كم تبخلون علينا بالرياحين

يعارض أبا الحسن بن سابق[٢].

٤ ـ أبو الربيع القضاعي في قصيدته التي مطلعها :

زعم العبير بأنه حاكاكِ كَذَبَ العبير وما حكى ريّاك

يعارض ادريس بن اليمان العبدري[٣]

٥ ـ ابن خفاجة في قصيدته التي مطلعها :

ياصدى الثغر مر تهنا بمر الريح والديم

يعارض ابن باجة[٤]

٦ ـ أبو بكر بن الملح في قصيدته التي مطلعها :

هل يسمع الرّبع شكوانا فيشكينا أو يرجع القول مغناه فيغنينا

يعارض ابن زيدون .[٥]

٧ ـ أبو بكر محمد بن عبدالملك بن المرخي في قصيدته التي مطلعها :

في ذمة الفضل والعلياء مرتحلٌ فارقت صبرى اذ فارقت موضعه

يعارض فيها ابن زريق البغدادي .[٦]

---

(١) ديوان ابن اللبانة ق ٤٠

(٢) الذخيرة ٣ / ١ / ١٢٢.

(٣) الذخيرة ٣ / ١ / ٢٤٥

(٤) ديوان ابن خفاجة ق ٥٨

(٥) الذخيرة ١ / ١ / ٣٦٠

(٦) الذخيرة ٢ / ٢ / ٥٤١

٨ ـ أبو العلاء زهر الايادي (ت ٥٢٥ هـ) في قصيده الي مطلعها ؛

وفاؤك ما اسنى وفضلك ما اسرى ومجدك ما أسمى وزندك ما أورى

يعارض أبا محمد بن عبدون .[١]

٩ ـ ابن سهل الاشبيلي في قصيدته الي مطلعها ؛

الأرض قد لبست رداءً أخضراً والطل ينثر في رباها جوهراً

يعارض ابن عمار .[٢]

١٠ ـ أبو عبدالله بن الصفار في قصيدته التي مطلعها ؛

نسبت شرّ عبيد العجم للعرب جهلاً بفضل رسول الله والنسب

يعارض فيها أبا زيد الفازازي .[٣]

ج ـ معارضات المشارقة للأندلسيين

١ ـ نونية ابن زيدون ؛

يتحدث الدكتور الوكيل[٤] عن هذه المعارضات فيرى ان احصاءها يحتاج لضبطه الى رسالة وافية ومما يؤكد قوله ما ذكره الصفدي[٥] حيث قال ؛ « وعارضها الناس في حياته وبعد مماته ولم يقاربوها » ولعله من الطريف أن نقرأ رأياً للصفدي[٦] يقرر فيه أن هذه النونية معارضة للبحتري في قوله .

يكادُ عَاذلنا في الحبِّ يُغرينا فما لجاجكَ في لومِ المُحبينا

ومن هذه المعارضات معارضة الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) في زمن الشبيبة في مرثية يرثي بها بعض أصحابه ومطلعها ؛

---

(١) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٢٩

(٢) ديوان ابن سهل رقم ٥٤

(٣) البيان المغرب ـ القسم الموحدي ٢ / ٢٦٠

(٤) ابن زيدون ومعارضوه ص ١٧٢ ، مجلة الكتاب عدد خاص في الذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون ١١ ـ ١٢ بغداد ١٩٧٥

(٥) تمام المتون ١٢

(٦) نفسه ١٢

تحكمت بعدكم أيدي النوى فينا ... وقد أقامت بنادينا تنادينا

وذكر المقري انه وقف على موشحة لابن الوكيل دخل فيها على اعجاز نونية ابن زيدون وفيها يقول ،

غدا منادينا محكماً فينا

يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

ومن القصائد الذائعة في معارضتها قصيدة احمد شوقي :

يانائح الطلح اشباه عوادينا ... نشجى لواديك أم تأسى لوادينا

وقد تقدمت الاشارة الى معارضة ابي بكر بن الملح لها .

٢ ـ ياليل الصّب :

اشتهرت قصيدة ياليل الصب لدى دارسي الأدب ونقاده بعد أن أولع بها عدد كبير من الشعراء حتى ان القصيدة طبقت في شهرتها الخافقين فأدلى الشعراء بدلوهم وفتحو من مائها العذب ، محتذين أبياتها ، ومعانيها ، والفاظها ومبانيها .

ولعل السّر في هذا الأعجاب المنقطع النظير يعود بالدرجة الأولى الى وزنها الذي بناه عليه ابو الحسن الحصري القيرواني فجاءت على بحر الخبب والقصيدة في اصلها نظمت في خطاب ابي عبد الرحمن محمد بن طاهر صاحب مرسية وهي تتألف من تسعة وتسعين بيتاً يستهلها بثلاثة وعشرين بيتاً في النسيب ، وقد قيل ان الذي دعا الحصري الى نظمها وشاية لفقها اعداء الشاعر وابلغوها ابن طاهر وقد أشار الى الوشاية مفنداً وراداً على شانئيه .

وقد وقف عدد من الدارسين عند هذه القصائد منهم الاستاذان محمد المرزوقي والجيلاني ابن الحاج يحيى حيث ساقا في مؤلفهما عن الحصري عدداً من قصائد المعارضات للقصيدة بلغ الاربعين .[١]

ومن نماذج قصائد المعارضات التي نتوقف لأستجلاء ابعادها ، قصيدة ابن دراج القسطلي التي يعارض فيها قصيدة ابي نواس في مدح صاحب خراج مصر ، ابي نصر الخصيب بن عبد الحميد ومطلعها :[٢]

---

(١) ابو الحسن الحصري ص ١٥٠ ـ ٢٠١ ، ٤٩٥ .

(٢) ديوان ابي نواس ٤١١ ـ ٤٢٦ ، وتنظر دراسة القصيدة في الشعر والشعراء في العصر العباسي ٢٩٨ ـ ٣٠٢ للدكتور مصطفى الشكعة ، ط ٢ دار العلم للملايين سنة ١٩٧٥ .

أجارة بيتينا ابوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

وبين ايدينا رواية الصولي في ديوانه، حيث جاءت في اربعين بيتاً، ويكفي دلالة على شهرة القصيدة ان المنصور بن أبي عامر، كان يستبد به الاعجاب بها، وهو الذي اقترح معارضتها على ابن دراج وصاعد البغدادي، لكن صاعداً أبى أن يعارضها ارتجالاً، اجلالاً لأبي نواس لمكانته، ومكانة قصيدته قائلاً:[1]

انـي لـمـسـتـحـي علا ... ك من ارتجال القول فيه
من ليس يدرك بالروية ... كـيـف يدرك بالـبـديـه

ولما أصر عليه المنصور، لم يصبح حتى نظم قصيدته التي مطلعها:

خِدال البُرى اني بكن بصير ... طوتكن عني خلسة وقتير

جاءت قصيدة ابي نواس في اربعة أشواط، يبدأ في شوطها الأول بمخاطبة جارة بيتيه، البيت والنسب.. ويدعو على نفسه بعدم الستر ان لم تكن صاحبته أو زوجته.. وانه ذو نظر ثاقب يزجر عيون الناس بعينيه التي هي كنظر العقاب التي طوت القوت عن ولدها ليلتين، وهي تقلب نظرها بحثاً وتنقيباً:

فأن كنت لا خلماً ولا أنت زوجةً ... فلا برحت دوني عليك ستورُ
وجاورت قوماً لا تزاور بينهم ... ولا وصلَ الا أن يكون نشورُ
واني لطرفِ العين بالعين زاجرٌ ... فقد كدتُ لا يخفى عليّ ضمير
كما نظرت والريح ساكنة لها ... عقنباةُ أرساغ اليدين نزور

ثم يصل الحديث ـ في الشوط الثاني من القصيدة ـ بصاحبة بيته، التي انهمرت دموعها حين نهته عن الرحلة الشاقة لأن دون مصر اسباب الفتن كثيرة، فعلام هذا النصب والوصب وتلك المتاعب والمشاق، وعلى الرغم من قناعته بما قالت، فأن امله العريض بالخصيب هو الذي حفزه على الرحيل

تقول التي من بيتها خف مركبي ... عزيز علينا أن نراك تسيرُ
أما دون مصرٍ للغنى متطلبٌ؟ ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتْها بوادِرٌ ... جرت فجرى في جريهنَ عبيرُ
ذَريني أكثرَ حاسديكِ برحلةٍ ... الى بلد فيه الخصيبُ أميرُ

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٢ ـ ٢٣، وساق ابن بسام منها ستة ابيات وعقب بعدها بقوله: «... ولكن ابن ابي عامر حمله على الفرر، وعرّضه لسوء الخبر..».

واما الشوط الثالث فيتجلى بالمديح المباشر لممدوحه في حوالي عشرة أبيات .. ومنها قوله :

اذا لم تزر أرضَ الخصيبِ ركابنا ... فأيّ فتى بعد الخصيب نزورُ
فتى يشتري حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدورُ
ولم ترعيني سؤدداً مثل سؤدد ... يحلّ ابو نصر به ويسيرُ
وأطرق حيّات البلادِ لحية ... خصيبية التصميم حين تسورُ

واذا كان ابو نواس قد حاور صاحبة بيته في الرحلة التي ارادت ان تثنيه عنها فأنه قبل وصفها انتقل الى المديح .. وكأنه اراد أن يستدرك ما فاته من وصف الرحلة الشاقة . وهي جزء حيوي ومهم من بناء قصيدة المديح فعاد في الشوط الرابع من القصيدة ليحدثنا عنها حديثاً متأنياً ، حيث يذكر أكثر المدن التي مَروا بها متخذين الأبل وسائل في تلك الرحلة .. وبين بغداد ومصر خمسمائة وخمسون فرسخاً ..[1] ومن المدن التي مرّ بها بدأ بعقرقوف التي هي قرية من نواحي دجيل . عيني اباغ التي اضطر الى تثنيتها . وهي وادٍ وراء الانبار على طريق الفرات الى الشام . وماء النقيب . وتدمر . وجبل المدخن . وغوطة دمشق والجولان وبيسان . ونهر فطرس . وبيت المقدس . وغزة هاشم . والفرما وشقور حتى يبلغ فسطاط مصر فمما قاله يصف الابل وهي ترضخ الحجارة . وقد اصابها الوهن من مشاق السفر . فلم يبق من أجسادهن الا الشطور :

رحلن بنا من عقرقوف وقد بدا ... من الصبح مفتوق الأديم شهيرُ
وأصبحن بالجولان يرضخن صخره ... ولم يبق من اجرامهن شطورُ

ويأتي آخر القصيدة تماماً لشوطها الثالث وهو المديح الخالص بعد أن تقدم على وصف الرحلة سبعة أبيات معرضاً بطلب النوال :

زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى ... وفي السلم يزهى منبر وسريرُ
جواد اذا الايدي قبضن عن الندى ... ومن دون عورات النساء غيورُ
واني جديرٌ ان بلغتك بالغنى ... وأنت بما أمّلتُ منك جديرُ
فإن تولنى منك الجميل فأهله ... والا فأنـــــي عاذر وشـــــكورُ[2]

وأما قصيدة ابن دراج في ديوانه فمطلعها :

---

(١) ابو نواس قصة حياته ١٧٢ ، عبد الرحمن صدقي ، دار الهلال . القاهرة د . ت .

(٢) ديوانه رقم ٧٨

دعـي عزمات الـمـسـتـضام تـسـير فتنجد في عرض الفلا وتغور

وقد جاءت بنفس أطول حيث فاقت قصيدة أبي نواس بأكثر من النصف فبلغت خمسة وستين بيتاً ، وزيادة مبنى القصيدة وعدد الأبيات تأكيد على أظهار البراعة والتفوق على الشاعر في قصيدته المعارضة ، وغزارة نتاج الشاعر معيار للتفوق لدى اقدم النقاد .[1] ولا تختلف القصيدة ـ بشكل عام ـ في بنائها حيث جاءت في اربعة اشواط بأختلاف يسير حين جعل ابو نواس مديحة للمدوح في مرحلتين لكن ابا عمر ، جعله في شوط واحد كما يتصل الشوطان الاول والثاني ـ عند ابي نواس ـ في قصيدة ابن دراج على النحو التالي :

الشوط الأول : مخاطبة الزوجة بالرحلة الى الممدوح ، وزجرها اياه ، وتخوفها من عواقب السفر ثم وصف مواقف الوداع في ابياته الستة عشر الأولى ومنها قوله :

تـخوفـنـي طول الـسّـفار وأنّـه لـتقـبـيـل كفّ العامري سـفـير
دعيني أرد ماء المفاوز آجناً الى حيث ماء المكرمات نميرُ
ولما تدانت للوداع وقد هفا بـصـبرى مـنـها أنة وزفـيرُ

وقد تقدم بنا الحديث عن السمة الاسرية في شعر الشاعر حين دراستنا اياه آنفاً .

اما الشوط الثاني : فيتناول وصف الرحلة ووعثائها ، ومشاقها في اثني عشر بيتاً ومنها قوله :

وأستنشق النكباء وهي بوارحٌ وأستوطىء الرمضاء وهي تفور
وللموت في عين الجبان تلوّنٌ وللذعر في سمع الجرىء صفير
أميرٌ على غول التنائف ماله اذا ريعَ الا المشرفيّ وزيرٌ

حتى ينتهي الى حسن التخلص بقوله :

لقد أيقنَتْ أن المنى طوع همتي وأني بعطف العامريّ جدير

حيث ينتقل الى الممدوح ويفرد فيه شطر القصيدة . ولدى الموازنة بين القصيدتين تتجلى اوجه الخلاف ، بعد أن رأينا اتفاقهما في الوزن والقافية والموضوع حيث نجد الشاعر يتوسع في معاني المدح من ناحية كما نجده يتوسع في وصف الرحلة وما يواجهه فيها .. ويتفنن في وصف مشاعر الأسرة والاولاد ازاءه ، واذا كان

---

(١) طبقات فحول الشعراء لأبن سلام ١ / ١٣٧ ، ١٤٧ .

ابو نواس قد ركَّز على جانب الكرم في ممدوحه ، فأن ابن دراج جسَّد في ممدوحه شخصية القائد المسلم المتكاملة الجوانب ، وفرق بينهما ، فأن الخصيب كان أميراً للخراج ، واما الحاجب المنصور فقد كان الحاكم الحقيقي ـ غير المتوج ـ للأندلس ، وذلك ما جعل قصيدة ابن دراج تفوق قصيدة ابي نواس في معانيها وصورها ، فقد جمع المنصور شطري الدين والدنيا ، وقد ورث النسب العريق كابراً عن كابر من جهة الآباء ومن جهة أمه التميمية كذلك :

وايّ فتى للدين والملك والندى وتصديق ظن الراغبين نزور
مجيز الهدى والدين من كل ملحدٍ وليس عليه للضلال مجير
تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلالا في العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفّهم سحائب تهمى بالندى وبحور

وبأسهم متصل على امتداد العصور ، وترامي الدهور :

لهم بَذَل الدهر الأبي قيادَه وهم سكنوا الايام وهي تفورُ
وهم نصروا حزب النبوة والهدى وليس لها في العالمين نصيرُ

وبعد الآيات البيض التي اسبغها على ممدوحه يعود ليقرّ بأنه لن يبلغ شأو ممدوحه فيقول :

مناقبَ يعيا الوصف عن كنه قدرها ويرجع عنها الوهم وهو حسير
الاكلّ مدح عن مداك مقصّر وكل رجاء في سواك غرورُ

والملاحظ أن لغة الشاعر لم تقصر عن لغة ابي نواس ، فتمثلت فيها جزالة الالفاظ ومتانتها وبراعة الاسلوب والصياغة .. وبذلك ادرك الشاعر مرماه ، وبلغ أمنيته ، وغالب النواسي ايّ مغالبة فشق غباره ولحق به ، وربما تقدم عليه في بعض أبياته ..

المبحث الثالث

شعر الطبيعة

هذا ميدان آخر أخصبت فيه قرائح الأندلسيين وحلقوا في اجوائه تحليقاً ولذلك عده كثير من الدارسين مناطاً للتجديد وموضوعاً ابدعوا فيه . وامتازوا على الشعر المشرقي من حيث ان الجديد هو انعكاس للبيئة الجديدة وتفاعل معها . وهو عند الدكتور بدير متولي حميد لون من ألوان ثلاثة تفوق فيها الأندلسيون هي شعر الطبيعة وشعر الحب والشعر الحزين[1] . ولعل بلداً عربياً لم يكثر شعراؤه من تشخيص عناصر الطبيعة على نحو ما اكثر شعراء الاندلس[2] .

وقف دراسو الشعر الأندلسي كتباً او فصولاً في دراسة هذا اللون . وخصائصه وسماته . وابرز شعرائه[3] . إن الشخصية الأندلسية مهما كانت مرتبتها العلمية والاجتماعية كانت تذوب وتتلاشى كلما التقت بالطبيعة أو واجهتها . اذ لا تمتلك غير الاستجابة لها . ملبية دعوتها الى الاستمتاع بما تزخر به من مفاتن[4] . فقد شغل شعر الطبيعة الناس جميعاً . خاصتهم وعامتهم . ملوكهم وسوقتهم[5] .

---

(١) قضايا اندلسية ١٢١

(٢) فصول في الشعر ونقده ١٥٨

(٣) ومن هذه الدراسات : الطبيعة في الشعر الأندلسي للدكتور جودة الركابي ، والشعر والبيئة في الاندلس للدكتور ميشال عاصي ، ومن الرسائل الجامعية ، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر للدكتور سعد شلبي القاهرة ١٩٧٨ ، والطبيعة في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين ، للباحث محمود منصور ، عمان ١٩٨٥ ، ومن الدراسات التي أفردت فيه فصولاً ، دراسة الدكتور سيد نوفل في شعر الطبيعة في الادب العربي ١٩٤٥ ، والدكتور بدير متولي حميد في قضايا اندلسية ١٩٦٤ والدكتور مصطفى الشكعة في الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه ١٩٧٤ ، والدكتور عمر الدقاق في ملامح الشعر الاندلسي ١٩٧٥ ، والدكتور عبد العزيز عتيق في الأدب العربي في الأندلس ١٩٧٥ شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي ، د . سليمان العطار القاهرة ١٩٧٣ .

(٤) في الشعر الاندلسي ص ١٨ ، الدكتور عدنان صالح مصطفى دار الثقافة – الدوحة ١٩٨٧

(٥) قضايا اندلسية ١٤٤

ونحسب أن التأثر بالطبيعة . تجاوز الشعر والنظم الى النثر بل الى الحياة الثقافية عامة . فمن الرسائل النثرية رسالة ابي حفص بن برد الى ابي الوليد بن جهور يصف فيها خمسة اصناف من النواوير هي : الورد . النرجس . البنفسج . البهار . الخيري النمام وغرضه تفضيل الورد من بينها وقد اطلع ابو الوليد الحميري على هذه الرسالة فأحب أن يحاكيها فجعل المجلس سبعة انواع من الزهور هي الخمسة المتقدمة وأضاف عليها الاقحوان والخيري الاصفر . وغايته تفضيل البهار على الورد ووجهها الى القاضي المعتضد بن عباد . وكلتا الرسالتين جاء في كتاب البديع.[1] .

وقد شاعت القطع الشعرية والنثرية في المفاضلة بين نور ونور مما كان يجر الى النقاش والجدل . ونشأ ضرب من المعارضات في مجال ذكر نواوير الربيع على نحو ما حصل بعد أن نظم ابو الحسن على بن ابي غالب الاستجى قصيدته الضادية معارضة ستة شعراء هم ابو الوليد الحميري . وابو بكر بن القوطية . وابو جعفر بن الابار . وابو بكر بن نصر . وابو الاصبع بن عبد العزيز . ومحمد بن عباد القاضي الذي توجهت اليه قصائد الشعراء المذكورين آنفاً[2]

ويرى الدكتور احسان عباس أن هذه المقطعات الصغيرة في وصف صنوف الازهار تمثل (بطائق) المهاداة بين الأصدقاء . وليس لديهم من غاية سوى طلب الصورة المبتكرة[3] . وقد وجد الدكتور حميد في هذا الاتجاه ضرباً من التخصص ، لا سيما أن الشاعر يختار زهوة واحدة لينظم فيها[4] .

ونلحظ أثر الطبيعة كذلك في العناوين التي اختاروها لكتبهم فمن ذلك : الحدائق لابن فرج الجياني (ت ٣٦٦ هـ) و « حديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح » لابي عامر بن مسلمة[5] والحديقة لأميه بن ابي الصلت الحكيم (ت ٥٢٩ هـ) . والطير ليوسف بن هارون (ت ٤٠٣ هـ) والبديع في وصف الربيع لابي الوليد الحميري (ت ٤٤٠ هـ) وزمان الربيع لأبي بكر الخشني الجياني .

---

(١) ينظر البديع ٥٢ ، ٥٨
(٢) البديع ٤٠ — ٤٩
(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٩٧
(٤) قضايا اندلسية ١٥١
(٥) الذخيرة ٢ / ١ / ١٠٦

المعروف بابن ابي ركب (ت ٥٤٤ هـ[١]) ، والروض المعطار في خبر الاقطار لابن عبد المنعم الحميري (ت ٧٢٧ هـ) ، وروضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ، ونفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، وازهار الرياض في اخبار عياض ، وروضة الآس العاطرة الانفاس للمقرى (ت ١٠٤١ هـ) وكتاب البستان للزياني ، كما نجد شيوع تسمية الحرائر والجواري بأسماء الزهور ، ومن هذا ماروى من ان المنصور بن ابي عامر كان قد سمى بناته بأسماء الزهور ، فنظم الشعراء في وصف الزهور لتبيين فضيلة كل نوع منها وهم في هذا يحكون خصائص بنات المنصور[٢] .

عرفت الاندلس شعر الطبيعة منذ عهد مبكر ، فقد عارض ابن ابي عبده ، وزير عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد ، وانشد ابو مروان الجزيري (ت ٣٩٤ هـ) قصيدته على لسان بهار[٣] العامرية ، وكان يوجه رسائله الى المنصور على السنة كرائمه بزهور رياضه[٤] .

حدق الحسان تقر لي وتغار   وتضل في صفتي النهى وتحار

ولابن عبد ربه وابن شهيد وابن حزم قصائد متفرقة في وصف الطبيعة .

وفي عصر الطوائف والمرابطين يزدهر هذا الموضوع ، ازدهار موضوعات الشعر الأخرى بحيث يؤلف نسبة عالية عند الشعراء ، فقد خرجوا على العرف السائد بالوقوف على الاطلال في مطالع القصائد واستهلوها بشعر الطبيعة ، ليس هذا فحسب اذ قلما يرد وصف الطبيعة مفرداً عن موضوعات الشعر الاخرى الا لدى عدد قليل من الشعراء ، وخير من يمثل هذا الامتزاج ابن زيدون في قصيدته القافية المشهورة التي يقول فيها[٥] :

---

(١) رايات المبرزين ٤٠

(٢) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١١١

(٣) الذخيرة ٤ / ١ / ٤٨

(٤) يطلق الدارسون على شطر من شعر الطبيعة ، مما يعني بوصف النور او الزهر تسمية « النوريات » ولغزارة ما كتب في هذا اللون ، كتبت دراسات عنه منها رسالة الدكتور كميل ناشف : شعر النوريات بين المشرق والاندلس جامعة القديس يوسف ١٩٨٤ ، وبحث للسيد مقداد رحيم خضر بعنوان « تاريخ النوريات في الشعر العربي في المشرق وفي الاندلس ، مجلة آداب المستنصرية العدد ١١ ، ١٩٨٥ ص ١٩٩ ـ ٢٢٥ واقدم منهما ما كتبه د . احسان عباس في تاريخ الادب الاندلسي / عصر سيادة قرطبة ص ١٠٦ ـ ١١٢

(٥) ديوان ابن زيدون ١٣٩

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا   والأفق طلق . ومرأى الأرض قد راقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم   كما شققت عن اللبات أطواقا
نلهو بما يستميل العين من زهر   جال الندى فيه ، حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقي   بكت لما بي ، فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته   فازداد منه الضحى في العين إشراقا

لقد أثرت هذه القصيدة في الشعراء وتجاوز أثرها الشعراء العرب الى شعراء الطبيعة الغربيين الذي يربطون بين الطبيعة والحب[١] . فاذا كانت هذه القصيدة تستحوذ على اهتمام الادباء اعجاباً بها فان من الباحثين من شخص ظاهرة تدعو الى التأمل والدراسة تتمثل في اننا لا نكاد نجد لابن زيدون في الطبيعة الأندلسية الساحرة مقطوعة واحدة فضلاً عن قصيدة كاملة تستقل بنفسها يصف فيها شيئاً من مظاهر الطبيعة[٢] .

ان شعر ابن زيدون كله ـ كما يرى الدكتور ناصر الدين الاسد ـ يكاد يكون افوافاً من الطبيعة موشاة نسجتها يد صناع[٣] ، أبدعت تصوير حواشيها وابراز نقوشها . ولكن كيف يعلل هذا الاهمال في شعره ؟

الحق انه ليس اهمالاً للطبيعة بل إننا نلاحظ تفاعل الشاعر بها حتى امتزجت بعروقه وخالطت بشاشتها روحه الشاعرة ، وعادت الطبيعة ذوباً من عواطفه ، وحواسه ، بحيث لم يكن يحس بالطبيعة ومظاهرها معزولة وحدها احساساً منفصلاً مستقلاً قائماً بذاته حتى يفردها في قصائد ومقطوعات ، انما كان إحساسه بالطبيعة جزءاً من إحساسه العام بالجمال ممزوجاً بإحساسه بالمرأة وشعوره بها .. ومن ذوب هذه الاحاسيس صاغ شعره في الغزل والتشوق والتذكر والمناجاة والشكوى والوصل والهجر[٤] .

وبعد أن كان الشاعر في العصور السابقة بالاندلس يقلد ويعارض في روضياته ، قويت فيه النزعة واستحكمت بحيث أصبحنا نقرأ في أشعاره شخصية الشاعر المتفاعل مع بيئته وبذلك استطاع أن يحقق امتيازاً على الشاعر المشرقي ، بقدر امتياز

---

(١) مقدمة ديوان ابن زيدون ٨٢
(٢) ليس في شعر ابن زيدون ، بحث الدكتور ناصر الدين الاسد ، مجلة الكتاب العدد ١١ ، ١٢ ، بغداد ١٩٧٥
(٣) نفسه ٥٩
(٤) نفسه ٦٠

الطبيعة الأندلسية التي سكبت في روع الشعراء ، فأقبلوا ينهلون من رضابها ، ويرشفون من حلابها ، وخالطت نفوسهم بشاشتها ، استمع الى ابن خفاجة[1] :

إن لـلـجـنة بالأندلـس مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجى ليلتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبأ صحت واشواقي إلى الاندلس

لقد استحوذ جمال الأندلس على حواسه وجوارحه فصاح من فرط اعجابه « واشوقي » ولم لا ؟ وهو يرى في الطبيعة صورة من صور جنة الخلد التي وعد الله عباده يوم القيامة[2] :

ياأهل أندلس لله دركم ماءٌ وظلّ وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم وهذه لو كنت خيرت أختار
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقرأ فليس تدخل بعد الجنة النارْ

ان النصين المتقدمين آنفاً ، بطاقتا تهنئة ازجاهما شاعر الطبيعة للاندلس فخلد بهما جمالها على مر العصور ، ولا يقل عنه شأناً بل ربما يضاهيه ابن اللبانة في مقطعة يصف فيها ميورقة احدى جزر البليارد في البحر الأبيض المتوسط[3] .

نزل الحيا بنزوله في معهد لبس المسرة ربعه المأنوس
فكأنما ماء الـغـمام مدامةٌ وكأن ساحات الديار كؤوس
بلد اعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس

والأبيات تذكر بما يرويه المقرى في نفحه من أن هارون الرشيد حين مثل بين يديه رجل مغربي لامرٍ ما قال مدلاً بسعة سلطانه وعلو شأنه :

« يقال ان الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب ، فأجابه المغربي ، صدقوا يا أمير المؤمنين وإنه طاووس[4] .

والطبيعة تترك أثراً في مخيلة الشاعر حتى يستخدمها في موضوعات الشعر كافة ، فمما جاء في مدحة ابن اللبانة قوله[5] :

---

(١) ديوانه رقم ٨٨

(٢) ديوانه رقم ٢٠١

(٣) ديوانه بتحقيقنا ، ق ٤٢ .

(٤) النفح ١ / ٢٢٨ وينظر تيارات النقد الاندلسي ٨٤ ـ ٨٥ .

(٥) ديوانه ق ١٧ .

هو صبحٌ وربيعٌ وحيا ... يجتلى او يجتنى او يجتدى

واذا اصيب الممدوح بسوء فإنّ الكون والطبيعة يشاركانه هذا المصاب[1].

شكا لشكواك حتى الشّمس والقمر ... وفاتَ دُرّ الدّراري الزهر ينتثرُ
وراحت الرّيح لا يذكو لها عبقٌ ... وأصبح الرّوض لا يندى له زهر
وقلّص الظّل في فصل الرّبيع لنا ... فكادت الأرض الرمضاء تستعر
والماء غاض لنا غيضاً فما نبعت ... عين ولا سال في بطحائها نهر
والسّحب صاحبها ذعرٌ فما نشأت ... ولا استهل لها فوق الرّبا مطرُ

وشعر الطبيعة يمثل لنا مدى تعلّق الأندلسيين ببيئتهم الجديدة . فاتجهوا يصفون صُنع الله في الكون فجمال الطبيعة كان أهم باعث على قول الشعر فيها . وقد تفاعل الشعراء معها في حاليهم سعدهم وحزنهم . سرورهم وأساهم .. وابن خفاجة في مقدمتهم . ملأ جمال الدّنيا عينيه فمال بكلّيته اليه[2]. ومن هذه الألوان في الطبيعة الصامتة ما قاله في الروض والشجر : كالاراك . والبان . والسلم . والريحان . والسدر والدفلى والرند ... ومن الأزهار : النارنج والريحان . والورد . والشقيق والنيلوفر والاقحوان . والعرار والخزامي والنرجس والسوسن والبنفسج . ومن الثمار : النارنج . والتين . والعنب . والرمان . وفي الغصون . والربى . والبطاح . والجبال . والانهار . والبحر . والغمام . والمزن . والندى . والسيل . والبرد . والثلج . والبرق . والرعد . والشمس . والقمر . والنجوم . والليل والنهار ...

كما نجد الطبيعة الحية بالوانها في وصف الحيوان .... وقصائد في وصف الادوات والآلات كالسيف والرمح والأبنية والقصور .... والطعام والشراب ومن هنا فالشاعر متجه الى التخصص في الشعر لا سيما في الازهار اذ يفرد في كل نوع ابياتاً .

ولم يكن ابن خفاجة بدعاً في ذلك فان ابن حمديس الصقلي لم يقل مقامه عنه حيث يقرر الدكتور احسان عباس أن الوصف موضوع كبير جداً في ديوانه . وللبيئة الصقلية اولاً والاندلسية ثانياً اثرهما في ابرازه على هذا النحو . وهو يشمل عناصر كثيرة فهناك وصف الطبيعة من انهار وغدران وسواق واشجار وازهار كالنيلوفر والشقائق وفواكه كالنارنج وسحاب وبرق ورعد وبحار .. ووصف الحيوانات والحشرات . كالأسد والناقة والزرافة والعقرب والبق والبعوض والذباب .. »[3]. الا

---

(١) ديوانه ق ٣٤ .

(٢) الشعر الاندلسي ـ كنون ٣٨٥

(٣) مقدمة الديوان ص ١٩ لقصيدتان له برقم ٥٦ و ٥٧ .

ان الدكتور احسان عباس لا يلمس تعاطفاً بين الشاعر والطبيعة ، وهو رأي فيه نظر ، لاسيما لمن يستقرئ شعره .

غلبت على شعر الطبيعة فنون البديع والبيان ، فجاء مثقلاً بالتشبيهات والاستعارات « مترعاً بالاخيلة (بل كان مثقلاً بها حُمل منها فوق ما يطيق ... وكما يحدث لشجرة مثقلة بالثمار اذ تسقط عنها الثمرات واحدة فواحدة .. »[1]

وتكثر المحسنات البديعية في شعر الطبيعة كما تكثر الصور البيانية ممثلة في التشبيه والاستعارة والكناية على نحو ما نجد في شعر ابن اللبانة حيث يقول[2] :

والوردُ تحت الطَّل فيها مشبه ... خدًا يذوبُ من الحياء فيقطر
وكأن نرجسها أصيب بروعتي ... فعلاه لون مثل لوني أصفرُ
فكأنما الرّيحان روحي كلّما ... تــتــغــير الاشــياء لا يــتــغــيرُ

وقد نظروا الى الطبيعة الى أنها حية تشاطرهم الحياة ويشاطروها حياتها فشخصوا لنا الامور المعنوية فمنها قول ابن حمديس يرثى جاريته « جوهرة » :

يا باقةً في يميني بالردَى ذَبُلت ... أذاب قلبي عليك الحزن والأسف
ألم تكوني لتاج الحسنِ جوهرة ... لمّا غرقت فهلا صانك الصّدف

وظاهر البيتين أنهما في باقة ذبلت ، لكن النظرة المتأملة ، لا تلبث أن تعيدهما الى سياقهما مستعينة بالقرائن على ذلك ، ومنها « جوهرة » و « غرقت » ، واما « جوهرة » فقد أوردها على صفة التورية ، إذ هو لا يريد الحجارة الثمينة بل جاريته التي ابتلعتها مياه البحر ولم تصنها اصدافه وانما أورد الشاعر « الباقة » على سبيل الاستعارة التصريحية[3] .

ولابن حمديس أبيات في هجاء باقة جميلة لكنها خالية من العطر[4] :

وباقةٍ مــســتــحــســن نورها ... وقد خلت في الشّم من كل طيب
كــمــعــشر راقــتــك اثوابــهــم ... وليس في جملتهم من اديب

---

(١) الشعر الاندلسي غومس ٣٦ .
(٢) ديوانه ق ٣٤ .
(٣) ديوانه ق ١٩٦ وينظر البحر في شعر الاندلس والمغرب ص ٣٦ .
(٤) ديوانه ق ٢٠ .

ونراه في موقف آخر يحنو على زهرة النيلوفر » لأنه وجدها غريبة مثله فيقول :

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه ... كلانا عن الأوطان أزعجه الدّهر[١]

ومادمنا نستعرض النصوص الشعرية ذات الامتياز ، والتفوق فإنا نجد قصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل رائعة مشهورة . نطقت عن هذه المشاركة الوجدانية للطبيعة يبدؤها بالحكمة والاعتبار ، ويصور حالته النفسية واضطرابه حتى يبلغ البيت العاشر فيصف الجبل :[٢]

وأرعنَ طماحِ الذّؤابة باذخٍ ... يطاولُ أعنان السّماء بغاربِ
يسدّ مهبَ الّريح عن كلّ وجهةٍ ... ويزحمُ ليلاً شهبَه بالمناكبِ
وقورٌ على ظهرِ الفلاة كأنه ... طِوال اللّيالي مُطرِقٌ في العواقبِ
يلوثُ عليه الغيمُ سودَ عمائمٍ ... لها من وَميضِ البَرقِ حمرَ ذوائبِ
أصختُ اليه وهو أخرسُ صامتٌ ... فحَدثني ليلُ السّرى بالعَجائبِ

أعجب النقد الحديث بالقصيدة ، وأعرب الباحثون عن استحسانهم أياها فقال عنها الدكتور جودة الركابي[٣] : انها نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم ، وقال عنها الدكتور محمد رجب البيومي[٤] انها جاءت نسقاً شعرياً متكاملاً ذا شعاب وافانين ، ولو ذهب جميع ما قاله ابن خفاجة وبقيت وحدها ، لكانت معجزة إبداعه ، ودليل تفوقه ! .. وقد كانت لنا وقفة سابقة عند هذه القصيدة وأخت لها في وصف القمر ، حيث لاحظنا نزعة اسلامية صوفية تلابسهما[٥] .. وفي ترجمة حياته .. وأشعاره .. ما يعزز هذه النزعة[٦] .

رأى بعض الباحثين ان ابن خفاجة استوحى في هذا التصوير مخاطبة مجنون ليلى لجبل التوباذ[٧] .. وفرق كبير بين الشاعرين في قصيدتيهما .. لأن قول المجنون خطرة عابرة ، لو وقف عندها ابن خفاجة ما بلغ هذا النفاذ .. ولو كان المجنون ـ على سبيل المثال ـ موحياً موجهاً لكان لابن خفاجة فضل أثير ، أن يكون موضع هذا الايحاء ، وقد عبرت القرون خلف المجنون ، وتوالى عشرات الشعراء في العربية شرقاً

---

(١) ديوانه ق ١١٣
(٢) ديوان ابن خفاجة ق ١٦٤
(٣) الطبيعة في الشعر الاندلسي ٢٦
(٤) الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ، ٧٨
(٥) الاتجاه الاسلامي ٤٩٩ وما بعدها
(٦) بغية الملتمس رقم ٥٠٢ ، ديوانه ق ١٤
(٧) فصول في الشعر ونقده ١٥٨

وغرباً دون أن يبدع أحدهم في وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة[1] .. ومن الشعراء الذين تأثروا بهذه القصيدة الرصافي البلنسي في رائيته المشهورة[2]

واذا كنا قد تمثلنا النصوص لشعرية أنماطاً في وصف طبيعة الأندلس ، فإن جلها كان حول الطبيعة الصامتة . ولنا أن نتمثل على الطبيعة الحية ، أو وصف الحيوان فإنه من الموضوعات التي نظم فيها الشعراء الاندلسيون ، وأكثروا فيها على نحو واسع ، ومن أبيات ابن شهيد التي اختصها بوصف النحلة على نحو دقيق ، وبراعة متناهية يقول[3] :

وطائرةٍ تهوى كأن جناحها	ضـميرٌ خَـفـيٌ لا يـحدّده وهـمْ
ملازمةٍ للروض حتى كأنّما	لها كلّ ما تفترّ عنه الربى طُعمْ
تمج بفيها الشّهد صرفاً ويختفي	لمشتاره ما بين أحشائها سهم
مــــنافرةٍ للانس تأنس بالفـلا	مفرّقة للشّهد من بَعضها السّم
فإدناؤها رشدٌ ، وهتكُ حجابها	اذا احتجبتْ في غير أيامها ظُلم

« والصورة تعتمد قدراً غير قليل من التفصيل ، وبسط القول في صفات هذا الحيوان في مظهره ومخبره وتحركه وطيرانه . وحتى في طباعه »[4]

وقد سقنا بين يدي البحث نصوصاً شعرية تمثل عصور الاندلس المختلفة وقد آن لنا أن نتوقف عند عهدي الموحدين وبني الأحمر . ولعل خير من يمثل العهد الأول شاعران هما ابن سهل الاندلسي (ت ٦٤٩ هـ) وابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٤ هـ) ، وكانا صديقين . وكثيراً ما كانا يتشاركان في نظم القصيدة الواحدة ، ويجيز أحدهما للآخر . وكانا بلديين . وكانت أشبيلية من أغنى المدن الاندلسية بمنتزهاتها ومنها : السلطانية والعروس . وفم الخليج . ومرج الفضّة . وشنّبوس . وقصر حسّان . والفنت وجنّة قشتيلة .[5] وشرق اشبيلية وادي الطلح . وفيها مدينة طريانة وتيطل .[6]

---

(١) الادب الاندلس بين التأثير والتأثر ٧٨ .

(٢) ديوانه ق ٢٤ ، وتنظر مقدمة الديوان ١٨

(٣) ديوانه . ق ٦٠١ .

(٤) وصف الحيوان في الشعر الاندلسي ١٧٩ .

(٥) مقدمة ديوان ابن سهل ص ١٦ د . احسان عباس .

(٦) نفح الطيب ٢ / ٢٨٥ ، ١ / ١٨٢ .

فمن ذلك قول ابن سهل في رائيته التي يعارض فيها رائية ابن عمار التي اشرنا اليها في شعر المديح ،[١]

الأرضُ قد لبستْ رداء أخضـرا ... والطَّل ينثرُ في رُباها جَوهـرا
هاجتْ فخلت الزَّهر كافوراً بـها ... وحَسِبتَ فيها التُّربَ مسكاً اذفـرا
وكأنّ سوسَنها يصافحُ وردَهـا ... ثغرٌ يقبّل منه خَداً احـمرا
والنهرُ ما بينَ الرياضِ تخالُـه ... سَيفاً تعلّق في نِجادِ أخضرا
وجرتْ بصفحتهِ الصَّبا فحسبتُـها ... كفا تنمّق في الصحيفة أسطُـرا
وكأنّه إذ لاح ناصعُ فِضّـة ... جعلته كفُّ الشّمس تِبراً أصـفرا

ويقول ابن سعيد ذاكراً وادي الطلح .[٢]

سائلْ بوادِي الطّلح ريحَ الصَّـبا ... هل سُخرتْ لي في زمانِ الصَّـبا

واذكر بوادي الطَّلح عهداً لـنا ... لله ما أحلى وما أطيـبا
بجانب العطف وقد مالـت الا ... غصـانَ والزَّهرُ يبثّ الصَّـبا
والطيرُ مازتْ بين ألحانـها ... وليس الا مُعجبا مطربـا

ولم يكن شعراء بلنسية ـ في عهد الموحدين ـ أقل اعتباراً بالطبيعة وتأملها ، وممن نظم فيها ابو المطرف بن عميرة . فاستمع اليه يصف نزهة في نهر شقر ،

خذ في حديثك إن وصفكَ يطربُ ... عن يومِ إنسٍ ذكرهُ مستعذَب

وبعد هذه الوقفة المتأنية عند شعر الطبيعة في الأندلس ـ الحية والصامتة ـ نخلص الى أبرز الخصائص الفنية التي اتسم بها .. . ففيما يتصل بأساليبهم ولغتهم ،

- استخدموا فنون البديع على صورهم . من طباق وجناس ومقابلة ومبالغة . وكان ولعهم بحسن التعليل سمة واضحة في اشعارهم[٣]
- كذلك افادوا من فنون البيان . من تشبيه واستعارة وكناية ... وكانت عوامل مهمة في بناء الصورة الفنية لقصائدهم فقد استنفذوا طاقاتهم ـ ما اتسعت ـ بقصد الأتيان بالصور المبتكرة والمستحدثة والطريفة ولذلك غلبة سمة التشخيص والتجسيم في قصائدهم والمراد بهما نسبة صفات البشر الى افكار

---

(١) ديوانه ق ٥٤ ص ١٦٢ .

(٢) النفح ٢ / ٢٨٥ .

(٣) قضايا اندلسية ص ٧٧ ، ١٤١ .

مجردة أو الى اشياء لا تتصف بالحياة .[١] ولأن الذوق السائد في العصر كان له اثر كبير وجدنا سمات التشخيص والتجسيم مجردة من التعاطف الوجداني القائم على استبطان مظاهر الطبيعة والتعمق في تأملها عل نحو ما نجد عند ابن خفاجة في قصيدة بوصف الجبل . وقد تجلى هذا الاتجاه في عصر النهضة واطلق عليه المذهب الرومانتيكي .

تأكيدهم على الالوان في الصور الفنية التي رسموها وكذلك الكلمات الدالة على الحركة[٢] على نحو ما نجد في قصيدة ابن سهل التي عارض بها ابن عمار .
وعلى نحو ما نجد في قول[٣]

والشمس قد ألقتْ عليه رِداءَها فتراهُ يرفلُ في قَميصٍ أصفرِ

أو في قول ابن سعيد :[٤]

والشمس قد رَقَمَتْ طِرازاً فوقَــه فكأنَــما هي حلةٌ زرقـــاء

- كذلك غلبت على أساليبهم سلاسة الاسلوب في أكثر أشعارهم ، وميل بعضها الآخر الى جزالة الالفاظ ومتانة التراكيب ، ومن الضرب الأول : المقطعات الشعرية التي مرت بنا في سينية ابن خفاجة ورائيته . « ان للجنة بالاندلس » و « يا أهل أندلس » .

وفيما يتصل ببناء ، قصيدة شعر الطبيعة نلاحظ تبايناً فيها حيث ترد في صيغة مقطعات قصيرة وقصائد طويلة وموشحات . وفي الضرب الأول يقتصر على موضوعه ، واما في القصائد فتمتزج بموضوعات أخرى كالغزل والمديح ووصف المجالس والشوق والحنين والرثاء . وكذلك يمتزج بها في الموشحات .

وفي مجال الموازنة بين شعري الطبيعة في الاندلس والمشرق ، اعتمد المشارقة على العقل والتفكر في وصفهم فكانت صورهم اعمق واقوى من الاندلسيين الذين اعتمدوا على الحس والذوق فكانت صورهم اجمل واوضح[٥] .

---

(١) الادب في عهد المرابطين ٩٦ .
(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب ص ١٠٢ .
(٣) ديوانه : ١٦٦ .
(٤) نفح الطيب ٢ / ٢٦٣ .
(٥) قضايا اندلسية ١٤١ .

وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع في الشعر الأندلسي وكثرة ما انشأ فيه الشعراء على امتداد عصور الاندلس فأن الكتب والمصنفات التي الفت فيه لم تقع بين ايدينا ، باستثناء كتاب واحد هو البديع في وصف الربيع لأبي الوليد اسماعيل الحميري (ت ٤٤٠ هـ)[١] فقد قرر المؤلف في التمهيد بأن فصل الربيع آرج وأبهج وآنس وأنفس وأبدع وارفع من ان يحد حسن ذاته ويعد بديع صفاته ، وعلى الرغم من ذلك فأنه لم يعن بتأليفه احد .[٢]

اختص كتابه بنتاج عصره من اهل الاندلس لأن نتاج المشارقة ـ كما يرى ـ قد كثر الوقوف عليه والنظر اليه حتى ما تميل نحوه النفوس وقد انتظم في ثلاثة فصول هي :

اولا : القطع التي لم يسمّ فيها نور .

ثانيا : القطع التي لم تنفرد بوصف نوار بل اشتملت على وصف نورين أو أكثر .

ثالثا : القطع المتفردة كل واحدة بنور .

وأما الدراسات الحديثة فأنها لم تفِ على نحو ما ينبغي فقد جاءت دراسة الدكتور جودة الركابي موجزة مختصرة في حوالي خمسين صفحة وله فضل السبق في دراسته الا ان ما يتخونه التتبع والاستقصاء والتحليل والاستنباط اذ جعله في اربعة فصول تحدث في اولها عن شعر الطبيعة في الادب العربي وثانيها يدور حول بواعث شعر الطبيعة في الاندلس واشهر اعلامه والاطوار الثلاثة التي مر بها في قرونه الثمانية وجاء الفصل الثالث فقد تحدث فيه عن خصائص وصف الطبيعة في الشعر الاندلسي أجمل الدكتور الركابي هذه الخصائص في تسع نقاط .

اما الفصل الرابع فلمنتخبات من شعر الطبيعة لابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة ونصوص أخرى لغيرهم ، ولعل ميزة الكتاب ، ان المؤلف حاول ان يدلل بأن الاوربيين لم يمتازوا علينا بشعر الطبيعة كما يزعم عدد من الدارسين .

---

(١) حققه هنري بيرس بعنوان (البديع في فصل الربيع) ط معهد العلوم العليا المغربية ١٩٤٠ تنظر دراسة الدكتور محمد مجيد السعيد (الحميري وكتابه البديع) مجلة آداب المستنصرية العدد ١٠ ، ١٩٨٤ .

(٢) البديع ص ١.

ومن الدراسات الحديثة المتخصصة دراسة نهض بها الدكتور حازم عبدالله خضر[1] تحدث فيها عن الطبيعة الحية في عصري الطوائف والمرابطين وجاءت في بابين تناول في اولهما استعراض النماذج الشعرية في وصف الخيل والأبل ونعوت الاسد والذئب وكلاب الصيد ثم اوصاف الحمام وختم الحديث في نعوت الطيور الجارحة والزواحف . وفي الباب الثاني وقف عند الخصائص والسمات الفنية لهذا الشعر في بناء القصيدة ودلالة الموضوعات على نفسية الشاعر وشخصيته وابرز ملامح المجتمع والبيئة الاندلسية وجعل النتائج المهمة التي تمخض عنها البحث خاتمة لكتابه .

---

(١) وصف الحيوان في الشعر الاندلسي ط وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٨٧ .

(٢) نفسه ٢١٠ وما بعدها .

المبحث الرابع

رثاء المدن والممالك

٢ ـ رثاء المدن والممالك :

اختلف الدارسون في مفهوم (رثاء المدن والممالك) ومنهم من فرق بين رثاء المدن ورثاء الممالك فاطلق الاول على تلك المدن التي سقطت في يد الاسبان واستلبت من ايدي المسلمين فبكاها الشعراء . وأطلق الثاني على دول ملوك الطوائف التي سقطت بدخول المرابطين الى الاندلس . وما نظمه الشعراء من قصائد شعرية تأسى وتأسف على المجد الزائل والسيادة الآفلة لهؤلاء الملوك[١] .

ويصح ان ينسحب هذا المفهوم على المدن التي سقطت وخربت بفعل الفتن التي طرأت على الأندلس بسبب فساد الاحوال السياسية ، وترديها . وفرق بين الاتجاهين من حيث حجم النتاج ونوعية القصائد التي نظمت في كل .

وفي هذا الموضوع يرى الدكتور سعد شلبي أن الاندلسيين سجلوا السبق في رثاء المدن واما رثاء الممالك فقد كان مقدمة وإرهاصاً لتفوقهم فيه[٢] .

اطلق الدارسون على هذا اللون من الشعر اسماء اخرى فسمي بـ (شعر النكبات والكوارث)[٣] و (الشعر الحزين) حيث وجد فيه الدكتور بدير متولي حميد احد ألوان ثلاثة تفوق فيها الاندلسيون[٤] . وسماه عبد الله كنون (الشعر الوطني)[٥] . وكذلك استوحى احد الباحثين تسميته فجعلها موضوعاً لرسالته الماجستير « الوطن في الشعر الأندلسي »[٦] . وجاء حديث الدكتور شوقي ضيف عاماً عن هذا اللون من الرثاء ، حيث سماه : ندب الدول والبلدان[٧] .

---

(١) البيئة الاندلسية واثرها في الشعر ٣٢٤ .

(٢) نفسه ص ٣٣١ .

(٣) ادب النكبات ، مجلة النداء الاجتماعي ١٩٥٥ .

(٤) قضايا اندلسية ١٣١ .

(٥) الشعر الاندلسي ، مجلة المجمع العلمي العربي ٣١ / ٢ / ٢٩٢ .

(٦) الوطن في الشعر الاندلسي ـ عبد الحميد ابراهيم شيحه دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

(٧) الرثاء ص ٤٠ ، ٤٧ ـ سلسلة فنون الأدب العربي ـ الفن الغنائي (٢) .

يكاد الاندلسي ينفرد بهذا الموضوع . حيث كان القرن الخامس الهجري أحفل عصوره بالصراع الذي أدى الى سقوط مدن الاندلس وممالكه ، وقد طبع هذا اللون من الشعر بطابع اندلسي خاص ، فعُدَّ أبرز معالم الشخصية الأندلسية . وتفوق على شعر الرثاء بصورة عامة . وعلى قصائد رثاء المدن والممالك في المشرق . بصورة خاصة . والأمر يعزى الى وجود الدوافع والمحفزات التي لم يحصل مثيلها في المشرق ، كما لم تكن بهذه السعة ، وعمق التأثير . فقد كانت الحروب سجالاً بين المسلمين والاسبان ، وكان يتفق أن تسقط مدينة فيستردها المسلمون ثانية ، لتسقط ثالثة ، مما يؤجج العواطف ويضرم المشاعر ... غيرة على دمائهم واموالهم واعراضهم ، يراها الشّاعر مهدرة ... ويرى أن زمام الأمر قد أفلت من يديه ... في مدينة تقلب في نعيمها ... وحفظت مخيلته لها ذكريات عبقة . تمسي مهيضة الجناح ، يفتك بها العدو ، ويشعل نار العداوة والبغضاء ، فما يكون منه الا ان يرثي تلك المدينة الساقطة ، بشعر أشبه ما يكون بالندب ، والبكاء ، والتفجع ، في زفرات وأنات قلب كليم .

في الوقت الذي لم يكد شاعر المشرق يكفكف دموعه حتى يقبل على تهنئة الحاكم الجديد فانشغالهم بالخلفاء والحكام الذين خلفوا السابقين صرفهم عن إطالة الحسرة والبكاء على الدول السابقة ، بينما كان سقوط الدولة بالاندلس يحمل اكثر من معنى داعياً الى اطالة التأمل والاعتبار .

اتجه الشاعر الاندلسي تارة الى تسليم الأمور الى الله والشكوى لسوء الحال ، والهرب من المدن الساقطة ، بعد البكاء والعويل ، وتارة الى استصراخ الملوك واستنهاض هممهم ، واستنصارهم ، ويتجه الى ضمائر المسلمين يسألهم شد العزائم ، للانتقام من العدو المتربص ، ثم يطبب الشاعر جراحه ويأسوها مخاطباً الرسول (صلى الله عليه وسلم) مستمداً منه القوة والأيد تارة اخرى وفي كثير من الأحيان يتجه الى الوصف التفصيلي للحالة التي حلّت بالمسلمين إثر سقوط مدنهم وممالكهم .

واذا كان الشعر الأندلسي قد أحرز هذه المرتبة في هذا الميدان فليس معنى هذا أن المشرق لم يعرف هذا اللون ، فالباحث يجد قصائد متناثرة في مصادر الأدب والتاريخ تصور النكبات وتحكي الويلات والمصائب ، التي حلت بتلك الامم ، ومن أقدم ما قيل قول عدي بن زيد العبادي (ت ٣٥ ق . هـ) في قصيدة مطلعها[١] :

---

(١) ديوان عدي بن زيد العبادي ٨٤ ـ ٩٢ (حققه وجمعه محمد جبار المعيبد وزارة الاعلام بغداد (١٩٦٥) .

أرواح مودّع أم بكــــــور لك فاعلم لأيِّ حالٍ تصــير

وهي في خمسين بيتاً . وعلى المنهج نفسه ، قول الاسود بن يعفر يبكي ال محرق في داليته التي مطلعها[١] :

نام الخليّ وما أحسُّ رقــادي والهم محتضر لديَّ وســادي

ويذهب هذا المذهب الأعشى الاكبر (ت ٧ ق . هـ) اذ يرثي قصر ريمان من قصيدته التي مطلعها[٢] :

أصرمت حبلك من لميــ ــسَ أم طــال اجتنابــه ؟

ولو ألقينا نظرة على سفح التاريخ ، لوجدنا الشعر سجلاً حافلاً في تصوير النكبات التي حلت في العالم الاسلامي بجناحيه ، المشرق والمغرب ... فقد رثى ابو العباس الأعمى دولة بني أمية ، ورثى آخرون دولة العباسيين بدخول المغول الى بغداد ، ودولة الطولنيين وغيرها من الدول .

كما ندبوا مدناً اسلامية حلّت بها فتن جائحة ... وهي ظاهرة مألوفة ، تاريخياً فمن ذلك رثاء عمرو بن عبد الملك الوراق وابي يعقوب الخريمي بغداد ١٩٧ هـ بالفتنة التي حلت بين الامين والمأمون ـ وكذلك رثاء البحتري دولة المتوكل العباسي ٢٤٧ هـ ورثاء ابن الرومي مدينة البصرة بافساد الزنج إياها ٢٧٧ هـ ، وقد رثى الشعراء بيت المقدس ومدن الشام التي سقطت اثناء الحروب الصليبية ... وبقي الشعر ـ حتى العصر الحديث ـ يرسم معالم المدن التي تسقط وتحل بها النكبات[٣]. وهي جميعاً تدخل في الندب لا التأبين او العزاء[٤] .

لكن رثاء المدن والممالك في الأندلس تميز على صِنوه بنضج التجربة الفنية للمعاناة التي استمرت عند الأندلسيين . وشهودهم هذه الحال بين سمعهم وبصرهم لتتكرر .. كما تميز بغزارة النتاج الشعري . ولذلك يعد الدكتور الطاهر مكي بكاء الممالك المنهارة ، والمدن الذاهبة فناً اندلسياً أصيلاً . وجدت بعض دوافعه في

---

(١) ديوان الاسود بن يعفر رقم ١٢ (تحقيق د. نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد سنة ١٩٧٠) .

(٢) ديوان الاعشى الكبير ٢٨٩ (شرح وتعليق د. محمد محمد حسين (ط النموذجية د ـ ت) .

(٣) ينظر الرثاء ـ شوقي ضيف ص ٥١ .

(٤) ينظر حول رثاء المدن في المشرق ، الادب الاندلسي بين التأثير والتاثر ٢١٠ ـ ٢٢١ .

المشرق والمغرب على السواء . وخص الأندلس ببعضها . وتفرد في الحالين بأنه جرى مع هذه الدوافع الى غايتها . فكان له معها قصيد رائع احياناً . ودون الجيد أحياناً أخرى تبعاً لثقافة الشاعر . وطاقته النفسية . وحظه من تجارب عصره عمقاً وأتساعاً[1] . الا أن الدكتور محمد رجب البيومي لا يذهب في نظرته لهذا اللون من الشعر مذهب المعادلة المنطقية . بل يجد أن من الأنصاف الأقرار بأن الأندلس قد برعت براعة مشهودة[2] .. وقبله أقر بهذا التفوق الدكتور أحمد أمين[3] ..

وعلى ضوء ما تقدم بنا من مفهوم رثاء المدن والممالك . سنتناول ابرز التجارب الشعرية :

الاتجاه الاول : رثاء مدن أندلسية قد خربت وفسد النظام فيها . بفعل المحن والفتن التي فتكت بها . بما كسبت أيديهم حيث صار الحكم فيها ملكاً عضوضاً . يطمع فيه القوي والضعيف . ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في عصر الفتنة (٣٩٩ ـ ٤٢٢) . تلك التي وصفت بانها جائحة ومبيرة فقد تعاقب خلالها على حكم الأندلس ثلاثة عشر حاكماً . فرثى ابن حزم قرطبة شعراً ونثراً ومما وصل قصيدة في سبعة أبيات . يصفها بروفنسال بأنها (قصيدة عصماء لا يعدلها في نوعها شيء[4]) . ومطلعها[5] :

سلام على دار رحلنا وغودرت ... خلاءً من الأهلين . موحشة قفرا

وفيها حسرة وبكاء على ما نزل بتلك المدينة من خراب

فيا دارُ لم يقْفُرك منا اختيارنا ... ولو أننا نسطيع كنتِ لنا قبرا
ولكن أقداراً من الله أنفذت ... تدمرنا طوعاً لما حل أو قهرا

ورثاها شعراء آخرون منهم ابن شهيد (ت ٤٢٦ هـ) في قصيدة ومقطعة يقول في الاولى[6] :

---

(١) دراسات اندلسية ٢٢٩ .

(٢) الادب الاندلسي بين التأثير والتاثر ٢٦٦ .

(٣) ظهر الاسلام ٣ / ٢٠٣ .

(٤) سلسلة محاضرات ص ١٣

(٥) اعمال الاعلام ١٠٧ وينظر تاريخ الأدب الأندلسي ١/ ١٣٩

(٦) ديوانه رقم ٢٦

ما في الطلولِ من الأحبّة مخبر | فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألن سوى الفراق فإنه | ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا | في كل ناحية وباذ الاكثر

والقصيدة كسابقتها فيها تفجع وبكاء وندب لدار ضمت ذكريات عبقة للشاعر، حيث يستذكر محاسنها، وجمال الطبيعة فيها، وقد ضرب الأمن والسلام رواقه فتعمم القوم بجمالها وبهروا بفتنتها المتمثلة في قصورها، الزاهرية والعامرية، والمسجد الجامع، ومسالك الأسواق، حتى عصفت بها الفتنة فأذهبت بهجتها ونقضت بناءها الشامخ، وتذهب نفسه حسرات، عليها وعلى المعالم الحضارية، والخسارة التي حلت بازهاق نفوس كثيرة من العلماء والادباء، وكان احدهم، ابو الوليد بن الفرضي (توفي لست خلول من شوال سنة ٤٠٣ هـ). وبقي في داره ثلاثة ايام مقتولاً[١]، وفي هذا تجيء ابيات ابن شهيد تفيض بمعاني الاسف والأسى على ذكرياته فيها:

ياجنةً عصفت بها وبأهلها | ريح النوى فتدمرت وتدمروا
أيام كانت عينِ كل كرامة | من كل ناحية اليها تنظر
أيام كانت كفُ كل سلامة | تسمو اليها بالسلام وتبدر
حزني على سَرواتها ورواتها | وثقاتها وحماتها يتكررّ
نفسي على آلاها وصفائها | وبهائها وسنائها تتحسر
كبدي على علمائها، حلمائها | أدبائها، ظرفائها، تتفطر

ولعلها أطول قصيدة وصلت الينا تصور فتنة قرطبة، حيث تبلغ ثلاثين بيتاً. واما مقطعته فهي نونية مردفة بألف موصولة بياء مختومة بهاء السكت التي تحكي الحسرات والزفرات يرثي فيها قرطبة عجوزاً شمطاء حيث يقول:[٢]

عجوز لعمر الصبا فانية | لها في الحشا صورة الغانيةْ
تردَّيت من حزن عيش بها | غراماً فيا طول أحزانيةْ

وتبدو أبعاد هذه الفتنة والالام والاشجان التي اعتملت في صدور عدد من الشعراء حيث أرخوها، فيما ينقل الينا الشيخ محيي الدين ابن عربي ابياتاً قال انه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها رثاءً، وهي:[٣]

---

(١) الصلة ١ / ٢٥٢
(٢) ديوان ابن شهيد رقم ٦٩
(٣) ينظر دولة الاسلام في الاندلس ٤٠٠ ـ ٤٠١

ديارٌ بأكناف الملاعب تلسمعُ	وما إن بها من ساكنٍ وهي بَلقعُ
ينوحُ عليها الطير من كل جانبٍ	فيصمت أحياناً ، وحيناً يرجّع
فخاطبت منها طائراً متفـــرداً	له شجن في القلب وهو مـــروّع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ؟	فقال : على دهر مضى ليس يرجع

ونبقى مع حاضرة الأندلس وواسطة عقدها « قرطبة » حيث حفظت لنا المصادر قطعتين غير منسوبتين في البيان المغرب . مطلع الأولى[1] :

بَـــكِ على قرطـــبة الزيـــن	فـقد دهـتـها نـظرةُ الـعـيـن

ومطلع الثانية :[2]

أضعتم الحزم في تدبير أمركم	ستعلمون معاً عقبى البوار غدا

وما ذهب وفقد من شعر في رثاء المجد الباذخ . والعز الشامخ . لهذه المدينة كثير فقد قال الخولاني عن ابن عصفور الحضرمي ، ابي القاسم احمد بن محمد (ت ٤١٠ هـ) : (انشدني كثيراً من أشعاره في رثاء قرطبة)[3]) ولم يصل الينا منها شيء

ويبدو ان احداث الفتنة لم تقتصر على قرطبة ـ مركز الخلافة ـ بل تجاوزتها الى مدن الاندلس الأخرى . فقد أرخ ابو اسحاق الالبيري الشاعر الزاهد (ت ٤٦٠ هـ) . لاحداث خراب البيرة[4] سنة ٤٠٠ هـ . وهي احداث مماثلة لنظيرتها في قرطبة في آثارها السلبية . ويعلل ابو اسحاق تلك النكبة بكثرة الذنوب وترك الفروض والواجبات . وهي في عشرين بيتاً[5] :

يضيع مفروض ويغفل واجبٌ	واني على أهل الزمان لعاتب
أتندب أطلال البلاد ولا يرى	لألبيرة منهم على الأرض نادبٌ
فآها الوفا . تقتضي عدد الحصا	على عهدها ما عاهدتها السحائب

---

(١) البيان المغرب ٢ / ١١٠ (ط دار الثقافة بيروت) . فرحة الأنفس ١ / ٢ / ٣٠٦

(٢) البيان المغرب ٢ / ١١٠

(٣) الصلة ١ / ٣١

(٤) إلبيرة : كانت من حواضر الاندلس الجليلة . أسسها عبد الرحمن بن معاوية . واسكنها مواليه . ثم خالطهم العرب بعد ذلك . خربت في الفتنة وانفصل اهلها الى غرناطة وبينهما ستة أميال ينظر الروض المعطار : ٢٨

(٥) ديوانه ٧٣ ـ ٧٥

وأين بحار العلم والحلم والندى ؟ وأين الأكف الهاميات السواكب ؟
شققنا على من مات منهم جيوبنا وكان قليلاً أن تشق الترائب
لساءلت عنهم رسمها فأجابني « ألا كلّ شيء ما خلا الله ذاهبُ »

ومما يندرج ضمن هذا الاتجاه الممالك التي رثيت في عصر الطوائف بدخول المرابطين ، وقضائهم على حكامها ، وأشهر مملكتين نظمت فيها قصائد الرثاء ، مملكة بني عباد ، في اشبيلية ، ومملكة بني الافطس في بطليوس .

وقد حظيت الاولى بمكانة رفيعة بين ممالك الأندلس ، حتى نستطيع أن نعدها أقوى ممالكها في عصر الطوائف ، ولذلك اجتمع فيها من الشعراء عدد كثير ، وممن عاش في رخاء بني عباد ، شاعرهم ابن اللبانة الداني الذي احتفظت ذاكرته بصور عميقة الاغوار لآخر ملوكها المعتمد بن عباد فألف بعد زوال ملكه كتابين هما « نظم السلوك في مواعظ الملوك في اخبار الدولة العبادية » وكتابه « الاعتماد في أخبار بني عباد » ولم يصل من الكتابين سوى شذرات متناثرة في الكتب[1] .

وقد تضمن ديوانه قصائد تفيض بمعاني الأسى والأسف على الملك الزائل ، والمجد الحائل ، بعد أن خُسِف بالمعتمد وأسرته ، ورُحل عن إشبيلية منفياً الى أغمات ، في بلاد المغرب ، وأشهر قصيدتين تائية مطلعها[2] .

لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من مناياهن غايات

وهي في اثنتين واربعين بيتاً وبعد أن يبكي على دولتهم الزائلة يمنى نفسه في أن تعود ثانية حيث يقول :

لو كان يفرج عنه بعض أونة قامت بدعوته حتى الجمادات
لهفي على آل عباد فإنهم أهلةٌ مالها في الأفق هالاتُ

واما القصيدة الثانية فهي أجود شاعرية ، وأدق في التعبير عن معالم النكبة وأطول نفسا من سابقتها ومطلعها[3] :

تبكي السماء بمزن رائح غادي على البهاليل من ابناء عباد

ونستطيع أن نتعرف على مدى براعة الشاعر في قصيدته بموازنتها على ما نظم من أشعار في هذه النكبة ، فبين أيدينا قصيدتان لشاعرين مشهورين .

(١) ينظر ما وصل من هذه النصوص النثرية في ديوان ابن اللبانة الأندلسي بتحقيقنا .
(٢) ديوانه (بتحقيق د . محمد مجيد السعيد) رقم ١٣ / ١ ، ١٦ ، ٢٠ .
(٣) ديوانه رقم ٢٦

الأولى : لابن حمديس الصقلي الذي كانت تربطه صلات حميمة بالمعتمد بن عباد . فدعاه الوفاء الى أن يوجه قصيدته اليه وهو في سجنه وفيها يقول[١] :

أباذَ حياتي الموتُ ان كنت ساليا ... وأنت مقيم في قيودك عانيا
وان لم أبار المزن قطراً بأدمع ... عليك فلا سُقّيت منها الغواديا
وهل أنا الا سائل . عنك سامع ... أحاديث تبكي بالنجيع المعاليا
قيودك صيغت من حديد ولم تكن ... لأهل الخطايا منك الا أياديا

وفيها يسترسل في الحديث عن محامد المعتمد ومكارمه . ويصف شجاعته وبأسه وجوده ونوءه . والخلاء الذي داهم القوم بذهاب دولته .. وليس له اختيار في القدر الذي نزل به ويختم القصيدة التي جاءت في ستة وثلاثين بيتاً بوصف ممدوحه بأنه الحي الذي يستحق الرثاء :

سأدمي جفوني بالسهاد عقوبة ... اذا وقفت عنك الدموعَ الجواريا
وامتع نفسي من حياة هنيئة ... لانـك حـي تـسـتـحـق الـمراثـيا

ومن هنا فان شخصية المعتمد بن عباد . اخذت ابعاد الشخصية الاسطورية ـ بعد نكبته ـ تا'ب الابعاد التي تسبغ على العظماء بعد وفاتهم .

والثانية : لابن عبد الصمد وقد نظمها بعد عام من وفاة المعتمد (ت ٤٨٨ هـ) وفيها يقول :

مـلـك الـمـلوك أسامـع فأنادي ... ام قد عدتك عن السماع عوادِ

وقد كان هو الآخر من شعراء المعتمد بن عباد الا أن الدراسة المتأنية للقصيدة تبين لنا تأثر الشاعر في داليته بدالية ابن اللبانة . التي نظمت سنة ٤٨٤ هـ . وقد اختار الوزن والقافية وحركة الروي التي التزمها ابن اللبانة في قصيدته[٢] .

يستهل ابن اللبانة قصيدته بالحديث عن أفضال بني عباد . ومكارم أخلاقهم . وسجاياهم في الكرم . التي طبعوا عليها . والمنزلة السامقة التي أحرزوها فيصفهم بالجبال . والمزن . وباليانعات التي ذوت أنوارها . ويذهب الى اكثر من ذلك . حين يجعلهم كعبة الآمال . ويعزي الضيوف والنزلاء . كما يواسي الفرسان

---

(١) ديوانه رقم ٣٥

(٢) ديوان ابن اللبانة الاندلسي دراسة وتحقيق ص ٦٢

والابطال . الذين تنعموا في ظل العبادة . وتبلغ المأساة ذروتها حين يجسم لنا مشاهد مؤلمة . ومناظر محزنة . من ترحيل بني عباد في البحر فيقول :

نسيت الا غداة النهر كونهم	في المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حان الوداعُ فضَجّتْ كل صارخةٍ	وصارخ من مفداةٍ ومن فاد
خط القناع فلم تحجبْ مخدرةً	ومزّقتْ أوجه تمزيق أبراد
سارت سفائنهم والنَوح يَصحبها	كأنها ابل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت	تلك القطائع من قطعات أكباد

وهكذا يمضي شاعرنا بهذه النبرة الحزينة . مصوراً مشهد دولة تهوى الى أسفل من عَلٍ « ان تناسق التعبير مع الشعور . وتطابق الانفعال مع شحنات الالفاظ . واستنفاذ العبارة اللفظية للطاقة الشعورية هو ما يوصف بأنه عمل من صنع الالهام »[١] .

فقد مضت المأساة على أوجها . وأسرفت ريشة الشاعر في تصوير شدة الفاجعة . فأنك تسمع « كل صارخة وصارخ من مفداةٍ ومن فاد » وتبح الحناجر . وتغص الأصوات بالعويل والصراخ . وتستسلم مع الحادي . حين يسقط في يدها .

ويرى أحد الباحثين أن للالفاظ أهميتها ومزيتها في التعبير الفني وجماله . مستأنساً بأبيات ابن اللبانة فيقول : « فالألفاظ « خطّ . ومزقت . وضجت . وصارخ وصارخة » لها من الأهمية في تصوير المشهد . واستنفاد التجربة . بحيث لا ينكرها منكر مهما تعصب لوجهة نظره » ثم يعقب بقوله « وأشهد أني قد اهتزت فرائصي فزعاً . كلما قرأت كلمات ابن اللبانة . كأن هذه الأبيات وأخريات معها سهامٌ نفذت الى مشاعري . فهزتها هزا . ومزقتها أي تمزيق . وأشعرتني بالمأساة التي حلت بالأندلس قبل فلسطين »[٢]

والملاحظ أن الشاعر يعتمد في لغته على ضرب من تكرار الحروف . فقد تكرر حرف القاف . وهو من الحروف الانفجارية . خمس مرات في « القناع . مزقت . تمزيق . القطائع . مقطعات » وتكرر حرف الحاء وهو حرف احتكاكي . ست مرات في البيتين الرابع والخامس كما ورد في ثلاث مرات أخرى ... والتكرار ضرب بلاغي يعين على تحقيق الجرس الموسيقي المتناغم مع اجواء القصيدة . وقيمة القصيدة فنياً

---

(١) النقد الادبي ٣٨ .

(٢) في الرؤيا الشعرية ٩٨ .

لا تأتي من أسلوبها فحسب ، انما بزخم العاطفة الذي تزخر به ، « فربما لم نجد في الشعر الأندلسي عاطفة أعمق غوراً ، وأشد لهباً ، عاطفياً من تلك القصائد التي قالها ابن اللبانة ، وابن حمديس ، وابن عبد الصمد في نكبة المعتمد »[١].

وممن تحدث عن جانب المأساة في دولة بني عباد ممثلاً في شخص المعتمد بن عباد ، الدكتور احمد هيكل[٢].

ومن تلك الممالك : مملكة بني الأفطس في بطليوس . وقد سقطت هي الأخرى بدخول المرابطين سنة (٤٨٧ هـ) ، ولم تحظ بعناية الشعراء على نحو ما تقدم معنا في مملكة بني عباد بأستثناء المراثي التي نظمها شاعرها ابو محمد بن عبدون اليابري (ت ٥٢٠ هـ) ، وتأتي أشهر قصائده رائيته المعروفة باسم البسامة ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

وتتعدد روايات القصيدة لشهرتها ، وذيوعها ، حتى أنها بلغت خمسة وسبعين بيتاً برواية المعجب ، وأحرزت إعجاباً لدى القدماء والمحدثين ، فرأى ابن بسام أنه اقتفى فيها أثر فحول القدماء ، وخالف نهج المحدثين[٣] ، واما المراكشي فقد نعتها بأنها ، « قصيدته الغراء ، لا بل عقيلته العذراء ، التي أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، فجلت عن أن تسامى وأنفت من أن تضاهى ، فقل لها النظير ، وكثر اليها المشير »[٤].

وذهبوا الى اكثر من ذلك حين أفردوها بالشروح كما فعل ابن بدرون ، وقد درس شرحه وقام بنشره المستشرق الهولندي دوزي ورأى في ثناء النقاد أمثال ابن خاقان وابن الخطيب مبالغة ، وبعداً عن الحقيقة ، فما لمسه في أسلوبها أنها أثقلت بالزخارف والزينة ، وأنها عجزت عن ان تثير كوامن المشاعر[٥] ، وعن مثل هذا الرأي صدر بالنثيا كذلك فزعم أنها : « فاترة الروح ، مدرسية المنهج »[٦]

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين ١٨٨

(٢) دراسات ادبية ، بحث المعتمد بن عباد الشاعر الملك السجين ٢٧٨ ـ ٢٨٧

(٣) الذخيرة ١ / ٢ / ٨١٨

(٤) المعجب ١٢٨ ـ ١٢٩

(٥) تاريخ الفكر الاندلسي ١١٩

(٦) نفسه ١٦ .

والحقيقة أنها على الرغم من سيطرة الجانب التاريخي عليها ـ ليدل الشاعر على سعة ثقافته ـ جاءت في شوطها الأخير ، تدل على عاطفة جياشة ، إذ يأسف على المجد الزائل ، ويترحم على عزهم المنصرم .

وقد ترجمت القصيدة الى الفرنسية ، والاسبانية[1] . ومن المحدثين أعجب بها عبد الله كنون لا سيما فيما سلكه ابن عبدون من البكاء والاستبكاء ، على ضياع ملك سادته ، وابادة الدهر لهم من غير ان يعرض بخصومهم المرابطين ، ولا أن يتناولهم بأدنى تجريح[2] » وتتجلى براعة الشاعر في استعراضه للامم السابقة بشكل متكامل متسلسل بدأ بالاقدم فالقديم .

اما الاتجاه الثاني فيتمثل في رثاء مدن اندلسية سقطت بأيدي ملوك الاسبان وكان ذلك نتيجة متوقعة للحال التي بلغها ملوك الطوائف . وقد صوّر لنا هذه الحال المقري نقلاً عن الوطواط (ت ٧١٨) بقوله : « ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الأنقياد والوفاق . الى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق . فأمتاز كل رئيس منهم بصقع ... فصار كل منهم يشن الغارة على جاره . ويحاربه في عقر داره . الى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي . ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي .. »[3].

بهذه المقولة استهل صاحب النفح حديثاً تفصيلياً عن رثاء مدن الأندلس الساقطة بأيدي الأسبان .

ومن اعظم الاحداث المبكرة التي نزلت بالأندلس ، نكبة « بربشتر » التي كانت من أمهات مدن الثغر الاعلى حصانة ومنعة . ولكن غزاها أهل غاليش ، والروذمانيون على غرة . وقلة عدد من أهلها وعدة . فحاصروها أربعين يوماً . حتى سقطت سنة ٤٥٦ هـ « وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لاتلحقه الصفة على الحقيقة »[4]

وعلى الرغم من أن دخول العدو واحتلاله لها لم يستغرق أكثر من تسعة أشهر فأن النتاج الشعري الذي أثمر عن نكبتها كان منمازاً . فقد سحت قرائح عدد من الفقهاء الشعراء في وصف تلك النكبة . بعد أن تأججت عواطفهم ، لعظم المأساة . حيث دوّت في أرجاء الأندلس وذاع خبرها فلم يطل أسر المدينة . وسرعان ما انتظمت في

---

(١) نفسه ١١٩

(٢) الشعر الاندلسي ، مجلة مجمع اللغة العربية ١٩٥٦ ٣١ / ٣ / ٢٨٠ ، ٢٩٦

(٣) نفح الطيب ٤ / ٤٤٦

(٤) النفح ٤ / ٤٥٠

سلك اخواتها . في ظل حكم المسلمين . وتتصدر هذه القصائد أبيات الفقيه ابن العسال الألبيري (ت ٤٨٧ هـ) وما بين أيدينا منها اثنا عشر بيتاً[١] .

ولقد رمانا المشركون بأسهم   لم تخطِ لكن شأنها الإصماء
هتكوا بخيلهم قصورَ حريمها   لم يبق لا جَبل ولا بَطحاءْ
جاسوا خلال دِيارهم فلهم بها   في كلّ يومٍ غارةٌ شعواء

ولا يلبث الشاعر أن يعرض بعامّة المسلمين وحكّامهم . ويعزو جسامة النكبة . الى ضعف وخور حالهم . وشيوع الذنوب بينهم . وكنت قد عرضتُ للقصيدة . بما فاضت من معان اسلامية وغيرة دينية . في الذود عن المسلمين في موضع سابق[٢] .

واما الشاعر الفقيه الثاني الذي استثارته هذه النكبة فهو أبو حفص عمر الهوزني[٣] ... وكان له شأن آخر . يختلف فيه عما عهدناه لدى شعراء رثاء المدن والممالك من الاستسلام للبكاء وندب الأعزة والوقوف على معارض المدينة المروعة . ومصارع القوم فيها . بل نجده يبحث عن الدواء للمدينة المهيضة الجناح .. فأخذ يخاطب أولى الأمر وأرباب الدواء ليطفئوا جمرة صدره . ويشفوا غليل المسلمين . وقد حفظ لنا ابن بسام فصولاً عديدة من رسائله في خطاب المعتضد العبادي . وكانت رسائله تلك حمماً بركانية في استنهاض الهمم واستجاشة العواطف . وكان يضمنها مقطعات من شعره وهي أدخل في باب الجهاد والاستنفار من شعر رثاء المدن والممالك . ولعله كان يخاطب القادر احمد بن هود بقوله :[٤]

أيا أسفاً للدين إذ ظلَّ نُهبةً   بأعيننا والمسلمون شهودْ
ويُثلبُ بيت الله بين بيوتكم   وقادره عن رد ذاك قعيدْ

---

(١) الروض المعطار ٩٠

(٢) الاتجاه الاسلامي ٣٢٢ ـ ٣٢٤

(٣) الذخيرة ٢ / ١ / ٨١ ـ ٨٢ يستفاد منها انه كان من أعيان اشبيلية . ذات نفسها . وناجذها الذي عنه تبسم . وواحدها الذي بيده ينتقض ويبرم . وكانت صلته بالمعتضد ـ قبل ان يتولى رياسة اشبيلية ـ قوية . ومتينة وما بينهما « التلاف الفرقدين . وتضافر اليدين . واتصال الأذن بالعين . ولكنه كان يوجس منه ذعراً » . فخرج عن اشبيلية سنة ٤٤٤ هـ في رحلة للحج . وروى الحديث في رحلته . فلما عاد استقر في مرسية . ومنها وجّه رسائله الى المعتضد . وما لبث أن استدرجه في الرجوع الى اشبيلية . فكان في رجوعه حتفه . وفي إيابه مصرعه بعد عامين فقط عام ٤٦٠ هـ

(٤) الذخيرة ٢ / ١ / ٩٢ .

ولم يحدث في تاريخ الأندلس ان تسقط مدينة كبيرة، مثل طليطلة التي وصفت بانها دار الملك بالاندلس. كما لم يحدث أن تسقط مدينة مثلها الى غير رجعة مثلما حصل معها عام ٤٧٨ هـ.

وعلى الرغم من المصاب الجلل والخطب الجسيم الذي حل بسقوطها فإن جلّ ما وصل إلينا في رثائها لا يتجاوز نصين هما:

الأول: في أربعة أبيات لعبدالله بن العسّال (ت ٤٨٧) ـ تقدمت معنا أبياته في نكبة بربشتر ـ وكان قد رحل عنها الى غرناطة فقال[١]:

يأهلَ أندلس حثّوا مَطيّكمْ	فما المقامُ بها إلا من الغَلطِ
الثوب ينسلّ من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ

فهل يدعو الشاعر في أبياته الى الانهزامية؟ إن الأمر ليس كذلك بل هو اسلوب في التعبير مبالغة في التنبيه والتذكير، اذ ليس من المعقول أن يدعوا الشاعر الى التولي يوم الزحف، وهو الزاهد الفقيه[٢]. وسنلاحظ أن مثل هذه الدعوة ستتكرر على ألسنة شعراء آخرين، باصرار أشدّ بعد تردي احوال الجزيرة في مطلع القرن السابع الهجري، هذا ابو اسحاق بن الدباغ الاشبيلي يقول: في جملة ابيات بعد وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ[٣]:

فما في أرض أندلس مقامٌ	وقد دخل البلا من كل باب

وقد وجدنا نبرة أخرى تعبر عن النكبة وتحاول أن تجيب عن السؤال الذي كان معادلة صعبة لأبناء المدن الأندلسية الساقطة بأيدي الأسبان، أيهما أفضل البقاء في المدينة في ظل الأعداء ام الخروج منها؟ ومن هؤلاء الشعراء ابو المعالي الاشبيلي الفقيه الواعظ الذي مال الى طرف المعادلة الثاني، وخرج عن بلاده، وكان مما انشده بمسجد رحبة القاضي قوله[٤]:

أنا في الغربة أبكي	ما بكتْ عين غريبِ
لم أكنْ يوم خروجي	من بلادي بمصيبِ

(١) نفح الطيب ٤ / ٤٤٧.
(٢) ملامح من النقد السياسي ص ٢٥٨
(٣) النفح ٤ / ٤٦٤
(٤) النفح ٤ / ١١٣ ـ ١١٤

عــجــبـاً لــي ولــتركــي وطــنا فــيــه حــبــيــبــي

ان الماكث في المدينة كان يشعر بالمرارة والندم بسبب بقائه في دار الحرب ، ولم تكن الحال افضل عند من يغادرها على نحو ما رأينا .

واذا كان الأشبيلي الفقيه ، اتخذ قراره فخرج ثم شعر بالندم . فان الحيرة والتردد استوليا على غيره على نحو ما صور ذلك الجزار السرقسطي . حين أزمع رجل الرحيل من سرقسطة فاراً منها حذاراً من العدو . وأبطن أسباب رحيله الحقيقية فأظهر في فراره المسير الى الحج . لكنّ البحر الذي واجهه ثناه عن نيته فجزع وقفل راجعاً[١] :

أمّا النص الثاني ففيه تتجلى فداحة نكبة طليطلة في مرثاة طويلة ، لا يعرف صاحبها تجاوزت ابياتها الثمانين ... ، ونستطيع أن نعَدها القصيدة اليتيمة ، التي جسَّدت عِظم النكبة وعالجته معالجة تفصيلية وفيها يقول[٢] :

لثكلكِ كيفَ تبتسمُ الثغور سروراً بعد ما سُبيت ثغور
لقد قصمت ظهورٌ حين قالوا أمــيرُ الــكافريــن لــه ظــهور
أناً منُ أن يحلّ بنا انتقامٌ وفينا الفسق أجمع والفجور ؟

ونجد الشاعر على حالة من الجزع ، وضيق النفس ، لما بلغته هذه المدينة من هوان وذل إذ طاش حلمه وذهب يقينه بعد أن غررً الشيطان بالقوم :

لقد ذهب اليقينُ فلا يقينٌ وغرَّ الـــقومَ باللهِ الـــغرور

ثم نجده يتطلع الى البطل المنقذ ويشيم سيماء النصر مبتهلاً في ذلك الى الله

ألا رجــلٌ لــه رأيٌ أصــيــل بــه مــما نــحاذر نــسـتـجيرُ ؟
ونرجو أن يتيح الله نصراً عــلــيــهــم أنــه نــعــم الــنـصـير

ولم تكن نكبة بلنسية أخف وطأة مما حلّ بمدن الأندلس الأخرى ، لكنها قد تمثلت بدخول قائد اسباني هو السّيد القمبيطور ، بعد حصار طويل استمرّ حوالي عشرين شهراً لآخر رمضان ٤٨٥ ـ منسلخ جمادي الاولى سنة ٤٨٧ هـ[٣]) حيث أرغم

---

(١) ديوان الجزار السرقسطي ق ٥٠ ، ودراستنا حول الديوان ص ٢٨٤ مجلة آداب المستنصرية العدد ١٥ بغداد ١٩٨٧ .

(٢) النفح ٤ / ٤٨٣

(٣) البيان المغرب ٤ / ٣٢ ، ٣٩

قاضيها ابن الجحاف المعافري على التسليم وعقد الصلح . وقد أطنب المؤرخون العرب بايراد تفصيلات عن وصف النازلة العظيمة التي نزلت بساحتها . ومنهم ابن علقمة عصري الاحداث في كتابه « البيان الواضح في الملم الفادح » الذي ينقل منه صاحبا الذخيرة والبيان المغرب .

وتسبغ الرواية الاسبانية على تلك الاحداث المؤلمة . صفة الملحمة . وتنظر الى انها ضرب من ضروب البطولة والمجد . وان الأدب الذي صوّرها أدب ملحمي شعبي[1] .

كانت مدينة بلنسية من اكبر مدن شرقي الاندلس رائعة بجمالها وبساتينها ولذلك تغنى بها شعراؤها . فما كان نصيبها منهم في نكبتها ؟

ان ما بين ايدينا من اشعار لا يمثل الا نزراً يسيراً ـ بل أقل من اليسير ـ وهي ظاهرة عامة في هذا الموضوع والمفترض ان تجود قرائح الشعراء في مثل هذا الموضوع الوجداني النووي .. لفداحة النكبة وجللها .

روت المصادر أن ابا الوليد هشام بن احمد الوقش البلنسي (ت ٤٨٩ هـ) الذي كان قاضياً في بلنسية حين دخول العدو فرأى أحداث النكبة وتفصيلاتها الملحمية . ثم قدرت له النجاة فخرج عنها الى دانية[2]. وقد زعموا أنه صعد على أسوار بلنسية فأنشدها[3]

وأصل هذه القصيدة لما يزل مفقوداً . وما بين أيدينا هو ترجمة للنص اللاتيني نشره لاول مرة المستشرق الاسباني خوليان ربيرا . بلغة زكيكة على ضوء مخطوطات مدونة تاريخ اسبانية ثم تقدم الدكتور الطاهر مكي بترجمة النص بلغة سليمة مستعيناً بالنص السابق وبرواية شعبية يجدها منزوية في ديوان يضم قصائد تحمل اسم (ديوان السيد)[4] :

١ ـ بلنسية ؟ ! ... بلنسية ! ... مصائب كبيرة تحدق بك . انت تحتضرين واذا قدر لنا النجاة . فسيراه عجيباً من يعيش ويراك .

---

(٢) ملحمة السيد ٧٧ ، وينظر مقالنا ، نكبة بلنسية بدخول السيد القمبيطور ، مجلة الجامعة العدد (٥) الموصل ـ شباط ١٩٨٠ .

(٣) تاريخ الفكر الاندلسي ١١٦

(٤) السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين بحث الدكتور حسين مؤنس في المجلة التاريخية المصرية ٣ / ١ / ٣٧ سنة ١٩٥٠ ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ١١٦ .

(١) ملحمة السيد ، ص ١٦٤ ـ ص ١٦٦ وينظر دراسات اندلسية ٢٩٠ .

٢ ـ وإذا اراد الله خيراً لهذا البلد . فأملي كبير أن يتولاني برحمته فلقد كنت دواماً موطن الجمال والسرمد . حيث يعيش المسلمون جميعاً في بهجة ومتعة .

٣ ـ العمد الاربعة التي تنهضين عليها . يريدون ان يجتمعوا ليهدموها فيحزنوك وما هم بمستطيعين .

٤ ـ سورك العظيم الذي بني مع العمد الاربعة . ترتج حجارته ويريد أن يقع بعد تضعضع اساسه .

٥ ـ أبراجك السامقة الارتفاع . الرائعة الجمال . والتي تلوح من بعيد فتدخل البهجة على قلوب اهلك تقع شيئاً فشيئاً .

وهكذا تمضي القصيدة مستعرضة أبرز المعالم الحضارية التي ازدانت بها بلنسية . ايام مجدها الباذخ . وكيف آلت الى الخراب والدمار . فأصبحت تعبث بها الذئاب . وأقفر مرساها الجميل . من السفن التي تغدو اليها . وكأن الوادي الأبيض غارت مياهه ونضبت وحمئت السواقي الصافية . وأتت النيران ملتهمة ضياعها الواسعة . حتى استعصى الداء على المداوى وانقطع الرجاء في الدواء .

ويبدو واضحاً . أن القصيدة تصور معالم النكبة أثناء الحصار . وبعده . وعلى الرغم من فقدان النص الأصيل لهذه المرثية . فإننا نستطيع أن نلمح معالم التجربة الفنية . والصدق الشعوري . فاذا كان من خصائص التجربة الشعرية الصادقة انها ترفعنا اليها . لتمنحنا القدرة على الانفعال . فأن في هذه القصيدة على فقدانها الكثير من عناصر التجربة . لا سيما الوزن والقافية ـ ما يحقق الانفعال . الذي هو غاية التجربة . كما يحقق الصدق الفني . الذي هو صدق الشعور ومطابقته لوجدان الشاعر .

وتمضي ثماني سنوات عجاف . على استيلاء السيد القمبيطور . تخضع فيها المدينة للنفوذ القشتالي . حتى يقيض الله لها جيش المرابطين . بقيادة ابي محمد عبدالله بن مزدلي ابن عم يوسف بن تاشفين . فتتعرض المدينة لنكبة ثانية وخراب جديد إذ يأبى السيد القمبيطور مغادرتها الا بعد ان يحيلها ركاماً ... ولا تجود قريحة مواطنها ابن خفافة البلنسي الا بأبيات أربعة قائلاً[١] .

عاثتْ بساحتكِ العِدا يادارُ ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا ترددَ في جنابكِ ناظرٌ طالَ اعتبارٌ فيكِ واستعبارُ

(١) ديوانه ٣٥٤

أرضٌ تقاذَفت الخطوبُ بأهلها وتَـمـخَّـضـتْ بـخرابـها الأقدارُ
كتبت يدُ الحدثان في عَرَصاتها « لا أنت أنت ولا الديار ديارُ »

ولا يختلف الأمر كثيراً عند شاعر بلنسي آخر هو أبو عبدالله محمد بن خلصة البلنسي فيصورها في ثلاثة أبيات [١] :

وروضة زرتـها للأنـس مـبـتـغـيـاً فأوحشتني ذكرى سادةٍ هلكوا
تغيّرت بَعَدهم خَرِباً وحُق لها : مكانَ نوارها أن ينبت الحسكُ
لو أنها نَطَقت قالتْ لفقدِهم : بانَ الخليطُ ولم يَرثوا لمن تركوا

ليت شعري هل وفىّ هذان الشاعران بأبياتهما هذه ، للمدينة التي كلأتهما بظلالها الوارفة ؟

وتمضي الايام والسنون لتستعيد هذه المدينة مجدها وخيلاءها في ظل الأمن الذي تحقق لها بدخول المرابطين ، والسكينة التي اعقبتها في ظل الموحدين ، حتى يأتي عهدٌ تدور الدائرة فيه على الموحدين ، وذلك في مطلع القر السابع الهجري .

وقدّر لبلنسية ما قدر لمدن الأندلس الأخرى حيث تسقط الى غير رجعة عام ٦٣٦ هـ واذا كان الشعر الأندلسي ضنيناً في تصويره لنكبتيها السابقتين ، فإن نتاجاً غزيراً ـ شعراً ونثراً ـ يصل الينا ليصور نكبتها الثالثة أدق تصوير ، على ألسنة شعراء بلنسيين بروّا بها بعد أن أرضعتهم أخلافَها ، وأطعمتهم خيراتها ، وحقّ لهم هذا الوفاء والاخلاص .. لامثالها .

وفي مقدمتهم ابو عبدالله بن الابار البلنسي (ت ٦٥٨) الذي اشتهرت صرخته السينية التي مثل بها حاكم بلنسية (زيان) عند صاحب افريقية ابي زكريا بن أبي حفص ، فقام بها بين يدي السلطان منشداً وهي تعد فريدة في باب شعر الاستغاثة والاستنجاد « فضحت من باراها ، وكبا دونها من جاراها »[٢] وقد جاءت في سبعة وستين بيتاً برواية نفح الطيب ومطلعها :[٣]

ادرك بخيلك خيل الله اندلساً ان السبيل الى منجاتها درسا

---

(١) الروض المعطار ٩٧ وفي ترجمة الشاعر ينظر الجذوة ٤٩ ، التكملة : ٣٩٥
(٢) نفح الطيب ٤ / ٤٥٧
(٣) نفسه ٤ / ٤٥٧ ـ ٤٦٠ ، كذلك العبر ٦ / ٢٨٣ ، ازهار الرياض ٢ / ٢٠٧ وجاءت بعض أبياتها في الروض المعطار ١٠٠

وفيها تفصيلات قيمة عن طبيعة النكبة التي حلت بلنسية ، بله مدن الأندلس :

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا   لـلـحادثات وأمسى جدّها تـعـسا
وفي بـلـنـسـيـة مـنـهـا وقرطـبـة   ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائـن حـلـهـا الإشراك مـبـتـسـماً   جذلان ، وارتحل الإيمان مبتئسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً   ولـلـنـداء غدا أثـنـاءها جَرَسا

وينتقل الى خطاب ابي زكريا مستجيشاً نخوته الاسلامية ، وأصالته اليعربية لاستنهاض المدينة المهيضة الجناح وتطبيب جراحها :

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما   أبقى المراس لها حبلاً ولا حرسا
هذي رسائلها تدعوك من كَثَبٍ   وأنتَ أفضل مَرجوٍ لمن يئسا
وافـتـك جارية بالـنّـجـح راجـيـة   منك الامير الرضى والسيد النَّدسا

ويمضي في مدح امير افريقية حتى يقول :

ياايها الـمـلـك الـمـنصور أنتَ لها   علياء توسع أعداء الهدى تعسا
طهِّر بلادك منهم إنهم نجس   ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت   عيونهم أدمعاً تهمي زكا وخسا

وقد وصف القصيدة الدكتور احمد امين بانها قوية طويلة تفيض بكاء[1]

واذا كانت سينية ابن الابار قد ذاعت واشتهرت مقرونة باسم صاحبها[2]، فان قصيدته الثانية الهمزية المردفة بالالف الموصولة بالهاء مع الف الخروج ، القصيدة التي لا تقل مستوى فنياً عن سابقتها كانت نفثة أخرى لابن الابار ، ومطلعها :

نادتـك اندلـس فـلـبِّ نداءها   واجعل طواغيت الصليب فداءها

تجيء أطول نفساً من سينيته حيث جاءت في تسعين بيتاً ، وقد ظلت مجهولة الهوية لدى العديد من الدارسين[3]. لانها عرفت اول ما عرفت في كتاب نفح الطيب للمقري الذي أوردها دون عزو ، وظل قائل القصيدة مجهولاً حتى قيض الله

(١) ظهر الاسلام ٣ / ٢٨٦

(٢) اختصار القدح المعلى ١٩١ .

(٣) ينظر الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه ٥٢٧ ، ملامح الشعر الاندلسي ٣٠٦ ، الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، وممن تنبه او نبه الى نسبة القصيدة الى ابن الابار د . الطاهر مكي في كتابه دراسات اندلسية ١ ـ ٢

للدكتور عبدالسلام الهراس نشر ديوان شاعر بلنسية ابن الابار . فطالعتنا القصيدة في اول قصائد الديوان .

ولا نستطيع أن نقدر الفاصل الزمني بينهما لكنّ الراجح في الظن أن السينية اسبق في النظم لانها أشدّ حرارة من الهمزية . واوفر نصيباً من اعتمال العاطفة وغلوائها ـ لكن الهمزية لا تتأخر كثيراً عن السينية في العاطفة او البناء والمعاني التي ادار عليها الشاعر أبياته ... وقد قدم الدكتور الطاهر مكي دراسة وافية عن القصيدتين السينية والهمزية(١) .

وكان من أثر ذلك أن استجاب ابن ابي حفص . وجهز الاساطيل . ولكن الغوث والمعونة ـ على نحو ما تذكره المصادر ـ وصلا متأخرين . بعد فوات الاوان .

ومما جاء لابن الابار في هذه النكبة . فيما نطالعه في ديوانه . قصائد كثيرة ، واكثرها تجري في باب المقطَعات وليس ذلك على ابن الابار كثيراً ولا بمنكر .. وهو البار بوطنه . ويسوق لنا المقري(٢) رسالة له يخاطب بها ابا المطرف بن عميرة . حديثة حديث المتذكر لأيام الشباب . المتشبث بالاوطان . بعد أن ودّعها وداع الابن . واخنى عليها الذي اخنى على لُبد . ويضمن رسالته بيتين من قصيدة بلغت ثلاثة وعشرين بيتاً :

كزعزع الريح صكَ الدوحَ عاصفُها فلم يدع من جنى فيها ولا غُصُنِ
واها وآها بموت الصبر بينهما موت المحامد بين البخل والجبنِ

وهي اطول قصيدة بعد سينيته ـ في هذا المقام ـ وتتسم قصائده بسمتين اولاهما: الندب والبكاء . والأسف والحسرة . فقد استهل نونيته السابقة بقوله(٣) :

وطن على الدائبين : الدمع والشجن ياناد الذاهبين : الاهل والوطن
هذا فؤادي كالبرق الخفوق اسى وهذه أدمعي كالعارضِ الهتنِ
براحتي رايةُ الاشجان أحملها وان غدا الجسم وهنا ليس يحملني

وثاني السمتين . عند ابن الابار في هذه القصائد . امتزج البكاء بالذكريات العبقة . حيث الجنان التي ارتسمت صورتها في مخيلته هو ذا يقول :

---

(١) دراسات اندلسية ٢٩٥ ـ ٣٠٦

(٢) النفح ٤ / ٤٩٧ ، الروض المعطار ١٠٠

(٣) ديوانه ق ١٤٩

وجنة حلّ اهل النار ساحتها لم يغن خمل القنا عنها ولا الجنن
وجدى بها وبعيش في حدائقها وجد الذي أرّقت عيناه بالوسن

والقصيدتان الاخريان دالية في اربعة عشر بيتا وعينية في اثنى عشر بيتاً . يقول في الاولى مستخدماً صيغة الماضي في تذكر الجنان والمرابع[١] :

كـلـما هـبـت الـصـبا ذكر الـشو قَ ففاضت عيناه شوقاً ووجدا
يا سـقى الـلـه لـلرصافة عـهداً كـنـسـيـم الـصَـبا يَرِق ويـندى
ليت شعري هل يرجع الدهر عيشاً يشهد الطيب انه كان شهدا
حيث كنا نغازل النرجس الغـ ضّ جفونا ونهصر الآس قدا

ويقول في عينيته[٢] :

أبـيـنٌ وأشـتـياق وارتـياع ؟ لـقد حُـمّـلـتُ ما لا يـستـطاعُ
وروّعـنـي الـفراق على احـتـمالـي ومـن ذا بالـتـفرق لا يراع
فالـعـبرات بـعدهـم انـحدارٌ ولـلزفرات اثرهـم ارتـفاع

وفي الديوان ـ فضلاً عما تقدم ـ ست مقطعات[٣] يكفي أن نشير الى بعضها المتميز . فمن ذلك قوله في حائيته التي يلاحظ فيها سمة الجناس في أبياتها[٤] .

مـلـكـت جوارحـه عـلـيـه جراحـه فـشـفاؤه لا يُرتـجى وسراحـه
لـم يـعـترضـه مـساؤه بـمـساءة الا وضاعـفـها عـلـيـه صـباحـه
قد اسلم الاسلام فيه الى العدى فأساه برح لا يتاح براحه

ويقول في الأخرى[٥] :

لامَ الـمـحـبّون الـفراق ولـمتُـه لـكـنـهـم سئموا ولـمّا أسأمِ
فعليّ فلتبكِ البواكي ، انني أخرجت من وطني ولست بمجرمِ
لا أستريح بغير ليل أليلٍ اشـكو تـطاولـه ويوم أيوم

---

(١) ديوانه ق ٧٧
(٢) نفسه ق ١٧٠ .
(٣) ينظر ديوانه ق : « ٥٧ ، ٨٩ ، ١٢٥ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ » .
(٤) ديوانه ق ٥٧ .
(٥) ديوانه ق ١٢٥ .

ونراه يعود ثانية الى آثار الفراق في نفسه . وكان مما أجج كوامن عاطفته ، بعده عن اسرته وعدم استطاعته العودة اليهم فهي أزمة تذكر بأزمة ابن حمديس الصقلي[١] :

أيا أسفى على عدم الهجوع وفـــقدان الأحـــبة والربوع
يشق عليّ عن أهلي نزوحي ويغلبني الى وطني نُزوعي
فكم أبكى الدّيار وساكنيها بـطرف مـسـعدٍ ودمٍ هـموع

ولا يملك الا التشبث بوطنه ، والدعاء له بالسقيا ، على البين المشت[٢] :

بلنسية يا عذبة الماء والجنى سقيت وان أسقيت صوب الرواجس
ومن عجب أنّ الدّيار أو اهلّ وأندبها ندب الطلولِ الدّوارسِ

وعلى الرغم من أن ديوان ابي المطرف بن عميرة (ت ٦٥٨ هـ) ليس بين ايدينا . فأن ما نقله مؤرخو الادب عنه يدلنا على أنه لم يكن أقل وفاء لوطنه ومسقط رأسه . فقد روي الحميري أن سقوط بلنسية ترك أثراً كبيراً « فأكثر ادباؤها بكاءها والتأسف عليها نظماً ونثراً »[٣] ومما كتبه ابو المطرف اربع رسائل اوردها الحميري متوالية . جاءت الاولى موجهة الى ابن الآبار . ويغلب ان تكون الثلاث الباقيات كذلك وقد ضمن رسالتيه الثانية والثالثة . ثلاث مقطعات في ستة أبيات . على وزن الدّوبيت يظهر فيها معاني الاسى والأسف اذ يقول[٤] :

ايـن الـصـبر وفؤادي أنـسـيـه لم يبق لقومه على الرمي سيه
هيهات يحور ما مضَى من إنسيه من بعد مصاب حلّ في بلنسيه

وأما رسالته الرابعة فهي مستهلة بالنثر تعقبها قصيدة رائية رائعة في خمسة عشر بيتاً . تعد من القصائد المنمازة . حيث تفيض جزعاً ولوعة وتفجعاً وفيها يقول[٥] :

ما بال دمعك لاينى مدراره ام ما لقلبك لا يقر قراره ؟
ألـلوعة بـيـن الـضـلوع لظاعن سارت ركائـبـه وشـطـت داره
ام للزمان أتى بخطب فادح من مثل حادثه خلت اعصاره

---

(١) ديوانه ق ١٧١ .

(٢) ديوانه ق ١٨٦ الاصل : « أشقيت » وهو تصحيف وارتجت السماء اذا رعدت شديداً .

(٣) الروض المعطار ص ٩٧ .

(٤) نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٥) الروض المعطار ٩٩ .

بحر من الاحزان عب عبابه وارتج ما بين الحشا زخاره
اما بلنسية فمثوى كافر حفت به في عقرها كفاره

وبين ايدينا قصيدة رائية اخرى لابي المطرف اطول من سابقتها جاءت في اكثر من ثلاثين بيتاً ومطلعها[1] :

أقلوا ملامي أو فقولوا واكثروا ملومكمُ عَما به ليس يقصر

وفيها يظهر جزعه واساه على مدينته الباسلة ويندب معاهدها التي تغيرت ودورها التي اقفرت ويشبه نفرته وبني قومه عن منازلهم بنفرة الحجيج من المحصب .

ويندب عهداً بالمشقر فاللوى وأين اللوى منه ؟ وأين المشقر
وأقفر رسم النار إلا بقية لسائلها عن مثل حالي تخبر
فلم تبق إلا زفرة إثر زفرة ضلوعي لها تنقدّ أو تتفطر
كفى حزناً أنا كأهل محصب بكل طريق قد نفرنا وننفر

ويستعرض شريط الذكريات ، في مخيلته ، ليتنفس من خلاله الصعداء ، فيستعرض تلك الأماكن العبقة المزدانة بالجمال ، مغانيها المغدقة ، وملاعبها المؤنسة ، وانهارها التي أمست آزائها معاهد القوم بحيث يصفو أنسهم بها ، فيقول :

ليال بماء الورد ينضح ثوبها وطيب هواء فيه مسك وعنبر
وبالجبل الأدنى هناك خطى لنا إلى اللهو لا تكبوا ولا تتعثر
جناب بأعلاه بهار ونرجس فأبيض مفترُّ الثنايا وأصفر

ثم يعود ليسدل السّتار على تلك الهناءة وايام السعادة والبلتهية فيقول :

كذاك الى أن صاح بالقوم صائح وأنذر بالبين المشُت منذرُ
وفرقهم أيدي سبا وأصابهم على غرة منها قضاء منقدر

---

(١) النفح ٤ / ٤٩٣ ، ولابي المطرف قصائد اخرى في هذا الاتجاه ينظر ابو المطرف بن عميرة ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

ويبدو أن بلنسية تعرّضت في حياتها الى ازمات ونكبات . وذلك ما جعل ابا عبد الله محمد بن عياش التجيبي (ت ٦١٨ هـ) يتشاءم من ذكرها . ويتمنى فراقها حيث يقول[١] :

بلنسيةُ بيني عن القلبِ سَلوةً فأنك روضٌ لا أحنَ لزهركِ
وكيف يُحب المرء داراً تقسّمت على صارمي جوعٍ وفتنة مشركِ

ومما يتصل برثاء بلنسية . إصابة قرية من أعمالها في وقعة « بطرنه » وذلك سنة ٤٥٦ هـ وقد التقط وصفها ابن بسام من فم من شهدها بعد أن جهد في التعرف على خبرها عند ابن حيان فلم يجده وقد كان مصاب المسلمين في نفوسهم واموالهم بتلك النكبة عظيماً وكان السبب في نزولها بهم . استهانتهم بالعدو وغفلتهم عن التدبير لشأنهم . وتغريره بهم حتى انهم خرجوا الى لقائه على نحو ما يصف الكميت وقد يتمثل به ابن بسام[٢] :

يمشون مشى قطا البطاح تأوداً هيف الخصور رواجح الأكفال

وجل ما حفظته كتب الأدب في تلك الوقعة بيتان لابي اسحاق ابراهيم بن المعلى صورا ابلغ تصوير هزيمتهم النكراء . وفي البيتين من الدلالة . ما يعرض عما قيل فيها وفقد[٣] :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم الوانا
ما كان اقبحهم واحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا

وقد ساق ابن بسام البيتين في باب « الايماء » الذي هو ضرب من فنون البديع . وعدّه من غرائب الشعر وملحه[٤] .

---

(١) زاد المسافر ١٣٦ وينظر الروض المعطار ١٠١ . ولقد امتعض من هذا القول الشاعر البلنسي ابو الحسن بن حريق (ت ٦٢٢ هـ) فقال مجاوباً :

بلنسية نهاية كل حسن حديث صح في شرق وغرب
فإن قالوا محل غلاء سعر ومسقط ديمتي طعن وضرب
فقل هي جنةٌ حُفَّت رباها بمكروهين من خوف وحرب

ينظر في الابيات المصدران السابقان والنفح ١ / ١٨٠ .

(٢) الذخيرة ٣٥ / ٢ / ٨٥٦ .

(٣) الذخيرة ٣ / ٢ / ٨٥٠ . النفح ١ / ١٨١ .

(٤) الاخيرة ٣ / ٢ / ٨٥١ .

واذا كنا قد وقفنا عند بلنسية وما قيل فيها من أشعار . فأن شقيقتها « مرسية » سقطت بعد خمس سنوات من سقوطها . وذلك (٦٤١ هـ) . وقد رثيت هي الأخرى في قصائد منها قصيدة ابن الجنان المرسي (ت ٦٤٨ هـ) الفائية التي قالها في رثاء ابيه ثم مزجها برثاء مسقط رأسه ومرتع شبابه في حوالي عشرين بيتاً . ومنها قوله :(١)

يا غَرْبة جرّها . والدار مكتئب — صرْف من الدّهر عن أوطاننا صَرَفا
إذ صار فيهن دينُ الحقّ مغترباً — يرتاعُ إن صدّ ناب الكفر أو صَدَفا

ولشدة تعلقه بآثار « مرسية » التي توافق من نفسه مأرباً . يحدثنا عن مسجد المدينة فيقول :

ويا لمرسية الغراء من بلدٍ — أضحى مُنيراً وأمسى نُوره خُسِفا
ويا لجامعها الأعلى لقد وَضعت — منه مجاورة التثليث ما شرفا
أذ كنت أشهدُ أطراف النَهار به — مع المصلي وليلا أشهد الزُلفا
جاورتُ منه جمانا كان مجتمعا — لبهجة الدين والدنيا ومؤتلفا

ويعود ليصارحنا بدخيلة نفسه ويحدثنا عن موضوع أطال الوقوف عنده شعراء الاندلس ـ كما تقدم بنا ـ ذلكم هو « الرحيل » و « الفرار » . اذ لم يكن خواراً منهزماً :

فاذا رأيت أموراً كلها تلف — فررتُ لله كيما آمن التلفا

ونقتصر على هذه القصيدة في رثاء مرسية . . إذ لم يتح لنا استقصاء ما قيل فيها . .

وأما اشبيلية التي سقطت بعد شقيقتها « مرسية » بأربع سنوات سنة ٦٤٥ هـ فليس بين أيدينا في رثائها الا قصيدتان : الاولى : لابن سهل الاندلسي (ت ٦٤٩ هـ) وهي قصيدة تدخل في باب استنهاض الهمم وشحذ العزائم . يستنفر فيها الشاعر عن والي اشبيلية ابو عبد الله بن ابي عمران عربَ المعقل وهي في ثلاثين بيتاً ومطلعها :(٢)

---

(١) ديوانه (مخطوط) ت ٢٧

(٢) ديوانه ق ٤١ ص ١٤١ ـ ١٤٢

وِرداً فمضمون نجاح المصَـدر هي عزّة الدّنيا وفوزُ المحـشرِ

وكانت الأوضاع العامة للجزيرة الأندلسية ، تنذر بالاخطار الجسيمة ، ولذلك يدعوهم الى الاستبسال والتضحية فيقول :

يا معشر العرب الذين توارثـوا شِيمَ الحمية أكبراً عن أكبـر
إنّ الاله قد اشترى أرواحـكم بيعوا ، ويهنِكُمُ ثوابُ المشتـرى
وعـلا الجزيرة غيهبٌ وغمودكـم مطويةٌ فوق الصّباح المُسفِرِ
لم يبق للاسلام غيرُ بقيةٍ قد وطنت للحادثِ المتنكّـر
والكفر ممتد المطالع ، والهدى مـتـمـسـك بذناب عـيـش أغبرِ
كم نكروا من معلم ، كم دمّـروا من مَعشرٍ ، كم غيرّوا من مشعـرَ

واما القصيدة الثانية فهي أبلغ في الدلالة على رثاء المدينة ، اذ انها نظمت اثر اشتداد حصار الاذفونش لمدينة اشبيلية سنة ٦٤٥ ، واشتداد أزمتهم بقلة ارزاقهم ، وانعدام الطعام ... فخاطب (ابو موسى هارون بن هارون) في أكثر من ستين بيتاً ، أمير المؤمنين المعتضد بالله السعيد والمسلمين من أهل عدوة المغرب يستصرخونهم ويرغبونهم في نصرتهم ومطلع القصيدة :[1]

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى لم يرعَ فيك الردى إلا ولا ذِمما

والروح السائدة في القصيدة هي الحزن واللوعة والبكاء بنكبة المسلمين في مدينتهم ، والاستسلام لقضاء الله وقدره فيها ، وتشخيص أدوائها التي انتهت بها الى ما انتهت اليه :

يا سائلي عن مصاب المسلمين بها اصخ لتسمع امراً يورث الصمما
لما تفرقت الأهواء واضطرمت نارُ البغاة فقامتْ للردى علما
يا حسرةَ الدين والدّنيا لأندلسٍ مهما استطال بها التثليث واجترما

ومما خاطب به امير المؤمنين قوله :

فالمفزع الله والذّخر العتاد أمير المؤمنين ، وحسبي في النّجاء هما
خليفة الله لولا النأي عنك لما أجزت فيّ لدهر جاز إذ حكما
وكنت كاشف كربٍ لا انكشاف له وقمت ودوني[2] من الاعداء منتقما

---

(١) البيان المغرب ، القسم الموحدي ٣ / ٣٨٢ ـ ٣٨٥

(٢) الاصل « وقمت دوني » والصواب ما أثبتناه .

لقد قطعنا شوطاً طويلاً . ونحن نستعرض نكبات الاندلس في معاقلها وحواضرها واشعار الشعراء التي قيلت فيها . ونستجلي أوجه الشعراء منها ومواقفهم المختلفة . والصور التي انعكست بسبب تلك النكبات . وما يزال امامنا نتاج ضخم لا يقترن بسقوط مدينة معينة وثغر محدد . بل قصائد كثيرة حكت لنا نكبة المسلمين بسيطرة الاسبان عليها .

وأول سمة لهذه القصائد ان نبرة الرثاء والتأبين تختلط بموضوعين آخرين اولهما النقد السياسي والاجتماعي . وللصلة القوية والوشيجة المتينة بين الموضوعين . فقد كان الشاعر في منحاه التحليلي والتشخيصي لاسباب سقوط مدن الأندلس .. يلج هذا الباب باسلوب صريح تارة . وبالكناية والتعريض تارة أخرى . ومن الضرب الاول ما عرف به ابو القاسم خلف الالبيري المعروف بالسميسر[1] . وابو عبد الله محمد الفازازي (ت ٦٢١ هـ) الذي وصلت له مقطعة في اربعة ابيات[2]

وأما الموضوع الثاني الذي تتلابس به قصائد الرثاء . فهو الحنين والشوق الى ذكريات الشاعر العبقة في تلك الربوع التي أصبحت بلاقع . وتلك المدارس التي خلت من تلاوة . وقد لاحظنا في القصائد التي سقناها آنفاً . أنها تعج بهذه المعاني ولاسيما قصائد ابن الابار .

لقد وجد الدكتور مصطفى الشكعة ان جملة قصائد رثاء المدن والممالك الأندلسية اتسمت بسمات عامة هي[3] :

١ ـ عزا الشعراء أسباب سقوط الاندلس فيما عزوا الى الترف الشديد الذي أنغمس فيه الاندلسيون وفساد الحكم وظلم الناس والجور والاستبداد .
٢ ـ الحنين الشديد للمدن الساقطة .
٣ ـ تنبيه العاطفة الدينية ممزوجة بالعاطفة الانسانية .
٤ ـ استصراخ الشاعر وطلب النجدة من المسلمين .

وأضاف الى هذه السمات الاربع سمتين اثنتين . لم تكونا موضع التزام عند كل الشعراء هما :

---

(١) تنظر ابياته في الذخيرة ١ / ٢ / ٨٨٥ وفي النفح ٤ / ١٠٨

(٢) النفح ٤ / ٤٦٧ .

(٣) الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

١ ـ اصطناع الحكمة والحديث عن مصائب الدهر .
٢ ـ رثاء الدول من خلال رثاء ملوكها .

ان بعض قصائد الرثاء يأتي جزءاً من قصيدة . وبعد أن تقدم بنا آنفاً الوقوف على رثاء مدن الاندلس . واحدة تلو الأخرى . في تسلسل زمني متقارب وذلك منذ مطلع القرن السابع الهجري . على أن بعض قواعد الأندلس ومدنها سقطت منذ اواخر القرن الخامس الهجري . ومن المصادر القديمة التي أرّخت سقوط مدن الاندلس نفح الطيب للمقري[١] ومن المحدثين قدم لنا الاستاذ محمد عبد الله عنان جدولاً تاريخياً لسقوط احدى وثمانين مدينة وقاعدة اندلسية[٢] مرتباً هذه المدن وفق حروف الهجاء ..

ولكأننا امام شجرة مثقلة بالثمار مزدانة بها تخطر في خيلاء ونعماء . ولم تزل كذلك يستمتع بها الناظرون ويهولهم ما هي عليه فاذا هي . تنفض ثمارها في غير ما أوانها . وتساقط أوراقها لا من هرم او شيخوخة .. فقد تساقطت هذه المدن تساقط الشهب . وهي أشد ما تكون لمعاناً وبريقاً . فخسف نورها . وكسفت بشاشتها وبهجتها بدخول الاسبان ... دعك عن الروع والهلع الذي حلّ بها بعد أمنها وطمأنينتها ...

تألبت اوربة مع اسبانية على مدن الاندلس فاخترمتها واحدة تلو الاخرى .. وانتهت دولة الاسلام في الاندلس فريسة سائغة . وغنيمة باردة لحكام قشتالة وليون والنافار بعد أن فل عضدهم . وفتت قواتهم وبأسهم .. بتفرقهم .. ونزوعهم الى الملذات وخلودهم الى الترف وتقاعسهم عن الأخذ باسباب النصر . على نحو ما اشاروا اليه في قصائدهم .

وأما ما نظم في رثاء الاندلس جملة . من قصائد . فهي بحدود خمس . تتصدرها شهرة وذيوعاً نونيه الرندى التي مطلعها :

لكل شيء اذا ما تم نقصان   فلا يغرّ بطيب العيش انسان

لقد ذهب النقاد في الاعجاب بها مذاهب كثيرة . ووقفت عندها دراسات كثيرة .. وليس من شك في انها من الناحية الفنية تأتي في مقدمة قصائد رثاء الاندلس . ذلك لأنها تفيض لوعة وحزناً وتعج بالمشاعر والعواطف ازاء الاندلس . ومن الغريب ان

---

(٣) النفح ٤ / ٤٦٠ ـ ٤٧٢ .

(٤) الآثار الاندلسية الباقية ٤٤٥ ـ ٤٤٧ .

يقدّم الدكتور أحمد امين[١] رائية ابن عبدون عليها ، وقد مرت بنا ، وعلمنا أنها كانت معرضاً تاريخياً للاحداث البشرية منذ اقدم عصورها .. لكن نونية الرندى ، تفيض بالعواطف والمشاعر .. ، وهي سمة رئيسة في الشعر الجيد ، لا نجد لها بعداً عند ابن عبدون .

ومن الدارسين المحدثين ، قدم الدكتور عمر الدقاق دراسة عن القصيدة فبسط معانيها التي دارت فيها وابرز خصائصها التي تميزت بها . وقد اشار الى انها تتوجه بالاستنجاد والاستصراخ في اطار من مشاعر الاسى والمرارة مسربلة بغلاله خفيفة من السخر والتقريع ، انها صرخة استغاثة لاولئك الناعمين بالطمأنينة والراتعين بالدعة وراء البحر[٢] ـ ولعل اوفى الدراسات التي قدمت عنها دراسة الدكتور الطاهر احمد مكي[٣] .

وأما القصيدة الثانية التي طبقت اصداؤها الخافقين فهي رائية مطلعها :

احقا خبا من جو رندة نورها ‏ ‏ ‏ ‏ وقد كسفت بعد الشموس بدورها

جاءت في مائة وأربعة وأربعين بيتاً .. وقائلها مجهول ويبدو انه من المرية التي سقطت عام ٨٩٤ هـ وان اسمه فيما يرجح جعفر بن خاتمة . وهي نداء من النداءات الكثيرة التي وجهت الى السلطان العثماني بايزيد الثاني[٤] . ومن الدراسات المبكرة التي وقفت عندها ما كتبه الاستاذ عنان[٥] وما كتبه الدكتور الطاهر مكي[٦] .

ولعل أبرز ما يميز القصيدة ـ كما يرى الدكتور عمر الدقاق ـ تلك النبرة الدينية العالية التي لا تكاد تفارقها .. ذلك الالحاح على أهمية العقيدة والايمان في ادراك النصر واسترداد الحق امر طبيعي في عصر كانت خلاله الحماسة الدينية هي العروة الوثقى والرابطة الأقوى التي تجمع الشمل المبدد والشعث المفرق . على ان ذلك من جهة اخرى قد اوقع اسلوب الشاعر احياناً بالنثرية[٧] .

---

(١) ظهر الاسلام ٣ / ٢٠٧ .

(٢) ملامح الشعر الاندلسي ٢١٤ .

(٣) دراسات اندلسية ص ٢٠٧ ـ ٣٦٠ .

(٤) قصة الادب في الاندلس ١ / ١٣٢ ـ ١٣٨ .

(٥) مجلة الرسالة العدد ١٣٣ ـ ٢ يناير ١٩٣٦ .

(٦) دراسات اندلسية ٣٦١ ـ ٣٨٢ .

(٧) ملامح ٢١٨ ـ ٢١٩ .

ويحتفظ لنا الرعيني في برنامجه قصيدة لابي جعفر احمد بن ابراهيم بن خلف بن الحبيب القرشي العامري (٦٢٤ هـ)[١] الذي كان قاضياً بغرناطة وغيرها . قصيدة طويلة في رثاء الاندلس ولعلها تكون اقدم قصيدة تنظر الى مدن الاندلس الساقطة مجتمعة بعد أن وقف الشعراء السابقون أشعارهم على مدن بعينها . وترد القصيدة في الاحاطة[٢] منسوبة الى ابي الشاعر ابي اسحاق ابراهيم بن خلف (ت ٥٧٢ هـ) وهي أن تكون للابن اقرب . وذلك لأن سقوط مدن الاندلس في عهد الأب لم يكن مثله في عهد الابن وفيها يقول :

الا مسعدٌ منجدٌ ذو فطن ... يبكي بدمع مُعين هَتَنْ
جزيرة أندلس خَشْرة ... لما غالها من خطوب الزمن
ويندب أطلالها آسفاً ... ويرثى من الشرع ما قد وهن
ويشكى الأيامى وُيبكي اليتامى ... ويحكى الحمام ذوات الشجن
لقد حللتها صروف الردى ... شآبيبُ كربٍ كمثلِ الدُّجن

وقد اشار ابن الخطيب الى طول القصيدة . ونص الرعيني على انها تنيف على المائة بيت[٣] .

وممن رثى الاندلس . ابو جعفر الوقشي البلنسي . وزير ابن همشك في قصيدة يخاطب فيها أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن . وفيها يصف حال الاندلس . ويبغث على الجهاد ومنها قوله[٤] :

الا ليت شعري هل يمدّ لي المدى ... فأبصر شمل المشركين طريدا

ونعتقد أن رثاء الاندلس في قرونه الثلاثة الأخيرة يحتاج الى دراسة تفصيلية تستقري نصوصه وتتبعها .. والاشعار التي قيلت في رثاء الاندلس في ظل دولة بني الاحمر كثيرة . وهي أكثر مما وصل بين ايدينا من رثائها في عصورها الاولى . لأن نكبة الاندلسيين باوطانهم كانت في هذا العهد أشد وأعنف . وقد اتصل بكاؤهم عليها بعد سقوط دولة بني الاحمر كذلك[٥] .

---

(١) برنامج شيوخ الرعيني ١٣٢ رقم ٥٨ .

(٢) الاحاطة ١ / ٣٦٦ .

(٣) برنامج شيوخ الرعيني ، ١٣٢ .

(٤) النفح ٤ / ٤٧٨ .

(٥) علمت أن السيد ابراهيم عبد وهيب يعد رسالة تحت عنوان « شعر النكبة في الاندلس بعد سقوط غرناطة » جامعة محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض ١٤٠٠ هـ .

المبحث الخامس

الغربة والحنين

شعر الغربة والحنين

ومن الموضوعات الجديدة التي برزت في الشعر الأندلسي على نحو جديد وبانت شخصيتها على صورة مختلفة ، وذلك لتأثير البيئة الأندلسية من نواحيها المختلفة سياسية واجتماعية وطبيعية . فقد تألق هذا الموضوع على نحو فريد في القرن الخامس الهجري . وان كنا نجد صورة مصغرة له قبل هذا العصر .

لقد أشار عدد من الباحثين الى جدة هذا الموضوع[١] ويتصل هذان الموضوعان بجذورهما العريقة الموغلة في التأريخ ذلك لأنهما من الغرائز الفطرية في الانسان : يرتبطان بالعربي منذ أقدم العصور حتى تواترت في ذلك الأمثال واتصلت الاخبار وقد ورد في الأمثال قولهم : « ميلك الى مولدك من كرم محتدك » وقولهم : « لا تجفُ أرضاً فيه قوابلك ولا تنس بلداً فيه قبائلك » وقالت الحكماء : « حنين الرجل الى وطنه من علامات رشده »[٢] وقد حكى ذلك القرآن الكريم اذ رأى الجاحظ أن مما يؤكد حب الاوطان قوله تعالى : « ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم . ما فعلوه الا قليلٌ منهم »[٣] فسوّى بين قتل انفسهم وبين الخروج من ديارهم وقال تعالى : « وما لنا الا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا » .

وجاء في الحديث الشريف : « حب الوطن من الايمان »[٤] وقد قيل لأعرابي أتشتاق الى وطنك ؟ قال : كيف لا اشتاق الى رملة كنت جنين ركامها ورضيع غمامها .[٥] ومما قيل : « لولا حب الاوطان لخربت البلدان »[٦] وكانت العرب اذا

---

(١) ابن بسام وكتابه الذخيرة ١١٨ .

(٢) تمام المتون ٣٣٠ ـ ٣٣٢ .

(٣) الحنين الى الاوطان ٩ .

(٤) تمام المتون ٣٢٩ .

(٥) الوطن في الأدب العربي ٤٨ .

(٦) الحنين الى الاوطان ٩ .

غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع »[١] وقال ابراهيم بن ادهم (رض) . ما قاسيت فيما تركت من الدنيا اشد من مفارقة الأوطان ،[٢] وقد ضربوا الأمثال بالإبل في حنينها فقالوا : (لا تدع العرب الشعر حتى تدع الأبل الحنين) وقالوا : أكرم الأبل أشدها حنيناً الى اوطانها »[٣] .

استخدم المعجم العربي الفاظاً ذات دلالات متقاربة فقد جاء في المحيط الغرب والغربة : النوى والبعد ، وجاء في اللسان غرب أي بعد والتغرب البعد والغربة والغرب النزوح عن الوطن والاغتراب ، وتغرب واغترب تغرباً واغتراباً بمعنى واحد .[٤] وذلك لأن صيغة (افتعل) تدل ضمن ما تدل من معاني على المطاوعة كما تدل على التصرف ، اي الاجتهاد في تحصيل الفعل .[٥]

وللمعاجم الحديثة تفسيرات لهذا المفهوم ، نفسية ، واجتماعية فقد فسر بأنه عاطفة تستولي على المرء فيعيش في قلق وكآبة لشعوره بالبعد عما يهوى أو يرغب فيه .[٦]

وقد تنبه القدماء الى هذه الظاهرة فألفوا فيها وصنفوا كتباً لعل أقدمها رسالة ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) الموسومة : الحنين الى الاوطان ، وقد افدنا ـ عما قريب ـ من نصوص نثرية كثيرة ، ساقها الجاحظ في كتابه ، وقد تضمن فضلاً عن ذلك مقطعات شعرية كثيرة في هذا المجال .[٧]

---

(١) نفسه ١٢ .

(٢) المنازل والديار ٢١٩ .

(٣) الحنين الى الاوطان ص ٩ .

(٤) القاموس المحيط مادة « غرب » لسان العرب مادة « غرب » .

(٥) عمدة الصرف ص ٢٥ .

(٦) المعجم الأدبي ١٨٦ وفي معجم علم االاجتماع ص ٢٠ ان الاغتراب هو الحالة السيكو اجتماعية التي تسيطر على الفرد سيطرة تامة تجعله غريباً ، وبعيداً عن واقعه الاجتماعي ، ويجد المؤلف صعوبة في وضع تحليل شامل وعام لهذا الاصطلاح لصعوبة وضع أسس فكرية للبحث الاجتماعي ، لأن هذا الاصطلاح يدخل في عدة موضوعات انسانية كعلم الاجتماع والفلسفة السياسية والاجتماعية والتحليل النفساني والفلسفة الوجودية ، ويتصل هذا الاصطلاح بظواهر التعصب العنصري ، المرض العقلي ، الوعي الطبقي ، الصراع الصناعي والصراع السياسي ...

(٧) الرسالة طبعت بتصحيح الشيخ طاهر الجزائري (ط ١ المنار مصر ١٣٣٣ هـ) وهي تقع في ثمانية وثلاثين صفحة وتضمنت اقوالاً وحكماً وقصصاً في موضوعها كما تضمنت على حوالي ثلاثين نصاً شعرياً بين قطعة وقصيدة .

ومن هذه الرسائل كتاب ابي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) وقد سماه أدب الغرباء وكتاب اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) المنازل والديار وهو اوسع هذه الكتب .

ولم يحتفل الباحثون لنتاج الاندلس من هذا الأدب على غزارته وتنوعه وكثرة أدبائه لكننا لا نكاد نقلب النظر في مصدر تأريخي أو مجموع أدبي أو ديوان شعري في عصور الأندلس الطويلة ومدنها وأصقاعها المترامية الأطراف حتى نقع على شواهد وأمثلة كثيرة في هذا الباب . حتى جاء السيد أحمد حاجم محمد فأفرد في الموضوع دراسته ، وجعلها في خمسة فصول ، الغربة الوطنية ، والغربة النفسية ، والحنين الى الوطن ، والحنين الى الأحبة والأهل والأخوان ثم الطبيعة في شعر الغربة والحنين وهي في حوالي مئتين وخمسين صفحة .[١]

وليس من سبيل للاحاطة في مثل دراستنا بهذا الأدب أو استقصاء ضروبه وانماطه ، ولكن النظرة المتأنية تسلمنا الى الوقوف على دواعي الغربة والحنين التي كانت تهيج وتحرك مكامن الصبوة ولواعجها .

ويتجلى الشعور بالغربة والحنين الى الوطن في جملة اسباب منها ، الرحلة في طلب العلم ، على نحو ما كتب به ابن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) وهو في طريقه الى المشرق وكان قد رحل وتغرب حيث يقول :[٢]

مضت لي شهور منذ غبتم ثلاثة   وما خلتني ابقى ـ اذا غبتم ـ شهرا
سأستعتب الدهر المفرق بيننا   وهل نافعي ان صرت استعتب الدهرا
وتالله ما فارقتكم عن قلى لكم   ولكنها الاقدار تجرى كما تجرى

ومنها الرحلة عن الوطن بسبب الحروب والفتن الداخلية التي حلت بمدن الأندلس وابرز هذه الفتن التي انعكست اثارها في الشعر الأندلسي ، الفتنة القرطبية على نحو ما تعكسه ابيات ابي بكر محمد بن قاسم (اشكهباط) الذي نشأ بقرطبة وساد فيها ثم اضطرته الحال الى مغادرتها والتجوال في مدن الأندلس ثم في بلاد المشرق فصور غربته ادق تصوير ونقلت ابياته معاناته نقلاً دقيقاً حيث يقول بعد أن اجتاز بحلب :[٣]

---

(١) وهي بعنوان الغربة والحنين في الشعر العربي الأندلسي ، رسالة ماجستير ـ جامعة بغداد ١٩٨٣ .

(٢) الجذوة ٢٥٦ ، الذخيرة ١ / ٢ / ١٣٠ .

(٣) المغرب ٢ / ٣١ ، النفح ٢ / ٩٥ .

أين أقصى الغرب من أرض حلب | أملٌ في الغرب موصول التعبْ
حن من شوق إلى أوطانه | من جفاه صبره لما اغتربْ
جال في الأرض لجاجاً حائراً | بين شوقٍ وعناء ونصب

وبعد ان يجري الموازنة غير المتكافئة بين وطنه الذي استودع فيه ذكرياته وبين الأرض التي كتب الله عليه ان يحل فيها ، يلخص محنته فيقول :

يا أحباي اسمعوا بعض الذي | يتلقاه الطريد المغترب
وليكن زجراً لكم عن غربةٍ | يرجع الرأس لديها كالذنب
ولئن قاسيت ما قاسيته | فبما أبصر لحظي من عجب

وتوضح أبيات أخرى آلامه وأحزانه العميقة حين يذكر تغير حاله وطيب مقامه بجوار مجاهد العامري ، بعد تلك الرحلة في بلاد المشرق :[1]

ولاقيت من دهري وصرف خطوبه | كما جرت النكباء في معطف الغصن
فلا تسألوني عن فراق جهنم | ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن

ومنها – ولعلها اقوى عوامل الغربة والحنين – الحروب المستعرة بين المسلمين والاسبان وقد اتقدت جذوتها ، بعد سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) كبرى حواضر الأندلس على نحو ما بسطنا الحديث فيه في حين اتسق بنا المقال في موضوع رثاء المدن والممالك ، وتحكى كتب التراجم صورة لأضطراب العلماء والشعراء في البلاد وضربهم في الآفاق أثر سقوط المدن ومنهم علي بن عبد الرحمن الخزرجي ، الذي برع في الفقه والطب فلما استولى القشتاليون على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ غادرها وتجول في مختلف ربوع الأندلس ونزل بطليوس ثم اشبيلية ثم قرطبة وبها توفي سنة ٤٩٩ .[2] والشعور بالغربة خطوة تالية لسقوط المدينة ، والشاعر يستشعر هذا المعنى سيان ان غادرها أو أقام فيها لأنه في الحالين مدركه ضيم الأسبان وجورهم وأذاهم ... فحين يبقى تحت سلطانهم نجده يعيش غربة نفسية تتلاشى معها قيم الزمان والمكان .. فأن هو نزح عنها اجتر ذكرياته العريقة منها ..

ففي نكبته بطليطلة يقول ابو المعالي الاشبيلي في حالة من الذهول والاستغراب مما آل اليه حاله :[3]

---

(١) النفح ٢ / ٩٦ .
(٢) الذيل والتكملة ٥ / ١ / ٢٥٠ .
(٣) النفح ٤ / ١١٣ .

انا في الغربة أبكي ... مابكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي ... من بلادي بمصيب
عجباً لي ولتركي ... وطناً فيه حبيبي

وفي نكبته ببلنسية يقول ابن خفاجة مثلها . لكنها تأتي قطعاً من كبده ومزعاً من قلبه حيث يبث همومه ولواعجه فتتسق قصيدته في ثلاثة عشر بيتاً ولاهمية القصيدة آثرنا ايراد اكثرها :(١)

بين شقر وملتقى نهريها ... حيث ألقت بنا الأماني عصاها
ويغني المكاء في شاطئيها ... يستخف النُهى فحلَّت حباها
عيشة أقبلت يُشهى جناها ... وارفٌ ظلها لذيذ كراها
ثم ولت كأنها لم تكد تلبث ... الاعشية أو ضحاها
آه من غربةٍ ترقرق بشا ... آه من رحلة تطول نواها
آه من فرقة لغير تلاقٍ ... آه من دار لايجيب صداها
لست ادري ومدمع المزن رطبٌ ... أبكاها صبابةٌ أم سقاها

وواضح أن الشاعر في أبياته جمع بين الصوت والصورة الثابتة و الاخرى المتحركة . صوت المكّاء ووارف الظلال . ولذيذ الكرى . وتفاعلهم مع الطبيعة وحركتهم مع غصونها في بطاحها ورباها .. ودموع المزن تبكيها صبابة وربما تسقيها . ولا يملك في آخر ابياته الا أسبال الدموع والاسترسال في البكاء :

فتعالى ياعين نبك عليها ... من حياة إن كان يغني بكاها
وشباب قد فات إلا تناسيه ... ونفس لم يبق إلا شجاها
ما لعيني تبكى عليها وقلبي ... يتمنى سواده لو فداها

واما لغة ابن خفاجة فقد جاءت ضرباً من السلاسة والرقة . وتتردد في معجمه الفاظ « الغربة » و « الفرقة » كما تتردد الفاظ البكاء في قصيدته بصيغ متعددة . في اربعة مواضع « ابكاها . نبك . بكاها . نبكى » ويعطف عليها لفظتين اخريين « الندب والشجى » . ولم يكتف حتى صعد الزفرات وردد الآهات خمس مرات . واحدة مفردة . واربعاً مجتمعة في بيتين على سبيل « رد العجز على الصدر » . كما يلاحظ اقتباسه من القرآن الكريم اقتباساً مباشراً . وهو ما يتورع عنه شعراء الاندلس

---

(١) ديوانه رقم ٢٠٢ .

في اكثر اقتباساتهم . في قوله تعالى (النازعات ٤٦) « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الاعشية أو ضحاها » .

وابن خفاجة شاعر الطبيعة غير مدافع ولا منازع ـ كما نعته الدكتور الكريم ـ يبدع ما شاء له الابداع ويحلق ما شاء له التحليق في قصيدته المتقدمة آنفاً . حيث جاءت تعج بالعواطف وتضج المشاعر الى موطنه الذي شحط النوى به ، وباعدت محنة دخول الغزاة اليه ، بينهما فاصبحت القصيدة فيضاً من المشاعر التي ـ ازدحمت فيها صور الذكريات في مخيلته . حتى اننا لا نملك الا الاستسلام لآهاته التي جاءت نفثة مصدور ولوعة مفجوع باعز ما يملك . وقد اختار لتحقيق الانسجام والموسيقى في الأبيات ، الهاء روياً وجعل الردف والوصل حرف المد الألف .

وفي ديوانه قصائد أخرى في هذا الإتجاه[١] . ولم يكن وفاء ابي المطرف بن عميرة شاعر بلنسية ـ في عصر الموحدين ـ أقل من وفاء شاعرها ابن خفاجة في عصر الطوائف والمرابطين . واذا كنا قد حرمنا ديوان هذا الشاعر فأن فيما بين ايدينا من اشعاره ما يجلو لنا هذه الصورة فمن ذلك ابيات احتفظ بها الحميري في روضه حيث يخاطب الشاعر جزيرة شقر التي كانت احدى مدن بلنسية والتي اصابها ما اصابها فيقول :[٢]

كفى حزناً نأي عن الأهل بعدما	نأينا عن الأوطان فهي بلاقع
نوى غربة حتى بمنزل غربة	لقد صنع البين الذي هو صانع
وكيف بشقر أو بزرقة مائه	وفيه لشقر أو لزرق شوارع

ويقول في الأخرى :[٣]

وعاد قلبي من شوق أندلس	عيدُ أسى فته وما فتر
فأين منا منازل عصفت	ريح عليها من العدا صرصر
ودون شـــقر ودون زرقـــتـــه	أزرق يحكي قناه أو أشقر

وممن تركت نكبة بلنسية اثارها عليه ابو عيسى بن لبون وكان من جملة اصحاب القادر يحيى بن ذي النون حيث رأس بمربيطر من اعمال بلنسية فلما تغلب السيد الكمبيطور على بلنسية تخلى عنها لأبي مروان بن رزين ثم بعد ذلك ضرب في الأرض لخيبة امله فقال في ذلك[٢] :

---

(١) ديوانه ق ٧٨ وتنظرق ٦٥ و ق ٢٧٦ (٢) الروض المعطار ص ٣٥٠

(٢) نفسه ص . ٣٥

(٣) القلائد ١١٥ ، الحلة السيراء ٢ / ١٦٨ وتنظر الحزيدة ٢ / ٣٧٥ .

ذروني اجب شرق البلاد وغربها لاشفي نفسي او أموت بدائي
فلست ككلب السوء يرضيه مربض وعظم ، ولكنني عقاب سماء
وكنت اذا ما بلدةٌ لي تنكرت شددت الى أخرى مطي إبائي
وسرت ولا ألوي على متعذر وصممت لا اصغي الى النصحاء

وقال من قصيدة اخرى[١] :

خليلي ما بالي على صدق عزمتي أرى من زماني ونية او تعذرا
ووالله ما أدري لاي جريمة تجنى ، ولا عن اي ذنب تغيرا
لئن شان تمزيق الزمان لدولتي لقد رد عن جهل كثير وبصرا

فكان من اثر ذلك ان انعطف ابن لبون عن الدنيا واعرض وصار الى الزهد فيها واعتزل الناس وتقترن قصائد الغربة والحنين بالحروب الدائرة بين المسلمين والأسبان على نحو ما نجد في قصيدة لابن الجنان يشتاق فيها الى مرسية التي ادى سقوطها الى نزوح الشاعر عنها فصار يستذكر ايام الصبا والشباب . والغربة النفسية تركت اثاراً عميقة الأغوار في نفس الشاعر[٢] .

ولم أنتفع بالعيش بعد فراقكم وإن كنت قد هنيت بالعيشة الرغد
فما ساغ شرب في البعاد ولا حلا ولو أنه التسليم يمزج بالشهد
فداءٌ لأيام التداني وطيبها زماني ، وإن قل الزمان ، لما أفدى
فقدت بفقديها التأنس كله وأعجب شيء إن سلمت من الفقد
فقل كيف صبري واحتمالي ودونما أقاسيه ما هد القوى أيما هَدُ

ويحفظ ديوان الشعر الأندلسي صوراً أخرى من دواعي التغرب واسباباً مختلفة ـ فضلاً عما تقدم ـ فقد يرحل الشاعر حين تضيق به سبل العيش فمن ذلك ما تصوره لنا ابيات قاضي المرية ابي الحسن مختار بن عبد الرحمن الرعيني (ت ٤٣٥ هـ) حين يزمع على العودة الى موطنه فيخاطب بني حمود في قرطبة ويقول[٣] :

الا فأذنوا لي بالسراح فانها نهاية مطلوبي وفيه عذاب
فاني قد خلفت في أفق موطني فراخاً هو اهم ليس عنه مناب

(١) القلائد ١١٤ ، الحلة السيراء ٢ / ١٦٨ الخريدة ٢ / ٢٧٨
(٢) ق ١١
(٣) المغرب ٢ / ٢٠٧

ولبعض الشعراء أبيات خاطب فيها الملك الكامل بعدرحيله الى بيت الله الحرام واشتياقه الى وطنه فيقول[1].

لأن صدني البحر عن موطني وعـيـنـي بأشواقـها زاهرة
فـقد زخرف لـي مـكة بأنوار كـعـبـتـه الزاهرة

وإذا كنا قد وقفنا في الصفحات السابقة على دواعي الغربة والحنين فلنا ان نتوقف عند ابرز ملامح هذا الاتجاه وابرز معانيه . ونستطيع ان نشخص اتجاهين مختلفين في هذا الموضوع يمثلان طبيعة الحياة في الأندلس منذ الفتح حتى جلاء المسلمين عنها .

فالمرحلة الاولى تمثل لنا شعراء في وطنهم الجديد بالاندلس حيث اقترنت ذكرياتهم بمدنهم وأوطانهم التي غادروها بعد فتح الأندلس فكانت معاني الغربة والحنين الى بلاد المشرق . وتمثل لنا أشعار عبد الرحمن الداخل وشعراء عصره وقد تقدمت ابياته في موضعها . هذا الاتجاه .

اما الاتجاه الثاني فيمثل الشاعر الأندلسي الذي نشأ فيها وترعرع على أرضها فتعلق قلبه بحبها ثم دعته ظروف قاهرة ودواع تقدم الحديث فيها سالفاً . الى الرحلة عنها وتأتي هذه الرحلة في ضربين يتمثل اولهما في رحلة الشاعر الى بلاد المشرق والثاني فتمثله رحلة الشاعر من مدينته الى مدن اندلسية أخرى .

ولعل من اقدم النصوص الشعرية الابيات التي نظمها عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨) حيث كتب بها الى اهله سنة ٢١٠ هـ وفيها يقول :[2]

أحب بلاد الغرب والغرب موطني ألاكـل غربـي إلى حـبـيـب
وياكـبدأ عادت زماناً كأنـما يـلدغـها بالـكاويات طـبـيـب
بـليـت وأبلانـي اغترابـي ونأيـه وطول مـقامى بالـحـجاز أجوب
فما الداء إلا أن تكون بغربةٍ وحسبك داء أن يقال غريب
فياليت شعري هل أبيتن ليلـةً بأكناف نهر الثلج حين يصوب

وحولى أصحابـي وبـنـتـي وأمـها ومـعـشر أهـلـي والرؤوف مـجـيـب
وابيات ابن الفرضي التي تقدمت بنا سالفاً هي الأخرى تمثل هذا الاتجاه .

---

(١) النفح ٤ / ٣٢٦

(٢) الاحاطة ٣ / ٥٥١

وقصائد الشعراء الدخلاء على الأندلس امثال ابن حمديس الصقلي وابن شرف القيرواني وابو الحسن الحصري القيرواني وامثالهم تحمل هذا الطابع ولكن بصورة معكوسة نجدها مضمخة بمعاني الغربة والشوق والحنين الى اوطانهم بعد ان حل بها ما حل بمدن الأندلس فيما بعد فقد غادر ابن شرف القيروان بعد الفتنة التي حلت بها ولم يزل يحتفظ بذكرياته العبقة عنها وقلبه يصطلي بنيران الصبابة على نحو ما يقول :[١]

ياقيروان وددت أنـي طائر فأراك رؤية باحث متأمل
آهاً وأية آهة تـشـفـي جوى قلب بنيران الصبابة مصطلي
أبدت مفاتيح الخطوب عجائباً كانت كوامن تحت غيب مقفل
زعموا ابن آوى فيك يعوى والصدى بذراك يصرخ كالحزين المثكل

ويقول من اخرى يصف فيها آخر الصور التي شخصت في مخيلته قبل رحيله وهي طويلة قطف ابن بسام عيونها :[٢]

آه للقيروان أنة شجوٍ عن فؤادٍ بجاحم الحزن يصلى
حين عادت به الديار قبوراً بل أقول الديار منهن أخلى
بعد يومٍ كأنما حُشِر الخلـ ـق حفاة به عواري رجلي
ولهم زحمةٌ هنالك تحكي زحمة الحشر والصحائف تُتلى
وعجيجٍ وضجةٌ كضجيج الـ ـخلقِ يبكون والسرائر تُبْلي
ليت شعري هل عودةٌ لي في الغيـ ـب إلى ما أطال شجوي أم لا ؟

وفي ديوان ابن حمديس قصائد كثيرة يتشوق فيها الى صقلية مسقط رأسه ومرتع شبابه وكانت تلك القصائد مسلاة له عن النكبات التي كان يسمع اخبارها وهو في الاندلس ويطيب بها قروح نفسه والآمها :[٣]

ذكرتُ صقليةً والأسى يُهيِّجُ للنفس تذكارها
ومنزلةً للتصابي خلت وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنتُ أخرجت من منةٍ فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحةُ ماء البكا حسبت دموعي أنهارها

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٣٢

(٢) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٢٧ ـ ٢٢٩

(٣) ديوانه ق ١١٠

ويتمنى لو يتاح له ان يلقى نظرة على وطنه ويمتع ناظريه بصعيده وجمال ربوعه ولكن خضوعه للعدو وسيطرة النورمانيين عليه يحول دون تحقيق ذلك الأمل الى الأبد :[١]

ولو ان أرضي حرة لأتيتها بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن ارضي كيف لي بفكاكها من الأسر في ايدي العلوج الغواصب
أمثلها في خاطري كل ساعة وأمري لها مطر الدموع السواكب

وتبقى صورة الوطن لاتبارح ذاكرته حيثما ذهب واينما اتجه ويجد فيما يحيط به مايذكره بهذا الوطن فيخاطب اللينوفر فيقول :[٢]

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه كلانا عن الاوطان ازعجه الدهر

وفي البيت مافيه من عمق الأثر وبعد الغور لشعور الشاعر بالغربة والحنين على الرغم مما رآه الدكتور احسان عباس من ان وقفته عند معنى الغربة امام اللينوفر ليست الاوقفة عابرة .[٣]

واما الضرب الثاني الذي اشرنا اليه فيتجلى في شعر عدد كبير من شعراء الأندلس . فأبيات ابن زيدون القافية التي عرضنا لها في موضع سابق يوجهها من الزهراء الى ولادة وهي بقرطبة . فيها نبرة الحزن والتذكر . وقصيدته الحائية التي مطلعها :[٤]

خليلي لافطر يدوم ولا أضحى فما حال من أمسى مشوقاً كما اضحى

يوجهها من بطليوس الى قرطبة كذلك . ومن بطليوس كذلك يشتاق الى وطنه بعد ان ينتقل بين بلنسية وطرطوشة والحنين يمزق قلبه شغفاً بوطنه وتشوقاً الى هواه القديم :

يادمع صُب ما شئت أن تصوبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا
إذا أتيت الوطن الحبيبا

---

(١) ديوانه ق ٢٧
(٢) نفسه ق ١١٣
(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٩٩
(٤) الديوان : ١٥٨ ــ ١٦١

فحي منه ما رأى الجنوبا
حيث ألفت الرشأ الربيبا

ولابن عمار بعد ان نفاه المعتضد الى سرقسطة قصيدة طويلة فيها معاني الغربة والشوق الى ذكرياته في اشبيلية وشلب[1]:

الا قاتل الله الجياد فانها ... نأت بي عن أرض العلى والمكارم
اشلب ولا تنساب عبرة متفق ... وحمص ولا تعتاد زفرة نادم
كساها الحيا برد الشباب فانها ... بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبا فكأنما ... قدحت بنار الشوق بين الحيازم

وتجلت ظاهرة الترحل بين مدن الأندلس وما اقترنت به من ذكريات تحفل بها قرائح الشعراء في عصر الطرائف فلا نكاد نرى الشاعر يستقر به المقام في مملكة من ممالك الطوائف ويطيب له المثوى مزدلفاً لأحد ملوكها يخرج ثانية الى بلاط ملك آخر ويستشعر معاني الضياع والغربة منذ ابتعاده عن مدينته الأم على نحو ما نجد عند ابن اللبانة الاندلسي في قوله:[2]

رماني الدهر في كل النواحي ... فأثبت في مقاتلي النبالا
وصيرني غريباً في مكان ... به الغرباء تكسب والعيالا

وهو يستشعر تكالب الهموم وتزاحم الاحزان عليه من كل جانب فيقول:[3]

قد طال بي أقطع البيداء متصلاً ... وليس يسفر عن وجه المنى سفر
كأنما الأرض عني غير راضية ... فليس لي وطن فيها ولا وطر
ان الهموم مع الأعمار ماشية ... لا ينقضي الهم حتى ينقضي العمر

ولم يختلف ابن بقى في كثير عن ابن اللبانة فيتجول في مدن الأندلس. ويضيق ذرعاً بها:[4]

قالوا تغربت عن اقطار اندلسٍ ... ومن يقيم على هون وإقلالِ

---

(١) محمد بن عمار ص ٢١٠
(٢) شعر ابن اللبانة الداني ق ٦٢.
(٣) نفسه ق ٣٥.
(٤) المورد ٧ / ١ / ١٤٢ ق ٣٤.

وقد اضطرب الأمر بابن السيد البطليوس كذلك على نحو ما نجده في مجموع اشعاره [١].

واما معاني شعر الغربة والحنين فقد اشار اليها الدكتور عبد العزيز عتيق ومنها الشوق الى الاوطان وتصوير تجاربهم الذاتية في ديار الغربة وملاعب الصبا وتذكر ايامهم وعهودهم السعيدة وكان بعضهم يمدح الاغتراب واكثرهم يذمه ثم يلاحظ ان الشعراء كانوا يمزجون بين الحنين والطبيعة في صورهم الشعرية وتفضيل البقاء في الوطن مع الشظف والفاقة على الاغتراب مع الغنى والسعة . وتصوير مالقيه بعضهم من عدم الترحيب والتقدير وبالتالي الندم على مجازفته بالاغتراب .[٢].

ونجد هذا الموضوع يتصل بأكثر موضوعات الشعر الأخرى وهو حيناً يتصل بشعر الوصف حينما يصف الشاعر الطبيعة . كما نجده في شعر ابن خفاجة الأندلسي في أبياته التي تقدمت بنا سالفاً . وفي قصيدته العينية التي يقول فيها :[٣]

أجبت وقد نادى الغـرام فأسمعا	عـشـية غـنـانـي الـحـمـامُ فرجَّـعا
فقلت ولي دمعٌ ترقرق فانهمى	يسيل وصبرٌ قد وهى فتضعضعا
ألاهل الى ارض الجزيرة أوبةٌ	فأسكن أنفاساً وأهدأ مضجعاً
واغدو بواديها وقد نضح الندى	معاطف هاتيك الرُّبى ثم اقشعا
أغازلُ فــيــهـا لـــلـــغزالة ســـنَّةً	تحط الصَّبا عنها من الغيم برقعا
وبات سقيط الطلِّ يضرب سرحةً	ترف بواديها وينضح أجرعا
أقلب طرفي في السماء لعلّني	أشيم سنا برقٍ هناك تطلعا

« فالطبيعة الأندلسية مصدر الهام الشعراء والفيض الزاخر الذي يستمدون منه افكارهم وموضوعاتهم فرؤية الغراب عندهم او سماع نعيقه يعني الاستعداد للرحيل او الغربة والتمتع بترجيع صوت الحمامة يثير فيهم الوجد والحنين . والنخلة رمز يمثل المشرق وهو مايحرص عليه الأندلسي ويهتم بها لأنها غريبة تحاكي غربته والزهرة نبتة جميلة تتجسد فيها صور محبوبته . والريح والرعد والبرق تذكي فيه جذوة الشوق والحنين »[٢]

---

(١) ابن السيد البطليوس ، مجلة المورد ٦ / ١ / ١٩٧٧ .

(٢) الأدب العربي في الأندلس ٢٧٤ .

(٣) ديوانه ق ٧٨

(٤) الغربة والحنين في الشعر العربي الاندلسي ٢٤٥ .

ومما يندرج في هذا الاتجاه ، قصيدة من عيون الشعر الأندلسي للرصافي البلنسي (ت ٥٧٢ هـ) الشاعر العفيف ، وهو بابياته يخلد ذكر مدينة بلنسية الجميلة اروع تخليد حين نعتها بأروع النعوت فيقول :[١]

خليلي ماللبيد قد عبقت نشراً ومالرُوس الرُكب قد رنحت سُكرا
خليلي عوجا بي عليها فانَّه حديث كبرد الماء في الكبد الحرَّى
بجسر معانٍ والرُّصافة إنَّه على القطر أن يسقي الرُّصافة والجسرا
بلادي التي ريشت قويديمتي بها فريخاً وآوتني قرارتها وكرا
مبادىء لين العيش في ريِّق الصبا أبى اللّه أن أنسى لها أبداً ذَكرا
بلنسية تلك الزبرجدة التي تسيل عليها كل لؤلؤة نهرا
معاهد قد ولت إذا مااعتبرتها وجدت الذي يحلو من العيش قد مرَّا

ويلاحظ ان نفس الغربة ضعيف . واما سمة الوصف لطبيعتها فقد كانت أظهر وأقوى . كذلك يقترن موضوعنا بشعر رثاء المدن والممالك على نحو ما ذكرنا في دواعيه وهو يأتي عند ابن زيدون مقترناً بشعر الغزل والنسيب . كما يتصل بشعر الاخويات والمراجعات .

واما شعراء هذا الاتجاه فكثر ولايكاد ديوان شعراء الأندلس يخلو من شعر هذا الاتجاه ولكننا نشير الى شاعر اكثر من ذكر هذا المعنى فضلاً عن الشعراء الذين تعرضت دراستنا لهم ذلكم هو ابو عامر بن الاصيلي الذي ترجم له ابن بسام في ذخيرته وأورد له اشعاراً في هذا الاتجاه منها قوله[٢]:

على سرقسطة أبكى دماً وأمواهها العذبة المحيية
وقوم كرامٍ فوا حسرةً على الجمع منهم أو التثنيه
وأصبحت في بلدةٍ أهلها سباع لأهل النهى مؤذيه
تعوضت منها بأرض أرى أفاعيل أربابها ملهيه

وكان من اهل سرقسطة فاضطر الى الضرب في آفاق مدن الأندلس . وقد تكسب بالشعر زمناً ، لكنه لم يطب له المقام في مدن اندلسية كثيرة . فدعاه ذلك الى

---

(١) ديوانه ق ٢١ ص ٦٨ ـ ٧٠

(٢) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٥٩

هجائها ، لامر نجهله ... مما يجعل شعوره بالغربة والحنين الى الوطن ذا أبعاد خاصة ، فقد جعل الناس اوغاداً تعتمر دوراً ، وشكا الفاقه .[١]

الى ايـــن الـــفرار ولا فرار ومــن لــي بالــقرار ولا قرار
ارى الأوغاذ يــعــتــمرون دوراً ومالـــــــي في بلاد الله دار
بلاد عريـــت مــن كــل خــير فمـلبـس أهـلـها مـقـت وعار
غـلـطـت فزرتـها فرأيـت قوماً مـنازلـهـم وإن عـمرت قـفار

وقد بلغت به الرحلة اشبونة ايام اقامة ابن بسام بها فالتقى به وانعقد الود بينهما ونلقاه في ثالثة ، بعد أن قصد قلمرية ، وكان اذفونش قد أخضعها لسلطانه[٢]

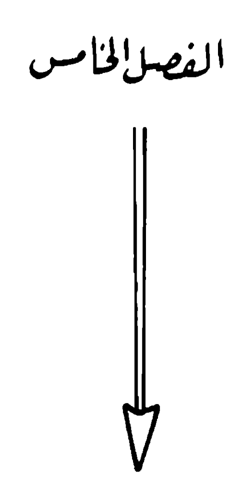
قـلـقـت وحـق بأن يـقـلـقا مـصون غدا غرضاً لـلـشـقا
وردت قـلـمريةً طامـعاً فـلـم ألـف براً ولا مرفـقاً
إذا الـــشوق مر على خاطري شرقـــتُ وحــق بأن أشرقا
أأحــبابــنا هــل لــنا رجــعةٌ وهـل لـي بـكـم أبداً مـلـتـقى

---

(٢) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٦١

(٢) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٦٠

الفصل الخامس



أَثَرُ الأَدَبِ الأندَلسِيّ فِي الآدابِ الأورُبيّة

اثر الادب الأندلسي في الآداب الاوربية :

بات من المؤكد أن الأدب العربي في الاندلس كان رافداً من الروافد التي صبت في الأدب الاسباني بوجه خاص وفي الآداب الأوربية بشكل عام ، ولم يكن الأدب سوى فرع من فروع الشجرة الكبيرة التي نمت في الأندلس وآتت ثمارها المتنوعة في ميادين المعرفة كافة . ولم يترك التقدم الحضاري الذي أحرزته الأندلس آثاره في الثقافة العامة في شبه الجزيرة الايبرية بل تجاوزها الى دول أوربية أخرى .

يقرر اكثر الدارسين أن الأندلس وصقلية كانتا أوسع منفذين وبابين ، انتقلت عنهما ضروب المعرفة والثقافة الى أوربة في القرون الوسطى ولقد أستمر هذا التأثير قروناً طويلة ولم يعد المراء مجدياً في انكار هذا الفضل واليد البيضاء التي اسدتها الحضارة العربية فقد أقر بهذا التأثير جل المتخصصين في دراسة الحضارة الأندلسية وآدابها ، ان لم يكن جميعهم وذهبت دراسات أخرى الى تبيين أثر الشخصية العربية وملامحها في المجتمع الاسباني الحديث[1] .

وكان من أثر هذا الانفتاح على الحضارة الأوربية أقبال المتنورين من علماء أوربة على الثقافة العربية بكل ضروبها وانكبابهم عليها بنَهم وشغف شديدين ، ولم يكن نقل هذه الحضارة ليتم بين عشيه او ضحاها ، فقد ظلت ترجمة كتبهم المصدر الوحيد للتدريس في جامعات اوربة خمسة او ستة قرون فيما يذكره غرستاف لوبون [2] .

ومن الخطأ أن نتصور أن تأثير الحضارة العربية في الحضارة الاوربية اقترن بسنوات سيادة دولة المسلمين في الاندلس ، إذ أن هذا التأثير لم ينته بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧ بل استمر بعد ذلك ممثلاً في المورسيكين ، ومن هنا يرى الباحثون أن وجودهم استمر ماثلاً محسوساً طيلة تسعة قرون على الأقل ، وهو مدة كافية لكي يترك العرب في الشعبين الاسباني والبرتغالي من رواسب حضارتهم مالا يزال سمة واضحة لهما حتى اليوم[3] .

واما الوجود العربي في جزيرة صقلية فقد استمر حوالي ثلاثة قرون بعدافتتاحها (٢١٢ ـ ٤٨٤ هـ) ولم يكن دورها أقل من شقيقتها ـ الاندلس ـ في الاشعاع

---

(١) ينظر ماكتبه د . عادل البكري ، الملامح العربية في المجتمع الاسباني الحديث ، مجلة الاقلام ٦ / ٥٩ ـ ٦٨ بغداد

(٢) حضارة العرب ٥٦٩ (ترجمة عادل زعيتر) القاهرة ١٩٦٤

(٣) اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ٢٧

الحضاري ، وكان أثرها في الآداب مباشراً في ايطالية مما أدى الى ابتكار الشعر الوطني حيث بدأت العناية بقرض الشعر مما أدى الى نهوض الشعر الايطالي [1]

حتى انه لقد اضطرت مدينة « جنوه » ان تؤسس مدرسة لتعليم اللغة العربية سنة ١٢٠٧ ، يدل على ذلك وجود كلمات عربية في لغة هذه المدينة ، وفي جميع اللغات العامية في جميع المدن الايطالية التي كانت تتجر مع الشرق وصقلية ..

لقد أثبت أمارى المواطن الصقلي أن صقلية مدينة للعرب بحضارتها ، كما أن ايطاليا مدينة لصقلية باقتباس معالم الحضارة العربية[2].

وفي الاتجاه الأدبي يرى الاستاذ جلال مظهر ان شواهد التاريخ قد دلت بوضوح انه لم ينشأ مثل هذا الأدب في اي جزء من أجزاء اوربة . فيما عدا اسبانية وصقلية بطبيعة الحال[3].

لقد كرست دراسات كثيرة لتتبع اثار الحضارة الاندلسية على اوربة ، ومن هذه الدراسات التي تتبعت جذور التأثيرات وابعادها ، الدراسية القيمة التي أشترك في تأليفها مجموعة من المتخصصين بعنوان اثر العرب والاسلام في النهضة الأوربية[4]، ومن فصول الكتاب التي تهمنا ماكتبه الدكتور محمود علي مكي والدكتورة سهير القلماوي عن التأثيرات في مجال الأدب ، وكتاب الدكتور جلال مظهر ، أثر العرب في الحضارة الأوربية ، وكتابان للاستاذ محمد مفيد الشوباشي بعنواني العرب والحضارة الاوربية[5]، ورحلة الادب العربي الى اوربا[6]. وكتاب شمس العرب تسطع على المغرب للمستشرقة الالمانية زيغرد هونكة .

لقد مضت مراحل التأثير في الحضارة العربية في ثلاثة أشواط هي[7]:

---

(١) اثر العلماء المسلمين في الحضارة الاوربية ، احمد علي الملا ص ١٢٤

(٢) نفسه ١٢٤

(٣) العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٥٥ ط (منشورات دار الرائد ـ بيروت ١٩٦٧)

(٤) اشرف على اعداد هذه الدراسة مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠) .

(٥) صدر ضمن سلسلة المكتبة الثقافية رقم ٤٣ ، القاهرة ١٩٦١

(٦) سلسلة مكتبة الدراسات الادبية رقم ٤٧ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨

(٧) تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ص ٤٧٤ ـ ٤٨٧ .

عصر التأثير غير المباشر ، وعصر الترجمة من العربية الى اللاتينية ، وعصر الاستعراب قمة التأثير العربي .

ويتمثل في العصر الاول تأثير الأندلس في الحضارة الأوربية عن طريق البعثات العلمية التي كانت تفد اليها في عصور متقدمة حيث وفد الراهب الفرنسي جربرت دي اورياك في عهد الحكم المستنصر ، وأصبح فيما بعد بابا روما ، وكان له دوره البارز في نشر علوم العرب

وقد تتابعت البعثات الاوربية على الأندلس بشكل متواتر وزادت اعداد الوافدين عليها حتى بلغت سنة ٣١٢ زهاء سبعمائة طالب وطالبة وكان بعض هذه البعثات يضم عدد من الطالبات على نحو ما حصل حين أوفد ملك ولز بعثة برئاسة ابن أخيه تضم ثماني عشرة فتاة من بنات الأشراف والأعيان .

ويشير أحد الدارسين الى بعثة كان قوامها مئتين وخمسة عشر طالباً وطالبة قدمت الى الأندلس فصادف لدى ثمانية من أفرادها الاعجاب بالدين الاسلامي حيث اعتنقوه واقاموا مدة حياتهم في الأندلس ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن من رجال الأندلس وانجبن عدداً من العلماء منهم عباس بن فرناس[١] .

واما العصر الثاني فيتمثل في معهد الترجمة الذي أسسه مطران طليطلة ريموندو ١١٢٦ ـ ١١٥٢ م ويعد من كبار مترجمي عصره ، واستمرت حركة الترجمة في القرن السابع الهجري مقرونة بشخصية الفونسو العاشر الملقب بالعالم (٦٥٠ ـ ٦٨١) حيث انتشرت حركة ترجمة الكتب من العربية ولم تقتصر على كتب العرب انفسهم بل كتب الأمم الأخرى التي ترجمت الى العربية .

واما العصر الأخير فيمثل القرون الثلاثة الأخيرة من السيادة العربية في الأندلس وقد اتصف هذا العصر بـ « القبول الأعمى لكل ما هو عربي والنظر اليه بوصفة الحجة النهائية[٢] » .

سنتوقف وقفة متأنية لتبين مجالات التأثير في الحضارة الاوربية ـ فيما يعنينا ـ في ثلاثة اتجاهات :

---

(١) اوربا ترسل بعثاتها الى الاندلس ص ٩٠ سليم طه التكريتي مجلة الوعي الاسلامي العدد ٣٧ ، الكويت ١٩٦٨ ، تاريخ العرب وحضارتهم ٤٧٦

(٢) تاريخ العرب وحضارتهم ٤٧٩ .

١ ـ اثر اللغة العربية في اللغة الاسبانية .
٢ ـ اثر الشعر الأندلسي في الشعر الغنائي الاوربي .
٣ ـ اثر القصة العربية في القصة الاوربية .

ان كل اتجاه من هذه الاتجاهات اختصته دراسات الباحثين بالعناية والدرس ولا سيما بعد أن ازداد اهتمام العرب بدراسة تراثهم والتعرف على ابعاد تأثيره في الآداب العالمية .. فضلاً عن دراسات الغربيين أنفسهم التي نظرت الى هذه القضية على انها جزء من تاريخها الأدبي .. فكان الموقف بعيداً عن روح التعصب والانحياز قريباً من الموضوعية والنزاهة العلمية ، مما حدا بالكثيرين الى عدم انكار هذه الظواهر ، وعدم التردد في الأقرار بفضل الأدب الأندلسي .. وتتبع هذه التأثيرات خطوة فخطوة .

ومن أقدم المحاولات لرصد آثار اللغة العربية في اللغتين الاسبانية والبرتغالية ما قام به فرانشيسكو مارينا حين أحصى الألفاظ القشتالية ذات الاصل العربي المختصر وذلك سنة ١٨٠٥ يليه المعجم اللغوي الذي اعده دوزي وانجلمان بعنوان « معجم الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية » وصدرت الطبعة الاولى منه سنة ١٨٦١ ، والف ايكيلاث « معجم اشتقاقي للكلمات الاسبانية ذات الأصول الشرقية » غرناطة ١٨٨٦ .

وتتابعت المؤلفات في هذا الاتجاه على نحو ما يحصيه الدكتور حكمت الأوسي في بحثه عن التأثير العربي في الثقافة الاسبانية[١] . فيشير الى بحوث تناولت الالفاظ العربية الاسبانية والبرتغالية وبعض اللغات الأوربية الأخرى ومن الدراسات التفصيلية التي كتبت مبكراً دراسة المستشرق ليفي بروفنسال[٢] عن أثر العربية في اللغة الأسبانية وهو في اصله محاضرة القاها في الجامعة المصرية سنة ١٩٣٨ ويقرر فيها ان اللغة الأسبانية وجدت نفسها مضطرة على ان تأخذ من اللغة العربية لتستطيع التعبير عن المفاهيم الجديدة ، وبخاصة في مجال المؤسسات والنظم والحياة الخاصة . والبرهنة على هذا غنية بالشواهد الواضحة على نحو فريد ، فمن تلك الالفاظ التي ما تزال مستخدمة في اللغة الاسبانية في التنظيمات العسكرية ، الفارس **(ALFerez)** على رتبة الملازم ، و « الطليعة » **(Atalaya)** على مقدمة الجيش و « الساقة » **(Zaga)** على مؤخرته .. وغيرها .

---

(١) التأثير العربي في الثقافة الاسبانية ، سلسلة الموسوعة الصغيرة « ١٥٢ » ص ٥٧ وما بعدها
(٢) الحضارة العربية في اسبانيا ١١٥

ومازالت المفردات المتصلة بالتحصين تحتفظ الى الآن بنفس المعنى الذي كانت عليه فى العصر الاسلامي .

وبعد أن يعدد ألفاظاً كثيرة في هذا الاتجاه يقول :

« سوف تطول بنا الرحلة بعيداً وربما أدى بنا الإسهاب الى الملل اذا حاولنا ان نستقصي المفردات التي دخلت لغة الحياة اليومية ومن ثم سوف نقتصر هنا على الاشارة الى الانواع المتعلقة بمعاني الكلمات »[١] ومن امثلة ذلك اسماء الامكنة التي لما تزل قائمة حتى وقتنا هذا والالفاظ الزراعية في لغة الفلاحين الصميمة ، وفي هذا المقاييس والموازيين وصيد البحر ومعاجم النبات . ويتجاوز الامر ذلك الى الالفاظ الحضارية المتصلة بحياة الترف والرخاء . فقد استخدموا الفاظاً عربية خاصة بقص الشعر وتسريحه ، والملابس والأحذية ، « فملابس السيدان المسيحيات تزدان من قبل أن تسقط اسبانيا الاسلامية حتى بعد ان استردها المسيحيون على حد سواء ، بأروع وأغلى الملابس العراقية وكانت تحمل احياناً اسمهاالعربي نفسه فيقال الجبة (algu bas) والدراعة (adorras) وهي جبة ذات ازرار واللحاف (allihafes) وهو المعطف من الفراء والمبطنة والقماش المقصب (alrexl)

والنسيج الحريري (الطراز) (altiraz)

ويشير المستشرق مونتكمري واط[٢] على نحو تفصيلي الى أبعاد التأثير اللغوي للعربية في فنون الملاحة والمنتوجات الزراعية والمعادن وفي ضروب حياة الترف فيؤكد أن اكثر أسماء الالات الموسيقية من اصل عربي مثل العود(Lude) والقيثارة (guitar) والربابة (rebec) والنقّارة (naker) مما يشير الى أن هذه الالات دخلت اوربة بوساطة العرب ، وهو ما يؤكده الدكتور عبدالرحمن الحجي في دراسته عن الموسيقى الأندلسية[٣].

ومن الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة كذلك ما كتبه الدكتور لطفي عبدالبديع حيث قدم احصاءً مماثلاً لسالفيه يقرر معه ان رحلةً في عالم الالفاظ لكفيلة بأن يقف منها المرء على تغلغل اللغة العربية في مناطق الحياة بشبه الجزيرة

---

(١) نفسه ١١٧

(٢) تأثير الاسلام على اوربا في العصور الوسطى ص ٤٢ .

(٣) تاريخ الموسيقى الأندلسية ص ١١١ ط دار الارشاد بيروت .

الايبرية[1] . ولايفوتنا ان ننوه ببحث المستشرق الامريكي وليم اليوت الذي كرّسه لتتبع بعض تأثيرات العربية في الاسبانية الحديثة[2] .

ومع هذا التداخل بين اللغة العربية واللغتين الاسبانية والبرتغالية يقرر عباس محمود العقاد[3]. ان هذه المفردات تملأ معجماً غير صغير . ولكنه يرى أن العبرة ليست بدخولها في صفحات المعاجم ولكن بدخولها في الحياة الاجتماعية والمقاصد النفسية لانها لم تتمثل على الألسنة الا بعد ان تمثلت في احوال ونوازع الاحساس والتفكير .

ويؤكد هذه الفكرة الدكتور حكمت الأوسي حين يجد أن التأثيرات العربية لا تقتصر على بقايا آثارنا او اطلالها هنالك وانما هي ظاهرة شائعة في اخلاق القوم وطباعهم وعاداتهم بل حتى في دمائهم وسحنائهم[4]. ويقرر انه على الرغم من القوانين التي صدرت بتحريم استعمال الالفاظ العربية في الاسبانية فانه لايزال اليوم اكثر من سبعة عشر بالمائة من مفرداتها عربي الاصل وهو يشكل اكثر من أربعة الاف كلمة .

ومن التأثيرات العربية الواضحة استخدام صوتي الخاء والثاء . فالاسبانية هي الوحيدة التي تستخدمهما بين اللغات اللاتينية . وكذلك استخدام (ال) التعريف التي دخلت كثيراً من الكلمات .

الاسبانية حتى ان بعض الدارسين قرر ان كل كلمة اسبانية تبدأ بهذين الحرفين Al هي عربية الاصل[5].

والحق اننا نستطيع ان نعد بحث استاذنا الدكتور الأوسي احد البحوث المتفردة في تتبع واستقصاء الظاهرة اللغوية الناجمة عن تأثيرات العربية فقد رصد تركيبات وصيغاً لغوية ترجمت حرفياً عن العربية ومثل هذه الأساليب والتعابير ـ في رأيه ـ حرية بالدراسة ولذلك قام بمحاولة لجمع هذه التعابير فاجتمع لديه منها حوالي أربعين تعبيراً . يسوق بين يدي كلامه امثلة من هذه التعابير التي يجد ما يناظرها في عاميتنا العراقية ثم يتأول هذه الظاهرة ويعللها .. وقد اتيح للدكتور

---

(١) الاسلام في اسبانيا ١١٢ .

(٢) مجلة آداب الرافدين العدد ٩ الموصل ١٩٧٨

(٣) اثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٦٨ (دار المعارف بمصر ١٩٤٦) .

(٤) فصول في الأدب الاندلسي ١٤٦ .

(٥) نفسه : ١٤٨

الأوسي بوصفه عراقياً أن يرصد الظواهر ذات الصلة بالبيئة العراقية لغة وامثالاً وعادات ... بعد أن أقام في مدن اسبانية حقبة من الزمن[١] .

ومن الأمثلة الطريفة التي يسوقها في بحثه ما يرويه عن شيخ اسباني هو فرانشيسكو ديسكالث انه كان يعيش عيشة العرب ، يحتفل بالمناسبات التي يحتفلون بها ويغني أغاني عربية ، ويحث جيرانه على صيام رمضان ، ويقال انه كان يتجول من مكان الى آخر وهو يعزف على عوده وبرفقته شخص يساعده ويشترك معه في الغناء والضرب على الدف . وكانا يغنيان اغنيات يذكرون فيها اسم « محمد » صلى الله عليه وسلم . وكانا مولعين خاصة بان يغنيا باللغة العربية بهذا المعنى : « ايها الناس صوموا في هذا الشهر المبارك كما اعتدتم أن تفعلوا لكي تكسبوا الجنة »[٢] ويشير أحد الباحثين الى وجوه اخرى من ظواهر التأثر بالمجتمع العربي في الأندلس هو الدكتور عبد الرحمن الحجي فيذكر أن الأسبان تبنوا عن طواعية بعض العادات الاسلامية ، كالختان ، وتوقفوا أحياناً عن اكل لحم الخنزير ، كما اتخذوا العربية لغة اخرى ، وتسموا بالاسماء الاسلامية الى غير ذلك .[٣]

٢ ـ اثر الشعر الأندلسي في الشعر الغنائي الأوربي :

تتوقف الدراسات المقارنة عند ابعاد التاثير الذي تركه الأدب الاندلسي من حيث الشكل والمضمون في الاداب الأوربية . وفي مقدمتها الادب الفرنسي والاسباني ...

وكما تعترف الدراسات بفكرة التأثير بسبب الصلات الحضارية التي كانت بين العرب والاوربيين فاننا نجد من الصعوبة ان نتتبع مجالات تأثير الادب ، لاسيما ان هناك مجالات شائعة ليس من السهل أن تحدد . ولكنها دالة بطبيعتها على العطاء العربي[٤].

ومن اقدم الاصوات الاوربية التي ارتفعت بحقيقة التأثير ما ذكره العلامة الايطالي G.M.Barbieri منذ القرن السادس عشر الميلادي[٢] . ثم أكد الفكرة الأب

---

(١) نفسه ١٦٢

(٢) نفسه ١٦٢

(٣) تاريخ الموسيقى الاندلسية ، ١١٢

(٤) اثر العرب والاسلام ٢٤

(٥) اثر الشعر الاندلسي في شعر التروبادور ـ عباسة محمد ص ١٨٩

الأسباني خوان اندريس حين نشر كتاباً بالايطالية في سبعة مجلدات بعنوان « اصول كل الآداب وتطورهاواحوالها الرهنة (بارما ١٧٨٢ ـ ١٧٩٩) واعاد نشره في روما في ثماني مجلدات بين سنتي (١٨٠٨ ـ١٨١٧) وفحوى الكتاب ان النهضة التي قامت في اوربة في كل ميادين العلوم والفنون والآداب . والصناعات انما كانت بفضل ما ورثته عن حضارة العرب . ونظرته هذه كانت اشبه بالهام عبقري[١] .. وقد رأى كذلك : « ان الشعر الأسباني انما نشأ أول مرة . تقليداً لشعر العرب وان اختلاط النصارى والمسلمين كان من الطبيعي أن يدفع الأول الى تقليد الآخرين »[٢].

ويقرر الاستاذ محمد مفيد الشوباشي ان تأثير الأدب الأندلسي لم يكن عابراً او سطحياً بحيث يمسها مساً عابراً او سطحياً بل انه يجد فيها نهضة ادبية كبيرة غيرت من واقع حاله كما غيرت مضامينه وصوره بعد ان كان اغريقي الموضوع لاتيني اللغة منعزلاً عن الجماهير .. ثم اتصل بالجماهير .. بعد أن كتب بلغاتهم الوطنية وكان هذا التحول بسبب اتصاله بالادب العربي . ولم يكن من السهل تبدل تلك الحال الا بهبوب نسمات منعشة من ادب متجدد الالوان . فقد امد الادب العربي اوربة الغربية بالنماذج الأدبية التي كانت تحتاج اليها . وحول أدبها الى اتجاهات جديدة كانت السبب في انطلاقه قدماً في طريق السمو الفني[٣] وهكذا طلعت من اسبانية وايطالية خلال القرن الثاني عشر بشائر نتاج أدبي كتب بلغتيهما . وتضمن لوناً جديداً من الافكار والمعاني[٤] ..

ويؤكد الباحثون على تأثير الشعر العربي في بواكير الشعر الغنائي الاوربي . وقد كانت الخطوة الاولى في هذا الطريق الدهشة التي أصيب بها الدارسون حين فوجئوا بظهور شعرالتروبادور في اوائل القرن الثاني عشر الميلادي دون أن يعرفوا له جذوراً اوربية فقال دبينيز : « بما ان هذا الشعر يختلف عن بقية الاشعار الاخرى والسرعة التي تطور بها فهو يشبه الجن الساحرة التي تظهر فجأة من تحت خاتم أحد السحارين) وقال بيزولا « ان الادب الكورتوازي الفرنسي والبروفنسي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي وبداية الثاني عشر يظهر وكأنه خرج من العدم .

---

(١) اثر العرب والاسلام ٤١ . فصول في الادب الاندلسي ١٥١ . التأثير العربي في الثقافة الاسبانية ٣٢

(٢) العرب والحضارة الاوربية ص ٣٢

(٣) نفسه : ٢١

ويتعجب فوريان من هذا الشعر الغنائي العاطفي الذي لامثيل له في تاريخ الشعر الاوربي .

اما المستشرق بريفو فيرى ان اوربة مدينة في كل شيء الى العالم الاسلامي وان في ادبها متأثرة بالشعر الاندلسي لاسيما في اغراضه الجديدة كموضوع الالبا واغنية الربيع اذ ليس هناك . اي شعر اوربي . شعبي وغير شعبي . فرنسي او اجنبي يشهد ولو من بعيد بأي تشابه للشعرالبروفنسي اللاحق للشعر الاندلسي

لم تكن هذه الدعوة ميسورة الوقع على الباحثين المعاصرين للاسباني خوان اندريس بل كان رد الفعل بينهم عنيفا ولم تلق دعوته تجاوباً حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث تجددت الفكرة والاهتمام بمسألة تأثير الشعر الغنائي في الشعر الاوربي فكان ممن وقف عندها : همربور جشتال . وتابعه الالماني فون شاك

واذ يستعرض الدكتور محمود على مكي[٢] هذه الآراء يجعل سنة ١٩١٢ سنة حاسمة في هذه القضية حيث خرج ريبيرا بنظريته الجديدة التي تشير الى وجود شعر غنائي مكتوب باللاتينية الدارجة في الاندلس الاسلامية » وكانت هذه النظرية ثورة عارمة احدثت دوياً هائلًا فيما يتصل بمولد الشعر الاوربي الغنائي حيث وجد ريبيرا ان الشعراء البروفنسيين والتروبادور لم يفعلوا اكثر من تقليد نماذج الوشاحين والزجالين الذين سبقوهم بقرنين على اقل تقدير .

وجاء المستشرق الجشيكي نيكل سنة ١٩٣٣ ليعزز نظرية ريبيرا حين نشر ديوان ابن قزمان ودرس الشعر الغنائي على جانبي جبال البرتات . ويمضي الدكتور محمود على مكي في تتبع أنصار هذه النظرية فيذكر ثالثاً هو المستشرق الاسباني بيدال في كتابه الشعر العربي والشعر الاوربي ١٩٣٨ ثم المستشرق الانكليزي شتيرن في بحثه الخرجات الاسبانية في الموشحات العبرية ويتوج هذه الجهود غرسيه غومس حين يكتشف مخطوطاً نفيساً لابن بشري الغرناطي يتضمن اربعاً وعشرين خرجة باللاتينية الدارجة .

واذ يتفق مؤرخو الآداب الاوربية بأن شعر شعراء التروبادور واولهم جيوم التاسع دوق ايكتيانيا وكونت بواتييه (١٠٧١ ـ ١١٢٧ م) ثم سير كامون وماركابرو ـ وبيرد

---

(١) تنظر هذه الاراء وامثالها في رسالة اثر الشعر الاندلسي في شعر التروبادور . عباسة محمد . جامعة بغداد ١٩٨٢

(٢) اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٤١ ـ ٤٤

الفتي وجوفر روديل تمثل اقدم شعر غنائي عرف في اوربا ، حتى اكتشاف الخرجات في الموشحات الاندلسية ، حيث تتبين اواصر الشعر الغنائي بين الادبين العربي والاوربي ويكون جيوم التاسع حلقة الوصل بين التوشيح الاندلسي والشعر الاندلسي والشعر الغنائي في اوربة وتتوثق هذه الصلات والوشائج بين الادبين بالشعراء الآخرين .[١]

وقد قطعت الدراسات الاوربية المتصلة بهذا الموضوع شوطاً بعيداً ثم اعقبتها دراسات لباحثين عرب في مقدمتها دراسة الباحث الجزائري عباسة محمد تناول الباحث فيها الموشحات والأزجال في نشأتها وخصائصها ، واختص التروبادور واوائل شعرائه وخصائصه من حيث الشكل في بناء القصيدة واوزرانها وقافيتها ولغتها ومضمون هذا الشعر في معانيه المرتبطة بشعر الموشحات مثل الكورتوازية والقصيدة الغزلية والالبا (اغنية الفجر) والباستوريلا وشعر الرثاء والشعر الديني وغيرها مما اوقفنا على مظاهر تأثره بالشعر الأندلسي .

وقد وقف عباسة عند عوامل التأثير والتأثر وجاء في قسمين تناول في الاول الشكل الفني لقصيدة التروبادور وفي الثاني موضوعاتها .

ولا بد أن نشيد بجهد الباحث الذي يبدو واضحاً في أنه كرس محاولته في هذا الموضوع مستفيداً فائدة كبيرة من مصادره الاجنبية التي جاوزت الثمانين معتمداً في رصد الظاهرة على نصوص تطبيقية .

واما محاولة الدكتور عبد الاله ميسوم الباحث الجزائري ايضاً فتتجلى في كتابه الموسوم تأثير الموشحات في التروبادور وهي محاولة تسبق جهد زميله المتقدم ، بعدة سنوات[٢] فهي تصب في معين واحد وتتجلى هذه الحقيقة من خلال ابوابها الاربع التي تناول فيها ظهور الموشحات في الثقافة الأندلسية ، وعوامل تأثير الاندلس في جنوب فرنسا ، والتروبادور البروفانسيين ، ثم مظاهر تأثير الموشحات في التروبادور .

ومن الباحثين الاسبان المستشرق الكبير بالنثيا في بحثه الشعر الاندلسي وتأثيره في الشعر الاوربي اعتمد على نصوص شعرية عربية كثيرة لولادة وابن عمار

---

(١) نفسه ٥٣

(٢) ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨١ ، وتشير مقدمة الباحث الى ان الكتاب رسالة علمية انجزت سنة ١٩٧٦

وابن خفاجة وابي بحر التجيبي وابي فرج الجياني وغيرهم ليوضح مجالات التأثير في شعر التروبادور والشعر القطلوني والبرتغالي والايطالي والاسباني[١] .

ويبدو من الغريب حقاً أن يظهر شعر التروبادور في فرنسة قبل ظهوره في اسبانية . ولكن الظروف التي اقترنت بأول شعرائه توضح سر ذلك . اذ انها كانت مختصة بجيوم التاسع اقدم تروبادور من الفرنسيين على نحو ما يوضح ذلك الدكتور سعد شلبي[٢] .

لقد وقف بعض الباحثين موقف الأناة من قضية التأثر بالشعر الأندلسي وذلك بسبب افتقاره الى حجج قاطعة في تعزيز رأيه ومنهم المستشرق الفرنسي بروفنسال وذلك في بحثه عن الشعر العربي في اسبانية وشعر اوربة في العصر الوسيط[٣] . لكن الدراسة الحديثة اقتربت كثيراً من هذه الحجج التي تثير الى اثر عميق في الشعر الاوربي لا ينكره بروفنسال .

أما الاستاذ محمد الفاسي فيعرض لنا اهم الانتقادات الموجهة لتأثير الشعر العربي في الشعر البروفنسالي ومنها ان التروبادور لم يكونوا يحسنون العربية فكيف تأثروا بشعرها وان اشعار ابن قزمان ومواضيعه بعيدة عن الحب السامي الذي نراه عند التروبادور ويرد الباحث الاعتراضين بحجج تقوي وجهة النظر القائلة بتأثير الشعر العربي في الاوربي[٤] .

وقد وقفت هذه الدراسات على معنى لفظة التروبادور حيث نجد انها في اصلها مركبة من كلمتين كلمة تروب ومعناها فرقة والمقصود فرقة غنائية وتدور وهي عربية واضحة المعنى فالتروبادور فرقة من الشعراء المنشدين تدور في البلاد لتنشد شعرها[٥] .

---

(١) دراسات اندلسية ، د ـ طاهر احمد مكي ص ١٩٢ ـ ٢٢٤ والبحث في اصله محاضرة القاها بالنشيا في المعهد الاسباني التابع لجامعة كولومبيا في نيويورك ونشرت في المجلة الاسبانية الحديثة العدد الثاني يناير ٩٢٥ .

(٢) دراسات ادبية في الشعر الاندلسي ١١٨ .

(٣) الاسلام في المغرب والاندلس ص ٣٠٢ . والبحث في اصله محاضرة القاها سنة ١٩٤٨ .

(٤) تأثير الشعر العربي بالاندلس في الآداب الغربية مجلة المناهل المغربية العدد ٢٠ مارس ١٩٨١ .

(٥) العرب والحضارة الاوربية ١٠٤ .

ويرى آخرون ان اصل الكلمة (دور طرب) ثم قلب الى (طرب دور) تمشياً مع اوضاع بعض اللغات الاوربية في وضع الصفة قبل الموصوف والمضاف اليه قبل المضاف فأصبح تروبادور[١].

ولعله من الطريف ان نجد احد الباحثين العرب ينحو في البحث منحاً جديداً فيكتب بحثاً ليخلص منه الى القطع ـ فيما يرى ـ بأن شعر التروبادور لم يتأثر بمفهوم الحب الذي تصوره الموشحات والازجال برغم ما قد يبدو بين المفهومين من تشابه جزئي طفيف[٢]

ومن المصادر الاندلسية التي اثرت في شعراء التروبادور كتاب طوق الحمامة[٣].

٣ اثر القصة العربية في القصة الاوربية :

يأتي الوجه الثالث لتأثير الادب الاندلسي، في اثر القصص العربي في نظيره الاوربي، وهو فضل يضارع فضل شعرهم ـ كما يرى الاستاذ الشوباشي. معللاً، فكلاهما تعاون على تحقيق نهضتها الأدبية التي قام عليها صرح رقيها الحضاري.

ومن المستشرقين الذين قالوا بهذا التأثير المستشرق رينان وذلك حيث يقول : « من المسلم به عموماً ان اوربا استوردت من العالم الاسلامي قصصه ورواياته وحكمه وأمثاله »[٤] كما يقول جاستون بارى : « ترجم عدد من القصص العربية الى الفرنسية والالمانية والايطالية والانجليزية وغيرها من اللغات الاوربية، وتولدت منها سلسلة طويلة من الروايات بل هناك مجموعة كاملة من قصص عربية الأصل انتقلت الى اوربة بفضل « بوكاشيو » وغيره من الكتاب الايطاليين.

ويشير بارى الى القصص الفرنسية المشهورة التي نبعت مباشرة من أصل عربي منها قصة « فلوارو بلانشفلور » وقصة « اوكاسين » و « نيكوليت » و « وصية

---

(١) تاريخ الموسيقى الاندلسية ١٣٢.

(٢) صلة الموشحات والازجال بشعر التروبادور ١٤٢.

(٣) دراسات عن ابن حزم ٢٤٢.

(٤) رحلة الادب العربي الى اوربة ١٢٥، وهو الذي انكر وجود اية صلة بين الشعر الاوربي والشعر العربي.

(٥) الادب الفرنسي في القرون الوسطى ١١٩، نقلا عن رحلة الادب العربي الى اوربة ١٢٦.

كلب » و « الليلة الطويلة » و « الطبيب الشرير » واقتبس موليير عن القصة الاخيرة مسرحيته « طبيب برغم انفه »[١].

ولذلك فأن هذا اللون من الادب انتشر على نطاق واسع الى حد ان دراسته تحتاج الى بحث كامل يخصص لها[٢] ويرى مثل هذا الرأي الدكتور سعد شلبي[٣].

وعلى ان الدراسات تؤكد على المصدر الشرقي في انتقال تأثيرات القصة العربية الى أوربة فأن دور الأندلس لم يكن أقل من صنوه المشرق العربي ، ان اي دراسة لتاريخ القصة في اوربة لا يمكن ان تهمل الجذور العربية التي تأثرت بها حين ظهرت قصص ذات طابع شعبي متأثرة بالقصص الشعبي في الأدب العربي واحدثت انقلاباً في فنون الأدب لدى غرب اوربة التي اقتصرت على القصص الخرافية والملاحم الاسطورية وذلك بعد ان غزت الحضارة الأندلسية أوربة وخطفت انظار امراء الجنوب الفرنسي وخلبت البابهم واشعرتهم بتأخرهم فكان تأثرهم بفن القصة صورة لاحتذائهم العرب في كل حركة وسكنة وفي كل مظهر ومخبر[٤].

واذا كان الأمر كذلك فان الباحثين يتتبعون مصادر النهضة القصصية في الأدب الاوربي بعد أن نسي التراث القصصي القديم الاغريقي واللاتيني ، خلال العصور الوسطى .

أنَ اول مجموعة قصصية كتبت باللاتينية هي (محاضرات الفقهاء)[٥] أو (أدب العلماء)[٦] التي الفها اليهودي المتنصر بدرو الفونسو . وقد الفها اوائل القرن الثاني عشر لكنها لم تنشر حتى سنة ١٨٢٤ كان ذلك في باريس ثم تعاقبت طبعاتها اللاتينية ، وتتضمن هذه المجموعة ثلاثين قصة شرقية عربية . نص على ذلك لأنه كان واثقاً من انهم لن يمتعضوا او يتضجروا لهذا النقل . والمجموعة القصصية تصدر عن رجل على فراش الموت اطلق عليه اسم العربي يوصي ابناً له ويعظه ولذلك تأتي القصص ذات نكهة عربية[٧].

---

(١) الادب الفرنسي في القرون الوسطى ٢٣٢ نقلاً عن رحلة الادب ، ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٣) دراسات ادبية في الشعر الاندلسي ١١٣ .

(٤) رحلة الادب ٢٤٠ .

(٥) اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٧٠ .

(٦) الاسلام في اسبانية ١٣٥ .

(٧) نفسه ٧١ .

وتؤكد الدراسات في هذا الخصوص على ان مصادر القصص التي، تركت آثارها في الأدب الاوربي هي ثلاثة . المجموعة الاولى من اصل شرقي انتقلت الى الاداب الاوربية بعد ترجمتها عن العربية وهي ثلاث قصص مشهورة ذات اصول هندية هي (كليلة ودمنة) وقصة (السندباد) والقصة الصوفية (برلعام ويواصف) . وقد استوحى لافونتين مجموعة خرافاته المنشورة ١٦٧٨ م من قصص كليلة ودمنة وقام كاتبان ايطاليان بتقليد هذه القصص وهما فيرنزولا والدوني .

أما قصة السندباد فقد نقلت الى القشتالية سنة ١٢٥٣ م تحت عنوان مكايد النساء وحيلهن وهذه القصة ترد في كتاب الف ليلة وليلة كذلك . ولعل اهم اثر تركته هذه القصص يبدو واضحاً في مجموعة بوكاتشيو (الليالي العشر) [١] أو (الصباحات العشرة) [٢] .

واما القصة الصوفية فقد كانت اكثر ذيوعاً في اللغات الاوربية فضلاً عن الاسبانية حيث اصبحت اساساً لقصص رايموند لوليو الميورقي (الكافر والعلماء الثلاثة) ومجموعة خوان مانويل (كتاب الاحوال) وقصة بوكانشو « الخوانم الثلاثة » وغيرها .

أما المصدر الثاني في هذا المجال فالمقامات اذ تبدو آثارها في القصص البيكارسيكي والمقصود به قصص الشطارة ويوجز خصائص هذا الأدب احد الباحثين بست نقاط ثم يخلص الى انها تطابق المقامات العربية تطابقاً كبيراً يقرر ما قال به الاسبان من تأثر هذا الادب بالمقامات على الرغم من وجود فارق بين الادبين يتصل بتطورهما [٣].

وتأتي قصة حي بن يقظان لتكون المصدر الثالث . وقد الفها ابن طفيل سنة ٥٨١ هـ . وكانت قد ترجمت سنة ١٨٦١ الى اللاتينية ثم بعدها الى اللغات الاوربية الحديثة . وتأثيرها واضح في قصة (روبنسون كروزو التي الفها دانيل دي فو [٤] .

وممن درس آثار هذه القصة على الأدب الاوربي الدكتور محمد رجب البيومي في الفصل الذي وسمه : الاندلس معبر القصة الى اوربة فأشاد بها « وكان طبيعياً ان يتجادل الكاتبون حولها فظهرت مجموعة من البحوث تزن افكارها وتحدد مدى ابتكارها وتجديدها » [٥].

(١) نفسه ٧٩ .

(٢) اثر العرب في الحضارة الاوربية ٦٢ .

(٣) اثر الحضارة ٩٢ .

(٤) الاسلام في اسبانيا ١٣٩

(٥) الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ١٤٦ .

ملحق : دواوين الشعر الاندلسي ومجاميعه

١ ـ ابن بقي القرطبي حياته وشعره (ت ٥٤٠ هـ) د . محمد مجيد السعيد (مجلة المورد ـ بغداد ٧ / ١ / ١٩٧٨)

٢ ـ أبن السيد البطليوس ، حياته ، منهجه في النحو واللغة ، شعره (ت ٥٢١ هـ) د . صاحب أبو جناح ، المورد م ١٤٦ سنة ١٩٧٦ ، تضمن البحث مجموع شعر الشاعر

٣ ـ ابن صارة الاندلسي ، حياته وشعره (ت ٥١٧) د . مصطفى عوض الكريم . ط مصر الخرطوم ١٩٥٨ .

٤ ـ ابن فرج الجياني حياته وشعره (ت ٣٦٦ هـ) نزهة جعفر الموسوي مجلة آداب المستنصرية ١٩٨٨

٥ ـ أبو الحسن الحصري القيرواني (ت ٤٨٨ هـ) . الجيلاني بن الحاج يحيى . ومحمد المرزوقي تونس ١٩٦٣ .

٦ ـ ديوان ابن الآبار البلنسي (ت ٦٥٨ هـ) تحقيق د . عبدالسلام الهرس ، ط الدار التونسية للنشر ١٩٨٥ .

٧ ـ ديوان ابن الجنان الاندلسي (ت ٦٤٨ هـ) تحقيق د . منجد مصطفى بهجت « معد للطبع »

٨ ـ ديوان ابن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧ هـ) تحقيق د . احسان عباس بيروت سنة ١٩٦٠ .

٩ ـ ديوان ابن خاتمة الانصاري (ت ٧٧٠ هـ) تحقيق د . محمد رضوان الداية دمشق سنة ١٩٧٢ .

١٠ ـ ديوان ابن الخطيب التلمساني (ت ٧٧٦ هـ) الصيب والجهام والماضي والكهام . دراسة وتحقيق د . محمد الشريف قاهر . ط الشركة الوطنية الجزائر ١٩٧٣ .

١١ ـ ديوان ابن خفاجة الاندلسي (ت ٥٣٣ هـ) تحقيق د . السيد مصطفى غازي ، الاسكندرية ١٩٦٠ .

١٢ ـ ديوان ابن الخلوف الاندلسي التونسي (ت ٨٩٩ هـ) ط السليمية بيروت ١٩٧٣ .

١٣ ـ ديوان ابن دراج القسطلي (ت٤٢٣ هـ) تحقيق د . محمود علي مكي ط المكتب الاسلامي بيروت ١٩٦١ .

١٤ ـ ديوان ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) تحقيق عبدالرحمن ياغي ، دار الثقافة بيروت ١٩٥٦

١٥ ـ ديوان ابن الزقاق البلنسي (ت ٥٣٠ هـ) تحقيق عفيفة محمد الديراني بيروت سنة ١٩٦٥ .

١٦ ـ ديوان ابن زيدون ورسائله (ت ٤٦٣ ه) شرح وتحقيق د . علي عبدالعظيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٧ ـ ديوان ابن سهل الاندلسي (ت ٦٤٩ هـ) د . احسان عباس ط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٧ م ، أشعار ابن سهل الاسرائيلي ، تحقيق محمد قوبعة ، حوليات الجامعة التونسية العدد ١٩ سنة ١٩٨٠ م .

١٨ ـ ديوان ابن شهيد الاندلس (ت ٤٢٦ هـ) جمعة وحققه يعقوب زكي ط ـ تراثنا ـ القاهرة د . ت ، كذلك بتحقيق د . شارل بيلات دار المكشوف ـ ١٩٦٣ . ولعبد العزيز الساوري استدراك عليه في المورد ـ بغداد ١٩٨٨ .

١٩ ـ ديوان ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) تحقيق محمد رضوان الداية ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٩ وينظر شعر ابن عبدربه .

٢٠ ـ ديوان ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) ط بولاق ١٨٥١ م .

٢١ ـ ديوان ابن هاني الاندلسي ، (ت ٣٦٢ هـ) ، بيروت ١٨٨٦ م
وينظر تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هاني ، زاهد علي ، القاهرة ١٩٣٤ م .
كذلك تحقيق وشرح كرم البستاني ، مكتبة صادر بيروت ١٩٥٢

٢٢ ـ ديوان أبي اسحاق الاليبري (ت ٤٦٠ هـ) تحقيق د . محمد رضوان الدية مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٦ م .

٢٣ ـ ديوان ابي الحسن الششتري ، (ت ٦٥٠ هـ) تحقيق د . علي سامي النشاد ، الاسكندرية لسنة ١٩٥١ م

٢٤ ـ ديوان ابي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) تحقيق . د . احمد مطلوب و د . خديجة الحديثي ط العاني بغداد ١٩٦٩ م . وانظر مجلة دعوة الحق العدد (٣) السنة الاولى

٢٥ ـ ديوان ابي الربيع سليمان بن عبد المؤمن الموحد (ت ٦٠٤ هـ) تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ومحمد بن تاويت التطواني ، وسعيد اعراب ومحمد القباج ، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس الرباط . د . ت

٢٦ ـ ديوان الاعمى التطيلي (ت ٥٤٢ هـ) تحقيق د . احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٣ استدرك عليه د . محمد مجيد السعيد ـ المورد . ٦ / ٢ / ١٩٧٧

٢٧ ـ ديوان الجزار السرقسطي « روضة المحاسن وعمدة المحاسن » (ق ٥ هـ) تحقيق د . منجد مصطفى بهجت ، المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ، ١٩٨٧ .
٢٨ ـ ديوان الحكيم ، أبو امية الصلت بن أبي الصلت الداني (ت ٥٢٩ هـ) جمع وتحقيق وتقديم محمد المرزوقي ط دار الكتب الشرقية تونس ١٩٧٤ .
٢٩ ـ ديوان حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) تحقيق د . عثمان الكعاك سنة ١٩٦٤ .
٣٠ ـ ديوان الرحالة ابن جبير الاندلس ، جمع وتحقيق ودراسة ، د . منجد مصطفى بهجت ، وزارة الاعلام بغداد ١٩٨٧ .
٣١ ـ ديوان الرصافي البلنسي (ت ٥٧٢ هـ) ، جمعه وحققه د . احسان عباس ، بيروت ١٩٦٠ واستدرك عليه محمد بن تاويت الطنجي في مجلة دعوة الحق العدد (١) ١٩٧٧ ص ١٤٠
٣٢ ـ ديوان سعد الدين بن عربي الاندلسي (ت ٦٥٦ هـ) شاعر الحرف والصناعات ، د . محسن جمال الدين ط المورد ٢ / ٢ / ٢٢٠ ـ ٢٢٣ (تعريف بديوان الشاعر)
٣٣ ـ ديوان علي بن عبد الرحمن البلنوبي الصقلي (ق ٥ هـ) تحقيق هلال ناجي ، دار الرسالة للطباعة بغداد ١٩٧٦ .
٣٤ ـ ديوان المعتضد بن عباد (ت ٤٦٧ هـ) تحقيق د . رضا السويسي ، مجلة كلية التربية طرابلس ١٩٧٤ ، وتحقيق د . محمد مجيد السعيد ، مجلة المورد ٥ / ٢ / ١٩٧٦
٣٥ ـ ديوان المعتمد بن عباد (ت ٤٨٨ هـ) تحقيق د . احمد احمد بدوي و د . حامد عبد المجيد القاهرة ١٩٥١
٣٦ ـ ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث . (ت ٨٢٠ هـ) ، تحقيق عبد الله كنون ـ ط الانجلو مصرية ـ القاهرة ١٩٦٥ .
٣٧ ـ ذخائر الاعلاق ، شرح ترجمان الاشواق ، ابن العربي (ت ٥٤٣ هـ) تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن الكردي ط القاهرة ١٩٦٨ .
٣٨ ـ شعر ابن عبد ربه ، محمد بن تاويت ط ١ دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الدار البيضاء ١٩٧٨ .
٣٩ ـ شعر ابن اللبانة الداني (ت ٥٠٧ هـ) تحقيق د . محمد مجيد السعيد ، دار الكتب الموصل ١٩٧٧
٤٠ ـ شعر ابي بكر بن القوطية ، من أعيان القرن الخامس الهجري ، جمعته وحققته هدى شوكت بهنام ، مجلة المورد العراقية ١٤ / ١ / ١٩٨٥

٤١ ـ شعر الحاجب المصحفي ، جمع وتحقيق ودراسة ، عبد العزيز الساوري معتمدا على أصول مخطوطة ـ تحت الطبع ـ وأنظر : ما تبقى

٤٢ ـ شعر الرمادي ، يوسف بن هارون ، شاعر الأندلس في القرن الرابع الهجري ، جمعه وقدم له ماهر زهير جرار ط ١ المؤسسة المصرية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٠

٤٣ ـ شعر الغزال (ت ٢٥٠ هـ) تحقيق د . حكمة الأوسي ضمن كتاب فصول في الأدب الأندلسي استدرك هلال ناجي عليه في هوامش تراثية .

٤٤ ـ ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي ، محمد محمود يونس ـ اداب المستنصرية العدد ١٢ سنة ١٩٨٥

٤٥ ـ محمد بن عمار الاندلسي (ت ٤٧٧ هـ) دراسة أدبية تاريخية (يتضمن مجموع اشعار الشاعر) . د . صلاح خالص ط ١ الهدى ـ بغداد ١٩٥٧

هذه الدواوين التي بين ايدينا وثمة دواوين لما تزل مخطوطة او مفقودة

المصادر والمراجع

ابن بسام وكتابه الذخيرة ، د . حسين يوسف حسين خريوش ، دار الفكر للنشر والتوزيع عمان ١٩٨٤

ابن حزم الاندلسي ، حياته وأدبه ، د . عبد الكريم خليفة ، دار العروبة بيروت د . ت

ابن حزم صورة اندلسية ، د . طه الحاجري ، دار الفكر العربي . القاهرة د . ت

ابن حمديس الصقلي حياته من شعره ، د . سعد اسماعيل شلبي ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٧٧

ابن زيدون ، د . علي عبد العظيم ، سلسلة اعلام العرب ٦٦ دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٧

ابن زيدون ، عصره ، حياته أدبه ، د . علي عبد العظيم مكتبة الانجلو مصرية ١٩٥٥

ابن سعيد الاندلسي ، حياته وتراثه الفكري والأدبي ، د . محسن حامد العبادي ط النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٢

ابن شهيد الأندلسي حياته وآثاره ، شارل بيلات ، محاضرات القاها في الجامعة الاردنية عمان ١٩٦٥ .

ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه ، د . حازم عبدالله خضر ، وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨٤

ابن عبد ربه وعقده ، د . جبرائيل جبور ، ط ٢ منشورات دار الافاق الجديدة ـ بيروت ١٩٧٩

ابن المعتز وتراثه د . محمد عبد المنعم خفاجي (ط الحسين التجارية القاهرة ١٩٤٩)

ابو الحسن الحصري القيرواني ، محمد المرزوقي الجيلاني بن الحاج يحيى ، مكتبة المنار ـ تونس ١٩٦٣

ابو العتاهية ، اشعاره وأخباره ، صنعة ابن عبد البر تحقيق د . شكري فيصل ط جامعة دمشق ١٩٦٥

- ابو المطرف بن عميرة المخزومي حياته وآثاره ، محمد بن شريفة ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط ١٩٦٦ .
- ابو نواس ، قصة حياته ، عبد الرحمن صدقي ، دار الهلال القاهرة د . ت
- ابو الوليد بن الاحمر ، عبد القادر زمامة ، دار المغرب ، الدار البيضاء ١٩٧٨
- الاتجاه الاسلامي في الشعر الأندلسي ، د . منجد مصطفى بهجت ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٦
- اتجاهات شعر الغزل في عهد الطوائف انقاذ عطاالله العاني ، رسالة ماجستير ـ جامعة بغداد ١٩٨٦
- الآثار الأندلسية الباقية ، محمد عبدالله عنان مؤسسة الخانجي القاهرة ط ٢ ١٩٦١ .
- اثر الشعر الاندلسي في شعر التروبادور ، منذ نشأته حتى القرن الثالث عشر ، عباسة محمد ، رسالة ماجستير جامعة بغداد ١٩٨٣ .
- اثر العرب في الحضارة الاوربية ، عباس محمود العقاد ، دار المعارف بمصر ١٩٤٦ .
- اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ،د.محمود علي مكي وآخرون . باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ـ اليونسكو ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧٠ .
- احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، المقدسي البشارى (ت هـ) ط ليدن ـ ١٩٠٦ م .
- احكام صنعة الكلام ، ابو القاسم بن عبد الغفور الكلاعي ، تحقيق محمد رضوان الداية ط دار الثقافة بيروت ١٩٦٦ .
- اخبار مجموعة ، مجهول المؤلف ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، ط دار الكتب الاسلامية بيروت ١٩٨١ .
- اختصار القدح المعلى ، تحقيق ابراهيم الابيارى ط ٢ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٠ .
- ازهار الرياض في اخبار عياض ، المقري التلمساني (٤١ . ١) تحقيق ابراهيم الابياري وآخرون القاهرة ١٩٥٦ .
- الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر د . محمد رجب البيومي ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض ١٩٨٠ .
- الادب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة . د . احمد هيكل ط ٦ دار المعارف بمصر ١٧١ (بلا نصّ)*

- الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه ، د . مصطفى الشكعة ، ط ٤ دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩ .
- أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث . بطرس البستاني جـ ٣ / ١٦٥ ـ ١٦٦ (ط دار مارون عبود ، بيروت ١٩٧٩) .
- الأدب العربي في آثار الدارسين ، احسان عباس وآخرون ، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦١ .
- الادب العربي في الاندلس ، د . عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٥ .
- الاسلام في اسبانيا ، د . لطفي عبد البديع ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٨
- الاسلام في المغرب والاندلس ، ليفي بروفنسال ترجمة د . محمود عبد العزيز سالم محمد صلاح الدين حلمي ، مراجعة د . لطفي عبد البديع ط مكتبة نهضة مصر سلسلة الالف كتاب ١٩٥٦
- اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، د . صلاح خالص ، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٥
- الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام . عباس بن ابراهيم المراكشي حـ ١ ـ ٨ ط المطبعة الجديدة ـ المغرب ١٩٣٦
- اعمال االاعلام ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، تحقيق ليفي بروفنسال دار المكشوف بيروت ١٩٥٦
- اعمال مهرجان ابن خلدون ، ابن خلدون وتاريخ فني التوشيح والزجل الدكتور عبد العزيز الاهواني ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية القاهرة ١٩٦٢
- الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين . بقلم مجموعة من اصدقائه ، بحث الدكتور الاهواني : امثال العامة في الاندلس ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٢
- الامير الشاعر ابو الربيع الموحدي ، عصره حياته أدبه . دار الثقافة ـ الدار البيضاء ١٩٧٤ م
- اندلسيات ، د . عبد الرحمن الحجي ، في مجموعتين دار الارشاد بيروت ١٩٦٩ .
- الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ابن ابي زرع الفاسي ، دار المنصور ١٩٧٣
- بدائع البدائه ، ابن ظافر الازدي (ت ٦٤٣ هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ط الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٠)

- البديع في وصف الربيع . ابو الوليد اسماعيل الحميري (ت ٤٤٠ هـ) تحقيق هنري بيريس ط الرباط ١٩٤٠ م
- برنامج شيوخ الرعيني . ابو الحسن بن الفخار (ت ٦٦٦ هـ) تحقيق ابراهيم شبوح وزارة الثقافة والارشاد ـ دمشق ١٩٦٢
- بغية الملتمس في تأريخ رجال اهل الاندلس . ابن عميرة الضبي (ت ٥٩٩ هـ) دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٧ .
- بغية الوعاة السيوطي (ت ٩١١ هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ط ١ عيسى البابي الجلبي ١٩٦٥ .
- بلاغة العرب في الاندلس . احمد ضيف ط ٢ الاعتماد . القاهرة ١٩٣٨ .
- البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب ابن عذاري المراكشي (ت ٧١٢ هـ) جـ١ـ٤ تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال دار الثقافة بيروت ١٩٨٠ القسم الثالث تحقيق امبروس هويس مرانده . ومحمد بن تاويت ومحمد الكتاني تطوان ١٩٦٠ .
- البيئة الأندلسية واثرها في الشعر . د . سعد اسماعيل شلبي ط النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٦ .
- تأثير الاسلام على اوربا في العصور الوسطى . و . مونتكرى واط ترجمة د . عادل نجم عبود ط ١ دار الكتب الموصل ١٩٨٢ .
- التأثير العربي في الثقافة الاسبانية د . حكمت علي الاوسي . سلسلة الموسوعة الصغيرة ١٥٢ . دائرة الشؤون الثقافية ـ بغداد ١٩٨٤ .
- تأثير الموشحات في التروبادور د . عبدالاله ميسوم . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨١ .
- تاريخ اداب العرب . مصطفى صادق الرافعي جـ ١ ـ ٣ ط ٤ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧٤ .
- تاريخ آداب اللغة العربية . مصطفى صادق الرافعي جـ ١ ـ ٣ ط ٤ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧٤ .
- تاريخ الادب الاندلسي عصر سيادة قرطبة . د . احسان عباس ط ٢ دار الثقافة بيروت ١٩٦٩ .
- تاريخ الادب الأندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين . د . احسان عباس ط ٢ دار الثقافة بيروت ١٩٧١ .
- تاريخ افتتاح الاندلس لأبن قوطية القرطبي (ت ٣٦٧ هـ) . حققه وشرحه عبدالله انيس الطباع . ط دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٨ .

تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي ، د . علي محمد حمود ، ط ١ دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٧ .
تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، يوسف اشباخ جـ ١ ـ ٢ ترجمة محمد عبدالله عنان دار المعارف بيروت ١٩٤٠ .
التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة . عبد الرحمن الحجي ط ١ دار القلم بيروت ١٩٧٦ .
تاريخ الشعوب الاسلامية بروكلمن . ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ط ٤ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٥ .
تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ، د . خليل السامرائي وآخرون ، جامعة الموصل ١٩٨٦ .
تأريخ علماء الاندلس ، ابن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .
تاريخ الفكر الاندلسي ، بالنثيا ترجمة د . حسين مؤنس ط النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٥ .
تاريخ المعارضات في الشعر العربي . د . محمد محمود قاسم نوفل . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٣ .
تأريخ الموسيقى الاندلسية . د . عبد الرحمن الحجي ، دار الارشاد بيروت ١٩٦٩ .
تاريخ النقائض في الشعر العربي القديم . احمد الشايب ط السعادة بمصر ١٩٥٤ .
تاريخ النقد الأدبي في الاندلس ، د . محمد رضوان الداية . ط دار الانوار بيروت ١٩٦٨ .
تحفة الأنفس وشعار سكان الاندلس . علي بن عبدالرحمن بن هذيل (ق ٨ ـ ٩ هـ) نشر مصورة المخطوطة لويس مرسيه باريس ١٩٣٢ م
تراث الاسلام . شاخت وبوزورث . ترجمة د . حسين مؤنس وآخرون جـ ١ ـ ٣ سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٥٨
تسهيل السبيل الى تعلم الترسيل . ابو عبدالله الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) نسخة خطية لدى المؤلف .
تكملة الصلة . لابن الابار البلنسي (ت ٦٥٨ هـ) ط العطار ١٩٥٥ .
تكملة المعاجم العربية . دوزي ترجمة سليم النعيمي ط وزارة الاعلام بغداد ١٩٧٨ .

- تيارات النقد الأدبي ، د . مصطفى عليان . ط مؤسسة الرسالة ط ١ بيروت ١٩٨٤
- جذوة المقتبس ، ابو عبدالله الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) ط الدار المصرية للتأليف القاهرة ١٩٦٦ .
- الحب في التراث العربي ، د . . محمد حسن عبدالله سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ١٩٨٠ .
- الحركة اللغوية في الاندلس ، البير مطلق ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٩٦٧ .
- الحضارة الاسلامية في الاندلس د . عبد الرحمن الحجي ، دار الارشاد ١٩٦٩ .
- الحضارة الاسلامية في المغرب والاندلس د . حسن علي حسن ـ عصر المرابطين والموحدين ط مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٠ .
- حضارة العرب ، غوستاف لوبون ترجمة د . عادل زعيتر ، ط عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٤
- الحضارة العربية في إسبانيا ، ليفي بروفنسال ترجمة الدكتور الطاهر احمد مكي دار المعارف بمصر ١٩٧٩
- الحلة السيراء ، ابن الابار البلنسي حـ ١ ـ ٢ تحقيق د . حسين مؤنس ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣
- الحلل السندسية في الاخبار والاثار الأندلسية ، شكيب ارسلان حـ ١ ـ ٣ ط دار مكتبة الحياة بيروت د . ت .
- الحنين الى الاوطان ، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) تحقيق الشيخ طاهر الجزائري ط المنار القاهرة ١٣٣٣ هـ
- الحياة الروحية في الاسلام ، د . محمد مصطفى حلمي ، ط الهيئة المصرية العامة القاهرة د . ت
- دار الطراز في عمل الموشحات ابن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ) ط ٢ دار الفكر بدمشق ١٩٧٧
- دراسات ادبية ، د . احمد هيكل ط دار المعارف بمصر ١٩٨٠
- دراسات ادبية في الشعر الأندلسي د . سعد اسماعيل شلبي ، دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٣
- دراسات اندلسية ـ المجموعة الاولى ، د . عبد الواحد ذنون طه ، مكتبة بسام الموصل ١٩٨٦
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، د . الطاهر مكي ط ٢ ، مكتبة وهبة ١٩٧٧ .

دراسات في تاريخ الادب العربي ج كراتشكوفسكي . ترجمة د محمد منير مرسي القاهرة ١٩٧١
دراسة في مصادر الادب ، د . الطاهر احمد مكي ، ط ٤ دار المعارف بمصر ١٩٧٧ .
دولة الاسلام في الاندلس ، محمد عبد الله عنان ، مؤسسة الخانجي في القاهرة ١٩٦٩
الدولة الموحدية ، اثر العقيدة في الادب ، حسن جلاب ، منشورات الجامعة السلسلة الادبية ـ ١ ـ مراكش ١٩٨٢
ديوان ابن الابار البلنسي (ت ٦٥٨ هـ) تحقيق د . عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر ١٩٨٥
ديوان ابي اسحاق الالبيري (ت ٤٦٠ هـ) تحقيق محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٦
ديوان الاسود بن يعفر ، تحقيق د . نوري حمودي القيسي وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٧٠
ديوان الاعشى الكبير ، شرح وتعليق د . محمد محمد حسين (ط النموذجية د . ت)
ديوان ابن الجزار السرقسطي (روضة المحاسن وعمرة المحاسن) المجمع العلمي بغداد ١٩٨٨ . تحقيق د . منجد مصطفى بهجت
ديوان ابن الجنان الانصاري الاندلسي ، تحقيق د . منجد مصطفى نسخة خطية خاصة .
ديوان ابن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧ هـ) تحقيق د . احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٠ .
ديوان ابن خفاجة الاندلسي (ت ٥٣٣ هـ) تحقيق د . سيد غازي ط دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٠ .
ديوان ابن دراج القسطلي (ت ٤٢١ هـ) تحقيق محمود على مكي ط ١ المكتب الاسلامي بيروت ١٩٦١
ديوان ابن الرومي ، تحقيق حسين نصار ط ١ دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ .
ديوان ابن زيدون ورسائله (ت ٤٦٣ هـ) تحقيق د . علي عبد العظيم دار نهضة مصر القاهرة ٩٥٧ .

- ديوان ابن سهل الاشبيلي (ت ٦٤٩ هـ) تحقيق د . احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٧ .
- ديوان ابن شهيد الاندلسي تحقيق يعقوب زكي ، دار الكتاب العربي بيروت د . ت
- ديوان ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) تحقيق محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٩ .
- ديوان عدي بن زيد العبادي ، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد . وزارة الاعلام بغداد ١٩٦٥ .
- ديوان ابن قزمان ، ف كورنيطي ، المعهد الاسباني العربي للثقافة مدريد ١٩٨٠ .
- ديوان ابن اللبانة الاندلسي، دراسة وجمع وتحقيق ، د . منجد مصطفى بهجت (نسخة مطبوعة على الالة الكاتبة)
- ديوان ابن المعتز تحقيق د . يونس السامرائي ، وزارة الاعلام بغداد .
- ديوان ابي نواس ، شرح الصولي تحقيق بهجة الحديثي ، ط . دار الرسالة بغداد .
- ديوان الاعمى التطيلي (ت ٥٤٢ هـ) تحقيق د . احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٣ .
- ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ط ٤ .دار المعارف بمصر ١٩٨٤ .
- ديوان الموشحات الأندلسية ، د . سيد غازي ط منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٧٩ .
- الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣ هـ) حققت منه اجزاء متفرقة ، د . احسان عباس ،د.محمد بن شريفة . دار الثقافة بيروت ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٥ .
- رايات المبرزين وغايات المميزين . ابن سعيد الاندلسي (ت ٦٨٥ هـ) ، تحقيق د . النعمان عبد المتعال القاضي ط المجلس الاعلى للشئون الاعلامية القاهرة ١٩٧٣ .
- الرثاء ـ سلسلة فنون الأدب العربي ، د . شوقي ضيف ، الفن الغنائي ، ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .
- رحلة الادب العربي الى اوربا ـ محمد مفيد الشوباشي . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

- الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل اخرى ، ابن حزم الاندلسي ، تحقيق د . احسان عباس دار العروبة القاهرة ١٩٦٠
- رسائل ابن حزم الاندلسي ، تحقيق د . احسان عباس ط ١ ـ ٣ ، ط١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠ .
- رسالة التوابع والزوابع ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق بطرس البستاني ، دار صادر ببيروت ١٩٦٧ .
- الروض المعطار في خبر الاقطار ، ابن عبد المنعم الحميري (ت ٧٢٧ هـ) ، تحقيق د . احسان عباس ط ٢ مكتبة لبنان ١٩٨٤ .
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) تحقيق محمد عبدالله عنان مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٠ .
- زاد المسافر وغرة محيا الادب السافر ، ابو بحر صفوان بن ادريس التجيبي (ت ٥٩٨ هـ) تحقيق عبد القادر محداد ، دار الرائد . بيروت .
- الزجل في الاندلس ، د . عبد العزيز الاهواني ، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٥٧ .
- الزهرة ، ابن داود الاصبهاني (ت ٢٩٧ هـ) تحقيق ابراهيم السامرائي ونوري القيسي ط ٢ ـ مكتبة المنار ـ الزرقاء ١٩٨٥ .
- الشرق الاسلامي والحضارة العربية الاندلسية ، ليفي بروفنسال ، منشورات معهد الجنرال فرانكو للابحاث العربية الاسبانية تطوان ١٩٥١ .
- شعر ابن عبد ربه جمعاً وتحقيقاً ودراسة ، د . موسى رزق ريحان ، رسالة ماجستير جامعة القاهرة ٩٧١ .
- شعر ابن اللبانة الداني ، د . محمد مجيد السعيد ، دار الكتب الموصل ١٩٧٧ .
- شعراء امويون ، القسم الاول د . نوري حمودي القيسي ، مؤسسة دار الكتب جامعة الموصل ١٩٧٦ .
- شعر الخلفاء في العصر العباسي الاول ، مؤيد فاضل ، رسالة ماجستير كلية اللغة العربية الازهر القاهرة ١٩٧٨ .
- الشعر والشعراء في العصر العباسي د . مصطفى الشكعة ، ط ٢ دار العلم للملايين ١٩٧٥ .
- شعر الطبيعة في الادب الاندلسي ، د . سليمان العطار رسالة ماجستير جامعة القاهرة ١٩٧٣ .
- شعر الطبيعة في الادب العربي ، د. سيدنوفل ط مصر القاهرة ١٩٤٥ .

- الشعر العربي في الاندلس ، كراتشكوفسكي ، ترجمة د . محمد منير مرسي ، القاهرة ١٩٧١ .
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، د . مجيد السعيد ، وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٨٠ .
- شياطين الشعراء ، د . عبد الرزاق حميدة . مكتبة الانجلو المصرية د . ت .
- الصلة لابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) ط ١ ـ ٢ الدار المصرية للتأليف ١٩٦٦ .
- صلة الموشحات والارجال بشعر التروبادور ، د . عبد الهادي زاهر ط ١ مكتبة الشباب ١٩٧٧ .
- الصيب والجهام والماضي والكهام ، ابن الخطيب ، دراسة وتحقيق محمد الشريف قاهر ط ١ الشركة الوطنية للنشر الجزائر ١٩٧٣ .
- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ) تحقيق محمود محمد شاكر ط المدني القاهرة ١٩٧٤
- الطبيعة في الشعر الاندلسي ، د . جودة الركابي ، ط جامعة دمشق ١٩٥٩ .
- طوق الحمامة في الالفة والالاف ، ابن حزم الاندلسي ، تحقيق د . الطاهر احمد مكي ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٧٧
- ظهور الاسلام ، احمد امين ، ط ٤ مكتبة النهضة المصرية جـ ١ ـ ٤ القاهرة ١٩٦٦ .
- عبد الرحمن الداخل وسياسته الخارجية والداخلية في الاندلس ، ابراهيم ياس الدوري ، وزارة الاعلام بغداد ١٩٨٢
- عصر المنصور الموحدي ، او الحياة السياسية والفكرية والدينية في المغرب (٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ) ، محمد الرشيد ملين ط الشمال الافريقي د . ت
- العصر العباسي الأول ، تاريخ الادب العربي ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ط ٣ ـ ١٩٦٦
- العقد الفريد ، ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) تحقيق أحمد امين ، احمد الزين ، ابراهيم الابياري ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٥
- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، محمد المنوني ط ٢ دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط ١٩٧٧ .
- الغزل في الشعر الجاهلي ، د . احمد محمد الحوفي ـ دار القلم بيروت د . ت
- الغربة والحنين في الشعر العربي الاندلسي ، احمد حاجم محمد ، رسالة ماجستير جامعة بغداد ١٩٨٣

- غرناطة في ظل بني الأحمر ، يوسف شكري فرحات ـ بيروت ١٩٨٢ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر
- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة ، ابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) تحقيق ابراهيم الابياري دار المعارف بمصر ١٩٦٧
- الغفران ، بنت الشاطيء ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢
- الفتح والاستقرار العربي في شمال افريقية والاندلس ، د . عبد الواحد ذنون ط الاعلام بغداد ١٩٨٢
- فصول في الادب الاندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة . د . حكمة على الاوس ط سلمان الاعظمي بغداد ١٩٧١
- فصول في الشعر ونقده ـ د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٧١
- فن التقطيع الشعري والقافية ـ د . صفاء خلوصي ط ٣ دار الكتب بيروت
- فن التوشيح د . مصطفى عوض الكريم ، ط ٢ دار الثقافة بيروت ١٩٧٤ .
- فن المقامات بين المشرق والمغرب ، د . يوسف نور عوض ط دار القلم ـ بيروت ١٩٧٩ .
- فهرس ما رواه عن شيوخه ، ابو بكر بن خير الاشبيلي (ت ٥٧٥ هـ) دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩ .
- فوات الوفيات ، ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) جـ ١ ـ ٢ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ط السعادة بمصر د . ت .
- في الأدب الأندلسي د . جودة الركابي دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .
- في اصول التوشيح ، د . سيد غازي ط ١ مؤسسة الثقافة الجامعية ـ الاسكندرية ١٩٧٦ .
- في الرؤيا الشعرية ، د . احمد نصيف الجنابي ، ط وزارة الاعلام بغداد ١٩٧٢ .
- في الشعر الاندلسي د . عدنان صالح مصطفى ، دار الثقافة الدوحة ١٩٨٧ .
- في النقد الادبي عند العرب ، د . محمد طاهر درويش ط دار المعارف بمصر ١٩٧٩ .
- قرطبة في التاريخ الاسلامي ، د . جودة هلال ومحمد صبح ، المكتبة الثقافية ٧٢ القاهرة ١٩٦٢ .
- قصة الأدب في الأندلس ، د . محمد عبد المنعم خفاجي جـ ١ ـ ٢ ط مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٦٢ .
- قضاة قرطبة ، ابو عبد الله الخشني (ت ٣٦١ هـ) ط الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .

- قضايا اندلسية ، د . بدير متولي حميد دار المعرفة القاهرة ١٩٦٤ .
- قلائد العقيان ـ الفتح بن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) نشر محمد العنابي ط المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦ .
- كشف الظنون عن اسامي والنفوس ، حاجي خليفة كاتب جلبي (ت ١٠٦٧) مكتبة المثنى بغداد .
- لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري ، محمد عبدالله عنان ط ١ مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٨ .
- لسان العرب ، جمال الدين بن منظوت (ت ٧١١ هـ) ط دار صادر بيروت ، د . ت .
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ط ٢ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٨ .
- محمد بن عمار الاندلسي دراسة أدبية تاريخية د . صلاح خالص ط ١ الهدى ـ بغداد ١٩٥٧ .
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشر بعنوان تاريخ قضاة الاندلس ، ابو الحسن النباهي الاندلسي (ت بعد ٧٩٣ هـ) المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت د . ت .
- المستطرف من كل فن مستظرف ، شهاب الدين الابشيهي (٨٥٠ هـ) ، وبهامشه ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ، ط التجارية الكبرى بمصر ، دار الاوفست الاستقامة ١٣٧٩هـ .
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله) تحقيق د . احمدمختارالعبادي ط ١ جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ .
- المطرب في اشعار اهل المغرب ابن دحية (٦٣٣ هـ) تحقيق مصطفى عوض الكريم ط مصر الخرطوم ١٩٥٧ .
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، الفتح بن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) دراسة وتحقيق محمد علي شوابكه ط ١ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٣ .
- مظاهر الشعوبية في الادب العربي ، د . محمد بنيه حجاب ط ١ الرسالة القاهرة ١٩٦١ .
- المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧ هـ) تحقيق محمد سعيد العريان ط ١ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية القاهرة ١٩٦٣ .

- معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، ط ٦ المستشرق ، بيروت د . ت .
- المعجم الأدبي ، جبور عبد الغفور ط ١ دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩ .
- معجم علم الاجتماع ، البروفيسور دينسكن ميشيل ، ترجمة د . احسان محمد الحسن ط وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨٠ .
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب ـ د . مجدي وهبة ، كامل المهندس ، ط ٢ مكتبة لبنان ١٩٨٤ .
- معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) ط ٢ مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٩ ط ١ ـ ٦ تحقيق عبد السلام هارون .
- المغرب في حلى المغرب ، ستة مؤلفين آخرهم علي بن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) ، تحقيق د . شوقي ضيف حـ ١ ـ ٢ دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٤ .
- المقامة د . شوقي ضيف ، سلسلة فنون الادب العربي الفن القصصي دار المعارف بمصر ١٧٧ .
- المقتبس من ابناء اهل الاندلس لابن حيان القرطبي (ت ٤٦٩ هـ) تحقيق د . محمود علي مكي بيروت وتحقيق ملتشور انطونيا باريس ١٩٣٧ .
- المقتطف من ازاهر الطرف لابن سعيد الأندلسي ، تقديم وتحقيق ودراسة د . سيد حنفي حسنين ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٣ .
- مقدمة ابن خلدون حـ ١ ـ ٤ ، ابن خلدون (٨٠٨ هـ) تحقيق علي عبد الواحد وافي ط ١ القاهرة ١٩٦٥ .
- ملامح التجديد في النثر الاندلسي خلال القرن الخامس الهجري ، د . مصطفى محمد السيوفي عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٥ .
- ملامح الشعر الأندلسي ، د . عمر الدقاق ط دار الشرق بيروت ١٩٧٥ .
- ملحمة السيد ، والطاهر احمد مكي ط ١ دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧٠ .
- الملوك الشعراء ، د . جبرائيل جبور ط ١ دار الآفاق الجديدة ط بيروت ١٩٨١ .
- المنازل والديار ، اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) حـ ١ ـ ٢ ط المكتب الاسلامي بيروت ١٩٦٥ .
- مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية د . مصطفى الشكعة وآخرون ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي ١٨٠ .
- الموشحات الاندلسية د . محمد زكريا عناني ، سلسلة كتب عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٠ .

- الموشحات في بلاد الشام منذ نشأتها حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري ، مقداد رحيم خضر ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ١٩٨٢ .
- موشحات مغربية دراسة ونصوص ، د . عباس الجراوي دار النشر المغربية ـ الدار البيضاء ، ١٩٧٣ .
- الموشحات والازجال مصطفى عوض الكريم ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .
- النبوغ المغربي في الادب العربي ، عبد الله كنون ط ٣ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني حـ ١ ـ ٣ بيروت ١٩٧٥ .
- نثار الازهار ، ابن منظور ، ط الجوائب قسطنطينية ١٣٩٨ هـ .
- النثر الاندلسي ، عصر الخلافة ـ فادي رشيد نحال رسالة ماجستير جامعة بغداد ١٩٨٤ .
- النثر الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ، د . حازم عبد الله خضر ط ١ وزارة الاعلام بغداد ١٩٨٠ .
- النثر الأندلسي في عهدي الموحدين وبني الاحمر ، د . حسين احمد نصر رسالة دكتوراه جامعة بغداد ١٩٨٧ .
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري . د . زكي مبارك حـ ١ ـ ٢ .
- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ، تحقيق د . محمد رضوان الراية ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٦٧ .
- نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الآثار لابن الدلائي تحقيق د . عبد العزيز الاهوائي مدريد ١٩٦٥ .
- نظرية نشأة الموشحات الأندلسية بين العرب والمستشرقين ، مقداد رحيم خضر ، العدد ٢٣٣ بغداد ١٩٨٦ .
- نظرات في تاريخ الادب الاندلسي . كامل الكيلاني . المكتبة التجارية بمصر ١٩٢٤ .
- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . المقرى التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) تحقيق د . احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٨ .
- النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب ، هدى شوكة بهنام ط ١ الغري ، النجف ١٩٧٧ .
- نقد الشعر لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) تحقيق كمال مصطفى . مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٣ .
- هوامش تراثية ، هلال ناجي ط العاني بغداد ١٩٧٣ .

- وصف الحيوان في الشعر الاندلسي ، د . حازم عبد الله خضر ، ط وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨٧ .
- الوطن في الادب العربي ، ابراهيم الابياري ، المكتبة الثقافية العدد (٧٣) القاهرة ١٩٦٢ .
- الوطن في الشعر الاندلسي عبد الحميد ابراهيم شيحة ، دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٧٥ .
- يتيمة الدهر ، ابو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) حـ ١ ـ ٤ ط ٢ السعادة القاهرة ١٩٥٦ .
- يوسف الاول ابن الاحمر ، سلطان غرناطة (٧٣٣ ـ ٧٥٥ هـ) ط لجنة البيان العربي ١٩٦٩ .

الدوريات والمجلات

- ابن حزم الاندلسي واضع علم مقارنة الأديان . د . عبد الحليم عويس مجلة الفيصل العدد ٢٨ ، ١٩٧٩
- ابن زيدون ومعارضوه . د . مختار الوكيل . مجلة الكتاب عدد خاص في الذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون ١١ ـ ١٢ ، بغداد ١٩٧٥ .
- ابن السيد البطليوسي ، حياته .. شعره د . صاحب ابو جناح مجلة المورد ـ بغداد ٦ / ١ / ١٩٧٧
- ابن فرج الجياني حياته وشعره . نزهة جعفر الموسوي . مجلة آداب المستنصرية العدد ١٦ ، ١٩٨٨
- ادب النكبات . د . حكمت الأوسي . مجلة النداء الاجتماعي بغداد ١٩٥٥
- الاسبان والحضارة الاسلامية . د . هشام ابو رميلة . مجلة آداب المستنصرية العدد ١١ بغداد ١٩٨٥
- اشعار ابن سهل . محمد قوبعة . مجلة الحوليات التونسية العدد ١٩ سنة ١٩٨٠
- الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي . د . عبد العزيز الاهواني . مجلة معهد الدراسات العربية بالقاهرة المجلد ٣ سنة ١٩٥٧
- انتشار اللغة العربية في الأندلس . اسبابه ونتائجه . حازم عبد الله خضر . مجلة الجامعة العدد (٥) شباط الموصل ١٩٧٩ .
- البحر في شعر الاندلس والمغرب . د . منجد مصطفى بهجت . الحولية السابعة الرسالة الاربعون جامعة الكويت ١٩٨٦
- تاريخ النوريات في الشعر العربي في المشرق وفي الاندلس . مقداد رحيم خضر . مجلة آداب المستنصرية العدد ١١ . ١٩٨٥
- التعليم في الاندلس في القرن الخامس الهجري . د . منجد مصطفى بهجت . مجلة آداب الرافدين الموصل العدد ١٠ / ١٩٧٩ .
- ثمالة المستعربين في اسبانيا . لويس فلسطين . مجلة المورد بغداد ٢ / ٤
- خطبة طارق بن زياد وهل قالها حقاً د . احمد بسام ابو ساعي . مجلة العربي ٢٩٣ / ٩٦ ـ ٩٨
- دراسة في ديوان الجزار السرقسطي . د . منجد مصطفى بهجت . مجلة آداب المستنصرية العدد ١٥ بغداد ١٩٨٧

- رسالة التوابع والزوابع وعلاقتها برسالة الغفران ، د . عبدالسلام الهراس ، مجلة المناهل المغربية العدد ٢٥ سنة ١٩٨٢ .
- السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، د . حسين مؤنس ، المجلة التاريخية المصرية ٣ / ١ / ١٩٥٠
- الشاعر الاندلسي ابن عبد ربه ، عبدالقادر زمامة ، المورد ، بغداد ٦ / ٢ / ١٩٧٧
- الشعر الاندلسي، عبد الله كنون ، مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ٣١ / ٣ / ١٩٥٦
- الشعر الاندلسي بين الاتجاه الاخلاقي وطلب المتعة ، د . احسان عباس ، مجلة الثقافة العربية العدد ٩ ، طرابلس ١٩٧٥
- عبد الرحمن الداخل الأديب ، عبدالسلام الهراس ، مجلة المناهل العدد ٢٣ الرباط ١٩٨٢
- العقد الفريد بين المشرق والأندلس / د . حازم عبدالله خضر ، آداب الرافدين ٣٢٩ ـ ٣٦٤ العدد السابع الموصل ١٩٧٦ .
- العلاقة بين الشعر الاندلسي وشعر التروبادور ، د . طاهر احمد مكي ، مجلة آفاق عربية بغداد العدد ٦ / ١٩٨٣
- غارات النورمانيين على الاندلس ، د . حسين مؤنس ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٢ / ١ / ١٩٤٩ .
- فرحة الانفس في تاريخ الاندلس : ابن غالب الاندلسي ، تحقيق د . لطيف عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات القاهرة ١ / ٢ / ١٩٥٥
- القاضي الاديب منذر بن سعيد البلوطي ، حازم عبدالله خضر ، مجلة آداب الرافدين العدد ٤ الموصل سنة ١٩٧٢
- القصيدة المباركة الشريفة ، د . منجد مصطفى بهجت ، مجلة الرسالة الاسلامية العددان ١١ ، ١٢ ، ١٩٧٥
- ليس في شعر ابن زيدون ، ناصر الدين الاسد ، مجلة الكتاب العددان ١١ ، ١٢ ، بغداد ١٩٧٥
- ما لم ينشر من احاطة ابن الخطيب ، عبد السلام شقور ، مجلة دعوة الحق العدد ٢٥٩ سنة ١٩٨٦
- المستشرق رينهارت دوزي صاحب تاريخ آداب اللغة العربية ، علي ادهم ، مجلة الهلال العدد ١ / ١٩٧٦
- معالم شخصية المتنبي في الاندلس ، د . محسن جمال الدين ، مجلة المورد بغداد ٦ / ٣ / ١٩٧٧

- الملامح العربية في المجتمع الاسباني الحديث ، د . عادل البكري ، مجلة الأقلام ٦ / ٥٩ ـ ٦٨ بغداد ١٩٦٧ .
- ملامح النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الاندلسي على عهد الطوائف ، د . منجد مصطفى بهجت مجلة آداب الرافدين العدد ١٢ الموصل ١٩٨٠
- المستشرقون الاسبان في الدراسات الاسلامية ، د . محسن جمال الدين ، المورد بغداد ٩ / ٤ / ١٩٨١
- الموشحات الاندلسية ، مقداد رحيم خضر ، مجلة المورد ١٥ / ١ بغداد ١٩٨٦

فهرس الاعلام

« ي »

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٢٩٤ لسنة ١٩٨٨